منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef





منشورات ضفاف
Editions Difaf

د. لخذاري سعد

الدرس البلاغي العربي

بين السيميائيات وتحليل الخطاب

سيميائيات

الدرس البلاغي العربي

بين السيميائيات وتحليل الخطاب

طبع في لبنان

الدرس البلاغي العربي

بين السيميائيات وتحليل الخطاب

د. لخذاري سعد

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com




الرباط

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

الطبعة الأولى: 1438 هـ - 2017 م

ردمك 978-614-02-1559-7



كلمة للنشر والتوزيع
12 نهج بيروت، 2080 أريانة - تونس
الهاتف: 0021671703355 - الفاكس: 0021671706253
البريد الإلكتروني: info@kalima-edition.com



4، زنقة المامونية - الرباط - مقابل وزارة العدل
هاتف: 537723276 212+ - فاكس: 537200055 212+
البريد الإلكتروني: darelamane@menara.ma

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
9 شارع محمد دوزي برج الكيفان
الجزائر العاصمة
هاتف 0776616609
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com
هاتف بيروت: 9613223227+

المحتويات

مقدمة

يشكل الدرس البلاغي العربي القديم دعامة أساسية في الموروث اللغوي والأدبي على السواء؛ حيث لا ينفك يحظى بدور بارز في توجيه الدراسات صوبه، خاصة فيما يتعلق بمدى طواعية المناهج المعاصرة لاحتوائه عبر معالم نظرية وإجرائية – ولو كانت بعيدة عن سياقه العربي –، فمعظم المناهج المعاصرة؛ مناهج غربية يصعب تتبع الأسس الدراسية العربية فيها. لكن رغم هذا، ورغبة منا للبحث في "الدرس البلاغي العربي بين السيميائيات وتحليل الخطاب" استلزم الأمر منا الانطلاقة من عدم استقلالية العلوم عن بعضها البعض قديما وحديثًا سواء عند الغرب أم العرب. بغية استكناه معالم البلاغة العربية القديمة في كل من السيمياء وتحليل الخطاب.

تهدف دراستنا إذن عبر إبراز أهمية البلاغة في المناهج المعاصرة؛ إلى مقاربة الحدود العلمية في البلاغة العربية القديمة من خلال التأسيس للآليات الإجرائية في كل من السيمياء وتحليل الخطاب، قصد التوصل إلى حدود التفكير الدلائلي في البلاغة عبر أسسها التنظيرية والإجرائية، ونحن في ذلك نحاول رصد تكيف النظريات المعاصرة مع الدرس البلاغي العربي القديم في حدود البلاغة الجديدة أو العكس، كما أننا نسعى للبحث في العلاقة التي تربط البلاغة العربية القديمة بالبلاغة الجديدة تأثّرًا أم تأثيرًا؛ وذلك بالرغم من أن البلاغة العربية قد اُستبعدت من مجال الدراسات العلمية في فترة من الفترات، كما اتهمت بالمعيارية والذاتية في المعالجة، لكن الدراسات المتأخرة أثبتت نقيض هذه الدعوى، وقامت دراسات تُخرج من بنيان الصرح البلاغي أنساق تحليلية وتفسيرية علمية للخطاب بأبعاده المختلفة.

فدراسة مكونات الخطاب من العلامات (الدلائل)، أو الاستعارات، والكنايات والمجازات، بفكر سيميائي لم يخلُ منها الطرح البلاغي سواء من خلال

أسلوب الكلام، والخروج عن الاستعمال العادي المألوف، أم دراسة الخطـــاب في الاستعمال والتداول، مع مراعاة قواعد الخطاب وعناصره. كل ذلك لم تخلُ منـــه المعالجات البلاغية القديمة اليونانية والعربية. لأن البلاغة جزء من الخطاب أو تطمح لأن تكون نظرية للخطاب في حال استطاعت آلياتها أن تتقـــارب مـــع المنـــاهج والعلوم المعاصرة؛ من قبيل اللسانيات، والسيميائيات، وتحليل الخطـــاب (كمـــا يذهب إلى ذلك الكثير من الدارسين). فالبلاغة القديمة هي مـــزيج معقـــد مـــن الأنساق، إذ يمكن للمناهج الحديثة باختلافها، السيميائية، الأسلوبية، التداوليـــة، والشعرية، الإفادة من هذا النتاج القديم وتحيينه، حيث لو تم تدارســـه بموضـــوعية يمكن أن تصير البلاغة بموجبه نظريةً للخطاب بمختلف أنظمته ومكوناته، وهذا ما سنحاول مقاربته في بحثنا هذا.

لكل بحث علمي المرجعية المتوفرة حوله؛ لكن يجب علينا أن نسجل صـــعوبة هذا البحث وقلة الدراسات فيه، رغم الدعم الذي وفرته لنا مجموعة من المصـــادر والمراجع، عبر الأصول الفلسفية التي تحكم كل علم أو مفهوم مـــن المفـــاهيم إلى جانب المعاجم. إذ من الواجب الإفادة من الدراسات الفلسفية القديمة بمـــا يطبـــع المفاهيم من عمق وأصالة، اكتنزتها الكتب الموالية: (الخطابة) لأرسطو، (التقريـــب لحد المنطق) لابن حزم الأندلسي، (فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمـــة مـــن الاتصال) لابن رشد، و(المنهاج في ترتيب الحجاج) لأبـــي الوليد الباجي...

أما المعاجم فأهمها: معجم (لسان العرب) لابن منظور، (كتاب التعريفـــات) للشريف الجرجاني، معجم (الكليـــات) لأبـــــي البقـــاء الكفـــوي، (كشـــاف اصطلاحات الفنون والعلوم) للتهانوي، (معجم تحليل الخطاب) لباتريك شـــارودو ودومينيك منغنو، المعجم الموسوعي للتداولية لـــ جاك موشلر وآن ريبول.

- Algidas Julian Greimas, joseph courtes: Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage. - Oswald ducrot, Tzevetan Todorov: Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage,

ناهيك عن المصنفات البلاغية العربية القديمة، بما تمنحه من دعم لبحثنا مـــن خلال؛ كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ، (دلائل الإعجاز في علم المعـــاني) لعبـــد القاهر الجرجاني، (أسرار البلاغة) لعبد القـــاهر الجرجـــاني، (مفتـــاح العلـــوم)

للسكاكي، (كتاب الصناعتين) لأبـــي هلال العسكري، (منهاج البلغاء وســـراج الأدباء) لحازم القرطاجني، و(الطراز) ليحيى بن حمزة العلوي...

وكما تحتفي أمّات الكتب بالمعالم البلاغية، فلا يسعنا إلا أن نلفت الانتباه إلى ما تحتويه الكتب العربية الحديثة منها أو المترجمة من إمداد لأي بحث مثل: كتـــاب عادل فاخوري (علم الدلالة عند العرب: دراسة مقارنة مع الســـيمياء الحديثـــة)، (أسس السيميائية) لدانيال تشاندلر، (البلاغة: المدخل لدراسة الصـــور البيانيـــة) لـــ فرانسوا مورو، (تاريخ نظريات الحجاج) لـــ فيليب بروتون، جيل جوتييـــه، (في بلاغة الخطاب الإقناعي) لـــ محمد العمري، وغيرها من الدراسات التي قاربت البلاغة القديمة ضمن أبعادها النسقية المختلفة. ممّا يحقق إضافة هامة للبحث تدفع به إلى مقاربة نقاط التفاعل بين البلاغة القديمة وحقل الخطاب الحديث، بل كـــذلك معرفة الحدود والمفاهيم التي تضبط كل مصطلح وعلم أو حقل تخصصي، إذ لابـــد من معالجة المصطلحات وإدراك امتداد الحقول المعرفية.

يستلزم موضوع بحثنا – شأنه شأن كل البحوث العلمية – خصوصيةً تجعلـــه ينتظم عبر الخطة الموالية:

مدخل: إرهاصات ومفاهيم.

يتضمن حدود البلاغة عند اليونان من (بلاغة وخطابة ومجاز)، وعند العرب القدامى كذلك عبر (البلاغة والفصاحة، الحقيقة والمجاز، والبلاغة العربية القديمة)، بالإضافة إلى علاقة البلاغة بالمقاربات الخطابية الحديثة مـــن خـــلال؛ الســـيمياء، الأسلوبية، التداولية...

الفصل الأول: البلاغة والتفكير الدلائلي.

سنبحث فيه مفهوم البلاغة والتفكير الدلائلي عند القدامى: عبر علاقة البلاغـــة بالتفكير الدلائلي عند أرسطو (Aristote) (أنموذجا)، ثم في التراث البلاغي العربـــــي القديم عند الجاحظ، أبـــي هلال العسكري، ابن حـــزم الأندلســـي، عبـــد القـــاهر الجرجاني، الراغب الأصفهاني، حازم القرطاجني، يحي بن حمزة العلوي، علي بن محمد

الشريف الجرجاني، ومحمد علي التهانوي، ناهيك عن المحدثين من خلال علاقة البلاغة بالسيمياء عند الغرب والعرب، في ضوء عناصر البيان في بعض الدراسات السيميائية الغربية من خلال؛ (الاستعارة، الكناية، والمجاز المرسل)، مع تخصيص أقسام العلامة عند ش، س، بورس (Charles sanders Peirce) بالدرس والتحليل والمقارنة.

الفصل الثاني: البلاغة وتحليل الخطاب.

سنرصد فيه؛ مفهوم تحليل الخطاب، وإرهاصاته عند القدامى، بدءًا من اليونان في بلاغتهم، ووصولا إلى العرب في موروثهم البلاغي، والمحدثين من خلال (البلاغة والأسلوبية، البلاغة والتداولية، البلاغة والحجاج).

الفصل الثالث: نماذج عن دراسات سيميائية خطابية للنتاج البلاغي العربي القديم.

سنتطرق عبره إلى ثلاثة نماذج: يخص النموذج الأول منها تجليات السيمياء ضمن جهود عبد القاهر النقدية والبلاغية في ضوء كتاب "مملكة النص"، عبر: الوحدات المجازية والسيمياء، من خلال علاقة السيمياء بـ (المجاز والاستعارة، التناص التشبيه والتمثيل...إلخ). ثم ننتقل إلى نموذجٍ ثانٍ يتعلق بـ: "سيمياء التأويل، الحريري بين العبارة والإشارة"، حيث سنتطرق إلى: التحليل السيميائي ومعالم الخطاب السردي في مقدمة مقامات الحريري، (بناء ودلالات)، ثم مستويات التأويل البلاغي السيميائي للنص، إلى جانب التمثيل في الخطاب، أمّا في الشق الثاني من هذا النموذج فسننتقل إلى دراسة سيميائية للمقامتين العمانية والبصرية، من خلال سيمياء العنوان، والسمات الدلالية من علامات وأيقونات... في حين سيتعلق النموذج الثالث بالتوظيف البلاغي لتحليل الخطاب الشعري القديم من خلال كتاب: "في سيمياء الشعر القديم -دراسة نظرية وتطبيقية-" نموذجًا، حيث سنعمد لمعالجة المستويات التالية: الحرفي والصوتي في الشعر عبر دور الحرف الرمزي، الترديد أو التكرير الحرفي (الصوتي) التنغيم النبر، ثم ننتقل إلى المستوى المعجمي من خلال التركيب النحوي ثم البلاغي، وبعده المستوى التداولي (المقصدية).

يجب الإقرار بعدما تقدم بأن مقاربة مثل هذا النوع من الموضوعات ليست أمرا يسيرا، فعلى صعوبات الموضوع هناك صعوبة في تتبع آراء القدامى وتقصيها، لاسيما وأننا عبر المنهج المتبع في هذه الدراسة سنعمد إلى الوصف والتحليل، لآراء من تقدموا من الغرب والعرب، بما في آرائهم من صعوبات يتعذر بموجبها التوصل إلى إرهاصات تخص النظريات المعاصرة، إلى جانب عدم توفر المكتبات على موضوعات من قبيل موضوعنا، لذا نرجو أن يكون اجتهادنا في مستوى تطلعات العلم، رغم أنّه لن يكون الأخير فيه...

مدخل

إرهاصات ومفاهيم

المبحث الأول: حدود البلاغة

أولا) عند اليونان.

ثانيا) عند العرب القدامى.

المبحث الثاني: البلاغة والمقاربات الخطابية الحديثة (البلاغة الجديدة)

سينطوي مدخل هذا البحث على التأسيس اليوناني للبلاغة (Rhétorique_grecque) ضمن طرح يستهدف الإجابة عن التساؤلات التالية: "كيف استفاد العرب الأوائل من بلاغة اليونان في تطوير درس بلاغي خاص "لخدمة اللغة العربية؟ وهل عادت البلاغتان اليونانية والعربية القديمة إلى ساحة الدّراسات اللغوية والأدبية من جديد؟ أيمكن أن يكون مفهوم "البلاغة الجديدة" La nouvelle (Rhétorique) تعبيرا عن عودة الإنجازات البلاغية القديمة؟ إلى أي حد يمكن أن تجد البلاغة القديمة تطويعًا لأنساقها ضمن المناهج الغربية الحديثة؟ وهل هناك اقتران للبلاغة بالسيمياء(*) (Sémiotique) بالنسبة للعرب القدامى عبر مقاربة النتاج اللغوي والأدبي؟ ما حاجة تحليل الخطاب (**L'analyse du discours**) إلى البلاغة القديمة؟ وهل يمكن استثمارها كوسيلة لمقاربة الخطابات من الناحية الأسلوبية، التداولية والحجاجية؟ وهو ما سنحاول مقاربته عبر هذا المدخل.

(*) سنتحدث عن مفهوم المصطلحات التالية: السيميائية، تحليل الخطاب، والبلاغة الجديدة، فيما يستقبل من البحث.

المبحث الأول

حدود البلاغة

أولا: عند اليونان

أ) البلاغة والخطابة

يرى عماد عبد اللطيف بأنّ البلاغة التي يحبـذها أفلاطـون (Platon) (428 ق.م/347 ق.م) هي ما: "... نسميه بلاغة المحاضـرة. فهـي تنشـغل أساسًـا بموضوعات فلسفية. (كان النموذج التطبيقي الذي مارس عليه سـقراط النقـد والإنشاء يخص مسائل فلسفية، مثل: ماهية الحب والعشق، والتفاضل بين الحـب وعدمه، ومراتب النفس، وطبيعة العلاقة بين المحب والمحبوب... إلخ)، كمـا أنّهـا تشترط المعرفة القبلية والمشافهة. وعلى الرغم من وجود متكلم رئيس فإنها تقـوم على الحوار والمناقشة، مستخدمةً الجدل لتحقيق ذلك. وهي لا تستهدف تحقيـق الإقناع بل المعرفة، ولا تتعلق بالشؤون العامة، وهي تمثل بالفعل البديل الذي يـراه أفلاطون جديرًا بأن يحل محل الكتابة من ناحية، والخطابة من ناحية أخرى، لتصبح أداة التعليم والتعلم"[1]. فأفلاطون يرى المناقشة والجدل من أساسـيات البلاغـة صوب المعرفة، حيث تكون صادقة وموجهة نحو الحقيقة، كما تكون بعيدة عـن الاحتيال والزيف، فيتعلم الخطيب البلاغة ليحقق أغراضًا معرفية ونفعية تفيد إماطة اللثام عن الموضوعات الفلسفية الغامضة، و"بطبيعة الحال فإنّ الخطابـة لم تكـن موضع احترام كل الفلاسفة كما لم تكن تحظى بتسمية (صناعة). إن أفلاطـون لم

(1) عماد عبد اللطيف، "موقف أفلاطون من البلاغة من خـلال محـاورتي جورسـياس وفيدروس"، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج: 05، ع03، أكتوبر 2008م، الشارقة، ص 235.

يكن يعتبرها أداة للتكوين السياسي للمواطن، نظرا لأنّها لا تقدم إلا المعارف الهشة والمتناقضة والمتغيرة. بل إن أفلاطون الذي اعترض على الخطابة لميوعة الأفكار التي تتغذى منها، قد دافع في مواطن عديدة من كتاباته، عمّا سماه الجدل الذي هو نوع من الحوار بين طرفين فقط يجمعهما ضرب معين من السمو الفكري والارتفاع عن رأي العام. هذا الجدل الحواري هو البلاغة الحقيقية، وهذه البلاغة أو الخطابة تتطابق بهذا المعنى مع الفلسفة"(1)؛ بمعنى تحقيق التفكير الذي يبتعد عن العامة بل لا يخص غير النخبة بكل إمكانات التميز عن الآخر.

لقد وضّح أفلاطون إذًا معالم البلاغة الحسنة أو المفيدة والواجب تعلمها، لكنّه كما يستدرك عماد عبد اللطيف "لا ينقد اختيار لوسياس الكتابة بدلاً من الخطابة فحسب، بل الطريقة التي اتبعها في تأليف مقاله أيضًا. وينطلق من ذلك إلى نقد الطريقة التي يبني بها الخطباء من معاصريه خطبهم، ويقدم مجموعة من القواعد التي يمكن أن يسترشد بها الخطباء في بناء خطبة جيدة، بالإضافة إلى ذلك ينتقد أفلاطون الأهداف والدوافع التي يراها كامنة وراء مقال لوسياس، والذي يراه نموذجًا لمن يعلم الحقيقة ويتعمد تضليل سامعيه"(2). فأفلاطون كان محبًّا ومدافعًا عن الحقيقة، وكل ما يمت إليها بصلة، معارضا بذلك كل من يستعملون البلاغة لتضليل الناس أو الكذب عليهم والاحتيال، ولهذا فقد سنّ قواعد وضوابط بلاغية، يلتزم بها الخطيب حتى تكون بلاغته حكيمةً ومتماشية مع الحقيقة والمثالية في الغرض.

لقد طرأت تحولات على تفكير أفلاطون حول نظرته إلى البلاغة أو الخطابة، و"على ذلك فإن محاورة فايدروس قد تكون نقطة تحول في نظرة أفلاطون إلى الريطوريقا كفن تعليمي. وهو يقترح فيها دراسة كل نوع من الخطابة على حده ودراسة الأشخاص الذين ستلقى على مسامعهم الخطبة، فنعرفهم معرفة تامة الكثير

---

(1) محمد الولي. الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية. منشورات دار الأمان الرباط – ط1 2005. ص 21. 22.

(2) عماد عبد اللطيف، "موقف أفلاطون من البلاغة من خلال محاورتي جورسياس وفيدروس"، ص 235.

عن أخلاقياتهم وحياتهم. وعلى ذلك يجب أن يكون الخطيب على درايةٍ بكل هذه الأمور، بالإضافة إلى التعمق في فنه وألاّ يقتصر على مجرّد ترديد العبارات التي تعلّمها من مدرسةٍ. يجب أن يتعلّم الخطيب كيف يختار الأسلوب المناسب لكل موقف، والوقت المناسب لكل حديث"(1). فأفلاطون يرى في الخطابات البلاغية أنواعًا، ثم يقدم مجموعة من الضوابط البلاغية، كمعرفة طبيعة الشخص الذي ستلقى على مسمعه الخطبة عن الأخلاق والحياة والتجارب، وكذلك مراعاة كيفية طرح العبارات وتشكيلها، وجمال أسلوبها مع ضبطها بالسياق الذي ترد فيه (مراعاة المقام وسياق التخاطب).

أمّا أرسطو (384 ق م – 322 ق م) فيرى أن البلاغة: "... قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة"(2)، كما يردف في السياق نفسه موضّحا: "بأنّ الريطورية ليست جنسًا لشيء واحد مفرد، لكنها بمنزلة الديالقطيقية، وأنها جد نافعة، وأنه ليس عملها أن تقنع، لكن أن تعرّف المقنعات في كل أمر من الأمور..."(3). فقد كان أرسطو يدافع عن البلاغة كوسيلة للإقناع، ولفرض الآراء، مع تحقيق النفعية في التخاطب الذي به تسترد الحقوق وتدفع به المظالم، نظرا لدورها في توصيف الإقناع وضبط حدوده وآلياته ووسائله.

كما: "قد توجد أنواع الريطورية ثلاثة عددا، وكذلك يوجد السامعون للكلام. والكلام نفسه مركب من ثلاثة: من القائل، ومن المقول فيه، ومن الذي إليه القول، والغاية إنما هي نحو هذا، أعني السامع"(4)؛ فالبلاغة تسعى لإقناع السامع والتأثير فيه – حسب أرسطو –، وضروري أن يكون التخاطب مؤسسا على عدة أطراف، من المخاطِب، والمخاطَب، والموضوع الذي عليه تتم عملية التخاطب والتواصل.

---

(1) عبد الله حسن المسلمي، أفلاطون، محاورة منكسينوس أو عن الخطابة، منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب، ط1 1972م، ص 38، 39.

(2) أرسطو، الخطابة، تح وتع: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، لبنان، 1979م، ص 09.

(3) المصدر نفسه، ص 08.

(4) المصدر السابق، ص 16.

ثم يقسم أرسطو الكلام البلاغي فيقول: "فمن الاضطرار إذًا يكون الكــلام الريطوري ثلاثة أجناس: مشوري، ومشاجري، وتثبيتي. فأما المشير فمنه إذن ومنه منع. فإن الذين يشيرون في الخواص والذين يشيرون في العوام معا إنما يفعلون أبدًا واحدة من هاتين. وأما التشاجر فمنه شكاية، ومنه اعتذار. فإن الذين يتشاجرون لا محالة إنما يفعلون واحدة من هاتين. وأما المُري أو المثبت فمنــه مــدح، ومنــه ذم"[1]. فأرسطو كان يعي أهمية تقسيم الكلام البلاغي، لأن لكل كــلام مقامــه وأسلوبه وآلياته، فالخطبة لما تكون قضائية، ليست هي الخطبة لما تكون استشارية، وكذلك الأمر بالنسبة للخطبة التثبيتية (الحفلية) التي تختلف في مميزاتها عن الخطبتين القضائية والاستشارية. فبضبط أنواع الخطابات يمكن حصــر كــل خصوصــية وتقنينها وتلقينها للخطيب. كما يتسم صنيع أرسطو بالعمومية لأنّه ينطبق علــى كل أنواع الخطاب عبر مختلف العصور إلى الفترة الراهنة.

أمّا عن أقسام القول البلاغي فإنّ: "اللاتي ينبغي أن يكون القول فيهن علــى مجرى الصناعة فثلاث: (إحداهن): الإخبار من أي الأشياء تكــون التصــديقات، و(الثانية) ذكر اللاتي تستعمل في الألفاظ، و(الثالثة) أن كيف ينبغي أن نــنظم أو ننسق أجزاء القول"[2]. فللقول أهميته ودوره البلاغي المنوط به لدى أرسطو، لأنّ البليغ يعرف كيف ينتقي الأقوال، ويدرك سلامة استعمالها، ثم ينبغي على الخطيب – في مرحلة متقدمة – أن يرتب أقواله ترتيبا بلاغيا يخدم مراميه وأهدافه المعنويــة. في ضوء مراحل تخريج الأقوال البليغة.

ب) المجاز:

يقول أرسطو في كتابه فن الشعر: "ومهما يكن شكل الكلمة من ناحية البناء فإنها تكون: شائعة أو أجنبية معارة أو **مجازية** أو زخرفية أو مبتدعــة المعــنى، أو مطولة مزيدة أو منقوصة أو معدلة"[3]، فالكلام متعدد الاستعمال عبر البنية التي إمّا

(1) المصدر نفسه، ص 16، 17.

(2) المصدر نفسه، ص 181. (بتصرف)

(3) أرسطو، فن الشعر، تر: إبراهيم حمادة، مكتبة الأنجلومصرية، ص 185.

يكون معناها حقيقيا أو مجازيا، و"أما الاسم المجازي فهو إعطاء اسم يدل على شيء إلى شيء آخر، وذلك عن طريق التحويل: إما من جنس إلى نوع، أو من نوع إلى جنس، أو من نوع إلى نوع أو عن طريق القياس"[1]، حيث يحدث التحويل في الاسم المجازي ويتغير معناه عبر أصناف عديدة..."[*]، و"من جهة أخرى فإن اللغة تصبح متميزة وبعيدة عن الركاكة إذا ما استخدمت فيها الكلمات غير المشاعة، مثل: الكلمات الغريبة أو النادرة والمجازية والمطولة، وكل ما ابتعد عن وسائل التعبير الشائعة إلا أن اللغة التي تتألف كلية من مثل هذه الكلمات تكون إما ملغّزة وإما رطانة مبهمة"[2]. حيث يشجع أرسطو على الاستعمال الجيد للمجاز لما يكون صائبا ومناسبا في مقامه، فالعبرة في الإجادة في ذلك.

أمّا اللغة الملغزة فهي: "تلك التي تتألف من مجازات واستعارت، وبالرطانة تلك اللغة التي تتألف من كلمات غريبة أو نادرة"[3]. إنّها إذًا لغةٌ مجازيةٌ محمودة في الاستخدام اللغوي، وتتصف الكلمة عبرها بالرّطانة لما تصبح غريبة على السامع

---

(1) المصدر نفسه، ص 186.

(*) هناك عدة أصناف هي:

من الجنس إلى النوع، مثل قولنا: (هنا تقف سفينتي) فالإرساء في الميناء، هو ضرب معين من شيء وهو الوقوف".

من النوع إلى الجنس، كأن يقال: (لا ريب أن أودسيوس قد قام بفعل عشرة آلاف عمل نبيل)، فإن عشر آلاف جنس من عدد ضخم وقد استعمل هنا ليدل على عدد ضخم بوجه عام".

من النوع إلى النوع، مثل قولنا: (فليستل حياته بسيف من البرنز وليقطعه بالسيف البرنزي الصارم)، فهنا استعملت الكلمتان (يستل) و(يقطع) متبادلتين وكلتاهما نوع لمعنى الانتزاع".

تحويل المعنى عن طريق القياس: وذلك عندما تكون هناك أربعة حدود بينها ترابط: علاقة الحد الثاني (ب) بالأول (أ) كعلاقة الرابع (د) بالثالث (ج) فإنه يمكننا أن نستعمل الرابع (د) بدلا من الثاني (ب) أو الثاني (ب) بدلا من الرابع (د) وفي بعض الأحيان يضيفون إلى المجاز صفة ذات ارتباط بالكلمة المحذوفة التي نقل عنها هذا المجاز". ينظر: فن الشعر. ص 187/186.

(2) أرسطو، فن الشعر، ص 189.

(3) المصدر نفسه، ص 189. (بتصرف)

وغامضة وغير مفهومة، و"الواقع، أن طبيعة اللغة الألغازية تتمثل أساسا في التعبير عن حقيقة ما بكلمات موضوعة في تركيبات لغوية مستحيلة، وهذا لا يحدث باستعمال المسميات العادية للأشياء، ولكن باستعمال بدائلها المجازية"[1]؛ بمعنى يصعب أن يفهم التركيب اللّغوي المستحيل دون قياس أو تأويل من طرف السامع، فهو لا يتلاءم مع الاستعمال الحقيقي للكلمات، لاسيما إذا ارتبطت بلغة ملغزة عبر البدائل المجازية.

يقول أرسطو مستدركا: "ولكن الشيء الأعظم أهمية من هذا كله فهو التجويد في صياغة المجاز، وهو الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن يتعلمه المرء عن غيره، إنه آية العبقرية. لأن صياغة المجاز الجيد تدل على موهبة بصيرية قادرة على إدراك وجوه الشبه في أشياء غير متشابهة"[2]، فالمجاز يدل على عبقرية المتكلم والكاتب متى أجاد، لأنّه يعبر عن تشابه بين صورتين قد تبدوان للمتأمل غير متشابهتين، والفاصل في ذلك هو براعة مستخدم المجاز.

لقد حصر أرسطو البلاغة حصرا يحسب للدرس اليوناني القديم، عبر تلخيص الأجناس الخطابية الثلاثة؛ القضائية، والاستشارية، والاحتفالية، إلى جانب المستمع والزمن المحدد لذلك، مع الفعل، والقيم، ناهيك عن الحجة، و"هذا الحصر للبلاغة هو الذي قاد بول ريكور إلى القول بأن صنافة أرسطو هي أول محاولة لاختزال البلاغة: قبل صنافة المحسنات وجدت الخطابة الكبرى لأرسطو، ولكن قبل هذه وجد الاستعمال المتوحش للكلام ووجد طموح التمكّن، عبر صناعة أو تقنية خاصة من التأثير الخطير بواسطة الكلام"[3]، فإذا كانت البلاغة اليونانية قد وضعت لنفسها مسوغات جدلية وخطابية خاصة، فكيف نَلْفي البلاغة عند العرب القدامى؟

---

(1) المصدر نفسه، ص 189.

(2) المصدر نفسه، ص 192.

(3) محمد الولي، الاستعارة في محطات يونانية، وعربية وغربية. ص 27، 28.

ثانيا: عند العرب القدامى

أ) البلاغة والفصاحة

أورد الجاحظ (150هــ-255هــ) قائلا: "قال: وقال مرّةً: جماع البلاغة التماس حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقلة الخرق بما التبس من المعاني وغَمُضَ، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذّر"[1]. فالبليغ – حسب الجاحظ – هو العارف بمواقع الكلام، ومكامن التحدث أو السكوت، عبر الاحتراز من الخطأ في تشكيل المعاني، بأن تكون غير ملتبسة ولا غريبة، لأنّ "أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخيّر اللفظ، لا يكلّم سيّد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة. ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة"[2]؛ فعلى الخطيب البليغ أن يتسم بالثقة والجدية، فلا يكثر من الحركة كي لا يضطرب السامع ويأنس لمحدثه، ثم ينبغي كذلك أن نتصرف في الكلام بحسب كل طبقةٍ وما تستلزمه ضمن حدود مقامها، ولنا أن نورد نص السؤال الذي طرحه معاوية على صحار[*] "ما تعدون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز. قال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صُحار: أن تجيب فلا تبطئ، وتقول فلا تخطئ"[3]. فالبليغ من يوجز ولا يطنب حتى لا يمل السامع من كلامه، والبليغ من يحترز من الخطأ اللغوي والمعنوي كذلك.

كما أنّ "البلاغة من قولهم: بلغت الغاية إذا انتهيت إليها، وبلغتها غيري، ومبلغ الشيء منتهاه، والمبالغة في الشيء: الانتهاء إلى غايته، فسميت البلاغة بلاغة، لأنها

(1) الجاحظ، البيان والتبيين (الكتاب الثاني)، ج1، تحق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط7، القاهرة، 1998م، ص 88.

(2) المصدر نفسه، ص 92.

(*) كان صُحَار العَبْدي خطيباً مفوَّهاً، وبليغاً لَسناً، وأحد العلماء المشهورين بمعرفة الأنساب. وله أخبار حسنة، كذلك له مع معَاصره حنظلة (ت 65هــ) نسّابة العرب محاورات ومطارحات. وصُحار أحد الصحابة الذين وفدوا على النبي، ولم تطل صحبته لرسول الله كثيراً، لذلك كانت روايته عنه قليلة، اقتصرت على حديثين أو ثلاثة. ينظر: الموقع الإلكتروني: www.wikipedia.org

(3) الجاحظ، البيان والتبيين (الكتاب الثاني)، ج1، ص 96.

تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه"[1]. فالبلاغة – حسب "أبـــي هلال العسكري" (ت 395هـــ) هي الانتهاء والوصول إلى المستمع بغرض توصيل المعنى، وبلوغ الغايـــة من الفهم والإفهام، فعلى هذا "تكون الفصاحة والبلاغة مختلفتين، وذلك أن الفصـــاحة تمام آلة البيان فهي مقصورة على اللفظ، لأن الآلة تتعلق باللّفظ دون المعنى، والبلاغـــة إنما هي إنهاء المعنى إلى القلب فكأنها مقصورة علـــى المعـــنى"[2]. يرجـــع اخـــتلاف مصطلحي (البلاغة والفصاحة) إلى التفريق بين اللفظ والمعـــنى، فالفصـــاحة مرتبطـــة باللفظة، وهي الجانب المادي من اللغة، أما البلاغة فتتعلق بالمعنى؛ أي الجانب المجرد من اللغة. يقول أبو هلال مواصلا: "وإذا كان الأمر على هذا فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلف أصلاهما، لأنّ كل واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعـــنى والإظهار له"[3]، أمّا الفصاحة فهي من قولهم: "أفصح فلان عمّا في نفسه إذا أظهـــره، والشاهد على أنّها هي الإظهار قول العرب: أفصح الصبح إذا أضاء، وأفصح اللبن إذا انجلت عنه رغوته فظهر وفصح أيضا"[4]. فعندما يفصح الإنسان فإنه يظهر ما بداخله، واستعمالات كلمة (**فصاحة**) تفيد الإظهار في استعمالاتها العديدة.

أمّا "فخر الدين الرّازي" (ت 606هـــ) فقد عرّف البلاغة بأنها: "بلوغ الرجـــل بعبارته كنهَ ما في قلبه مع الاحتراز عن الإيجاز المخل، والإطالة المملة"[5]. فالبلاغة من البلوغ الذي يحصل للمتحدث عبر إخراج ما بضميره من المعاني، ولكي يكون الكلام بليغًا لا ينبغي أن نوجز بقدر ينقص من المعاني، أو نطيل بالقدر الذي يتجاوز المعـــنى، ولا يعني أن الإيجاز هو في كمية الكلام، فقد يكون الكلام كثيرا وهـــو مـــوجز، وفي الوقت نفسه قد يكون الكلام قليلا ولكنه مطنب[*].

---

(1) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، طبع: أحمد ناجي الجمـــالي، محمد الأمين خانجي الكتبـــي، ط1، الأستانة العلية، 1319هـــ، ص 06.

(2) المصدر نفسه، ص 07. (بتصرف)

(3) المصدر نفسه، ص 07.

(4) المصدر نفسه، ص 06.

(5) فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق: نصر الله حاجي، دار صادر، ط1، بيروت، 2004م، ص 31.

(*) ولنا حديث حول الإيجاز والإطناب فيما يستقبل من البحث.

كما ربط الرازي البلاغة بالنظم فقال: "وأما البلاغة العائدة إلى النظم والتركيب، فتحقيق القول فيها: أنّ الكلام المنظوم لا محالة مركب من المفردات، وتلك المفردات أمكن تركّبها على وجه يفيد ذلك المعنى المقصود، وأمكن تركبها على وجه لا يفيد ذلك المقصود ثم للتركيب المفيد مراتبٌ كثيرةٌ"[1]. فالرازي متأثر وتلميذٌ للشيخ "عبد القاهر الجرجاني" (ت 471هـ)، حيث استفاد منه في التعريف بالبلاغة، فعلى البليغ معرفة نظم الكلام وتأليفه بضم المفردات حسب قواعد النحو والمعاني، وبتوخي ذلك تتحقق الإفادة، وتتعدد الإفادة بحسب أوضاع التركيب وتغييراته؛ أي ما يجب أن يعرفه البليغ بأن يكتشف دور النظم والتأليف في تغير الإفادة وتعزيزها.

ب) الحقيقة والمجاز

جاء في "كتاب دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني حديث عن الحقيقة والمجاز قال فيه: "وذاك أن العادة قد جرت بأن يقال في الفرق بين الحقيقة والمجاز، إنّ الحقيقة إن يُقر اللفظ على أصله في اللغة"[2]. فالحقيقة متعلقة باللفظ كما هو أصيل في الاستعمال، وكما هو معتاد وجار على ألسنة العرب والعارفين. في حين يجب أن يزال المجاز عن موضعه، "ويستعمل في غير ما وضع له؛ فيقال أسد ويراد شجاع، وبحر ويراد جواد..."[3]. لأنّ المجاز هو استعمال يخالف المعتاد والمألوف بالخروج إلى المعاني غير الحقيقية بألفاظ اللغة، حيث نبتكر ونفاجئ السامع بتراكيب جديدة لم يألفها. كما ذكر "الخطيب القزويني" (ت 739هـ) أن "الإسناد منه حقيقة عقلية، ومنه مجاز عقلي، أما الحقيقة فهي إسناد الفعل، أو معناه، إلى ما هو له عند المتكلم في الظاهر، والمراد بمعنى الفعل نحو المصدر واسم الفاعل"[4]. فالقزويني يفسّر الحقيقة من المنظور

---

(1) المصدر نفسه، ص 33.

(2) عبد القاهر الجرجاني، كتاب دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحق: محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1988م، ص 280.

(3) المصدر السابق، ص 280.

(4) الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 27.

النحوي، وهو المعنى الظاهر من الصياغة اللفظية؛ لأنّ الكلام مرتبط مباشرة بالمسند إليه من مصدر واسم فاعل.

كما أضاف القزويني قائلا: "وأمّا المجاز، فهو إسناد الفعل أو معناه إلى ملابس له، غير ما هو له، بتأول"(1)؛ حيث يدخل التأويل في المجاز عند النظر في إسناد الفعل مع المسند إليه، كما يستعصي المعنى الحرفي، ولا يستشف إلاّ بإعمال العقل والدخول في عملية التأويل.

ج) البلاغة العربية القديمة:

لقد "بلغ العرب في الجاهلية مرتبة رفيعة من البلاغة والبيان، وقد صوّر الذكر الحكيم ذلك في غير موضع منه؛ من مثل: {الرحمن علّم القرآن، خلق الإنسان، علّمه البيان}...، كما صوّر شدّة عارضتهم وقوتهم في الحجاج والجدل، بمثل: {فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد}"(2). فالعربي يفاخر بلغته ويحاجج الخصوم ويجادلهم، وقد كانوا يعيبون على الذي يلحن في كلامه، أو لا يستوفيه منزلته من البلاغة.

وممّا زاد العربَ بيانًا هو القرآن الكريم والرسالة المحمدية، و"من أكبر الدلالة على ما حذقوه من حسن البيان أن كانت معجزة الرسول الكريم، وحجته القاطعة لهم أن دعا أقصاهم وأدناهم إلى معارضة القرآن في بلاغته الباهرة، وهي دعوة تدل في وضوح على ما أُوتوه من اللّسن، والفصاحة، والقدرة على حوك الكلام، كما تدل على بصرهم بتمييز أقدار الألفاظ، والمعاني، وتبين ما يجري فيها من جودة الإفهام وبلاغة التعبير"(3)، ولو كان القرآن أقل بلاغة من كلامهم لما آمنوا به، فالقرآن معجز يستعصي أن يأتي به عربي مهما كانت بلاغته.

كان العربي قبل الإسلام لّما يسمع القرآن يتعجب من أسلوبه، "ويروى أنّ الوليد بن المغيرة أحد خصوم الرسول (ص) الألداء، استمع إليه وهو يتلو بعض آي

---

(1) المصدر نفسه، ص 28.

(2) شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، ط9، القاهرة، 1995م، ص 09. (بتصرف)

(3) المرجع السابق، ص 09. (بتصرف)

القرآن، فقال: والله لقد سمعت من محمد كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطُلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق"(1)؛ نرى كيف يتعجب هذا الجاهلي البليغ من أسلوب القرآن وكيف وصفه بآيات الحسن والبيان وعبارات الانبهار.

لقد اهتم العرب بمعالجة الكلام البليغ من غيره، "فبلغاؤهم من الخطباء والشعراء لم يكونوا يقبلون كل ما يرد على خواطرهم، بل ما يزالون ينقّحون ويجوّدون حتى يظفروا بأعمال جيّدة، وهي أعمال كانُوا يجيلون فيها الفكرة، ويعاودون النظر، متكلفين جهودا شاقة في التماس المعنى المصيب تارة والتماس اللفظ المتخَيّر تارة ثانية، يقودهم في ذلك بصر محكم يميزون به المعاني والألفاظ بعضها من بعض"(2)، فقد كان النتاج اللّغوي والأدبي يهم البلغاء منهم بحيث يحفظونه ويدرسونه، فيصبح موروثا يباهون به الأمم، ويحفظونها لأبنائهم وللأجيال التي تليهم.

ومثال معرفتهم البلاغة: "صحار العبدي" الذي راع "معاوية" بخطابته فسأله: "ما تعدون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز، فقال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صحار: أن تجيب فلا تبطئ وتقول فلا تخطئ"(3). فالبلاغة هي الإيجاز، وينبغي للمتكلم أن يرد بسرعة ولا يرتكب الأخطاء، وهو موجز في ذلك.

كان لـ "ابن المقفع" لمسات بلاغية ابتدأها ليفسح الطريق لكل من يأخذ بهذه الصناعة، فقد عمد في أول تفسيره للبلاغة" إلى القسمة العقلية، فيجعلها أقساما في الصمت والاستماع والإشارة والكلام، ثم يقسم الكلام أو قل يضع مكانه أنواعه، وهي الاحتجاج أو المناظرة والجدل والجواب في الحديث، والشعر، والكلام المسجوع والخطب والرسائل، ويطلب في جميع ذلك الإيجاز"(4)، يظهر أنّ ابن المقفع قد تأثّر بالتقسيم الذي جاء به **أرسطو**؛ مع أن الدارسين يؤكدون ذلك

(1) المرجع نفسه، ص 09.
(2) المرجع نفسه، ص 10.
(3) الجاحظ، البيان والتبيين (الكتاب الثاني)، ج1، ص 96.
(4) شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص 20، 21.

إذا علمنا أنه يتقن الثقافة الفارسية التي بها الكثير من ميراث اليونان، كما أنه ينبهنا إلى أنّ البلاغة يمكن أن تتم بوسائل غير لغوية كالصمت والإشارة، إضافة إلى التواصل اللغوي.

ويستمر التنظير البلاغي فلا "... يلبث ابن المقفع أن يضع قاعدة مهمة لكل متكلم أن يكون في فاتحة كلامه ما يشير إلى غرضه، وهو ما سماه فيما بعد أصحاب البديع باسم حسن الاستهلال"[1]، فينبغي للبليغ أن يلفت السامع إلى الغرض لكي يعطيه سمعه، وينتظر من المتكلم الغاية الذي يريد توصيلها.

ثم نجد إشارات لمسائل بيانية عند "الفراء" (ت 207هـ) في كتابه "معاني القرآن"؛ "إذ عني فيه بشرح آي الذكر الحكيم شرحا بسط فيه الكلام في التراكيب وتأويل العبارات، وتحدث فيه عن التقديم في الألفاظ، والتأخير، والإيجاز، والإطناب، والمعاني التي تخرج إليها بعض الأدوات كأداة الاستفهام، كما تحدث؛ أو قل أشار إلى بعض الصور البيانية من مثل التشبيه والكناية والاستعارة"[2]. فلقد عالج الفراء البلاغة انطلاقا من القرآن الكريم، في إطار النحو أكثر من البلاغة، كما عاصر "أبا عبيدة معمر بن المثنى" (ت 208هـ) و"الأصمعي" (ت 211هـ)، وللأول كتاب مشهور يسمى "مجاز القرآن" وظاهر عنوانه يوهم أنّه صنّفه في المجاز بالمعنى البلاغي الاصطلاحي وحقيقة الأمر أن كلمة المجاز عنده تعني الدلالة الدقيقة لصيغ التعبير القرآنية[3]. لم يترك "الأصمعي" في صيغ التعبير القرآني والأدبي كتابا مثل كتاب "أبي عبيدة" غير أن من جاءوا بعده أشاروا إلى أنّه ألّف كتابا في التجنيس[4].

يقول شوقي ضيف: "وعلى هذه الشاكلة كان المعلمون من اللغويين والنحاة ينثرون في تضاعيف كلامهم، وشروحهم للشعر، وآي القرآن الكريم ملاحظات مختلفة على بلاغة الكلام، وصوره البيانية والتعبيرية، بحيث يمكن أن يقال إنّهم أدّوا حتى أوائل القرن الثالث الهجري في هذا الصدد خدمة قيمة، بفضل نظراتهم

(1) المرجع نفسه، ص 21.
(2) المرجع نفسه، ص 29.
(3) المرجع السابق، ص 29.
(4) ينظر: المرجع نفسه، ص 30.

الفاحصة الدقيقة"[1]، نفهم من كلام شوقي ضيف أنّ البلاغة كانت عبارة عن مزيج من الآراء والملاحظات، ولم تكن دراسات منهجية ترقى إلى الكمال المنشود، حيث أدّت هذه الأعمال دورا أساسيا للتأسيس للقفزة التي ستعرفها البلاغة لاحقا.

لا نكاد نتقدم بعد الربع الأول من القرن الثالث للهجرة حتى يتجرّد معتزلي كبير هو "أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي" الملقب بالجاحظ (159هـ-255هـ) لدرس شؤون البيان والبلاغة فيؤلف كتابه "البيان والتبيين" في أربعة مجلدات كبار جامعا فيها ملاحظات العرب البيانية، وبعض ملاحظات الأعاجم، مسجلاً كثيرا من ملاحظات معاصريه خاصّة المعتزلة[2].

يقول الجاحظ في المطابقة وتفاوت الكلام بتفاوت من يلقى إليهم: "وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا وساقطا سوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا، إلاّ أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي، وكلام الناس في طبقات، كما أن الناس أنفسهم في طبقات"[3]. يلفت الجاحظ انتباهنا إلى أن الكلام يخضع للسامع إن أردنا تحقيق البلاغة في ذلك، فطبيعة الشخص ومستواه تعد عناصر حاسمة في الإبلاغ، لاسيما مراعاة الإيجاز والابتعاد عن الإطناب، فقد تحدّث الجاحظ عن الإيجاز والإطناب قائلا: "ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطا وزاد في الكلام"[4]، فالمتكلم يكثر الكلام أو يقلل بحسب الظرف الذي يوجد فيه، وفي بعض الحالات يصبح الإطناب محمودا، أمّا في حالات أخرى فالإيجاز هو المطلوب.

---

(1) المرجع نفسه، ص 32.
(2) ينظر: المرجع نفسه، ص 46.
(3) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 144.
(4) الجاحظ، كتاب الحيوان، ج1، تح وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط2، 1965م، ص 94.

يزيد الجاحظ في التفصيل حول قضية الإيجاز والإطناب فيقــول: "والإيجــاز ليس يُعنى به قلة عدد الحروف واللفظ، وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار؛ فقد أوجز، وكذلك الإطالة، وإنما ينبغي له أن يحذف بقدر ما لا يكون سببا لإغلاقه، ولا يردد وهو يكتفي في الإفهام بشطره، فما فضل عن المقدار فهو الخطل"[1]؛ فالإيجاز ليس تقليصا في الكلام، فقد يكون الكلام طــويلا وهو موجز، وقد يكون قليلا وهو مطنب، وما زاد عن الحاجة من الكــلام فهــو خطل، وخطأ، وزيادة؛ على نحو استغلاله لفكرة مطابقة الكلام لمعانيه، وللأحوال المختلفة لطبقات المستمعين التي صوّرها "بشر بن المعتمر"؛ حيث مضى الجــاحظ يستغل ما تحدث عنه من صفات الألفاظ والمعاني، وما أشار إليه من التكلــف في القول وأن يكون الأسلوب وسطا بين لغة العامة ولغة الخاصة[2]؛ ما يدل على أن الجاحظ قد اطلّع على دراسات سابقيه من البلاغيين فأخذ ما يــراه مناســبا وزاد عليه، ما أدى بالجاحظ عبر الشغف بجودة اللفظ وحسن بهائه إلى أن قدّمه علــى المعنى؛ يقول: "... المعاني مطروحة في الطريق يعرفهــا العجمــي، والعربــــي، والبدوي، والقروي (والمدني)، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وســهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنّما الشــعر صــناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير"[3]. فالجاحظ كان من أنصــار اللفــظ، الذي ردّ إعجاز القرآن إليه، والبليغ حسبه من يستطيع التحكم في اللفظ، والشعر عنده معتمد على الصورة والخيال، وما على الشاعر إلا معرفة كيفية التوفيق بــين متصوراته والألفاظ التي يشكلها.

ألّم الجاحظ في كتاباته بالصور البيانية المختلفة، وبكثير من فنون البديع غــير أنّه لم يسق ذلك في تعريفات وتحديدات، فقد كان مشــغولا بــإيراد النمــاذج البلاغية[4]. حيث عرّف بـــ "**النظم**"، وفرّق بين نظم القرآن، ونظم سائر الكلام

---

(1) المصدر نفسه، ص 91.

(2) ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص 49.

(3) الجاحظ، كتاب الحيوان، ج3، ص 131، 132.

(4) ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص 56.

قائلا: "وفرق بين نظم القرآن وتأليفه، ونظم سائر الكلام وتأليفه، فليس يعرف فروق النظر واختلاف البحث إلاّ من عرف القصيد من الزّجر، والمخمّس من الأسجاع، والمُزَواج من المنثور والخطب من الرسائل..."[1]، ويقول: "وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا، وسبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان"[2]؛ تكاد تقول إن هذا الكلام هو لعبد القاهر الجرجاني، حيث يبدو أنّ فكرة النظم قد وجدت عند الجاحظ وغيره، فنظم القرآن بتأكيد من البلاغيين يستحيل أن يتوافق مع نظم البشر، وإلى النظم يكون الإعجاز الذي يعتمد على جودة **السبك**، وحسن **التلاحم**، و**الوضع**، و**الضم**[*]. يقول شوقي ضيف: "لعلنا لا نبالغ إذا قلنا بعد ذلك كله إن الجاحظ يعد مؤسس البلاغة العربية، فقد أفرد لها لأول مرة كتابه "البيان والتبيين" ونثر فيه كثيرا من ملاحظاته وملاحظات معاصريه، وتعمق وراء عصره، فحكى آراء العرب السابقين، وقد مضى ينثر في كتاب "الحيوان" تحليلات لبعض الصور البيانية في الذكر الحكيم"[3].

ظهر بعد ذلك كتاب "الكامل في اللغة والأدب" لـ "أبـي العباس محمد بن يزيد المبرد" (210هـ–285هـ)[4]. والذي كان عبارة عن إعادة تنظيم ما تقدم من جهود وترتيبها بأوجه تميزه كباحث بلاغي له أسلوبه في الدراسة.

وضع "عبد الله بن المعتز" (247هـ– 296هـ) "كتاب البديع"؛ فكان أول كتاب استقرت فيه صياغة نظرية لبعض الفنون البلاغية[5]. يصرّح "ابن المعتز" بأسبقيته إلى التأليف البلاغي. فيقول: "... ليُعلم أن بشّارا، ومسلما، وأبا نواس، ومن تقيّلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنّه كثر في أشعارهم فعُرف

(1) الجاحظ، العثمانية، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، ط1، 1991م، ص 16.
(2) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 67.
(*) سيتم التفصيل في هذه المفاهيم مع إيراد آراء عبد القاهر الجرجاني في الفصل الثاني من هذا الكتاب.
(3) شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص 58.
(4) ينظر: مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، دار الفكر، 1981م، ص 61.
(5) ينظر: المرجع نفسه، ص 68.

في زمانهم حتى سمّي بهذا الاسم فأعرب عنه ودلّ عليه"[1]، و لم يكن البديع عنــده يعني ما يعنيه اليوم من فنون بديعية، وإنّما فنونا بلاغية متنوعة؛ حيث شمل خمــس فنون: الاستعارة، والتجنيس، والمطابقة، وردُّ الأعجاز على ما تقدمها، والمــذهب الكلامي[2]. يقول الباحث "مازن المبارك": "كان لابن المعتز أيضا فضل واضح في ترسيخ النظرة السليمة إلى البلاغة، تلك التي تنظر إلى العناصر البلاغية على أنهـا مقاييس صالحة للنقد الأدبــي. فلقد رأيناه في "بديعه" يتخذ من العناصر البلاغيــة مقاييس يقيس بها الأسلوب الأدبــي"[3]. الأمر الذي يدل دلالة واضحة على أن ابن المعتز ناقد، وبلاغي ينطلق من الأعمال الفنية لينظر للبلاغة، ويرفع من بنيانها، بحيث تكون صالحة كمقياس للعمل الفني.

وقد جاء بعد "ابن المعتز" "قدامه بن جعفر" (ت 327هــ) الذي ألّف كتابا سماه "نقد الشعر"، حيث تناول قدامة كثيرا من المباحث البلاغية، ووقف عنــدها يعــرّف ويحلل ويمثل، وهو لم يتناولها على أنّها أبحاث في البلاغة وإنما تناولها، على أنها شــروط تتصل بالأسلوب إذا توافرت فيه الجودة والجمال، وعلى أساس من هذا الفهم تنــاول أبحاثا أصبحت فيما بعد فنونا بلاغية توزعتها علوم المعاني والبيان والبديع[4].

كما ظهرت كتب نقدية أخرى فيما بعد تناول أصحابها كثيرا من الأمــور البلاغية ككتاب "عيار الشعر" لــ "ابن طباطبا" (ت 322هــ) وكتاب "الموازنــة بين الطائيين" لــ "الآمدي" (371) وكتاب "الوساطة بين المتنبــي وخصــومه" لــ "القاضي الجرجاني" (ت 392هــ)، حيث اشتهرت هذه الكتــب في تــاريخ النقد الأدبــي، وهي كتب يكثر فيها الحديث عن التشبيه والاستعارة والجنــاس والطباق، وعمّا يستحسن من هذه الفنون ويستقبح، كما يكثر الحديث فيها عــن الصور البيانية، وما بينهما من تشابه أو تفاوت على اختلاف الشعراء[5].

---

(1) ابن المعتز، كتاب البديع، تع: إغناطيوس كراتشقوفسكي، دار المسيرة، ط3، بــيروت، 1982م، ص 01.
(2) ينظر: مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص 71.
(3) المرجع نفسه، ص 73.
(4) ينظر: المرجع السابق، ص 77.
(5) ينظر: المرجع نفسه، ص 79.

وضع "أبو هلال العسكري" (ت 395) كتابا سمّـــاه "كتـــاب الصـــناعتين" (الكتابة والشعر). يتألف كتاب الصناعتين من عشرة أبواب تشتمل علـــى ثلاثـــة وخمسين فصلا تتناول الموضوعات البلاغية المختلفة من تحديد موضوع البلاغة لغة واصطلاحا إلى تمييز جيد الكلام من رديئه، ومعرفة صنعته، وحسن الأخذ وقبحه إلى ذكر الإيجاز والإطناب والتشبيه وحدِّه، وما يستحسن وما يســتقبح وذكــر السجع والازدواج، والقول في البديع ووجوهه[1]. أمّا "الحسن بن رشيق القيرواني" (ت 463هــ) فقد ألّف كتابا سماه "العمدة في صناعة الشعر ونقده" وهو كتـــاب يُعنى بفن الشعر وما يتصل به وبنقده.

كما توقف ابن رشيق القيرواني عند البلاغة فاستعرض ما كان معروفا مـــن فنوها حتى عصره، فجعل لكل من تلك الفنون بابا خاصا به؛ باب البلاغة، وباب الإيجاز، وباب البيان، وباب المخترع والبديع، ويكون عنده باب المجـــاز، وبـــاب الاستعارة، وباب التمثيل، وباب التشبيه، وباب الإشارة، وباب التجنيس، وبـــاب الترديد، وباب التسهيم، وباب الالتفات، وباب المبالغة...إلخ، وغير ذلـــك مـــن أبواب الفنون البلاغية والقضايا النقدية[2].

ومن طائفة البلاغيين نذكر "ابن سنان الخفاجي" (ت 466هــ) بكتابه "سر الفصاحة". فقد تعرّض ابن سنان في كتابه للكثير من قضايا النقد وآراء النقـــاد في الشعر والشعراء، وأقوالهم في القدماء والمحدثين، كما عرض في أثناء ذلك كثيرا من فنون البلاغة، وناقش أقوال من تقدمه فيها كقدامة والآمدي والجرجـــاني، ووازن بين أقوالهم، وفاضل بين مصطلحاتهم، وكان في كل ذلك عالمـــا متميـــز الـــرّأي وواضح الشخصية[3]. وهذا دليل على أنه قام بمحصّلة لجهود سابقيه واســـتخرج عصارة أعمالهم.

لقد بلغ التأليف البلاغي غاية بعيدة من الإحكام والنضج في القرن الخـــامس الهجري، وذلك على يد الشيخ "عبد القاهر الجرجاني" (ت 471هــ)؛ صـــاحب

(1) ينظر: المرجع نفسه، ص 84، 85.

(2) ينظر: المرجع السابق، ص 86، 87.

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص 88.

"كتاب دلائل الإعجاز" و"كتاب أسرار البلاغة"، والذي ألّف في النحو، والإعجاز، والبلاغة، كتبا تشهد له بالفكر النافذ، والعلم الواسع، والذوق المرهف[1].

يرى عبد المعطي عرفة: أنّ عبد القاهر الجرجاني "من أقوى الشخصيات البلاغية في القرن الخامس الهجري... الذي شرح نظرية النظم، وخصص لها كتابه المشهور دلائل الإعجاز من أوله إلى آخره"[2]. حيث عرض في دلائل الإعجاز المجاز والاستعارة، والكناية، والتشبيه، ولكنه إنّما جاء بها في ثنايا تفسيره لنظرية النظم التي أدار عليها الكتاب واستخرج منها شعب علم المعاني[3]، أمّا كتابه الثاني "أسرار البلاغة" فهو خالص لمباحث البيان وللونين من البديع اللفظي هما الجناس والسجع[4]. يظهر ممّا تقدم أن البيان والمعاني قد صارا علمين مع عبد القاهر الجرجاني؛ حيث استقر كلاهما معه إلى وقتنا الراهن.

من أهم ما جاء به عبد القاهر الجرجاني في علم المعاني "نظرية النظم" التي يقول فيها: "وهل تجد أحدا يقول هذه اللفظة فصيحة إلاّ وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها؟ وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة وفي خلافه قلقة ونابية ومستكرهة، إلاّ وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم وأن الأولى لم تلِق بالثانية في معناها، وأنّ السابقة لم تصلح أن تكون لفظا للتالية في مؤداها؟"[5]. نفهم من قول الجرجاني أنّ الإعجاز لا يعود إلى اللفظ ولا إلى المعنى لوحده، وإنّما مدار الأمر على النظم بتوافق الألفاظ، ومناسبتها لبعضها البعض بكيفية منظمة وسبك محكم عبر توخي قيم النحو.

---

(1) ينظر: المرجع نفسه، ص 89.

(2) عبد العزيز عبد المعطي عرفة، من بلاغة النظم العربي، ج1، عالم الكتب، ط2، بيروت، 1984م، ص 22.

(3) ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص 160.

(4) ينظر: المرجع نفسه، ص 161.

(5) عبد القاهر الجرجاني، كتاب دلائل الإعجاز، قراءة وتعق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مكتبة الخانجي، مطبعة المدني، ص 44، 45.

يمضي الجرجاني بأسلوب عقلي منطقي ليثبت ما يريد من أن إعجاز القـــرآن ليس في ألفاظه المفردة، فاللفظ المفرد لا قيمة له في ميزان البلاغة، وإنما البلاغـــة في الأسلوب، أو الصياغة، أو النظم، وما النظم عند عبد القاهر إلاّ ائتلافا للألفـــاظ ووضعها في الجملة الموضع الذي يفرضها معناها النحوي؛ فالمعنى النحوي للكلمـــة هو الذي يفرض تقديمها أو تأخيرها، تعريفها أو تنكيرها، ذكرها أو حذفها...[1]

كما يعقد عبد القاهر فصولا كثيرة يتناول فيها الحديث عن التشبيه، والاستعارة والتمثيل؛ فيحلل جمال التشبيهات المختلفة وما يتصل من ذلك بطرفي التشبيه، أو وجه الشبه، أو طرافة الصورة، كما يحلّل جمال الاستعارة، ويبين الفرق بينها وبين التمثيل[2]. نجد أن عبد القاهر قد فصّل في الاستعارة، والتشبيه، والتمثيل، والمجاز تفصيلا عجيبـــا؛ حيث تعمق فيهم وبيّن الفروق الدقيقة والخفية فيما بينهم ورفع الالتباس.

على نحو ما وضع عبد القاهر نظرية للمعاني، وضع أيضا البيان لأول مرة في تاريخ العربية، ورغم أن الكثير من العلماء قد سبقوه إليها بالبحـــث؛ إلاّ أنهـــم لم يحرروها و لم يبحثوا دقائقها على نحو ما بحثها وحررها عبد القاهر في كتابه "أسرار البلاغة"، فقد ميّز أقسامها وفروعها، وحلّل أمثلتها تحليلا بارعا[3]. يقول شـــوقي ضيف عن عبد القاهر: "من الحق أنه وضع قوانين البيان لأول مرة في العربية وضعا دقيقا، كما وضع قوانين المعاني لأول مرة، وإذ كان شغل في الدلائل ببيان خواص الصيغ الذاتية، فقد كان همّه في "الأسرار" أن يكشف عن دقائق الصور البيانيـــة؛ متخللا لها بنظرات نفسية وذوقية جمالية رائعة"[4]. فالكتابان **دلائـــل الإعجـــاز وأسرار البلاغة** متكاملان؛ وكل منهما يخدم الآخر، ومن الخطأ الفصل تماما بـــين علوم البلاغة، وواضح أنه لم يحاول وضع نظرية في علم البديع، وإن كان فصّـــل القول في أسرار البلاغة عن الجناس، والسجع، وحسن التعليل[5]. حيـــث رأى أن البديع تابع للبيان، و لم يعطه أهمية بالغة.

---

(1) ينظر: مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص 93.
(2) ينظر: المرجع نفسه، ص 101.
(3) ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص 190.
(4) المرجع نفسه، ص 218.
(5) ينظر: المرجع نفسه، ص 219.

قبل أن يتوفى الإمام عبد القاهر بأربع سنوات ولد عالم آخـــر (467هــــــ-538هــ) الشيخ "أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري" الإمام المفسر، واللغـــوي النحوي، والأديب البلاغي. صاحب تفسير "الكشاف" ومعجم "أساس البلاغـــة" وكتاب "المفصل" في النحو العربـــي. تســـلّم الزمخشـــري إرث "عبـــد القـــاهر الجرجاني" الضخم وما اشتمل عليه من آراء بلاغية شرح بها الجرجـــاني وجـــوه إعجاز القرآن، وعلّل بها صور الجمال الأدبـــي، فوجد الزمخشري في كل ذلك ما يرضي نزعته العقلية، كما انصرف إلى وضع تفسير للقرآن الكريم، يكشف به عما في آيات الكتاب المعجز من أسرار بلاغية ودقائق معنوية، وأتى بذلك ما لم يسبق إليه أحد[1]، وعلى شاكلة تطبيق الزمخشري لنظرية المعاني الإضافية التي صـــوّرها عبد القاهر في الدلائل مضى يطبق نظرية البيان[2].

وواضح أن الزمخشري قد أضاف في نظرية البيان إضافات جديدة كثيرة، حيث استكمل صور الكناية، والاستعارة، والمجاز المرسل، والمجاز العقلي، وأحكم وضـــع قواعدها إحكاما دقيقا، بحيث يمكن أن يقال إن قواعد علم البيان قد كملت عنـــده، كما كملت قواعد علم المعاني، وكلّ ما هنالك أنه بقي من يستقصيها ويتتبعها عنده وعند عبد القاهر وينظمها في مصنف يجمع متفرقها ويضم منثورها[3].

خلف بعد علماء البلاغة البلغاء، خلفٌ أضاعوا الأصالة و لم يدركوا مكانـــة الذوق والحسن في البلاغة، وفي تقويم آيات الجمال الأدبـــي، كان معظم هـــؤلاء من علماء البلاغة ولكنهم لم يكونوا بلغاء في أنفسهم، و لم يكونوا متـــذوقين ولا قادرين على إشعارنا بمواطن الجمال إذا هم تذوقوها، فجرّدوا من آثار سلفهم مـــا يتّصل بالأحكام والقواعد ثم صنفوا ذلك مستعينين عليه، كـــل بحســـب ثقافتـــه بالفلسفة والكلام والمنطق[4]. يقول مازن المبارك: "ولعلنا لا نغالي إذا قلنا إنـــه لم يأت بعد عصر الجرجاني والزمخشري من فهم البلاغة فهمها إيّاهـــا، وإن الـــذين

---

(1) ينظر: مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص 105، 106.

(2) ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص 235.

(3) ينظر: المرجع السابق، ص 265.

(4) ينظر: مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص 108.

جاؤوا من بعد إنما كان عملهم في أكثر الأحيان تلخيصا أو شرحا، وإنهم لم يزيدوا في فهم البلاغة وشرح فنونها شيئا ذا بال"[1]. فلقد كثرت الشروحات والحواشي والقواعد الجافة، وكثرت التقسيمات، وعجز الدارسون عن إضافة الجديد عدا التعقيد وصعوبة الفهم.

جاء "السكاكي" (ت 636هـ) من بعد الزمخشري الذي وضع كتابه "مفتاح العلوم" والذي قسّمه إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول منها للصرف، والقسم الثاني للنحو، والقسم الثالث للبلاغة وما تحتوي عليه من علوم المعاني والبيان والبديع، وما يلحق بهذه العلوم من قافية وعروض[2].

يقول مازن المبارك: "فإذا عرفنا أن السكاكي كان متأثرا بثقافته النحوية والمنطقية والكلامية، وعرفنا أنه صبغ البلاغة في كتابه بصبغة هذه العلوم، عرفنا سبب طغيان القوالب والحدود على علوم البلاغة، وعرفنا سبب التعقيد الذي أصابها عنده، وعند من قلّده وحذا حذوه"[3]. فصارت البلاغة تبتعد عن جوهرها ولغتها، بأسلوب تطغى عليه لغة الفلسفة المستغلقة على فهم كثير من الباحثين.

كما تم تلخيص علمي البلاغة (المعاني والبيان) وما ألحق بهما من الفصاحة المعنوية واللفظية، وما يتبعهما من المحسنات البديعية، وهو تلخيص شاع فيه كثير من العسر بسبب ما عمد إليه من وضع الحدود والأقسام المتشعبة، فإذا المباحث البلاغية تشبه غابة بل دغلا ملتفا لا يمكن سلوكه إلاّ بمصابيح من المنطق ومباحث المتكلمين والفلاسفة[4].

أمّا "جلال الدين الخطيب القزويني" (ت 739هـ)؛ فقد لخّص "مفتاح العلوم"، وكان عالما في الفقه والعربية وسمّى كتابه "التلخيص". قال القزويني في "التلخيص": "وكان القسم الثالث من مفتاح العلوم الذي صنّفه الفاضل العلامة أبو يعقوب يوسف السكاكي أعظم ما صنّف فيه من الكتب المشهورة نفعا، لكونه

(1) المرجع نفسه، ص 109، 110.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص 110.

(3) المرجع السابق، ص 111.

(4) ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص 313.

أحسنها ترتيبا، وأتمها تحريرا، وأكثرها للأصول جمعا، ولكن كان غير مصون عن الحشو والتطويل والتعقيد قابلا للاختصار، ومفتقرا إلى الإيضاح والتجريد، ألّفت مختصرا يتضمن ما فيه من القواعد، ويشتمل على ما يحتاج إليه من الأمثلة والشواهد... وسميته "تلخيص المفتاح""[1]. ثم رأى القزويني أن هذا الملخص لا يفي بالغرض، وأن التلخيص فيه زاد عن المطلوب، فعاد ليضع كتابه الثاني "الإيضاح"، وهو من أحسن ما صنف المتأخرون في البلاغة[2].

يقول القزويني في "الإيضاح": "أما بعد، فهذا كتاب في علم البلاغة وتوابعها ترجمته بالإيضاح، وجعلته على ترتيب مختصري الذي سميته "تلخيص المفتاح" وبسطت فيه القول ليكون كالشرح له، فأوضحت مواضعه المشكلة، وفصّلت معانيه المجملة"[3]. يبدو أن كتابا في البلاغة أصبح يتبعه كتاب يشرحه ويفصّل معانيه.

ثم يقول في "الإيضاح": "وعمدت إلى ما خلا عنه المختصر مما تضمنه "مفتاح العلوم" وإلى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني رحمه الله في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وإلى ما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما فاستخرجت زبدة ذلك كله، وهذبتها ورتبتها، حتى استقر كل شيء منها في محله، وأضفت إلى ذلك ما أدى إليه فكري"[4]. فلقد عالج القزويني ما تقدم من كتب السكاكي، وعبد القاهر، وغيره من البلاغيين، محاولا رفع اللبس وتنظيم مباحث البلاغة.

نلاحظ ممّا تقدم أن البلاغة بدأت من ملاحظات بسيطة أخذت تتطور حتى تشكلت في كتب، ومن أبرزها وأغزرها نفعا كتب الجاحظ، والشيخ عبد القاهر الجرجاني، لكن هذه الكتب القيمة لم تأت من العدم وإنما هي امتداد لجهودات

(1) جلال الدين القزويني، تلخيص المفتاح، تح: سليم نصر الله داغر، بيروت، 1306هـ، ص 02.

(2) ينظر: مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص 113.

(3) جلال الدين القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، ط3، المكتبة الأزهرية للتراث، 1993م، ص 16.

(4) المصدر نفسه، ص 16.

سابقيهم، وتوقفت البلاغة عن التطور فيما بعد، بعدما كانت بمثابة مقاربة فاعلة لتحليل الخطاب الأدبي، والكلام البشري، وحتى لغة الإشارة، فهل ستصاغ البلاغة من جديد حتى تأخذ دورها الذي أخذته في مراحل سابقة، وبعث ما يحتاج إلى البعث منها صوب علوم لاحقة.

المبحث الثاني

البلاغة(*) والمقاربات الخطابية الحديثة

(البلاغة الجديدة)

لقد حظيت البلاغة القديمة (Rhétorique)(**) بعناية كبيرة عند الدارسين المحدثين العرب والغرب على حد سواء، كما أنّ البلاغة القديمة بعدما كانت مستهجنة في مرحلة من المراحل عادت لتجيب عن الكثير من التساؤلات التي تتعلق ببعض المجالات، ومن أهم هذه المجالات؛ السيميائيات(***) (Sémiotique) وتحليل الخطاب(****) (Analyse du discours).

(*) سنتحدث في هذا المدخل عن البلاغة بصفة عامة، ولن نخصص القول عن البلاغة العربية التي ستكون موضوع البحث وغايته.

(**) يتعلق مصطلح البلاغة كما ورد لدى غريماس وكورتاس في معجمهما، بالتقليد اليوناني- الروماني (أرسطو، كانتليان)، حيث كرّست من قبل عبر دمجٍ بالقواعد والجدل كفنونٍ ثلاثةٍ في القرون الوسطى، كما انتعشت في التعليم الرسميّ إلى غاية القرن 19م. حضرت البلاغة بهذا كنوع من نظرية الخطاب المتعدد المعارف الملاحظ من السياق الثقافي الذي تم تطويره. وما يفسّر ظهورها من جديد هو فعل التجديد البلاغي، في ظل دفع السيمياء (إثرائها)، وإشكالية الخطاب". ينظر:
Algidas Julian Greimas, Joseph courtes, Sémiotique, Dictionnaire Raisonné de la théorie du langage, Hachette Supérieur, 2009, p. 317.

(***) يقول عصام كامل: "يجمع الدارسون على أن السيميولوجيا هي العلم الذي يتناول الرموز، بقدر ما يتناول الإشارات والبحث في علاقتها بالمعاني والدلالات المختلفة التي يمكن أن تشير إليها". ينظر: عصام خلف كامل، الاتجاه السيميولوجي ونقد الشعر، دار فرحة للنشر والتوزيع، 2003، ص 17-18.

(****) ورد في معجم تحليل الخطاب ما يلي: "إذا ما اعتبر تحليل الخطاب دراسة له دون تخصيص أدق، أي دراسة الاستعمال الحقيقي للغة من قبل متكلمين حقيقيين في وضعيات حقيقية، فإنه يبدو الفن الذي يدرس اللغة باعتبارها نشاطا راسيا في مقام ومنتجا لوحدات تتجاوز الجمل، وباعتباره استعمالا للغة لغايات اجتماعية تعبيرية وإحالية". ينظر: باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري، حمادي صمود، المركز الوطني للترجمة، دار سيناترا، تونس، 2008م، ص 43.

يقول"أحمد يوسف": "أعطى شارل بيرلمان (Ch,Bierlman) دفعا كبيرا للبلاغة، فأعاد لها الروح من جديد، وذلك بالعودة إلى بلاغة أرسطو، ثم صارت تعرف على يديه بـ "البلاغة الجديدة" (La nouvelle rhétorique) التي انبثقت زمنيا قبل البنيوية والتداوليات"[(1)]. فـ "شايم بيرلمان" هو رائد البلاغة الجديدة، وقد عالجها من بعدها السيميائي، كحجاج (Argumentation)[(*)]، وكآلية في تحليل الخطاب سيميائيا. حيث كان هذا قبل أن تستقر البنوية في نظريات، وقبل أن يظهر الاتجاه التواصلي وعلى رأسه التداولية (La pragmatique)[(**)].

يظهر أن البلاغة قد فرضت وجودها بعدما كانت منسية ومهملة ومصنفة في خانة العلوم التراثية، "وعليه فقد تساءلت "بربارا جونسن" (Barbara johnson) عن ذلك النوع من السلام الذي حلّ بالبلاغة، بعد أن شنّت عليها الرومانتيكية حربا لا هوادة فيها انتقاما من صنمية التقليدية حتى استردت حقها في العودة إلى حقل التفكير النظري"[(2)]، والسبب الذي دفع بالرومانتيكية لأن تثور على البلاغة هو القول بأنها تركز على القوالب الجامدة، بينما الرومانتيكية تشجع على العبقرية الفردية والإبداع الشخصي وترفض القيود، فصارت البلاغة تقتحم مجالات تخصصية عدة حتى تشابكت معها وأضحت تدلي بمعارفها وقوانينها فيها. يقول أحمد يوسف: "وأضحت البلاغة تقتحم تخصصات جديدة وتتداخل مع سائر فروع العلوم الإنسانية، مثل التحليل النفسي والأنثروبولوجيا، والفلسفة، واللسانيات، في الوقت الذي تتطلع فيه إلى تأسيس مفهوم "**البلاغة العامة**"، كما

---

(1) أحمد يوسف، "السميائيات والبلاغة الجديدة"، مجلة علامات، ع: 28، 2007م، المغرب، ص 110.

(*) الحجاج: "وهو في نظر د. شيفرين طريقة في الخطاب ليست طريقة حوارية فردية صرفا، ولا هي تحاورية صرفا... هو خطاب يدافع المتخاطبون بواسطته عن مواقف قابلة للنقاش". ينظر: باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ص 72.

(**)التداولية: "نحدد التداولية باعتبارها دراسة استعمال اللغة في مقابل دراسة النسق اللغوي، وتعرف كذلك بأنها دراسة مسارات تأويل الملفوظات في مقام". ينظر: المرجع نفسه. ص 43.

(2) أحمد يوسف، "السميائيات والبلاغة الجديدة"، ص 110.

طرحته جماعة "لييج" متجاوزة نظرية الصياغة ودراسة الأسلوب"[1]. فقد أثبتت البلاغة علميتها وجدارتها مع بعض العلوم لاسيما اللسانيات (Linguistique)[*]، فأضحت تفسر الكثير من الظواهر اللغوية حتى اتسعت، فوجب بذلك تأسيس ما يسمى "البلاغة العامة".

ولحد الساعة لم تستقر البلاغة وتحتكم إلى ضوابط منهجية محددة، "ولهذا لابد من تقديم تساؤلات حول إبستيمية الشبكة المفهومية للبلاغة واستراتيجيتها المعرفية بعد أن تحولت إلى مزيج غريب من التقليدية والحداثة، وبخاصة أنها أصبحت علما لا يستغنى عنه بسهولة في تحليل الخطاب"[2]. يظهر حسب أحمد يوسف أن البلاغة يمكن أن تفيد تحليل الخطاب، ويمكن أن تجيب عن الكثير من التساؤلات التي تتعلق بقوانين الخطاب (Lois du discours)[**] ، وفي السياق نفسه يقول أحمد يوسف: "لقد صارت البلاغة تتطلع إلى أن تكون لغة واصفة لخطابات اجتماعية متعددة مستعينة في ذلك بإنجازات الثورة اللسانية المعاصرة"[3]، وهو تطلع جار الاشتغال عليه من قبل الدارسين المحدثين بإنشاء حقل تخصصي (البلاغة وتحليل الخطاب)؛ رغبة منهم في إيجاد أفضل مقاربة لخطابات متعددة.

كما أنّ البلاغة "تمتد إلى الإحاطة بأشكال التعبير الأيقوني بدءًا من الكتابة إلى عالم الصورة والوقوف على تحولاتها الاجتماعية والجمالية ضمن حضارة الصورة

---

(1) المرجع نفسه، ص 110، 111.

(*) اللسانيات: "علم اللسان هو الدراسة العلمية الموضوعية للسان البشري، أي دراسة تلك الظاهرة العامة والمشتركة بين بني البشر والجديرة بالاهتمام والدراسة، بغض النظر عن كل الاعتبارات الأخرى التي لا تعد من صلب اهتمام اللسانيين". ينظر: خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصبة للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 2006، ص 09. (بتصرف)

(2) أحمد يوسف، "السميائيات والبلاغة الجديدة"، ص 111.

(**) قوانين الخطاب: "تستغل قوانين الخطاب كون كل عمل كلام يجري في إطار قانوني ونفسي مفروض، وهي تسمح بالحساب التأويلي للدلالات الضمنية المشتقة من الدلالات الحرفية". ينظر: دومينيك منغنو، باتريك شارودو، معجم تحليل الخطاب، ص 346.

(3) أحمد يوسف، "السميائيات والبلاغة الجديدة"، ص 111.

التي فرضت أدبيات جديدة في الحوار"[1]، فاقتحمت البلاغة عالم السيمياء وأضحت تشاركه في الكثير من المباحث والأفكار، عن طريق التصوير الأيقوني الذي ستتضح ملامحه فيما يأتي من البحث[*].

من الأهداف السامية التي تسعى إليها السيمياء وتحليل الخطاب؛ هي مقاربة الخطاب بشكل وافٍ، "ولما كان حد البلاغة العام يتمثل في "فن القول" و"فن الإقناع" الذي أملته مجتمعات الحداثة وما بعدها بالترسانة الضخمة لوسائل الإعلام والاتصال، إذ لم تخرج مقاربات البلاغة عن إطار التحليل السيميائي للخطاب الذي يسعى إلى البحث عن كلياته، وقوانينه، وأنساقه، ومعرفة أجزائه"[2]، فالتقريب بين البلاغة والسيمياء ليس بالشكل المستغرب؛ لاسيما وأنهما يتشاركان الكثير من الموضوعات والقضايا.

تطمح البلاغة إلى أن تصبح نظرية للخطاب بحيث" تم النظر إلى البلاغة على أنها فرع من الخطاب، إن لم تكن نظرية للخطاب إذا نجحت في تركيب بعض الآليات المنهجية التي تتقاطع معها مثل اللسانيات، والأسلوبيات، والشعريات، والسيميائيات على وجه التحديد بحيث يتسع حقلها الإجرائي إلى جميع أفانين القول"[3]، وقد تمت دراسة تقاطع البلاغة مع الأسلوبية[**] (Stylistique) في الكثير من الدراسات، نظرا للامتداد التاريخي للأسلوبية التي اعتبرها الغربيون وريثا شرعيا للبلاغة (بصفة عامة).

لقد بطل ذلك الظن بأن البلاغة ماتت حيث" مازالت بوصفها تفكيرا تقاوم أسباب فنائها، ولم تكن فكرة موت البلاغة إلا تعبيرا عن ذلك التبرم من الممارسات التي غلبت عليها المعيارية والتحجر على النحو الذي نلفيه في المدارس

---

(1) المرجع نفسه، ص 112.

(*) سيتم التوسع في مفهوم الصورة في الفصل الأول من هذا البحث.

(2) المرجع السابق، ص 112.

(3) المرجع نفسه، ص 112.

(**) الأسلوبية: "هي فن تكوّن تدريجيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ في نقطة التقاء البلاغة واللسانيات، وقد رأت ميدان صلاحيتها أحيانا ينحصر في المدونة الأدبية وحدها، وأحيانا ينفتح ليسع كل استعمالات اللغة". باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ص 534.

الثانوية وحتى بعض المعاهد الجامعية، بيد أن البلاغة أصبحت تقدم نفسها على أنها العلم المستقبلي لتحليل الخطاب ليشمل الحجاجية؛ ذات النزوع المنطقي واللساني، والأسلوبيات، والسيميائية النصية"[1]، وبذلك يمكن أن نفيد منها في معالجة الصعوبات التي تعترضنا في دراسة الخطاب (Le discours)[*].

للسيميائيات امتداد واسع عبر عدة علوم وحقول معرفية، يقول "محمد مفتاح": "إن هذا المجال (أو هذا الميدان) المسمى بالسيميائيات له معنى عام؛ هو اعتبار الكون علامة يحتاج إلى تفسير وتأويل، والإنسان نفسه علامة يحتاج إلى تفسير وتأويل، وله معنى اصطلاحي/مفهومي مدرسي يعني المدرسة الأوروبية الفرنسية ذات المرتكز الدوسوسيري الثنائي والمدرسة الأمريكية ذات المستند البورسي الثلاثي"[2]. ينبهنا محمد مفتاح إلى أن الفكر العلامي ممتد في كل شيء في هذا الكون وما يتبعه من معارف وعلوم، كما يشير إلى وجود مدرستين، مدرسة فرنسية رائدها "فرديناند دي سوسير" (Ferdinand De Saussure)، والتي تفسر العلامة انطلاقا من ثنائية (دال/مدلول)، والمدرسة الأمريكية التي رائدها "ش س بورس" والتي تفسر العلامة من منطلق ثلاثي (دليل أو ممثل/موضوع/مؤول).

للسيمياء امتداد كبير في تاريخ العلوم البشرية فـ "لم يكن علم السيمياء وليد العصر الحديث كما يزعم بعضهم، بل هو قديم النشأة فقد اهتم القدامى من عرب وعجم بهذا الجانب من علوم اللسانيات منذ أكثر من ألفي سنة. لقد أفرد الفيلسوف أفلاطون هذا الموضوع في كتاب (Cartyle) وأكّد أن للأشياء جوهرا ثابتا، وأن الكلمة أداة للتوصيل، وبذلك يكون بين الكلمة ومعناها أي بين الدال والمدلول تلاؤم طبيعي"[3].

---

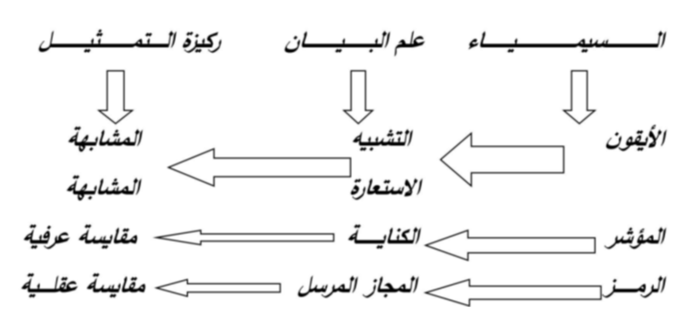
(1) أحمد يوسف، "السميائيات والبلاغة الجديدة"، ص 116.

(*) الخطاب: "يمثل الخطاب وحدة لسانية متكونة من جمل متعاقبة، وهذا هو المعنى الذي يقصده ز. س هاريس (1952م) عندما يتحدث عن تحليل الخطاب". ينظر: باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ص 180.

(2) محمد مفتاح، "حول مبادئ سيميائية"، علامات، ع: 16، مكناس 1998م، ص 52.

(3) بلقاسم دفة، "علم السيمياء في التراث العربي"، مجلة التراث العربي، ع: 91، رئيس التحرير محمود الربداوي، دمشق، 2003م، ص 68.

فلقد وجد التفكير الدلائلي(*) في التراثين؛ العربـي واليوناني بشكل يحفـز الدارس على استكناهه والإفادة منه، كما أنّ بلاغيينا وفلاسفتنا لهم قدم في هـذا الحقل، فقد "ربط علماء العرب قديما بين هذه المعطيات، وبين ما أسمـوه بعلـم **أسرار الحروف**، أي علم السيمياء، وقد تعددت في ذلـك دراسـات الحـاتمي، والبوني، وابن خلدون وابن سينا والفارابـي، والغزالي والجرجاني، وغيرهـم"(1)، كما لا يمكن أن ننفي قيمة انتقال العلوم عبر الحضارات والأمم، فـلا يجـب أن نفصل السيمياء الحديثة عن فلسفة اليونان، ولا أن ننطلـق في بحثنـا هـذا مـن مسلمات لا تستند إلى دراسات تؤطره، وتزوده بما يفتح مجـال المقاربـة علـى صعوبتها. وبالتالي فإن مباحث علم البيان العربـي قد تجد مجالا تعبر فيـه عـن أنساقها ضمن الدلائليات، في حدود الاستقراء العلمي، لاسيما وأن عناصر البيان ما هي إلا صور وعلامات تخضع لنظام **دلائلي** معـين، مـا يوضـحه الشـكل الموالي(2):



معنى هذا أن علم البيان هو طرائق متعددة، ليس لإنتاج العلامة (الممثل طبيعيا كان أو عرفيا)، وإنما طرائق متعددة لاشتغال السيميوزيس(3)؛ فعن طريق المشـابهة أو المقايسة العرفية أو العقلية يمكن أن نفسر اشتغال عناصر البيان من إنتاج للمعنى

(*) سنستخدم مصطلح الدلائلية في هذا المستوى من البحث؛ لأن السيمياء كعلم قائم بذاته لم يظهر بعد، كما سنلتزم بآراء الدارسين حول هذه المسألة، في حدود ما يخدم بحثنا.

(1) المرجع السابق، ص 68.

(2) ينظر: محمد فكري الجزار، "الأسس السيميائية لعلم البيان العربـي"، مجلـة علـوم إنسانية، السنة الخامسة، ع: 35، خريف 2007م، هولندا، ص 22.

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص 22.

وكيفية هذا الاشتغال[*]. أمّا عن الإفادة التي يمكن أن تقدمها البلاغة للأسلوبية فنجد مجموعة" من اللمحات الأسلوبية التي اهتم لها البلاغيون امتدادُ هذا المقام إلى الصياغة وجزئياتها، بحيث يكون لكل كلمة مع صاحبتها مقام، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام، وبهذا يرتبط المعنى بجزئيات التركيب ومواطن استعمالها، كما يرتبط بما بين هذه الجزئيات من علاقات خلقها هذا المقام"[1]. فالمقام بهذا يتحكم في الصياغة الأسلوبية حتى يتشكل نص وخطاب ومقام عام، فيصبح هذا الأخير له دور في انسجام واتساق (Cohérence) الخطاب[**]، كما يبرر تماسكه وتلاحمه وفق الغرض المتوخى من إنتاجه.

كما" تعد الجوانب البلاغية المرتبطة بالخطاب مؤشرات تداولية مهمة تعنى بها قضايا التداولية أيّما عناية على نحو ما نجد في النظرية الإشارية، والحجاج اللغوي، وأفعال الكلام، لكون تلك المؤشرات المطلوبة في الكلام البليغ، تكشف عن قصد المتكلم ودرجة شدّته في أفعاله الخطابية المتضمنة في جملة أقواله الصادرة عنه، كما تعد مؤشرات موجهة للخطاب نحو سامعه على النحو الذي يريده المتلفظ بالخطاب"[2].

(*) تعتبر الاستعارة "أهم الوجوه المجازية للخطاب، حيث اعتبرها أرسطو دالة على الأنواع المختلفة لنقل التسميات، وتعرف على أنها وجه مجازي يوضع بواسطتها اسم أجنبي لاسم علم يؤخذ من شيء مماثل للشيء الذي نتكلم عليه". ينظر: باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ص 364.

(1) محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط1، القاهرة، 1994م، ص 262.

(**) كما يمكن للمحسنات البديعية أن تفيد مباحث علم الأسلوب" فالمحسنات مثّلت (عند العرب) حيلا أسلوبية، يستعين بها الأديب بعد تحويلها من طبيعتها اللغوية العامة إلى خواص فردية ترتبط بطريقة متميزة في الأداء أو تطغى على هذا الأداء فتجره وراءها وتعطّل إفادته"، فإن أحسن الأديب والكاتب التعامل مع المحسنات البديعية يمكن أن يضفي عليها شخصيته فتحقق بذلك الفردانية في الأداء، وإن لم يحسن التعامل معها فسوف تقيد من إبداعه ويصبح نتاجه ضعيفا. ينظر: محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص 267.

(2) باديس لهويمل، "التداولية والبلاغة العربية"، مجلة أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، ع: 07، جامعة بسكرة، 2011م، ص 167.

وفي إطار هذه الإشارات سنحاول مقاربة ما يمكن أن تتضمنه البلاغة العربية القديمة من مفاهيم وقيم، ملتمسين في ذلك موقعها من السيمياء باعتبارها مفاهيم دلائلية سابقة، إلى جانب تحليل الخطاب فيما يستقبل من هذا الكتاب.

الفصل الأول

البلاغة والتفكير الدلائلي

المبحث الأول: البلاغة والتفكير الدلائلي عند القدامى

أولا) عند اليونان

ثانيا) عند العرب

المبحث الثاني: البلاغة والسيمياء عند الدارسين المحدثين

أولاً) مفهوم السيمياء

ثانيا) علاقة البلاغة بالسيمياء

نظرا لما يستدعيه موضوعنا قيد البحث من إرهاصات تمهد لربط العلاقة بين البلاغة والسيمياء، فإننا سنخصص الفصل الأول منه لمقاربة العلاقة بـين الفكـر الدلائلي والبلاغة عند القدامى والمحدثين عبر ما يلي:

المبحث الأول

البلاغة والتفكير الدلائلي عند القدامى

أولا) عند اليونان

أ) التفكير الدلائلي

عرف اليونانيون القدامى التفكير السيميائي من خلال ما بثّوه في كتبهم من مفاهيم ألهمت الكثير من الدارسين المحدثين، فكلمة السيمياء تكوينيا كما أورد "برنار توسان" (Bernard Tosan): "آتية من الأصل اليوناني (Sémeion) الذي يعني علامة و(Logos) الذي يعني خطاب، الذي نجده مستعملا في كلمات من مثل: (Sociologie) علم الاجتماع، و(Théologie) علم الأديان (اللاهوت)، (Biologie) علم الأحياء...إلخ وبامتداد أكبر كلمة (Logos) تعني العلم، هكذا يصبح تعريف السيميولوجيا على النحو الآتي علم العلامات"(1). لقد أدرك اليونانيون إذاً مفهوم العلامة، وأصّلوا له، مع إدراكهم لأهمية هذا المفهوم، علما أنّه من مشمولات السيميولوجيا، لأنها علم العلامات.

يقول "توسان"ضمن السياق نفسه: "نجد مصطلح سيميوطيقا (Sémioitiké) في اللغة الأفلاطونية إلى جانب نحو (Grammatiké) الذي يعني تعلم القراءة والكتابة ومندمج مع الفلسفة أو فن التفكير، ويبدو أنّ السيميوطيقا اليونانية لم يكن هدفها إلاّ تصنيف علامات الفكر لتوجيهها في منطق فلسفي شامل؛ السيميوطيقا القديمة تنتمي إلى جرد مدلولات الفكر، وانطلاقا من هذا تنصهر

(1) برنار توسان، ماهي السيميولوجيا، تر: محمد نظيف، أفريقيا الشرق، ط2، 2000م، المغرب، ص 09. (بتصرف).

السيميولوجيا حسب بعض المظاهر مع ما نسميه راهنا بالمنطق الصوري. يختفي المصطلح لمدة طويلة ولا نجده إلاّ في دراسة للفيلسوف الإنجليزي (John locke) (1632م–1704م) تحت اسم (Sémiotiké) وبدلالة جد مشابهة لتلك التي قدّمتها الفلسفة اليونانية الأفلاطونية"[1]؛ يظهر لنا من خلال ما تقدّم أن المفاهيم السيميائية قد ارتبطت بالمنطق الصوري، وكانت جزءا من فلسفة اليونان، ضمن مفاهيم الدلالة وأقسامها إلى جانب السياقات التي تلفُ الفكر بما يتضمنه من علامات، أمّا الكتابة فقد انتُبِه إليها كنظام علاماتي دال له صورته العقلية (عبر الصور الذهنية المختلفة).

أورد "بول كوبلى" (Poul couply) و"ليتسا جانز" (litssa djanz) عن علم العلامات مايلي: "من الرواد الأوائل لعلم العلامات أفلاطون (428–348 ق.م) الذي يتأمل في محاورة كراتيلوس (Cratylus) أصل اللغة، وأرسطو (384–322 ق.م) الذي يولي عناية بالأسماء في كتابيه "فن الشعر"، وعن التأويل. الكلمة (Semiatics) مشتقة من الجذر اليوناني (Seme)، كما في كلمة (Semeiotikos) التي تعني مؤول العلامات. وعلم العلامات هو تحليل العلامات أو دراسة طريقة عمل أنظمة العلامات"[2]. ففي ضوء اهتماماتهم بالأسماء ودلالاتها خاض الفلاسفة في التفكير العلاماتي، عبر أسس التأويل الذي يمس العلامات المختلفة ولا يبقى في إطار الدلالة السطحية، ما يَعْبُر بالعلامة إلى مستوى التحليل؛ من خلال الأنظمة التي تشتغل عبرها العلامات. لاسيما وأنّ دراستهم للتأويل قد جعلت منه إرهاصا يحسب للدرس اليوناني سواء عبر الكلمة، أم معناها، أم تأويلها، أم تحليلها.

كما ورد في كتاب "علم العلامات" أنه: "حدثت واحدة من أبرز المناظرات حول العلامات في العالم القديم بين الرواقيين (Stous) والأبيقوريين (Epicureans 300 ق.م في أثينا)، وتمثلت نقطة الجدل الكبرى في الاختلاف بين العلامات الطبيعية التي تحدث تلقائيا في الطبيعة والعلامات العرفية المخصصة للتواصل على وجه الدقة،

---

(1) المرجع السابق، ص 37.

(2) بول كوبلي، ليتسا جانز، علم العلامات، تر: جمال الجزيري، مراجعة وإشراف وتق: إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005م، ص 10.

ورأى الرواقيون بوجه خاص أن العلامة المثالية هي ما نطلق عليه اسم العرض الطبي"[1]؛ يظهر من ذلك أنّ الخلاف في أصل العلامة من كونها اعتباطية أو سببية موجود منذ بداية الفكر البشري، كما أنّها قد ارتبطت بشكل كبير بالطب عبر دلالات المرض وتشخيصه، فبمعرفة العلامات التي يحملها المريض يمكن تشخيص الداء والدواء معا من خلال الدال عليه، والأثر La trace)) الموجّه له، فقد" ظل العرض علامة نموذجية طوال الفترة الكلامية"[2]، أي ما يظهر من العلامات المرافقة للمريض التي تُكشف للناظر ويشتغل ذهنُه عليها كأداة مولدة للمعاني.

لقد "عالج الرواقيون الماهيات بوصفها علامات، وحقّقوا بعض التفسح في نظرية المعرفة، وذلك على مستوى طرائق المعالجة، إذ اشتملت نظرية العلامة لديهم على ما هو لساني وغير لساني"[3]. حيث اندمج التفكير العلاماتي بالفلسفة، لأنّ الفكر تمثيل وتَمثُّل للعلامات، فالتفات الرواقيين للماهيات وتمثيلاتها عبر العلامات قد قادهم لولوج نظرية المعرفة عبر معالجة ماهو لساني وغير لساني، و"بما أنّ السيميائيات لغة واصفة أو قول شارح بلغة القدماء فهي تتطابق مع المنطق في هذه الصفة، لكونها أرغانونا – حسب أرسطو – أو علما – حسب الدعوى الرواقية – ، فيمكن تطبيقها على كل أنماط العلامات"[4]. فالسيمياء حسب أحمد يوسف هي قول شارح يجعلها تتفق مع المنطق، لأنّ الأرغانون عند أرسطو هو نشاط سيميائي أو علم مثلما أورد الرواقيون، وهذا بوصفه طيّعا للتطبيق على كل الأنماط العلاماتية. ذلك أنّ" الرواقيين حسب إيكو لم يوفقوا لأن يكونوا أصحاب نظرية سيميائية أو نظرية علم العلامات، ولكنهم توصّلوا إلى المثلث الذي اصطنعه أفلاطون وأرسطو بخصوص العلامة اللسانية"[5]، وهذا المثلث يفسر العلامة اللسانية التي تتكون من: دال ومدلول ومرجع.

---

(1) المرجع السابق، ص 11.
(2) المرجع نفسه، ص 12.
(3) أحمد يوسف، الدلالات المفتوحة، مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة، منشورات الاختلاف، ط1، الدار البيضاء، 2005م، ص 31.
(4) المرجع نفسه، ص 10، 11.
(5) المرجع نفسه، ص 29.

لقد كان الرواقيون يتأملون في تفكير الشعوب وتصرفاتهم فلاحظوا "بأن الخطر بالنسبة إلى البرابرة يتمثل في أنّهم يدركون الصوت الطبيعي، ولكنهم لا يتعرفون إليه بوصفه كلمة، وليس لأنه لا توجد فكرة في الذهن تقابله، وإنما لا يعرفون قاعدة التضايف التي تؤالف بين الفكرة الذهنية والصوت الطبيعي، وهم بذلك يذهبون بعيدا في تحديد الطبيعة غير الدائمة وغير القارة للوظيفة السيميائية"[1]. لأنهم ذوو تأملات في لغات الشعوب ولهجاتهم، وينظرون إليها بمنظار دلائلي، ويعرفون مدى أهمية الكلمة في تمثيل العلامة.

أمّا بخصوص العلامات التي تظهر على المريض بوصفها تمثيلاً، "يرتكز الاستدلال الرواقي على نظرية العلامات بالمفهوم الأعراضي الطبي، فالعلامات بوصفها ظاهرة ترتبط بظواهر أخرى من الناحية المنطقية، فهي كذلك ترتبط بالكلمات، إنّ السيميولوجية الطبية قامت لدى الإغريق على أسس تجريبية. فكانت العلامات أو الأعراض المرضية وسيلة الحكيم من أجل تشخيص المرض ثم محاولة علاجه"[2]؛ فهم يدرسون كلّ علامة تظهر على المريض بوصفها معبّرة عن داء معيّن، فما يتجلى من ظواهر تعكسها حالة المريض تعتبر علامة مثلها مثل العلامات الأخرى في الطبيعة. فيكونون بذلك قد ساهموا بفكرة وجود نظام علامات لساني كالكلمات، يتحّد مع نظام علامات آخر غير لساني، كمؤشرات المرض – غير اللّغوية – وأثره في جسم المريض.

لقد جمع اليونانيون إذًا بين التشخيص الطبي والمنطق، حيث" تعد العلامات الأعراضية لغة المرض، التي تعبر بها كما يعتمل من داء في داخل الجسد العليل، أو من بوادر أعراضية مرضية تتطلب التدخل السريع بغية استئصال العلة، ومن هنا استفاد المنطق في بناء أحكامه من هذا التشخيص السيميولوجي؛ لإدراك الظواهر الغابرة والحاضرة والمستقبلية"[3]. فالتفكير العلاماتي عند اليونانيين قد تطور عبر التجليات العقلية الاستدلالية في ميدان الطب، الذي يحوي ظواهر تفيد المنطق

(1) المرجع السابق، ص 29، 30.
(2) المرجع نفسه، ص 34، 35.
(3) المرجع نفسه، ص 35.

وتطور أساليبه في الكشف عن الظواهر الغائبة.

واستمر التفكير العلاماتي في التطور، كما" وضع الأساس الأكبر لاستنطاق الغرب للعلامات في العصور الوسطى؛ نتيجة لتعاليم القديس أغسطين (354م-430م). طوّر أغسطين نظريته في العلامات العرفية (Signa data)، وعلى خلاف الشارحين الكلاسيكيين قدّم أغسطين هذه العلامات بصفتها الموضوعات المناسبة للتمحيص الفلسفي"[1]. فقد فصّل أغسطين إذاً في مسألة استنطاق العلامات من حيث طبيعتها وأقسامها بصبغة منطقية أفادت الدارسين الذين جاؤوا من بعده، كما ركّز على العلامات العرفية التي تنطلق من المواضعة الاجتماعية، لكونها قائمة على قانون يحكمها، ممّا جعلها نقطة ارتكاز هامة في التفكير العلاماتي عنده، وبهذا فقد ساعد أوغسطين" أيضا على تضييق مجال دراسة العلامات بأن أظهر موقفه حيال الطريقة التي تبدو من خلالها الكلمات على أنها قرائن (كلمات ذهنية)"[2]؛ أي ضبط تفسيرها ووضع معالمها، بأنْ قدّم العلامة كقرينة مرتبطة بالذهن، وبالتالي أظهر كيف أن العلامات تفضي إلى بعضها البعض، حتى يتجلى المعنى ويعرف نظام اشتغالها.

(1) بول كوبلي، ليتسا جانز، علم العلامات، ص 12.

(2) المرجع نفسه، ص 12.

ب) علاقة البلاغة[*] بالتفكير الدلائلي[**] عند أرسطو

ب-1) خصائص الكلام الإقناعي في ضوء (تعريف الخطابة؛ الاحتمال والعلامة والمثل)

يقول أرسطو[***]: "فالريطورية قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة"[1]. نبهنا أرسطو أنّ الريطورية (البلاغة) هي بمثابة قوة وجهد وعمل؛ دورها ينحصر في الإقناع، أي تغيير وجهات النظر ولفت الانتباه إلى

(*) علينا الإشارة في هذا المستوى من البحث إلى أن بحثنا سيرتكز على البلاغة العربية القديمة، ولكي نفهم ملامح التفكير السيميائي عند اليونان عبر بلاغتهم، تنبغي الإشارة إلى البلاغة الجديدة عبر الأعمال التي قام بها رائد التوجّه الحجاجي "شايم بيرلمان" (Ch. perelman) حيث: "ولد مصطلح البلاغة الجديدة ذاته عام 1958م في عنوان أحد الكتب الشهيرة التي وضعها تحت اسم: (مقال في البرهان: البلاغة الجديدة)، ويعتمد هذا الكتاب على محاولة لإعادة تأسيس البرهان أو المحاجة الاستدلالية، باعتباره تحديدا منطقيا بالمفهوم الواسع، كتقنية خاصة ومتميزة لدراسة المنطق التشريعي والقضائي على وجه التحديد، وامتداداته إلى بقية مجالات الخطاب المعاصر"، كما" استفاد أصحاب هذا التوجه من أعمال أرسطو وغيره، و"يلاحظ عموما على مبادئها أنها تدور حول وظيفة اللغة التواصلية، وأنها ليست منبتة الصلة بالتقاليد البلاغية الكلاسيكية على اعتبار أن منظر الخطاب البرهاني يهتم بدوره بالأشكال البلاغية كأدوات أسلوبية ووسائل للإقناع والبرهان". نقل صلاح فضل قولا لـ "شايم بيرلمان" يقول فيه: "وهناك أسباب عديدة دعتنا لتفضيل المقاربة البلاغية، أولها اللبس الذي يمكن أن تؤدي إليه عودتنا إلى أرسطو". بما أن أعمال بيرلمان تركز على الحجاج كمنطق يستند إلى أعمال أرسطو، فقد فضّل ربط هذا العمل بالمقاربة البلاغية لأن أعمال أرسطو واسعة ومتشعبة في منطق الحجاج مما قد يؤدي للالتباس، وهذا العمل الحجاجي المنطقي البلاغي هو نشاط سيميائي، لأنه قول شارح لتقنية الخطابة. ينظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، 1992م، ص 65، 66.

(**) استخدمنا لفظ الدلائلي لأنه اللّفظ المستخدم من قبل أرسطو في الخطابة، وهو اللفظ الذي سنفصل فيه تباعا.

(***) العنوان السابق وضعه أرسطو في صدر التعريف بالخطابة؛ حيث اقترنت بالعلامة والاحتمال عبر المقايسة. ينظر: أرسطو، الخطابة، تح: عبد الرحمان بدوي، وكالة المطبوعات ودار القلم، لبنان، ص 09.

(1) المصدر نفسه، ص 09.

وجهة معينة بالتأثير اللغوي حسب المجال الذي تستخدم فيه هذه البلاغة. حيث يواصل شارحا: "فلقد استبان إذًا أنّ الريطورية ليست جنسا لشيء واحد مفرد لكنها بمنزلة الديالقطيقية وأنها جدّ نافعة، وأنه ليس عملها أن تقنع، لكن أن تعرف المقنعات في كل أمر من الأمور"(1). بمعنى أن البلاغة هي أنواع مختلفة من الأجناس، ولها منفعة كبيرة ولا ينحصر دورها في الإقناع فقط، لكن في كيفية هذا الإقناع، وشرحه، والمنطق الذي يتحكم في كل جنس من الخطابات، التي تتنوع بتنوع المقام الذي فيه المخاطب.

وعن أنواع الكلام المقنع "التصديقات التي نحتال لها بالكلام فإنها أنواع ثلاثة: فمنها ما يكون بكيفية المتكلم وسمته، ومنها ما يكون بتهيئة السامع واستدراجه نحو الأمر، ومنها ما يكون بالكلام نفسه قبل التثبيت"(2)؛ فالقصد هو الذي يوجه التصديقات كل على حده: "فأمّا بالكيفية والسّمت فأن يكون الكلام بنحو يجعل المتكلم أهلا أن يصدق ويقبل قوله"(3)؛ فيتعلق الأمر بالآداب والأخلاق الحميدة واللباقة في الكلام وحب الخير والبر، ليعرف المتكلم كيفية ومتى يرفع صوته، أو يخفض، واللغة السليمة من العيوب الخلقية.

و"أمّا بتهيئة السامع فحين يستميله الكلام إلى شيء من الآلام المعترية، فإنه ليس إعطاؤنا الأحكام في حال الفرح والحزن ومع المحبة والبغضة سواء، وذلك هو الذي يزعم أنّ هؤلاء الحذاق بالكلام قصدوا له فقط بالمشتبه والحيلة، ونحن مبينون عن هذه المعاني شيئا فشيئا"(4). فالخطيب الناجح هو الذي يعرف كيف يستغل وضعية السامع النفسية، ليضع الكلام حسب ما يتذوقه ويستسيغه، لأنّ الكلام مع الإنسان الفرح يختلف عن الكلام مع الإنسان الغاضب، وكلامنا مع شخص يحبنا يختلف عن كلامنا مع شخص يبغضنا وهكذا، أمّا "ما يكون من التصديق من قبل الكلام نفسه، فحين نثبت حقا أن ما نرى حقا من الإقناعات في الأمور

(1) المصدر السابق، ص 08.
(2) المصدر نفسه، ص 10.
(3) المصدر نفسه، ص 10.
(4) المصدر نفسه، ص 10.

المفردة"[1]؛ بمعنى تثبت الخطيب من كلامه في المجال الذي هو فيه من أجناس الخطابة.

نستعين في فهم كلام أرسطو أكثر بكلام "ابن رشد" عبر كتابه "تلخيص الخطابة" والذي هو عبارة عن ترجمة عربية لكتاب أرسطو "الخطابة"؛ فقد تكلم "ابن رشد" عن دور الخطابة قائلا: "وأما الخطابة فهي تتكلف الإقناع في جميع الأشياء: في أي مقولة كانت وأي جنس كان، ولذلك ليس تنسب إلى جنس خاص"[2]؛ أمّا عن طبيعة الكلام المستعمل، "والأشياء الصناعية التي نحن الفاعلون لها: منها أشياء قد تقدم غيرنا فصنعها، مثل الاحتجاج بالأمثال السائرة التي قد وضعت واشتهرت ومنها ما نخترعها نحن عند القول في الشيء الذي فيه الإقناع وتستنبطها"[3]؛ فمنتج الخطاب الإقناعي يضمّن خطابه بحكم، وأمثال سائرة، وأدلة من عند الحكماء والشعراء، كما أنه يبتكر صيغ جديدة وأساليب مختلفة يحقق بها أهدافه في تمرير وجهة نظر ما أو قضية ما.

قال أرسطو: "فإن الريطوريات منهنّ برهانيات، ومنهن تفكيرات، وكذلك توجد البرهانيات: فإن هذه أيضا منها برهانية، ومنها تفكيرية وأما الإقناع خاصة فقد يكون فيه من الكلام على جهة البرهان غير قليل"[4]. فالكلام الإقناعي يتكئ على البرهان والحجة والدليل، فيكون المتكلم فيه يبرهن على صدق كلامه حتى يكسب ثقة السامع، ويمرر كلامه، ويغير من أفكار المتلقي.

قدّم أرسطو تقسيمات هامة للريطورية بقوله: "قد توجد أنواع الريطورية ثلاثة عددا، وكذلك يوجد السامعون للكلام. والكلام نفسه مركب من ثلاثة: من القائل، ومن المقول فيه، ومن الذي إليه القول. والغاية إنما هي نحو هذا، أعني السامع"[5]، حيث تنحصر مهمة الخطابة في إقناع السامع، وفي كل تواصل، أو إبلاغ، حيث لابد أن تتضمن الدورة الخطابية مرسِلاً (قائلاً)، مقولاً فيه (رسالةً)،

---

(1) المصدر نفسه، ص 10.
(2) ابن رشد، تلخيص الخطابة، تح: محمد سليم سالم، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1967م، ص 29.
(3) المصدر نفسه، ص 30.
(4) أرسطو، الخطابة، ص 12.
(5) المصدر نفسه، ص 16.

الموضوع محلّ التخاطب، و(المستقبل)؛ وهي أسس أي خطاب(*).

كما أشار "ابن رشد" إلى أن صناعة الكلام المقنع من المنطق: "فهذه الصناعة هي جزء من صناعة المنطق، وهي شبيهة بالجدل في أنها تنظر في كلا المتقابلين، وفي أنهما ليسا ينظران في شيء محدود نظرا يبلغان به اليقين، لكن إنما يبلغان من النظر ما دون اليقين"[1]. فالكلام الإقناعي هو شبيه بالجدل الذي يخضع لقواعد منطقية يعرفها الخطيب؛ قواعد تنطلق من مقدمة (أ) لتصل إلى نتيجة (ب)، وهو تغيير لقناعات الآخرين ووجهاتهم، بحيث يفوت الكلام الإقناعي اليقين ويعبره من خلال براعة المتكلم. كما" ينبغي أن نبتدئ بتعريف الأقاويل المقنعة وما يرى أنه مقنع، فنقول: إنّ الأقاويل التي يكون بها الإثبات والإبطال كما أنها في صناعة الجدل صنفان: أحدهما الاستقراء، وما يظّن به أنه استقراء، والصنف الثاني: القياس، وما يظن به أنه قياس"[2]. و"القياس في الجدل أوثق من الاستقراء"[3]، فالقول الإقناعي يتماشى مع القول الجدلي، ويتم بالاستقراء والقياس، وهو الذي يناسب القول الإقناعي، لأنّه يعتمد على إجراء نشاط عقلي لتقريب الحدود، ومماثلتها بعضها ببعض، وليس الاستقراء فقط بشكل تحليلي يسرد الظواهر بطريقة مباشرة(**)،

(*) عن أجناس الكلام" فمن الاضطرار إذا يكون الكلام الريطوري ثلاثة أجناس: مشوري ومشاجري وتثبيتي" ثم يفصل أرسطو في أجناس الكلام: "فأما المشير فمنه إذن ومنه منع، فإن الذين يشيرون في الخواص والذين يشيرون في العوام معا إنما يفعلون أبدا واحدة من هاتين. وأما التشاجر فمنه شكاية، ومنه اعتذار، فإن الذين يتشاجرون لا محالة إنما يفعلون واحدة من هاتين، وأما المري أو المثبت فمنه مدح ومنه ذم". ينظر المصدر السابق (الخطابة)، ص 16، 17.

(1) ابن رشد، تلخيص الخطابة، ص 34.

(2) المصدر نفسه، ص 34، 35.

(3) المصدر نفسه، ص 36.

(**)وعن دور "الضمير" و"المثال" وهما أسلوبان منطقيان يلجأ إليهما الخطيب في الإقناع: "فأما الآن فينبغي أن نحدد هذين الطريقين من الإقناع: أعني الضمير والمثال. فنقول: إن القول المقنع إما أن يكون مقنعا لواحد من الناس أو لجماعة من الناس أو لأكثر الناس. وأيضا منه ما يكون إقناعه في أمر كلي ومنه ما يكون في أمر جزئي. وكلا هذين منه ما يكون إقناعه بينا بنفسه، ومنه ما يكون إقناعه بغيره. والذي يكون إقناعه بغيره في الجزئيات ضربان: أحدهما أن يقول القائل: إن كذا هو كذا لموضع كذا، مثل قول القائل: إن شراب السكنجبين ينفع فلانا لأنه محموم. وهذا هو الذي يسمى الضمير. والضرب الثاني: أن يقول إن كذا إنما كان كذا لأنه مثل كذا، مثل أن يقول: إن فلانا ينتفع بشراب السكنجبين لأن فلانا انتفع به، وهذا الذي يسمى المثال". ينظر: المصدر السابق، ص 37، 38.

و"لذلك ليست تستعمل هذه الصناعة من المقدمات المحمودة، أعني المقبولـــة، مـــا كان مقبولا عند واحد من الناس، وتلك هي الآراء الحادثة للناس عنـــد الشـــوق والهوى، بل إنما تستعمل المحمود عند الأكثر أو الجميع على مثل ما تستعمله صناعة الجدل"[1]. فعلى الخطيب الالتزام في مقدماته من الكلام بمراعاة المستمعين، مع ما يتناسب وجملة اهتماماهم وتطلعاهم؛ حتى يكون مقنعا ومُحْدِثا للأثر.

يظهر ممّا تقدم أنّ أسس بلاغية الإقناع لا تنفلت من روح التواصل وآلياتـــه، لاسيما القصد في الخطاب الذي يشكل أهمية كـــبيرة في الاتجـــاه الســـيميولوجي التواصلي[*]، فحتى وإن دارت المصطلحات في كتاب الخطابة حول آليـــات أدت بكتاب أرسطو إلى أن يكون قريبا من وجهة خطابية أكثر، إلا أنّ دور الأســـس التي اشتغل عليها قد أبرزت قيمة ما يوجه الفكر الدلائلي عنده، ولو في حـــدود ضيقة نظرا لما عاناه المنطق من انتقادات؛ فكيف ذلك؟

لقد شكل الطابع التواصلي للخطابة خصوصية في ضوء بلاغة الإقناع عـــبر استخدام البرهان[**] والتصديق، إلى جانب خصائص المقايسة[***]. كما حـــدد أرسطو بعض أنواع العلامات؛ كالرسم حيث يقول: "ومن الرواسم كـــالجزئي، ومنها كالكلي. فلتكن الرواسم هاهنا كما لو قال قائل: إن الحكماء عـــدول، لأن سقراطس كان حكيما وعدلا. فهذا الآن رسم، وهو له إن كان هذا القول حقـــا وليس باضطراري، لأنّه ليس سلوجسميا، وأمّا ذاك الآخر فكقول القائـــل (هـــو مريض لأنه) في الكدّ والحمى، وقوله: ولدت، لأنّ لها لبنا، فهذا أشد اضطرارا من

---

(1) المصدر نفسه، ص 38.

(*) تفاديا للإسقاط العلمي الذي قد يؤدي بنا إلى الخروج عن حدود بحثنا سنكتفي بعلاقة البلاغة بالأفكار الدلائلية عند أرسطو، دون إيغال في ربط أرسطو بالنظريات السيميائية التي سنفرد لها حيزا لاحقا عند الدارسين المحدثين الذين تأثروا به.

(**)يقول أرسطو عن دور البرهان في الخصومات: "فأما التصديقات فينبغـــي أن تكـــون مثبتات لأن التثبيت لازم له، وذلك أن الخصومة إنما تكون في أوجه: أما في الشيء الذي فيه الخصومة فيؤتى عليه بالبرهان، وذلك أن يكون الخصم يماري في (أنه لم يكن) فيلزمه حينئذ أن يأتي بالبرهان على ذلك الشيء". ينظر: أرسطو، الخطابة، ص 244.

(***) لن نوغل في خصوصية الإقناع من ناحية حجاجية؛ لأنّنا بصدد تلمس الخصـــائص الدلائلية، وسنفصل في المسألة في الفصل الثاني.

الرسوم، لأنه دلالة للرواسم"[1]. حيث تجعل الدلالة المقادةُ اللّفظَ والغرضَ أهمَّ من الكلام أو الرسم نفسه، لأنّ العلامات على اختلافها تحدث بالمقايسة أي بالسلوجسمات، حيث يمكننا أن نقيس العلامات اللّفظية بالرسم، لأنّ القصد منها هو الموحّد بينها في الأثر الذي تبقيه للتواصل، فما الرسم إلاّ" الأثر وقيل بقية الأثر... وقيل هو ما لصق بالأرض منها"[2].

ولنا أن نتأمل ما ذهب إليه أرسطو وهو يحدد خصوصية الدلائل من الناحية المنطقية، وكيف يدخلها الاستقراء، والبرهان الحملي، إلى جانب الصادقات من الدلالات، ما أتى على ذكره في إطار الخطابة وبلاغة الإقناع، لأنّ البلاغة والدلائل قد سارا في شكل اضطراري واستلزامي، حمل أرسطو على تحديد قيمة الدلائل عبر التفكيرات الصادقات، باعتبارها من أسس التفكير الدلائلي الذي سينهل منه بورس في منطقه الظاهراتي، ولو بشيء من التطوير والتفرد عبر مجهودات كانط أيضا.

مثلما حظيت الدلائل بأهميتها في الخطابة عند أرسطو، فقد أخذ التعرف بالعلامات حيزا هاما في فن الشعر، حيث يشرح أرسطو قائلا"... أنواع التعرف الستة... هو التعرف بالعلامات والتذكارات... ويلي ذلك النوع، التعرف الذي يفرضه الشاعر ولا ينشأ تلقائيا من مجرى الفعل، والنوع الثالث، هو التعرف عن طريق التذكر. ثم يأتي التعرف الاستنتاجي الذي يتم عن طريق الاستدلال العقلي، ثم يليه التعرف الناتج عن خطأ في هذا الاستدلال، أما النوع السادس والأخير من أنواع التعرف، فأقيمها جميعا من الناحية الفنية، وهو الذي ينبع من صميم الأحداث..."[3]. تتضمن الدلائل إذن عدة وسائط ووسائل تتم بها؛ كالعلامات، والتذكارات، والمعرفة التي يصنعها الشاعر، إلى جانب التذكر الذي هو وسيلة لاستحضار المعاني عبر الاستدلال باعتباره عملية عقلية منطقية ناتجة عن ترابط

---

(1) المصدر نفسه، ص 14.

(2) عايدة حوشي. نظام التواصل السيميولساني في كتاب الحيوان للجاحظ – حسب نظرية بورس –، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم. جامعة فرحات عباس سطيف، 2009/2008. ص 237.

(3) أرسطو، فن الشعر، ص 36، 37. (بتصرف)

الوقائع، وعبر أهم الدلائل، من خلال التعرف بالعلامات، يقول أرسـطو: "أول أنواع التعرف... هو التعرف بالعلامات الملموسة أو المرئية، وبعض هذه العلامات طبيعي... وبعضها الآخر يكتسبه الشخص بعد مولده، وهذه العلامات الأخـيرة، إما تكون بالجسم مثل الندوب، وإما منفصلة عنه مثل التـذكارات، والعقـود أو أشياء أخرى..."[1]. فأرسطو كان مدركا لدور العلامات غير اللّغوية في تشـكيل الدلائل وإنتاج المعنى، كالعلامات الطبيعيـة وتوظيفهـا الـدلائلي، إلى جانـب العلامات المكتسبة والمتعلقة بالجسم، كالوشم، والندوب، أو غـير المرتبطـة بـه كالتذكارات، والعقود، وغيرها...

مثلما اهتم أرسطو بالعلامات غير اللغوية، أعطى أهمية كـذلك للعلامـات اللغوية، حيث يمكن التمثيل لذلك **باللغة الملغزة** الـتي تتضـمن دلائـل عميقـة ومتشابكة. يقول أرسطو: "أقصد باللّغة الملغزة تلك التي تتـألف مـن مجـازات واستعارات... والواقع، أن طبيعة اللغة الألغازية تتمثل أساسا في التعبير عن حقيقة ما بكلمات موضوعة في تركيبات لغوية مستحيلة، وهذا لا يحـدث باسـتعمال المسميات العادية للأشياء ولكن باستعمال بدائلها المجازية، ومثل هذا الألغاز، نجده في العبارة التالية: رأيت رجلاً يلحم بالنار نحاسا برجل آخر، وما أشبه ذلك مـن ألغاز وبالمثل"[2]. فللتلغيز أهميته عبر تخير البليغ من الكلام ذي المعاني والـدلالات المكثفة، وقد رأى أرسطو ضرورة استعمال اللغة الملغزة من المجازات والاستعارات، لأنها تفتح آفاقًا أوسع للاستعمالات اللغوية. رغم وجود نوع من أنواع التعـرف بالعلامات لا يرقى إلى هذا المستوى. يقول أرسطو: "وأول أنواع التعرف، وأقلها شأنا من ناحية الشكل الفني، ولكنه أكثرها استخداما بين الشعراء، ورغم افتقاره إلى روح الابتكار هو التعرف بالعلامات الملموسة أو المرئية وبعض هذه العلامات طبيعي"[3]. نستنتج مما سبق أن الدلائل الضمنية أنواع من نوازعَ متعلقة بالسـامع من خوف، ورجاء، ومحبة وبغض، وفرح، وحجاج مستخدم للإقنـاع؛ فكلـها

(1) المصدر نفسه، ص 157. (بتصرف)
(2) المصدر السابق، ص 189.
(3) المصدر نفسه، ص 157.

دلائل خفية تضاف إلى الدلائل اللغوية الظاهرة، التي حظيت باهتمام كبير من قبل أرسطو وشكلت فارقا في هذا التفكير عند اليونان.

ثانيا) عند العرب

أ) التفكير الدلائلي/السيمياء(*)

جاء في "لسان العرب" لابن منظور (630هـ-711هـ) ما يلي: "سوم، السّوم: عرض السلعة على البيع"[1]. و"السّومة والسّيمة والسّيماء: العلامة. وسوّم الفرس: جعل عليه السيمة. وقوله عزّ وجل: {حجارة من طين، مسوّمة عند ربك للمسرفين}، قال الزجاج: روي عن الحسن أنّها معلّمةٌ ببياض وحمرة، وقال غيره: مسوّمة بعلامة يعلم بها أنها ليست من حجارة الدنيا ويعلم بسيماها أنها مما عذّب الله بها"[2]. وبهذا يكون المعنى اللغوي معنى يتماشى وارتباط **السيمة** بالعلامة. وأمّا" السومة بالضم، العلامة تجعل على الشاة وفي الحرب أيضا، تقول منه: تسوّم، قال أبو بكر: قولهم عليه سيما حسنة معناه علامة، وهي مأخوذة من وسمت أسم، والأصل في سيما وسمى، فحوّلت الواو من موضع الفاء فوضعت في موضع العين"[3]. فلما ينظر الأعرابي في الشاة بتلك السومة والعلامة سيدرك من هي الشاة المعنية، والغرض من شرائها، ولمن هي، و"في الحديث: قال يوم بدر سوّموا فإن الملائكة قد سوّمت، أي اعملوا لكم علامة يعرف بها بعضكم بعضا"[4]، وممّا قاله الراجز:"

غلام رماه الله بالحسن يافعا   له سيماء لا تشق على البصر"[5].

(*) هناك اختلاف بين الدارسين في إثبات الياء اللاحقة بالسين في كلمة سيمياء، ولكننا آثرنا استخدامها وفق ما جاء في الأصل الشعري، وما أثبته ابن خلدون في مقدمته على غرار العلوم التالية: الكيمياء والفيزياء.

(1) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ج12، بيروت، ص 310.

(2) المصدر نفسه، ص 312.

(3) المصدر السابق، ص 312.

(4) المصدر نفسه، ص 312.

(5) المصدر نفسه، ص 312.

بمعنى أعطى اللهُ الغلامَ حسنا وجمالا، يدركه البصر، وهي سمة تبدو للنـــاظر ولا تخفى عليه. وبرواية أخرى" أنشد لأسيد ابن عنقاء الفزاري يمدح عميلة حين قاسمه ماله:

غـــلام رمـــــاه بالحسن   له سيمياء لا تشق على البصر"[1].

ويقول ابن منظور مواصلا: "قال تعالى: {سيماهم في وجوههم}"[2]، وهـــي تلك العلامة في أعلى الجبين من الآثار التي يتركها السجود على الوجـــه، وهـــي علامة على كثرة الصلاة والتقوى والإيمان.

أورد "ابن خلدون" (732هـــ-808هـــ) في الفصل الثلاثين من الجزء الثـــاني من مقدمته عن "**علم أسرار الحروف**" ما يلي: "المسمى بهذا العهد **بالسيمياء** نقل وضعه من الطّلسمات إليه في اصطلاح أهل التصرف من المتصـــوفة، فاســـتعمل استعمال العام في الخاص. وحدث هذا العلم في الملة بعد صدر منها، وعند ظهور الغلاة من المتصوفة، وجنوحهم إلى كشف حجاب الحس، وظهور الخوارق علـــى أيديهم والتصرفات في عالم العناصر... فحدث لذلك علم أسرار الحروف، وهـــو من تفاريع السيمياء لا يوقف على موضوعه ولا تحاط بالعدد مسائله، وتعددت فيه تآليف البوني وابن العربـــي وغيرهما ممن تبع آثارهما"[3]. نفهم من هذا القـــول أن السيمياء حسب ابن خلدون قد ارتبط بالمتصوفة الغلاة منهم، بحيث كانوا يدّعون علم الغيب بواسطة ممارسات عجيبة يقومون بها، ويقولون بأنها تحمـــل الحقـــائق وأحوال الغيب، فقد فصّل ابن خلدون في كتابه في ذلك بواسطة حسابات حرفية معقدة وغير مفهومة تكشف عن المستور عند هؤلاء القوم...

كما كان للسيمياء من حيث الرسم والطبيعة علاقة بالكيمياء القديمة خاصة عند "جابر ابن حيان"، الذي اعتنى بمزج العناصر والحوامض والمعادن والأعشاب، وتحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة كالذهب والفضة... كمـــا عكســـت

---

(1) المصدر نفسه، ص 313.

(2) المصدر نفسه، ص 312.

(3) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج2، تح: عبد الله محمد الـــدرويش، ط1، ســـورية، 2004م، ص 282.

مفهوما دار في فلك السحر... يقول فيصل الأحمر" لقد تعددت استعمالات مصطلح سيمياء كعلم عند العرب قديما، فهذا (ابن سينا) في مخطوطة له بعنوان "كتاب الدر النظيم في أحوال علوم التعليم"، وفي فصل تحت عنوان: علم السيميا يقول: علم السيميا، علم يقصد فيه لكيفية تمزيج القوى التي في جواهر العالم الأرضي ليحدث عنها قوة يصدر عنها فعل غريب، وهو أيضا أنواع... فيذكر تلك الأنواع، وهي متعلقة بالحركات العجيبة التي يقوم بها الإنسان وبعضها متعلق بفروع الهندسة، أما البعض الآخر فمتعلق بالشعوذة"[(1)]. فلقد فرّق ابن سينا بين نوعين منها، نوع ينتمي إلى الكيمياء بمزج العناصر وإنتاج عناصر جديدة، وهذا طبيعي في الكيمياء، فهي تتجلى بأعجوبة لمن لا يفهم هذا العلم، وهناك نوع آخر ينتمي إلى الشعوذة والسحر والخرافة، فقد عنت السيمياء بهذا كشف المستور واستخراج الخبايا للعيان، فهي نوع من التأويل وسبر للأمور الغائبة.

يقول "ابن خلدون" عن ارتباط السيمياء بالسحر مايلي: "هذه السيمياء كما تحقق لك أنها ضرب من السحر يحصل برياضات شرعية"[(2)]، إذ تحصل بالتدريب والمراس رياضيا، وبالشرع، حيث يواصل قائلا: "ويتمسكون بالوجهة الشرعية لعمومها وخلوصها كما فعل البوني في كتاب الأنماط وغيره من كتبه، وفعله غيره، وسموا هذه الطريقة السيمياء توغلا في الفرار من السحر، وهم في الحقيقة واقعون في معناه، وإن كانت الوجهة الشرعية حاصلة لهم"[(3)]؛ فالسيمياء ضرب من السحر، وضرب من الفرار منه أيضا، أمّا رسمه فمن الواضح ارتباطه بالكيمياء، كما لا ينفك الواحد منهما يحيل إلى العلم المرتبط به. و"من فروع علم السيمياء عندهم استخراج الأجوبة من الأسئلة بارتباطات بين الكلمات حرفية يوهمون أنها أصل في معرفة ما يحاولون علمه من الكائنات الاستقبالية، وإنما هي شبه المعاياة والمسائل السيّالة"[(4)]، فعلم أسرار الحروف هو فرع من علم السيمياء عند ابن

(1) فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، منشورات الاختلاف، ط1، 2010م، الجزائر، ص 30، 31.
(2) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج2، ص 285.
(3) المصدر السابق، ص 286.
(4) المصدر نفسه، ص 287.

خلدون؛ وهو حسابات وتقليبات حرفية يحاولون بها ولوج علم الغيب فيما يستقبل من الزمن.

كما أورد "صديق بن حسن القنوجي" (ولد 1307هـ/1889م) في كتابه ما يلي: "ظهر بالمشرق جابر ابن حيان كبير السحرة في هذه الملة، فتصفح كتب القوم واستخرج الصناعة، وغاص على زبدتها واستخرجها ووضع فيها غيرها من التآليف، وأكثر الكلام فيها وفي صناعة السيمياء لأنها من توابعها، لأن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العملية فهو من قبيل السحر"[1]. فالسيمياء حسب ما أورد القنوجي فرع من السحر، لأن الكيمياء عند القنوجي تكون بالممارسة العملية، لا بالممارسة النفسية، و"الشعبة الثالثة في العلم الطبعي، وله سبعة فروع، وعند البعض عشرة وهي: علم الطب، علم البيطرة والبيزرة... علم السحر، علم الطلسمات، علم السيميا، علم الكيمياء، علم الفلاحة"[2]؛ فلقد اعتبر القنوجي السيميا من علوم الطبيعة، كما قرن وقرّب السيمياء من الكيمياء والطلسمات؛ و"أما العنصرية فالطلسمات، والأجسام المركبة إما ما لا يلزمه مزاج وهو علم السيمياء، أو يلزمه مزاج فأما بغير ذي نفس فالكيمياء"[3]. فمالا يلزمه مزاج هو السيمياء؛ بمعنى لا يتم باختبارات وأمزجة وعناصر مركبة، وما يلزمه مزاج؛ فهو الكيمياء التي تعتمد على المزج بين العناصر، وأما بغير ذي نفس فالكيمياء، أي لا يتم إلاّ بالمزج والخلط، ولا تلزمه قوى نفسية مجردة وغائبة عن العين والتجريب.

نستنتج مما سبق أن السيمياء بهذا المعنى قد قاربت معناها اللغوي عند "ابن منظور"، كما تتفق عنده والمفهوم المعاصر أي؛ العلامة التي تظهر للناظر كدال يوحي بمدلول معين، أما عند كل من ابن سينا وابن خلدون والقنوجي، فقد تراوحت بين السحر والطلسمات، حيث عبّرت عن استجلاء المستور وتقريبه إلى المعاينة والكشف والتجلي.

---

(1) صديق بن حسن القنوجي، أبجد العلوم، الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، إعداد: عبد الجبار زكار، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1978م، ص 319، 320.

(2) المصدر نفسه، ص 13.

(3) المصدر السابق، ص 13.

ب) التفكير الدلائلي في التراث البلاغي العربي القديم

ب-1) الجاحظ

يعتبر الجاحظ من أبرز البلاغيين الذين أولوا عنايتهم بدراسة أنواع العلامات عبر البيان حيث يقول: "والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأنّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[(1)]، فالبيان طريق إلى الدلائلية، سواء أكان ذلك بأدوات لغوية أم غير لغوية، فيمكن أن تتواجد الدلالات عبر اللغة كما يمكن لها أن تتم بعناصر خارجة عن إطار اللغة، لكن الهام في كل ذلك أن يتضح المعنى وينجلي عبر الإفهام والإبانة.

أمّا أنواع العلامات عبر الدلالات المختلفة فيجملها قائلا: "جميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها **اللفظ**، ثم **الإشارة**، ثم **العقد**، ثم **الخط**، ثم الحال التي تسمى **نصبة**، والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصر عن تلك الدلالات، ولكل واحد من هذه الخمسة صور بائنة من صورة صاحبتها وحلية مخالفة لحلية أختها"[(2)]. يظهر الجاحظ من خلال هذا التحديد مدركا تمام الإدراك لماهية تصنيف الدلالات والعلامات، سواء العلامات اللفظية منها أم غير اللفظية، والتي تساهم في تحقيق المعنى والمفاهمة بين المرسل والمستقبل، كما أنه واع تمام الوعي للفرق الدقيق بينها، وأنّها مختلفة ومقسمة وإن كان الغرض واحدا؛ حيث: "يمكننا القول إنَّ التصور السيميائي للعلامة عند الجاحظ هو تصور بياني لذا وجدنا عمر أوكان يفردُ للجاحظ عنصرًا في كتابه: "اللّغة والخطاب" يُعنونه بـ: "الجاحظ وسيميائية البيان"، وذلك **بعد حديث شامل عن تناول الدلالة وكيفية** استقلالية

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 76.
(2) المصدر السابق، ص 76.

البعض منها عن الآخر بين الحيوان والإنسان في الاستدلال والبيان"[1].

يشرح الجاحظ اللفظ انطلاقا من المعنى فيقول: "قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس، المتصورة في أذهانهم، والمتخلّجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية... وإنما يُحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إيّاها. وهذه الخصال هي التي تقرّبها من الفهم، وتجليها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهرا، والغائب شاهدا، والبعيد قريبا... والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه، ويدعو إليه ويحث عليه. بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم"[2]. فالألفاظ – حسب الجاحظ – هي عبارة عن تجسيد واستعمال للمعاني التي كانت خفية ومستورة، ودور هذه الألفاظ هو الإفهام والبيان والتوضيح، كالقرآن الكريم وأشعار العرب وخطبهم وأقوالهم، وبه يتميز الإنسان ويسمو بنفسه، فلا لفظ دون معنى، علما أنه ينتصر للفظ ويشيد بمزيته وقيمته في مقابل المعنى.

يقول الجاحظ: "فأمّا الإشارة فاليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب إذا تباعد الشخصان، وبالثوب والسيف. وقد يتهدد رافع السيف والسوط، فيكون ذلك زاجرا، ومانعا ورادعا، ويكون وعيدا وتحذيرا"[3]، فالإشارة علامة من العلامات التي تساهم في التبليغ والتوصيل، كما يمكن للإنسان أن ينتج عبرها معنى مرتبطا بأوضاع جسده أو ما يرتبط بهذا الجسد من لباس وأدوات وألوان، كما أنّ: "الإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له ونعم الترجمان هي عنه. وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط"[4]. فالإشارة مرتبطة ومدعمة للفظ ومكملة له، فهي تزيد من كمال الخطاب ومن جودة التبليغ والتفاهم، كما أن المتكلم في بعض الحالات يلجأ إلى الإشارة في خطابه كي يستغني عن الشرح والكلام والتفصيل، وكما يقال: اللبيب بالإشارة يفهم.

---

(1) نظام التواصل السيميولساني في كتاب الحيوان للجاحظ – حسب نظرية بورس –. ص 221.

(2) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 75. (بتصرف)

(3) المصدر السابق، ص 77.

(4) المصدر نفسه، ص 78.

وفي فضل الإشارة كذلك قال: "... الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير وعونة حاضرة، في أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفوها من الجليس وغير الجليس. ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص، ولجهلوا هذا الباب البتة"[1]. يقول الشاعر:

"العين تبدي الذي في نفس صاحبها   من المحبة والبغض إذا كانا

والعين تنطق والأفواه صامتة   حتى ترى من ضمير القلب تبيانا"[2]

حيث تختص الإشارة – حسب الجاحظ – بالمعاني الخفية التي يريد المتكلم أن يبلغها للسامع، كما يمكن للمتمرس عبر العين أن يصل إلى المبتغى، رغم ما يضمر من معاني النفس، فكما أن السامع يلتقط الألفاظ ويحللها ويستجلي معناها، فالأمر كذلك مع الإشارة.

وأمّا **العقد** فهو: "ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين، يقال له حساب اليد. وقد ورد في الحديث أنه: عقد التسعين"[3]. كما قال الجاحظ: "وأما القول في العقد، وهو الحساب دون اللفظ والخط، فالدليل على فضيلته، وعظم قدر الانتفاع به، قول الله عز وجل: {فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم}"[4]. العقد[*] إذًا هو أحد أقسام العلامات، والذي يكون حسابا عبر الأصابع، فلقد" ميّز الجاحظ بينه وبين الحساب باللّفظ الصريح؛ فلا هو **حساب باللّفظ ولا بالخط بل باليد**، وهي الوسيلة الوحيدة المتبقية للحساب، إنما يختلط الأمر على الباحث حين يسرد

---

(1) المصدر نفسه، ص 79.

(2) المصدر نفسه، ص 79.

(3) المصدر السابق، ص 76.

(4) المصدر نفسه، ص 80.

(*) ويضيف كذلك حول العقد الذي من معانيه الحساب قائلا: "والحساب يشتمل على معان كثيرة ومنافع جليلة، ولولا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدنيا لما فهموا عن الله عز وجل معنى الحساب في الآخرة. وفي عدم اللفظ وفساد الخط، والجهل بالعقد فساد جل النعم وفقدان جمهور المنافع واختلال كل ما جعله الله عز وجل لنا قواما، ومصلحة ونظاما. ينظر: المصدر نفسه، ص 80.

الجاحظ معظم الحجج القرآنية التي تخص الحساب للدلالة على الاشتمال، الأمر الذي شرحه عبد السلام هارون في هامش العقد في (كتاب الحيوان) بإسهاب على أنه؛ وسيلة كانت شائعة في وقت الجاحظ، وأكدّها البغدادي بأنها حساب باليد أي بالأصابع"[1].

يخص الصنف الرابع من الدلالة **الخط**، حيث يوضح الجاحظ ذلك بقوله: "فأما الخط. فممّا ذكر الله عز وجل في كتابه من فضيلة الخط والإنعام بمنافع الكتاب، قوله لنبيه عليه السلام: {اقرأ وربك الأكرم، الذي علّم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم} الآية... ولذلك قالوا: القلم أحد اللسانين، كما قالوا: قلة العيال أحد اليسارين. وقالوا: القلم أبقى أثرا، واللسان أكثر هذرا"[2]. فنظرا لأهمية الكتابة والخط في حفظ العلوم ومدى دوره في نقل المعرفة عبر الزمان والمكان، فقد احتل مكانة هامة بين العلامات، و"من خلال بقائنا في حدود نصِ الجاحظ حول الخط، نلفي فرقا هاما وملفتا للانتباه في ختامه؛ إنّه الفرق الأخير بين الحروف المجموعة والمصورة من الصوت المقطع في الهواء ومن الحروف المجموعة المصورة من السواد في القرطاس، وهو مفهوم عام من اللّغة بين التصويت والكتابة؛ أي بين الحرف والصوت، فالصوت إيصالي والحرف إيصالي في الجوهر، ولكنّ الحرف ليس صوتًا، فالأول وسيلة مكتوبة والثاني وسيلة منطوقة"[3].

وآخر نوع من أنواع العلامات هو: "النصبة: فهي الحال الناطقة بغير اللفظ، والمشيرة بغير اليد. وذلك ظاهر في خلق السماوات والأرض، وفي كل صامت وناطق، وجامد ونام، ومقيم وظاعن، وزائد وناقص. فالدلالة التي في الموات الجامد كالدلالة التي في الحيوان الناطق. فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء معربة من جهة البرهان"[4]، وتذليلا لما سبق يردف الجاحظ قائلا: "سل الأرض فقل: من شق أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حوار

---

(1) نظام التواصل السيميولساني في كتاب الحيوان للجاحظ – حسب نظرية بورس –. ص 248. (بتصرف)

(2) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 79.

(3) نظام التواصل السيميولساني في كتاب الحيوان للجاحظ – حسب نظرية بورس –. ص 235.

(4) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 81.

أجابتك اعتبارا"[1]، ويضيف كذلك قائلا: "ومتى دل الشيء على معنى فقد أخبر عنه وإن كان صامتا، وأشار إليه وإن كان ساكتا. وهذا القول شائع في جميع اللغات، ومتفق عليه مع إفراط الاختلافات"[2]. ذلك أنّ العلامات دالة بحالها؛ فالسحاب دال على المطر ورياح الجنوب دالة على الغيث، بالرغم من أنهما ينتميان إلى الطبيعة لكنّهما حاملان للدلالة في ذاتهما.

ب-2) أبو هلال العسكري (ت 411هـ)

اشتمل كتاب "الفروق اللغوية" لأبي هلال العسكري، على عدة أفكار وقيم بلاغية وسيميائية، نشرعها بقوله في الباب الثالث من أنّ: "الفرق بين الدلالة والدليل، أن الدلالة تكون على أربعة أوجه: أحدها ما يمكن أن يستدل به، قصد فاعله ذلك أو لم يقصد، والشاهد أن أفعال البهائم تدل على حدثها، وليس لها قصد إلى ذلك والأفعال المحكمة دلالة على علم فاعلها وإن لم يقصد فاعلها أن تكون دلالة على ذلك، ومن جعل قصد فاعل الدلالة شرطا فيها احتج بأن اللص يستدل بأثره عليه، ولا يكون أثره دلالة، لأنه لم يقصد إلى ذلك، فلو وصف بأنه دلالة لوصف بأنه دال على نفسه، وليس هذا بشيء لأنه ليس بمنكر في اللغة أن يسمى أثره دلالة"[3].

فلقد قسّم أبو هلال العسكري الدلالة إلى أربعة فروع، وأول هذه الفروع ما يستدل به حتى وإن لم يكن هناك قصدية في هذه الدلالة، فهو يضمها إلى فئة الدلالات كآثار الحيوان الذي لا يقصد إلى ترك الأثر، وآثار اللص الذي يترك دليلا خلفه...، فكل هذه الآثار فروع من الدلالات غير المقصودة، كما أنّ هناك من الدارسين من يعترض على عدم وجود القصدية، ولكن العسكري ينوه بأن ذلك ليس بمنكر ولا بممنوع في اللّغة، ثم واصل قائلا: "والثاني العبارة عن الدلالة، يقال للمسؤول: أعدد دلالتك"[4]. أي إئتني بعبارتك التي تدل على فعل أو قول

---

(1) المصدر نفسه، ص 81.

(2) المصدر نفسه، ص 81، 82.

(3) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، تح وتعليق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، ص 68.

(4) المصدر نفسه، ص 68.

ما، فينبغي للمتكلم المسؤول أن يستحضر العبارات التي يجيب بها المستمعين المطالبين بشيء أو حجة ما. أمّا الفرع الثالث من الدلالات: "الشبهة، يقال: دلالة المخالف كذا، أي: شبهته"[1]. فالشبهة حسب العسكري دلالة، إذ ترتبط بمن يخالف – مثلا – رأي العلماء، أو أعراف المجتمع، أو يأتي بشيء خارج عن الأصول المتعارف عليها عند أهل المعرفة والعلم. في حين يكون الفرع الأخير من الدلالة: "الأمارات، يقول الفقهاء: الدلالة من القياس كذا، والدليل فاعل الدلالة"[2]. ولقد مثّل العسكري لهذا النوع من الدلالات بالقياس عند الفقهاء، فالأمارات والأدلة التي يعتمد عليها الفقيه في استجلاء الدلالة ضرورية ولازمة، حيث لا تكون إلا عبر الاستدلال والحجج[*]. يقول حنون مبارك حول الأمارة: "ففي الأمارة إذن، تقوم العلاقة بين الدال والمدلول على الطبع، إلاّ أن هذه العلاقة قد تتراخى بحكم تعدد المدلولات للدال الواحد أو بحكم عدم شرطية الدال للمدلول المخصوص. أي أن الطبيعة لا تنضبط لاختلاف الطبائع"[3]. حيث تتعدد المدلولات في الأمارة حسب مبارك حنون وتختلف لعدم شرطية ارتباط الدال بمدلول معين، لأن لكل شخص فهمه واستيعابه ورأيه، فهي باب من أبواب الثراء المعنوي.

---

(1) المصدر نفسه، ص 68.

(2) المصدر نفسه، ص 68.

(*) ذكر العسكري الفرق بين الاحتجاج والاستدلال، فالفرق: "أن الاستدلال طلب الشيء من جهة غيره، والاحتجاج هو الاستقامة في النظر على ما ذكرنا سواء كان من جهة ما يطلب معرفته أو من جهة غيره". فهو لما يشرح الاستدلال يفسره تفسيرا منطقيا، فنحن في هذه الحالة نستعين بعلامة هي بدورها تحيل على علامة أخرى بربط قضيتين أو أكثر مع بعضهما لتحقيق معنى وهدف ما. ولما يشرح العسكري الاحتجاج فإنه يعني به أنه أوسع من الاستدلال، فهذا الأخير هو جزء من الاحتجاج، فيمكن أن يحتج باحث ما أو عالم وهو يريد أن يصل إلى نتيجة انطلاقا من مقدمة محددة وفق قضية أو قضايا مترابطة؛ فيحقق معنى وغاية بإتباع طريق مدروسة ومستقيمة من حيث النظر والتمحيص المعرفي. المصدر السابق، ص 70.

(3) مبارك حنون، "في السيميائية العربية، قراءة في نصوص قديمة، –القسم الثاني–"، مجلة دراسات أدبية ولسانية، ع: 06، ربيع 1987م، المغرب، ص 107.

ذكر العسكري الفرق بين الدلالة والعلامة، بقوله إن: "الدلالة على الشيء ما يمكن كل ناظر فيها أن يستدل بها عليه كالعالم لما كان دلالة على الخالق كان دالا عليه لكل مستدل به. وعلامة الشيء ما يعرف به المعلّم له، ومن شاركه في معرفته دون كل واحد كالحجر تجعله علامة لدفين تدفنه، فيكون دلالة لك دون غيرك، ولا يمكن غيرك أن يستدل به عليه إلاّ إذا وافقته على ذلك، كالتصفيق تجعله علامة لمجيء زيد، فلا يكون ذلك دلالة إلاّ لمن يوافقك عليه... فالعلامة تكون بالوضع والدلالة بالاقتضاء"[1]. تكون الدلالة في هذه الحالة بالنظر إلى هذا العالم العجيب، كما يستدل عليه بالخالق المستدل به.

أما العلامة فتتم بالمواضعة، فإمّا أن تكون من جانب شخص واحد، أو عدد من الأشخاص حسب العسكري، ولمّا يخبر صاحب المواضعة أشخاصا آخرين حول شيء ما فسيكون ذلك بغرض مشاركتهم في الأمر عبر العلامة، كالتصفيق الذي يدل مثلا المدح أو الذم الناتج عن موقف معين؛ إما استهزاءً أو فرحا وبهجة. فالعلامة قبل الأثر منها؛ لأنّ" أثر الشيء يكون بعده، وعلامته تكون قبله، تقول: الغيوم والرياح علامات المطر، ومدافع السيول آثار المطر"[2]؛ حيث يبدو من هذا أن العلامة والأثر مترابطان، والعلامة تستدعي الأثر، الذي يلحق بالعلامة، فالغيم علامة المطر، والسيول أثر لها؛ في حين تكون السمة نوعا خاصا من هذه العلامات؛ ذلك" أن السمة ضرب من العلامات مخصوص، وهو ما يكون بالنار في جسد الحيوان، مثل سمات الإبل وما يجري مجراها وفي القرآن قوله تعالى: {سنسمه على الخرطوم}، سورة القلم الآية 16، وأصلها التأثير في الشيء ومنه الوَسمى لأنه يؤثر في الأرض أثرا، ومنه الموسم لما فيه من آثار أهله، والوسمة: معروفة سميت بذلك لتأثيرها فيما يخضب بها"[3]. فالسمة هي جزء من العلامات وفرع منها، وهي ترك الأثر للدلالة على الشيء، وقد عرف العرب بوضع السمات على البهائم وفي الأراضي التي يرعون فيها، وعلى مختلف الأشغال التي

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص 70، 71.
(2) المصدر السابق، ص 71.
(3) المصدر نفسه، ص 71.

يمارسونها كالصباغة، والأسلحة، وما تحمله من آثار ذات معنى.

نصل عبر ما تقدم إلى أنّ البيان عند أبـــي هلال شأنه شأن الجاحظ قد ولد أفكارا سيميائية قيّمة، أبرزت عمق التفكـــر في الـــدلائل، فجملـــة الإشـــارات السيميائية، هي من صميم البيان وفاعل من فواعله، وهو مـــا جعـــل البلاغـــيين القدامى على إدراك ملفت للانتباه للفروق في المفاهيم؛ مثلما أظهر ذلك مجهـــود أبـــي هلال العسكري المحمود.

ب-3) ابن حزم الأندلسي (ت 456هـ)

يقول ابن حزم الأندلسي في كتابه "التقريب لحد المنطق": "ثم نرجع فنقـــول إن الصوت الذي يدل على معنى ينقسم قسمين: إما أن يـــدل بـــالطبع وإمـــا أن يـــدل بالقصد، فالذي يدل بالطبع هو كصوت الديك الذي يدل في الأغلب على الســـحر، وكأصوات الطير الدالة على نحو ذلك، وكأصوات البلارج والبرك والأوز والكـــلاب بالليل الدالة في الأغلب على أنها رأت شخصا، وكأصـــوات الســـنانير في دعائهـــا أولادها، وسؤالها وعند طلبها السفاد وعند التضارب، وكل صوت دل بطبعه علـــى مصوته كالهدم ونقر النحاس وما أشبه ذلك من أصوات الحيوان غير الإنسان. فهـــذه إنما تدل على كل ما ذكرناه بالعادة المعهودة، مما في شاهدة تلك الأصـــوات لا أنـــا نفهمها كفهمنا ما نتخاطب به فيما بيننا باللغات المتفق عليها بين الأمم التي نتصـــرف بها في جميع مراداتنا..."[1]، ثم قال: "وأما الصوت الذي يدل بالقصد فهـــو الكـــلام الذي يتخاطب الناس به فيما بينهم ويتراسلون بالخطوط المعبرة عنه في كتبهم لإيصال ما استقر في نفوسهم من عند بعضهم البعض"[2]. نفهم من خلال هـــذا القـــول أنّ أصوات الطبيعة ذات معنى سواء أكانت قصدية أم لا، وهي إذ تنتمي إلى الملفوظ فإنّها قد تدل بالطبع أو بالعادة، لكنها قد تكون مقصودة أيضا كأصوات البشر...، الأمـــر الذي التفت إليه ابن حزم ووجد طريقه إلى الدراسات التواصلية المعاصرة.

---

(1) ابن حزم الأندلسي، التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، تح: أحمد فريد المزيري، دار الكتب العلمية، لبنان، ص 17، 18.

(2) المصدر نفسه، ص 18.

كما قدّم ابن حزم تقسيما لدلالة الألفاظ قائلا: "إن دلالة اللفظ على المعنى ينحصر في ثلاثة أوجه: وهي المطابقة والتضمن والالتزام. فإن لفظة البيت تدل على معنى البيت بطريق المطابقة، وتدل على السقف وحده بطريق التضمن، فإن البيت يتضمن السقف، لأن البيت عبارة عن السقف والجدران، وكما يدل لفظ الفرس على الجسم إذ لا فرس إلاّ وهو جسم، إذ وجدنا الجسمية في الفرسية مهما قلنا فرس، فلنصطلح على تسمية هذا الوجه تضمنا وعلى تسمية الوجه الأول مطابقة"[1].

لقد قدم ابن حزم تقسيما منطقيا عقليا لدلالة الألفاظ، فلما يُعمل السامع فكره في علامة لفظية ما فإنه سيجدها تحتوي هذه الأقسام؛ فكلمة "زيد"؛ تدل على معناها عن طريق التطابق، وهو الاسم العلم المعروف لدى الجميع مواضعةً، كما تدل اللفظة ذاتها "زيد" على الرأس مثلا عن طريق التضمن، فإن زيدا يتضمن الرأس، إلى جانب دلالتها على الالتزام مثلا كونه يشغل حيزا من الفضاء، لأنّ كل إنسان هو جسم، وكل جسم شاغل للفضاء، فعن طريق هذه الكيفية كان المناطقة والبلاغيون يقسمون الدلالات اللفظية، لاسيما في المرحلة المتأخرة من البلاغة لما تسلل إليها المنطق والتوجه العقلي الفلسفي.

ولنا أن نتوقف عند ما قام مبارك حنون باستنباطه حول **دلالة المطابقة**[2]:

1- مطابقة الدال للمدلول وموافقته له، أي كونُ الدال يثير في الذهن المدلول بأتمه غير ناقص، ولا يثير في الذهن شيئًا غريبا عنه.
2- مطابقة الدال لتمام المسمى (= لكمال المسمى) أو لتمام الموضوع له، أي كونُ الدال يثير في الذهن الموجود الخارجي كاملاً ولا شيء غيره.
3- مطابقة المدلول والموضوع له والموافقة بينهما، أي كون المدلول يشير إلى الموجود الخارجي في كليته دون الإشارة إلى غيره، وكون المعنى والقصد ينحصر في تمام الموضوع له.

---

(1) المصدر نفسه، ص 207.

(2) مبارك حنون، "في السيميائية العربية، قراءة في نصوص قديمة، -القسم الثاني-"، ص 107، 108.

فلقد استحدث الدارسون القدامى هذا القسم من الدلائل بغرض توظيفه في فهم المقصود المباشر من العلامات اللفظية، وهو أول نشاط ذهني يقوم به الإنسان عند تلقيه الدوال.

أمّا عن **دلالة التضمن** فقد استنبط حنون مبارك عدة معانٍ أجملها فيما يلي:[1]

1- أن الدال يحيل على جزء المسمى أو جزء الموضوع له، أي يشير إلى جزء من سمات الموضوع له أو المرجع.
2- أن الدال يحيل على جزء المعنى، أي على بعض سمات المعنى.
3- أن الدال يحيل على المعنى، غير أن المعنى لا يطابق المدلول وإنما يتضمن جزء المدلول، أي بعضا من سمات المدلول.
4- أن إدراك جزء المعنى لا يتم ما لم يدرك الكل.

فعبر هذه الطريقة من الفهم المعنوي عند العرب القدامى، يصير الدال مجزأً إلى مدلولات، ويتم فهم جزء من المعنى بما يتوافق مع رغبة المفسر أو القارئ، ومع ما يتوافق مع المعنى العام الكلي.

وعن **دلالة الالتزام** يقول حنون مبارك: "يتضح... أن الملازمة هي الاقتضاء وإذن، فالملازمة الذهنية هي الاقتضاء الذهني. وهكذا كلما تصورنا شيئا إلا وتصورنا شيئا ثانيا، فتحدث شبه بين هذين الشيئين (أي علاقة اقتضاء) إلى درجة ليمتنع فيها الانفكاك بينهما. وهذا النوع من الملازمة بين الشيئين الأول والثاني هي بمثابة ملازمة في الذهن. إلا أن هناك نوعا ثانيا من الملازمة ويتعلق الأمر باقتضاء شيء في الخارج لشيء في الذهن، فتحدث نسبة بين الشيء الخارجي والمتصوّر الذهني. وهذا النوع الثاني هو عبارة عن ملازمة في الخارج وفي الذهن"[2]. فعن طريق دلالة الالتزام نقوم باستدعاء دلالات كانت خفية وبعيدة عن طريق العقلنة والاستنتاج، فهي وسيلة لكشف الغائب المعنوي، وأسلوب مميز للثراء الدلالي.

---

(1) المرجع نفسه، ص 108، 109.

(2) المرجع السابق، ص 110، 111.

ب-4) عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ)

يقول عبد القاهر الجرجاني ضمن شرحه لمفهوم "معنى المعنى"؛ "الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلا بالخروج على الحقيقة فقلت خرج زيد، وبالانطلاق عن عمرو فقلت: عمرو منطلق، وعلى هذا القياس، وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل"[(1)].

يدلنا عبد القاهر عبر ما تقدم إلى أن الصور البيانية تشتغل اشتغالا دلائليا، حيث نجد علامة أولية هي المعنى الحقيقي (الأولي)، ثم تفضي هذه العلامة الأولية إلى علامة ثانية هي المقصودة من هذه الصور؛ حيث قد تفطّن عبد القاهر لهذه العملية في القرن الخامس للهجرة، فالمعاني متشابكة ومفضية لعلامات مجاورة في الصور البيانية، عكس اللفظ الذي يدل في الحقيقة على معناه المباشر. إذ يواصل مفصلا ما تقدمّ بقوله: "وإذا قد عرفت هذه الجملة فها هنا عبارة مختصرة، وهي أن تقول المعنى ومعنى المعنى، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذاك المعنى إلى معنى آخر كالذي فسّرت لك"[(2)]؛ فعمل الصور البيانية هو نشاط عقلي محض، نربط فيه الدلالة المجازية انطلاقا من الدلالة الحقيقية حتى نكشف المعنى ونستجليه. فلما نكون بصدد اكتشاف نشاط الصور البيانية نجدها تتراوح بين البساطة والتعقيد إلى حد التعتيم، كالمجازات صعبة التصنيف والفهم والتفسير، لأن الصور تتداخل فيها بكثافة، كما فصّل عبد القاهر عمل العناصر البيانية بمقارنتها ببعضها البعض حتى لا تلتبس بل لتحتكم إلى التفسير العقلي، فدلالة المجاز تختلف في فهمها عن دلالة الحقيقة، والتي تعتبر سندا لكشف دلالة المجاز.

---

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 202.

(2) المصدر السابق، ص 203.

ساق "عبد القاهر" أمثلة عديدة حول قضية "معنى المعنى" فقال: "أولا ترى أنك إذ قلت: هو كثير رماد القدر، أو قلت: طويل النجاد، أو قلت في المرأة: نؤوم الضحى، فإنّك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ، ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانيا هو غرضك كمعرفتك من كثير رماد القدر أنه مضياف ومن طويل النجاد أنه طويل القامة ومن نؤوم الضحى في المرأة أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها"(1). فليس لمن لا يفقه العربية في أسلوبها الحقيقي من سبيل إلى المعنى المجازي، لأن المجاز يعتمد على دلالات علامات متناصة، علامة أولية هي معنى الحقيقة، ثم يؤدي بنا هذا الفهم الأولي إلى الفهم الثاني الذي هو المقصود من الكلام، أي ما يدل على وجود تفكير دلائلي بلاغي عند عبد القاهر؛ الذي أدرك أن للبيان معنى يختلف عن المعاني في العلوم المجاورة، كما يجب أن يتعامل مع البيان بتوصيف خاص حتى لا يستعصي الاستعمال المجازي عن الفهم.

ب-5) الراغب الأصفهاني (ت 502هـ/1108م)

أورد "الراغب الأصفهاني" في كتاب: "المفردات في غريب القرآن" ما يلي: "دلّ: الدلالة ما يتوصل به إلى معرفة الشيء كدلالة الألفاظ على المعنى ودلالة الإشارات والرموز والكتابة والعقود في الحساب، وسواء كان ذلك يقصد ممن يجعله دلالة أو لم يكن يقصد، كمن يرى حركة إنسان فيعلم أنه حي، قال تعالى: {ما دلّهم على موته إلاّ دابة الأرض تأكل منسأته}، سورة سبأ، الآية 14"(2)؛ فكلمة (دلّ) و(دلالة)تضمان تحتهما كل ما يؤدي إلى المعنى من لفظ، وإشارة، ورمز، وخط، وعقد، وحساب، وحركة، وما إلى ذلك، فمفهومها عنده واسع. كما يظهر أنه متأثر بالجاحظ في فكرة (الخط والعقد والحساب واللفظ والإشارة). رغم كونه لا يشترط القصدية في ذلك، فكل ما يدل هو ذو دلالة سواء أكان

---

(1) المصدر نفسه، ص 202، 203.

(2) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تح: مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، ج1، مكتبة نزار مصطفى الباز، ص 228.

ذلك بقصد أم بعدمه، لأنّ" أصل الدلالة مصدر كالكناية والأمارة، والدال من حصل منه ذلك، والدليل في المبالغة كعالم وعليم وقادر، وقدير، ثم يسمى الدال والدليل دِلالة كتسمية الشيء بمصدره"[1]. وهو ما يعكس الأقسام التي تشترك فيه من دال ودليل.

ب-6) حازم القرطاجني (ت 684هـ)

يقول حازم القرطاجني في كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء": "إن المعاني هي الصور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان. فكل شيء له وجود خارج الذهن فإنه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق لما أدرك منه، فإذا عبّر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك أقام اللفظ المعبر به هيئة تلك الصورة الذهنية في أفهام السامعين وأذهانهم، فصار للمعنى وجود آخر من جهة دلالة الألفاظ"[2]. ثم قال: "فإذا أحتيج إلى وضع رسوم من الخط تدل على الألفاظ من لم يتهيأ له سمعها من المتلفظ بها صارت رسوم الخط تقيم في الأفهام هيآت الألفاظ، فتقوم بها في الأذهان صور المعاني فيكون لها أيضا وجود من جهة دلالة الخط على الألفاظ الدالة عليها"[3].

نفهم من كلام القرطاجني أنه قدّم تحليلا لكيفية اشتغال المعنى عبر الألفاظ، فهو ينبه إلى دور العالم الخارجي أي المرجع في الدلالة ويسميه "خارج الذهن". فاللفظ وسيط بين العالم الخارجي والذهن، وهو مترجم للأشياء الخارجية، أمّا عنصر الإدراك فهو تلك العمليات الذهنية التي يقوم بها الإنسان حتى يطابق الألفاظ بصورها الحقيقية في العالم المحيط بنا. أمّا الخط فهو ترجمان اللفظ، إذْ يستدعيه؛ حتى تحصل الدلالة والفهم، فاشتغال الخط من اشتغال اللفظ السابق له.

(1) المصدر نفسه، ص 228.
(2) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 18، 19.
(3) المصدر نفسه، ص 19.

ب-7) يحي بن حمزة العلوي (ت 705هـ)

للعلوي قولٌ مشابه لقولِ القرطاجني حول مفهوم "الصورة الذهنيـــة" قـــال: "الحقيقة في وضع الألفاظ إنّما هو للدلالة على المعاني الذهنيـــة دون الموجـــودات الخارجية. والبرهان على ما قلناه هو إنّا إذا رأينا شبحا من بعيد وظننـــاه حجـــرا، سميناه بهذا الاسم، فإذا دنونا منه وظننا كونه شجرا، فإنا نسميه بذلك، فإذا ازداد التحقيق بكونه طائرا سميناه بذلك، فإذا حصل التحقيق بكونه رجلا سميناه بذلك، فلا تزال الألقاب تختلف عليه باعتبار ما يفهم منه من الصور الذهنية فدل ذلـــك على أن إطلاق الألفاظ إنما يكون باعتبار ما يحصل في الذهن، ولهذا فإنه يختلـــف باختلافه"[1]. لقد أولى العلوي أهمية للمعاني الذهنية ودورها في توجيه الألفـــاظ، فالأشياء في العالم الخارجي تستدعي الصورة الذهنية الملائمة، إلى جانـــب اللفـــظ المستعمل الملائم أيضا، حيث يتغير اللفظ بتغير المعاني في الأذهان. لأنّ مدار المعـــنى مبني على اللفظ، والعالم الخارجي، والصورة الذهنية.

ب-8) علي بن محمد الشريف الجرجاني (ت 816هـ)

يقول الشريف الجرجاني: "الدليل في اللغة هو المرشد وما به الإرشـــاد، وفي الاصطلاح: هو الذي يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، وحقيقة الـــدليل فهـــو ثبوت الأوسط للأصغر، واندراج الأصغر تحت الأوسط"[2]. ثم قال: "الدلالة هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الـــدال، والثاني المدلول، وكيفية دلالة اللفظ على المعنى باصطلاح علماء الأصول محصورة في عبارة النص وإشارة النص ودلالة النص، واقتضاء النص، ووجـــه ضـــبطه أن للحكم المستفاد من النظم إمّا أن يكون ثابتا بنفس الـــنظم أولا والأول إن كـــان النظم مسوقا له فهو العبارة وإلاّ فالإشارة والثاني أن كان الحكم مفهوما من اللفظ

---

(1) يحي بن حمزة العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج1، دار الكتب الخديوية، مصر، 1336هـــ، ص 36.

(2) علي بن محمد الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، مكتبة لبنـــان، لبنـــان، 1985م، ص 109.

لغة فهو الدلالة"[1]. لقد قدّم لنا الشريف الجرجاني تعريفا آخر للدليل حيث إنّه ينبغي أن يفضي المعنى الأولي إلى معنى ثان هو ردفه في الوجود، ثم يفصل كيف يفضي اللفظ إلى معناه لتتحقق الدلالة، فاللفظ الأولي هو عبارة النص التي نلتقي معها حتى نفضي إلى المعنى في المرحلة التالية، وقد تكون المعالجة الأولية كذلك مع إشارة النص ودلالته واقتضائه، أي إن تحصيل المعنى يتم وفق خطوات ومراحل؛ أي عبر علامة تفضي إلى علامة أخرى حتى يتحقق المعنى المدلول.

لقد حذا "الشريف الجرجاني" حذو سابقيه في تقسيم الدلالة اللفظية، حيث يقول: "الدلالة اللفظية الوضعية وهي كون اللفظ بحيث متى أطلق أو تخيّل فهم منه معناه للعلم بوضعه، وهي المنقسمة إلى المطابقة والتضمن والالتزام، لأن اللفظ الدال بالوضع يدل على تمام ما وضع له بالمطابقة وعلى جزئه بالتضمن وعلى ما يلازمه في الذهن بالالتزام كالإنسان فإنه يدل على تمام الحيوان الناطق بالمطابقة وعلى جزئه بالتضمن وعلى قابل العلم بالالتزام"[2]؛ نفهم إذن أنّ الشريف الجرجاني لم يحد عمّا أتى به سابقوه سواء عبر مفهوم المطابقة، أم التضمن، أم الالتزام؛ مثلما سبق وأوردناه في الصفحات السابقة.

لقد استنتج حنون مبارك حول الدلالة الوضعية التي تحدث عنها الشريف الجرجاني وغيره من البلاغيين ما يلي:[3]

1- أن الوضع يعني تخصيص مدلول بدال وتعيينه به سواء أكان الدال لفظا أملا، بحيث يقابل الدال المعين مدلولاً معينا محددًا.
2- أن هذا التعيين هو الذي يسمح بالانتقال من الدال إلى المدلول فتتحقق بذلك الدلالة.
3- أن الوضع ليس هو الوضع اللغوي فقط، أي الناتج عن اتفاق الواضعين واصطلاحهم، وإنما يتجاوزه ليشمل العدول أو الانزياح الناتجين عن

(1) المصدر نفسه، ص 109.
(2) المصدر السابق، ص 110.
(3) مبارك حنون، "في السيميائية العربية، قراءة في نصوص قديمة، -القسم الثاني-"، ص 101، 102.

الاستعمال. الشيء الذي يجعل الوضع شاملاً للشرعي والعرفي العام والعرفي الخاص والمجاز.

4- أن الوضع يعني الخلق، أي صياغة شكل لمحتوى معين وبذلك تكون الموضوعات اللغوية توفيقية أو اصطلاحية.

وعليه فالوضع يخالف المناسبة الطبيعية أو الدلالة الذاتية. ومن هنا نخلص إلى أن الوضع يعني أيضًا الاعتباطية؛ فلقد خلّف هذا الفهم المتقدم للدارسين العرب بصمةً في التفكير الدلائلي عبر كيفية فهم المعاني وتفسيرها، وهو تفكير يتماشى مع التفكير المعاصر للسيمياء وعلوم اللسان، بحيث يمكننا استنتاج الكثير من القضايا من مجهود البلاغيين القدامى، كما سبق ووضّح ذلك حنون مبارك باستنتاجاته القيمة.

ب-9) محمد علي التهانوي (ت 1191هـ)

يقول "محمد علي التهانوي" (ت 1191هـ) في معجمه "كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم": "الدلالة بالفتح هي على ما اصطلح عليه أهل الميزان، والأصول، والعربية، والمناظرة أن يكون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، هكذا ذكر الجلبي في حاشية الخيالي في بحث خبر الرسول، والشيء الأول يسمى دالا والشيء الآخر يسمى مدلولا"[1]. ثم أردف كذلك: "والمراد بالشيئن ما يعم اللفظ وغيره فتتصور أربع صور؛ الأول كون كل من الدال والمدلول لفظا، كأسماء الأفعال الموضوعة لألفاظ الأفعال على رأي. والثانية كون الدال لفظا والمدلول غير لفظ كزيد الدال على الشخص الإنساني. والثالثة عكس الثانية كالخطوط الدالة على الألفاظ، والرابعة كون كل منهما غير لفظ كالعقود الدالة على الأعداد"[2]. فلقد قسّم التهانوي الدلالة إلى أربعة أقسام؛ **القسم الأول** يخص الدال والمدلول لفظا، فاسم الفعل هو لفظ للفعل الذي هو لفظ كذلك، كأن نأخذ مثلا كلمة "آه" هي اسم فعل (لفظ) للفعل أتوجع (لفظ كذلك). ثم

(1) محمد علي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تح: رفيق العجم، علي دحروج، ط1، مكتبة لبنان، لبنان، 1996م، ص 787.

(2) المصدر نفسه، ص 787.

القسم الثاني من الدلالة والذي يخص الدال لفظا مثلا دون المدلول؛ نحو: "زيـــد" حيث لا يكون المدلول لفظا؛ (الشخص الإنساني)؛ وهو ما يوافق دلالة الالتـــزام التي رأيناها مع الشريف الجرجاني وغيره، ثم **القسم الثالث**: كالخطوط الدالة على الألفاظ، فالخطوط هي دال غير لفظي ومدلولها لفظي، لأن الخط دال أولي يفضي إلى مدلول أولي هو اللفظ؛ ثم يصبح اللفظ دالا ثان يفضي إلى مدلول ثـــان هـــو المعنى النفسي، أمّا **القسم الرابع والأخير**، فيضم العقود (الحساب عند الجـــاحظ) الدالة على الأعداد، فالدال غير لفظي، والمدلول كذلك غير لفظي.

يقسم التهانوي الدلالة: "... أولا إلى اللفظية وغير اللفظية، لأن الـــدال إن كان لفظا فالدلالة لفظية، وإن كان غير اللفظ فالدلالة غير لفظية. وكل واحـــدة من اللفظية وغير اللفظية تنقسم إلى عقلية وطبيعية ووضعية"[1]. قـــدم التـــهانوي تقسيما هاما للدلالة إلى لفظي وغير لفظي، حيث ينقسم كـــل قســـم إلى ثلاثـــة أقسام؛ عقلي، وطبيعي، ووضعي؛ فالعقلي ما يدرك مدلوله بالعقل كدلالة الدخان على النار، والطبيعي ما يدرك بالطبع كدلالة الحمرة على الخجل، والوضعي ما تم بالاتفاق عبر المواضعة والتفاهم، وهو ما يفسر اختلاف اللغـــات. وقـــد رأينـــا استنتاجات حنون مبارك حول الدلالة الوضعية؛ ما تعكســـه اســـتنتاجاته حـــول الدلالتين العقلية والطبيعية. فحول الدلالة العقلية يقول: "واضـــح إذن أن العقـــل يناقض الاتفاق والاصطلاح، كما يناقض الطبع، وأنه يعني إعمال الفكـــر لتبيـــان العلاقة القائمة بين الدال والمدلول، أي القيام بعملية استنباطية يتم بمقتضاها العثور على مقدمة عقلية تسهّل إدراك الغائب بواسطة ما من الوسائط. فالعلاقة بين الدال والمدلول علاقة استلزامية لا يثبتها إلاّ إعمال الفكر والنظر. ويخص الأمـــر هنـــا استلزام المعلول للعلة إذ لا وجود لدخان بدون نار، واستلزام العلة للمعلـــول إذ لا وجود لنار بلا حرارة، واستلزام معلولين للآخر إذ لا وجود لدخان وحرارة بـــلا نار، وواضح أنه ليس من وسيلة إلى الوقوف على ذلك لولا تـــدخل العقـــل"[2].

---

(1) المصدر السابق، ص 788.

(2) مبارك حنون، "في السيميائية العربية، قراءة في نصوص قديمـــة – القســـم الثـــاني –"، ص 104.

فلقد أعطى العرب القدامى هذا الصنف من التفكير الدلائلي اهتماما كبيرا عن طريق التفسير المنطقي للنشاط المفهومي، وتدخل العمليات العقلية في هذا الصنف من العلامات، وهي حالة استدعاء لمعان كانت مخفية ومستورة وغائبة.

يقول مبارك حنون شارحا الدلالة الطبيعية: "يبدو إذن، أن للطبع معانٍ ثلاثة: أولها، السجية أو الغريزة وكل ما طبع عليه الإنسان، أي خُلقَ، ثانيها: ما طُبِع عليه معنى اللفظ، أي المناسبة الطبيعية بين الدال والمدلول، ثالثها: حصول صورة الشيء في الذهن (=ذهن السامع)"[1]. فهناك علاقة سببية في الدلالة الطبيعية بين الدال والمدلول، وقد أدرك العرب القدامى هذا الصنف من الدلائل، وأسندوه إلى مختلف الأصناف الدلائلية الأخرى، حيث يتم فيه الكشف عن المعاني، واستيعابها، والقيام بالقراءة المفهومية للخطابات اللفظية منها وغير اللفظية، فقد" قيل حصر الدلالة الطبيعية في اللفظية كما اختاره السيد الشريف منقوص بدلالة الحمرة على الخجل والصفرة على الوجل وحركة النبض على المزاج المخصوص منها"[2]. فالدلالة إذن ثلاثة أقسام: عقلية وطبيعية ووضعية وهو ما ينطبق على كل من الدلالتين اللفظية وغير اللفظية.

أما فيما يتعلق **بالقصد** في الدلالة؛ "فأهل العربية يشترطون القصد في الدلالة، فما يفهم من غير قصد من المتكلم لا يكون مدلولا للفظ عندهم، فإن الدلالة عندهم هي فهم المراد لا فهم المعنى مطلقا، بخلاف المنطقيين فإنها عندهم فهم المعنى مطلقا سواء أراده المتكلم أولا. وقيل ليس المراد أن القصد معتبر عندهم في أصل الدلالة حتى يتوجه أن الدلالة ليست إلاّ فهم المعنى من اللفظ، بل إنها غير معتبرة إذا لم يقارن القصد، فكأنه لا يكون مدلولا عندهم"[3]. فالقصد ضروري ومطلوب عند أهل العربية من البلاغيين واللغويين لأن المعنى مرتبط به، ولكن المنطقيين لا يشترطون القصد، فأينما كان هناك معنى كانت هناك دلالة.

---

(1) المرجع نفسه، ص 105.

(2) محمد علي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ص 789.

(3) المصدر نفسه، ص 792، 793.

نصل في ضوء ما تقدم إلى القول: إن البلاغيين العرب القدامى قـــد اعتنـــوا عناية كبيرة بالدلائل عبر الدلالة، كما حددوا العديد من المفاهيم التي اســـتوقفتنا، مبرزين أهمية المفاهيم الموالية: القصد، الدليل، الدلالة، الدلائل، المعـــنى، العلامـــة، الوسم، الخط، الكتابة، اللفظ، العقد... ما يجعلنا نتساءل عمّا سنلفيه عند المحدثين من معالم تلتقي فيها السيمياء مع آرائهم، الأمر الذي جعلنا لا نسقط الأحكام في العناصر السابقة، حتى نتبين استقرار المصطلحات حديثا على النحو الـــذي يبينـــه العنصر الموالي:

المبحث الثاني

البلاغة والسيمياء
عند الدارسين المحدثين

أولا) مفهوم السيمياء

أ) عند الغرب

ورد في معجم "أوزفالد ديكرو" (Oswald Docrot) و"تزفيتان تودوروف" (Tzevetan Todorov) أنّ السيميوطيقا: "... هي علم الأدلة، وقد لعبت العلامات اللفظية دائمًا دور الريادة في هذا العلم، وقد امتزج التفكير حول العلامات منذ وقت طويل بالتزامن مع التفكير في اللغة. هناك نظرية سيميائية متضمنة (ثانوية) في الدراسات اللغوية للعصور القديمة، خلّفها لنا القدامى: في الصين، والهند، واليونان، وروما..."[1]. فالبحث في العلامات قديم قدمَ البحث اللغوي، أما التأسيس الفعلي للسيمياء فيرجع الفضل فيه إلى تشارلز. سندرس. بورس. يقول عادل فاخوري: "أنا (أي بورس) على ما أعلم الرائد أو بالأحرى فاتح الغاب في توضيح وكشف ما أسميه بعلم السيمياء، أي مذهب الطبيعة الجوهرية والتنوعات الأساسية للدلالة الممكنة"[2]؛ حيث: "... يعتبر الفيلسوف الأميركي تشارلز بيرس (1839، 1914) مؤسس علم السيمياء الحديث وأول باحث منهجي فيه. فقد تسنى له أن يضبط المفهوم العام للعلامة وأن يضع أغنى

---

(1) Oswald Ducrot, Tzevetan Todorov, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage Ed: du seuil, Paris, 1972, p. 113.

(2) عادل فاخوري، تيارات في السيمياء، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1990م، ص 46.

قائمة لأصناف العلامات... يستند علم السيمياء عند بيرس إلى فلسفة شاملة للكون تبدو بسبب طبعها المغالي في التجريد والتعميم موضع شك لأن تكون صالحة لتأسيس نظرية المعرفة والسيمياء خاصة، مع ذلك فهي توفر منهجية سهلة لإقامة نظرية العلامة"[1]. فبورس هو الفيلسوف والرياضي الذي انعكس منهجه المنطقي الرياضي على تفكيره السيميائي في أحضان الظاهراتية.

لقد استخرج بورس مجموعة من المقولات انطلاقا من قراءته لأعمال كانط (1724 –1804)، لكنه لم تجاوز الانطلاق من: "تصنيف الأحكام بحسب الكم والكيف والحمل والجهة، كما فعل كانط، بل تعدى ذلك إلى ما هو أشمل، فوجد أن كل الأحكام، بالرغم مما بينها من اختلاف، تشترك في تركيب ثلاثي واحد هو: موضوع-رابطة-محمول. من هذا التركيب توصل إلى اشتقاق مقولاته الثلاث الشاملة التي استقرّ أخيرًا على تسميتها بصورة مجردة: الأولية Firstness أو أيضا باختصار الأول First، الثانوية Secondness أو الثاني Second، والثالثية Thirdness أو الثالث Third"[2]؛ حيث يقسم بورس العلامة ثلاثيا عكس سوسير الذي يقسمها ثنائيا، وهذا التقسيم ناتج عن دراية فلسفية مصدرها أعمال سابقيه مثل كانط.

لقد لاحظ الدارسون المحدثون العديد من الاختلافات بين مؤسس السيمياء المنطقية وسوسير، فإلى جانب مبدأي الثلاثية والثنائية ورد في كتاب **السيميائيات أو نظرية العلامات لـ جيرار دولودال** (Gérard Deledalle) ما مفاده: "هاجم بيرس الذي عاصر سوسير والذي كان سابقا على عصره، النزعة النفساوية، وهو الأمر الذي مكنه... من تبني الموقف السوسيولوجي المتناسق. فمعارضة بيرس للنزعة النفساوية بقيت ثابتة. وهو موقف نجده سواء في مقالاته التي كتبها عام (1868م) أو في رسائله التي وجهها إلى الليدي ويلبي في نهاية حياته"[3]؛ ذلك أن بورس سيمياء هي سيمياء منطقية، وليس" المنطق بمفهومه العام إلاّ اسما آخر

---

(1) المرجع نفسه، ص 46.

(2) المرجع السابق، ص 47، 48. (بتصرف)

(3) جيرار دولودال، السيميائيات أو نظرية العلامات، تر: عبد الرحمان بوعلي، دار الحوار، ط1، سورية، 2004م، ص 44.

للسيميوطيقا، والسيميوطيقا نظرية شبه ضرورية أو نظرية شكلية للعلامـــات"[1]، حيث يقول دولودال: "إن السيميوطيقا التي هي المنطق مأخوذا في معناه العام هي: نظرية العلامات الضرورية تقريبا، أو الشكلية. وبوصفها منطقا فإنها تشكل فرعـــا من الفروع الثلاثية المكونة للعلوم المعيارية مع علم الأخلاق وعلم الجمال، والمنطق يستعين بعلم الأخلاق (علم الخير والشر) الذي يستعين هو الآخر بعلم الجمال علم الخير النهائي، علم (Summumbonun) المرتبط بفكرة الرابطة. إن المنطق (وبالتالي السيميوطيقا) مثله مثل العلمين المعياريين الآخرين، يتأسس على الظاهراتية الـــتي تتأسس هي الأخرى على الرياضيات"[2]. فالسيميوطيقا منطقٌ يدرس العلامـــات، بصرامة ودقة وتجريد بعيدًا عن النزعة النفسية.

يقول "عصام خلف كامل" نقلا عن "محمد السرغيني": "فالسيميوطيقا البيرسية لا ينصرف كامل اهتمامها إلى العلامة فقط، بل يتجاوزها إلى ما تنتجه هذه العلامة مما هو ثانوي وغير أساسي إلى درجة أن يصـــبح ذا قيمـــة، كتـــذاكر الحـــافلات والصكوك المصرفية أو ذا شكل إبلاغـــي كـــالتعبير عـــن العواطـــف وكـــالتعبير الأدبـــي..."[3]. لأنّ السيمياء أيا كانت طبيعتها تدرس العلامة وتثمنها، بشرط أن تكون ذات دلالة أو قصد؛ أمّا" السيرورة المؤدية إلى إنتاج الدلالة وتداولها أو ما سماه بيرس السيميوزيس (Semiosis)؛ تلك السيرورة التي يشتغل بموجبـــها شـــيء مـــا باعتباره علامة. ويبدو أن مفهوم السيميوزيس يقترب من مفهوم الوظيفة السيميائية (Fonction sémiotique) عند يلمسليف باعتبارها بدايـــة وغايـــة لكـــل فعـــل سيميائي"[4]؛ و"هكذا تصير السيميوزيس عبارة عن دلالات متناسلة وغير منتهيـــة، يحركها اشتغال عناصر ثلاثة هي: الممثـــل (Représentant) والموضـــوع (Objet) والمؤول (Interprétant)"[5]. نفهم ممّا تقدم أنّ كل العلامات تمر عبر مراحل معينـــة

(1) فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 17.
(2) جيرار دولودال، السيميائيات أو نظرية العلامات، ص 23.
(3) عصام خلف كامل، الاتجاه السيميولوجي ونقد الشعر، ص 17.
(4) هواري بلقندوز، "مدخل إلى السيميائيات التداولية"، الملتقى الدولي الثالث الســـيمياء والنص الأدبـــي، جامعة بسكرة، ص 02، 03.
(5) المرجع نفسه، ص 03.

ليحصل تأويلها قصد الكشف عن معناها بدءا من السماع أو الرؤية؛ ومرورا بالصورة الذهنية ثم ارتباطها بالعالم الخارجي، حيث يتم إنتاج دلالات غير منتهية.

يقول سوسير" فاللغة نظام من الإشارات System of signs التي تعبر عن الأفكار، ويمكن تشبيه هذا النظام بنظام الكتابة، أو الألفباء المستخدمة عند فاقدي السمع أو النطق، أو الطقوس الرمزية أو الصيغ المهذبة أو العلامات العسكرية أو غيرها من الأنظمة، ولكنه أهمها جميعًا. ويمكننا أن نتصور علما موضوعه دراسة حياة الإشارات في المجتمع، مثل هذا العلم يكون جزءًا من علم النفس الاجتماعي وهو بدوره جزء من علم النفس العام، وسأطلق عليه علم الإشارات Semiology (وهي لفظة مشتقة من الكلمة الإغريقية Semeion= الإشارة). ويوضح علم الإشارات ماهية مقومات الإشارات، وماهية القواعد التي تتحكم فيها... فعلم اللغة هو جزء من علم الإشارات العام"[1]. فسوسير وانطلاقا من معرفته ودرايته تنبأ بظهور علم جديد أوسع من اللسانيات، يدرس إلى جانب العلامات اللغوية العلامات غير اللغوية، ولهذا نجد الكثير من الباحثين ينسبون نشأة السيمياء لسوسير رغم أنه لم يتعد التنبؤ بالعلم لا غير.

يعتبر رولان بارت (Roland Barthes) من الأعلام البارزين في التنظير لموضوعات السيمياء، وهو ناقد معروف أفاد كثيرا من اللسانيات للنهوض بالبحث السيميائي، يقول: "استمدت السيميولوجيا، هذا العلم الذي يمكن أن نحدده رسميا بأنه علم الدلائل، استمدت مفاهيمها الإجرائية من اللسانيات. إلاّ أن اللسانيات ذاتها، شأنها شأن الاقتصاد تقريبًا... في طريقها إلى الانفجار بفعل التمزق الذي ينخرها... فإن موضوع اللسانيات لم يعد يعرف الحدود: فاللسان هو المجتمعي ذاته على حد تعبير بنفنيست Benveniste، وخلاصة القول فإن صرح اللسانيات أصبح يتفكك اليوم، من شدة الشبع أو من شدة الجوع، مدًّا أو جزرًا. وهذا التقويض للسانيات هو ما أدعوه من جهتي **سيميولوجيا**"[2]. فبارت

---

(1) فرديناند دي سوسور، علم اللغة العام، تر: يوئيل يوسف عزيز، مراجعة: مالك يوسف المطلبي، دار آفاق عربية، بغداد، 1985م، ص 34.

(2) رولان بارط، درس السيميولوجيا، تر: عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، ط3، الدار البيضاء، 1993م، ص 20، 21.

يربط البحث السيميائي باللسانيات، وبما أن اللسانيات قد تشعبت وتطورت وصارت تضم العديد من الفروع البحثية، فقد توسعت مجالاتها؛ ما انعكس تباعا على السيمياء والبحث فيها، فصارت موضوعاتها بعيدة عن الحصر والتقييد.

يرى بارت أن السيمياء العلم الواسع الذي يتسم بالخصوبة والإفادة، وهي: "تمت بصلة للعلم، بيد أنها ليست دراسة من الدراسات... فما هي العلاقة بينهما إذن؟ إنها علاقة خدمة: فبإمكانها أن تسدي خدمات لبعض العلوم وتصاحبها في طريقها وتقترح عليها نموذجا إجرائيا، يحدد، انطلاقا منه، كل علم نوعية ما ينصب عليه. وهكذا فإن قسم السيميولوجيا الذي عرف أحسن ازدهار، وأعني تحليل الحكايات، يمكن أن يسدي خدمات للتاريخ والاثنولوجيا، ونقد النصوص والتفسير ودراسة الصور (كل صورة هي بمعنى حكاية)"[1]. فبارت يرى في السيمياء المنهج الذي يمتد لمعالجة العديد من الإشكالات البحثية، عبر مختلف الحقول التخصصية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، وفي كل حقل طريقة لتطبيق هذا المنهج السيميائي الإجرائي.

يعرف "أنطوان طعمة" السيمياء فيما نقله عن "جورج مونان" (GeorgeMounin) قائلا: "إنها العلم العام الذي يدرس كل أنظمة الرموز اللغوية وغير اللغوية التي بفضلها يتم التواصل بين البشر"[2]. فالسيمياء تدرس كل الرموز مهما كانت شرط أن يتحقق التواصل عبرها، أي يتم تلقيها من طرف مستقبل يفهمها ويكتسب بها دلالةن ويحقق بها مشاركة مع الآخرين. تماما كما أورد منذر عياشي قائلا: "العلاماتية (أو السيميولوجيا) هي علم العلامات أو السيرورات التأويلية، توجد إذن كما ذكر أمبيرتو إيكو (1988) روابط عميقة بين العلامات والتأويل، وذلك لأن شيئا ما لا يكون علامة إلاّ لأنه يؤول بوصفه علامة لشيء ما بوساطة مؤول ما"[3]؛ فالعلامة خاضعة دائما لنشاط تأويلي لاسيما لما نتعمق في عملها، فكل علامة تحيلنا بالضرورة إلى علامة أخرى، بوساطة مؤولات.

---

(1) المرجع السابق، ص 25.

(2) أنطوان طعمة، "السيميولوجيا والأدب"، مجلة عالم الفكر، المجلد الرابع والعشرون، ع: الثالث، ص 207.

(3) منذر عياشي، العلاماتية وعلم النص، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب، 2004م، ص 13.

يقول "عادل فاخوري" عن مجالات السيمياء: "فأمبيرتو إيكو (Eco) على سبيل المثال، يعرض من الأبواب التي تتناولها السيمياء المجالات الآتية: علامات الحيوانات علامات الشم، الاتصال بواسطة اللمس، كودة المذاق، الاتصال البصري، أنماط الأصوات والتنغيم (Intonation)، التشخيص الطبي، حركات وأوضاع الجسد، الموسيقى، اللغات الصورية، اللغات المكتوبة، الأبجديات المجهولة، قواعد الآداب، أنماط الأزياء، الأيديولوجيات، الموضوعات الجمالية والبلاغية. بل إن البعض يذهب أبعد من ذلك في توسيعه لمجال السيمياء، ليشمل الاتصال بين الخلايا الحية (Bionique)، وحتى الاتصال بين الآلات"[1]؛ ما يدل على أنّ مجالات السيمياء مستعصية على الحصر، فيمكن اعتبار كل أداة تواصل علامة، عبر مجال التواصل الواسع والمتشعب، وأمّا الكون فتحكمه أنشطة تواصلية دائمة؛ السيمياء إذًا" علمٌ جديد مستقل تماما عن الأسلاف البعيدين، وهو من العلوم الأمهات ذات الجذور الضاربة في القدم، وهي مرتبطة أساسا بسوسير وكذلك بورس الذي نظر إليها مبكرا، ونشأ هذا العلم في فرنسا اعتمادا على أعمال جاكبسون وهلمسليف وكذلك في روسيا... وهذا في الستينات"[2]، فقد ارتبطت السيميائيات بالمنطق واللسانيات بفضل كل من العالمين سوسير وبورس[*].

ب) عند العرب

لا تبتعد تعريفات العرب المحدثين عن تعريفات الغربيين، لا سيما وأنه علم حديث برز في الساحة العربية عن طريق الترجمات. أمّا بخصوص فوضى المصطلح

---

(1) عادل فاخوري، "حول إشكالية السيمياء، أو السيميولوجيا"، مجلة عالم الفكر، مج الرابع والعشرون، ع3، ص 185.

(2) فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 17.

(*) كما تنقسم السيميوطيقا (علم الرموز) حسب محسن جمجوم إلى ثلاثة أقسام هي:

1- البراجماطيقا: وهي تبحث في المتكلم نفسه باعتباره أداة للكلام.

2- السمانطيقا: وهي البحث في مدلولات الألفاظ.

3- السنتاطيقا: وهي البحث في العبارات اللفظية نفسها من حيث تركيبها وتكوينها، بغض النظر عن المتكلم وبغض النظر أيضا عما تشير إليه الألفاظ من مدلولات"علي محسن جمجوم، السيميوطيقا ومشكلات الفلسفة، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ص 54، 55

من حيث ترجمته فقد فصل "عادل فاخوري" في ذلك بقوله: "العلـــم نفســه أي الـ (Sémiotics) يترجم بـــ: السيمياء، السيمية، الســيميائية، الســيميوطيقا، السيميولوجيا، والرموزية، والأفضل: السيمياء لأنها كلمة قديمة متعارفة على وزن عربـــي خاص بالدلالة على العلم. أما التفرقة بين السيميوطيقا والسيميولوجيا فلم تعد قائمة بعد أن قرر المؤتمر العالمي للسيمياء بتبني مصطلح (Sémiotics)"[(1)]؛ أمّا الباحث "محمود الحسن" فيقول: "يعرف سعيد بنكراد السيميائية بأنها دراسة حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، ويقول بأنها في حقيقتها كشف واستكشـــاف لعلاقات دلالية غير مرئية من خلال التجلي المباشر للواقعة، كما يقول بأنها تدريب للعين على التقاط الضمني والمتوازي والمتمنع، لا مجرد الاكتفاء بتسمية المنـــاطق أو التعبير عن مكنونات المتن"[(2)]. فقد عرّف بنكراد السيمياء كما عــرف سوســير اللسانيات لكن بصورة تشمل كامل العلامات، مضيفا بأنها القدرة على استجلاء المخفي عن طريق مؤشرات ووقائع تكتنز دلالات تخضع لعلاقات، كما نبه إلى أنّه لا ينبغي أن يكتفى السيميائي بإظهار هذه الدلالات، وإنما يجب تفسيرها وضـــبط القوانين التي تتحكم فيها.

يقول الباحثان "ميجان الرويلي" و"سعد البازعي" السيميائية: "السيميولوجيا (السيميوطيقا) لدى دارسيها تعني علم أو دراسة العلامات (الإشـــارات) دراســة منظمة منتظمة"[(3)]. فالسيمياء تدرس العلامات بشرط أن تكون الطريقة التي تدرس بها منظمة من حيث تصنيف العلامات، ونظام اشتغالها، وخصائص المجال الـــذي توجد فيه. كما يواصل الدارسان الشرح قائلين: "وعلم السيمياء المعاصـــر شـــأنه شأن الأنشطة النقدية المعاصرة يرتبط ببيئة الفكر المعاصر، فهو في تركيـــزه علـــى حياة العلامات في النص ومعالجتها شكلانيا يشبه إلى حد بعيد نشاط النقد الجديد

---

(1) عادل فاخوري، "حول إشكالية (السيمياء) أو السيميولوجيا"، مجلـــة عـــالم الفكـــر، ص 187. (بتصرف)

(2) محمود الحسن الأستاذ، "سيميائية الصورة"، مؤتمر فيلادلفيا الدولي الثاني عشر، أفريـــل 2007م، ص 11.

(3) ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبـــي، المركز الثقافي العربـــــي، ط3، المغرب، 2003م ص 177.

في اعتباره النص كيانا مغلقا لا يحيل خارج ذاته"[1]. أمّا فيصل الأحمر فيجمل قائلا: "نستنتج أن السيميائيات نظرية واسعة جدا لا يمكن الإلمام بكل جوانبها، فهي كما يقول سعيد بنكراد: ليست سوى تساؤلات تخص الطريقة التي ينتج بها الإنسان سلوكاته، أي معانيه وهي أيضا الطريقة التي يستهلك بها هذه المعاني"[2]؛ فاتساع مجال السيمياء راجع لكونها تنظر إلى كل ما يحيط بنا من علامات تحمل دلالات بدءا من صدور هذه العلامات والتقاطها، ووصولا إلى تفسيرها وتحليلها والتفاعل معها.

أمّا عن هدف السيمياء فقد نقل فيصل الأحمر فيما ذهبت إليه سيزا قاسم من: "أن هدف السيميوطيقا أو طموحها هو تفاعل الحقول المعرفية المختلفة، والتفاعل لا يتم إلا بالوصول إلى مستوى مشترك يمكن من خلاله أن ندرك مقومات هذه الحقول المعرفية، وهذا المستوى المشترك هو العامل السيميوطيقي"[3]؛ لأنّ تفاعل مجالات المعرفة يؤدي إلى حدوث نشاطات سيميائية، تعد عاملا مشتركا بين الحقول المعرفية المختلفة، هذا إذًا عن مفاهيم السيمياء التي أوردناها حصرا لا سردا، لأنّه ليس من السهل الإحاطة بها عند جلّ الدارسين العرب المحدثين.

ثانيا) علاقة البلاغة بالسيمياء

أ) عند الغرب: عناصر البيان في بعض الدراسات السيميائية الغربية (الاستعارة، الكناية، المجاز المرسل)

حتى نتلمس آراء القدامى فيما ذهب إليه المحدثون علينا، أن نلفت الانتباه إلى أنه من الصعب الحكم على مجموع الآراء المتقدمة للبلاغيين العرب القدامى، فأمام الكم الهائل من المفاهيم، على الباحث أن يطوع المفهوم، دون إخلال بأدق ما فيه، وأمام المسؤولية العلمية التي تفرض نفسها علينا، سنسير وفق الترتيب الذي لجأ إليه الدارسون سواء من الناحية النظرية أم التطبيقية. فكيف ذلك؟

(1) المرجع نفسه، ص 185.
(2) فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 18.
(3) المرجع نفسه، ص 18.

يقول حنون مبارك في سياق ما ذكره عن السيميائيات العربية قراءة في نصوص قديمة"... أشير إلى أن البشرية قد أنتجت عددا من المعارف لم تهيئ لنفسها سبل إيصاله إلى الخلف إيصالا متصلا ومتلاحقا، وإنّما حدث أن انقطع حبل التواصل المعرفي وبقيت معرفة سابقة، وبحكم ظروف، محنطة ومجهولة، بينما ظهرت نفس تلك المعارف، ربما بتفاوتات في المضمون وفي الأهمية عند شعوب أخرى وفي مراحل تاريخية لاحقة، هكذا يتضح أن تاريخ الأفكار يتميز بالضرورة بالاتصال بل قد يتميز بالانقطاع"[1]، فكيف سنلفي الأفكار السيميائية فيما تقدم من آراء البلاغيين.

يقول محمد الولي: "وإذا انتقلنا إلى المعاصرين الذين انتعشت على يدهم المصطلحات البلاغية القديمة نجد مصطلح الصورة يشمل التشبيه والاستعارة والتمثيل والرمز، بالإضافة إلى أنواع المجاز الأخرى القائمة على المجاورة بدل المشابهة"[2]؛ وقد عني الغربيون بشكل أكثر دقة بدراسة الاستعارة والكناية والمجاز المرسل، وهو اعتناء اختلف الاهتمام به بباقي الصور البيانية من؛ تشبيه، وتمثيل وغيرها من الصور، ذلك أنّ" الاستعارة بالإضافة إلى الكناية، قد بلغت دون كل **الصور القديمة الأخرى** منزلة مرموقة في أنحاء الشعر؛ التي تهتم بالموقع الوظيفي في هرمية الأدوات الإيقونية اللفظية الأساسية، التي تتوفر في الكلام الشعري. وهذا يعود إلى أن الاستعارة قد برهنت دون كل الصور البلاغية القديمة عن كونها الأوفر عطاء لأجل إدراجها ضمن رؤية دينامية جديدة للغة الخاصة بالشعر الحديث"[3]. كما سيجد البيان طريقة جديدة لدراسته بمنظور حديث ومعاصر، الأمر الذي سيخلصه من القوالب الجاهزة والجافة التي لصقت به، والتي لا تخدم النص ولا المنهج، بل ستصبح عناصر البيان وسيلة دينامية في يد الكاتب والدارس على السواء يسخرانها في النتاج الأدبي والنقدي.

---

(1) حنون مبارك. في السيميائيات العربية – قراءة في نصوص قديمة، ص 7، 8. (بتصرف)

(2) محمد الولي، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي النقدي، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء 1990م، ص 16.

(3) فرانسوا مورو، البلاغة: المدخل لدراسة الصور البيانية، تر: محمد الولي، عائشة جرير، أفريقيا الشرق، المغرب، 2003م، ص 14.

أ-1) الاستعارة والأيقون

يعرّف "عبد القاهر الجرجاني" الاستعارة في "أسرار البلاغة" بقوله: "اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير لازم، فيكون هناك كالعارية (الإعارة)"[1]. ثم يردف في **دلائل الإعجاز قائلا**: "فالاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه. تريد أن تقول: رأيت رجلا هو كالأسد في شجاعته وقوة بطشه سواء، فتدع ذلك وتقول: رأيت أسدا"[2]. الاستعارة إذًا هي نقل وإعارة عن الأصل ومنه، حيث تبنى على المواضعة، كما أنّها تشبيه حذف أحد لوازمه مع بقاء القرينة التي تدل عليه، حيث" تحتل الاستعارة منزلة مرموقة في أسرار البلاغة، إنها تكاد تستحوذ على الكتاب كله"[3]؛ و"هذا الموقف ليس غريبا من الجرجاني. ألم يعتبرها الأداة الأساسية التي تنقل المعنى من لحظة المادة الغفل إلى لحظة المادة المصورة. وبعبارة أوضح أليست الاستعارة هي الأداة الفعالة في تحويل المعاني النثرية إلى معان شعرية. صحيح أن الاستعارة ليست وحدها ما يضطلع بهذا الدور ولكن رغم ذلك فإن دورها لا يقارن بدور أية أداة أخرى. لقد فتن الجرجاني بالاستعارة وهي أهل لهذا العشق"[*].

تكتسي الاستعارة أهمية في معجم غريماس وكورتاس، وقد أوردا عن الاستعارة ما يلي: "تختص الاستعارة بالبلاغة، ويقصد بها الصور (ندعوها مجازات)

---

(1) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تع: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، ط1، 1991م ص 30.

(2) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 53.

(3) محمد الولي، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي النقدي، ص 65.

(*) لما ننظر في فهرس "أسرار البلاغة" نجد أن الاستعارة لا تفارق كل المباحث التي درسها عبد القاهر، فهي أم المجازات مثل ما هو مأثور عن أرسطو، ولا يمكن أن يكون الشعر والعمل الفني راقيا إلا بالجودة في استعمال الاستعارات. ينظر: محمد الولي، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي النقدي، ص 65، 66.

التي هي (تغيير في معاني الكلمات). توظف حاليًا هذه اللفظة ضمن مفردات السيمياء من أجل تسمية النتائج الاستبدالية التي تعمل في عمق الكفاءة الدلالية، في السياق المعنوي المعطى من طرف آخر"[1]؛ فالواضح أن الاستعارة قد تموضعت ضمن السيمياء وباتت رابطا هاما يربط الدلائل بالبلاغة، الأمر الذي يمكن تفصيله عبر الأيقون فيما يورده محمد الولي: "إن بورس يعود لكي يميز ضمن الأيقونة (IcÔne) بين ثلاثة أنواع من الدلائل. الأول هو الصورة (Image) وهو عبارة عن رسم فوتوغرافي للشيء يحتفظ بعناصر الشيء وعلاقاتها وأبعادها. الثاني هو الرسم (Diagramme) الذي لا يحتفظ من الشيء المرسوم إلاّ بالعلاقات بين عناصره المكونة مع إغفال صفاته. إنّه الرسم الأولي لخريطة أو بناية... الثالث هو الاستعارة (Métaphore) هذا الدليل لا يحتفظ من الشيء إلاّ بصفة من صفاته باستعمال شيء آخر يتوفر على هذه الصفة"[2]. فالاستعارة تندرج ضمن الأيقون في تقسيم بورس للموضوع، وبما أن الاستعارة هي نقل من شيء إلى شيء آخر، فهي تحتفظ بأحد خصائص الشيء الأولي الذي نقلت عنه، وبالتالي تكتسب خاصية الأيقونية. الأمر الذي أكده محمد مفتاح بقوله: "فقد قسّم بيرس الأيقون إلى نوعين: أحدهما أيقون أصلي، وثانيهما أيقونات فرعية (Hypoicons) وهي: أولانية: صور، وثانيانية: رسوم بيانية، وثالثانية: استعارة"[3].

أورد "نيروب" (Nyrob) في حديثه عن الاستعارة ما يلي: "إنها إطلاق اسم شيء على شيء آخر بفضل خاصية مشتركة تجعلهما متقاربين ومتشابهين... إن نقطة الانطلاق بالنسبة لكل استعمال تحسيني (Figure) لكلمة ما هي ترابط المشابهة"[4]، كما" تقوم الاستعارة على نوع من التشبيه أو التناسب (Analogie) بين طرفين"[5]. يتفق هذان التعريفان للاستعارة مع تعريف عبد القاهر الجرجاني، لأن أصل الاستعارة تشبيه حذف أحد أركانه، وهناك مناسبة بين الأصل الذي

(1) Julian Greimas, Joseph Courtes, Dictionnaire Raisonné, p. 226.

(2) محمد الولي، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي النقدي، ص 18.

(3) محمد مفتاح، التشابه والاختلاف، المركز الثقافي العربي، المغرب، ص 191.

(4) فرانسوا مورو، البلاغة: المدخل لدراسة الصور البيانية، ص 62.

(5) المرجع نفسه، ص 62.

أستعير منه وبين الشيء المستعار، وهذه المناسبة هي المشابهة، كما أن الاستعارة – حسب نيروب – هي نقطة انطلاق كل الصور (Figure)[*] التي تعتمد على المشابهة.

إنّ المشابهة هي التي تدخل الاستعارة ضمن الأيقون فـ "تكون الصلة عادة بين مشبه ومشبه به معينين غير مألوفة، يجب أن نقوم بوثبة في الخيال للتعرف إلى الشبه الذي تلمح إليه الاستعارة الجديدة. الاستعارة في الأصل غير اصطلاحية، لأنها لا تأبه بالشبه الحرفي أو التعييني. ويوحي وجود الشبه بأن الصيغة الأيقونية تدخل في الاستعارة، ولكن بقدر ما يكون الشبه غير مباشر يمكن اعتبار الاستعارة رمزية"[1]؛ فاعتماد الاستعارة على الخيال والتفاعل هو شيء ضروري، والمشابهة هي ما تدرج الاستعارة ضمن الأيقون، لكنها ستكون رمزية في حال واحدة هي حينما يكون الشبه فيها غير مباشر.

لقد اعتبر "لاكوف" (Lakov) و"جونسون" (Jonson): "أن كنه الاستعارة هو فهم واختبار ضرب من الأشياء باعتباره شيئا آخر. من منظور سيميائي تتضمن الاستعارة مدلولا يعمل كدال يرجع إلى مدلول آخر"[2]؛ وهو ما يتقارب والمعنى الحقيقي الأولي (دال أول مدلول أول)، ثم في مرحلة ثانية يصبح كل من (الدال الأول والمدلول الأول) دالا لمدلول ثان؛ هو معنى الاستعارة أو معنى المعنى حسب عبد القاهر، فالاستعارة تعتمد آلية سيميائية منتظمة لكي تكشف المعنى.

يعتبر "لاكوف" و"جونسون" الاستعارة غير اعتباطية؛ حيث يمكن للاستعارات" أن تختلف من ثقافة لأخرى، لكنهما يدافعان عن اعتبارها غير

(*) يقول غريماس وكورتاس عن مصطلح الصورة م يلي: "وُظّفت لفظة صورة من طرف لويس هلمسليف للتمثيل اللاّعلامي (العلامات غير اللغوية) ويمكن أن نقول – كذلك – على صعيد الوحدات المركبة على حده، سواءا على مخطط التعابير أو على صعيد المضمون أو على صعيد الفونولوجيا أو على صعيد الدلالة، والمعنى الذي يقصده هلمسليف أوصاف الصور وأسماء العلامات".

Julian Greimas, Joseph Courtes, Dictionnaire Raisonné, p. 148.

(1) دانيال تشاندلر، أسس السيميائية، ترجمة: طلال وهبة، مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة، ط1، لبنان، ص 219.

(2) المرجع نفسه، ص 218، 219.

اعتباطية، إذ إنها مشتقة أصلا من تجربتنا المحسوسة والاجتماعية والثقافية"[1]، فلا يمكن لأي مجموعة بشرية أن تتواضع حول عبارة ما كونها استعارة، وإنما يلجأ الشاعر أو المتكلم إلى نقلها واستعارتها من كلام سابق وفق خياله وموهبته، ما ينفي عنها الاعتباطية وتصبح العلاقة بين الدال والمدلول سببية ومعللة، لأن المشابهة تلغي الاعتباطية.

ففيما يتعلق بالمماثلة والمشابهة يقول "بول ريكور": "زد على ذلك أن عمل المشابهة التي تتسم بها الرموز يمكن أيضا إقرانه بالعملية المقابلة لها في الاستعارة، إذ يقدم لنا تفاعل المماثلة وعدم المماثلة صراعا بين تصنيف قبلي من نوع ما للواقع، وتصنيف جديد ولد لتوه"[2]. فالاستعارة تتجاذبها صراعات بين وجود سابق لها بسبب المماثلة والمشابهة التي تدخل فيها مع الأصل الذي نقلت عنه، وبين وجود جديد وابتكار مستحدث يزيد من عنصر المفاجأة في الكتابة، فيدخل القارئ ضمن عملية التأويل والتفاعل الإدراكي الذي يبعد عن العمل الأدبي الرتابة والفتور.

لا يمكن الاعتماد على المرجع لوحده في فهم الاستعارة، حيث" إن الاستعارة لا تقيم مماثلة بين المراجع، وإنما تربط علاقة تطابق بين مضامين التعابير، ولا تحيل على طريقة نظرتنا للمراجع إلاّ بشكل غير مباشر. إن محاولة تطبيق منطق شكلي على الاستعارة لفهم قيم الحقيقة لا يلقي أي ضوء على ميكانيزماتها السيميائية"[3]. فمضامين التعبير بين الاستعارة، والأصل الذي أعيرت منه توحي بوجود مشابهة، وليس الاعتماد على المرجع هو ما يعطينا هذا التشابه بوصفه الشارح لآلية اشتغال الاستعارة، كما أن المرجع ليس كفيلا بشرحها، بل الخيال والعقل وإدراك المعاني البلاغية عبر الدلائل؛ هو ما من شأنه تذليلها.

يرى "أمبيرتو إيكو" أن هناك مجموعة من العناصر تساهم في تأويل الاستعارة واستهلاكها، حيث" إن الأمر يتعلق بمماثلة خاصة بالسيمم (الأثر المعنوي) وليس

---

(1) المرجع نفسه، ص 222.

(2) بول ريكور، نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، تر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، 2006م، ص 98.

(3) أمبيرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، تر: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، 2004م، ص 149.

بتماثل محسوس، ولهذا السبب فإن التأويل الاستعاري في حدود ارتكازه على نمـــاذج وصفية موسوعية وإبرازه لبعض الخصائص المميزة، لا يكتشف وجود مماثلة وإنما يقوم ببنائها"[1]؛ وذلك عبر أنشطة ذهنية يقوم بها الإنسان، تتعلق بتحليـــل الاســـتعارة إلى وحدات صغرى، ثم ترتبط بمعارفه السابقة ويتم دمج الوحدات، حتى يتم التوصل إلى الوحدات الكاشفة عن هذا الأسلوب اللغوي، لأنّ" التأويل الاســـتعاري يســـتند إلى المؤولات، أي إلى وظائف سيميائية تصف مضمون وظائف سيميائية أخرى"[2].

لكي تفهم الاستعارة فإنه ينبغي أن تتكئ على" موســـوعة ولـــيس قاموســـا. فحسب "بلاك" لا يحتاج القارئ أمام استعارة من مثل: الإنسان ذئب إلى تعريـــف مستقى من القاموس، بل هو في حاجة إلى نسق من المبادئ المرتبطة بهذا الذئب"[3]. لأنّ ارتباط الاستعارة بالموسوعة هو الذي يوجد خصائصها، وهو الذي تستقي منه مميزاتها، فمجالها واسع يجمع خصائص معنوية وفكرية تتعدى الشرح البسيط الـــذي يمليه القاموس محدود الشروحات والمتقابلات. حيـــث" إن النظـــر إلى الاســـتعارة باعتبارها ظاهرة مضمونية معناه القول إن علاقتها بالمرجع علاقة غير مباشـــرة، ولا يمكن لهذا المرجع أن يكون معيارا لتأكيد صحتها. فحتى في الحالة التي يتم فيها النظر إلى عبارة ما باعتبارها تشكل استعارة، لأنها إذا نظر إليها في حرفيتها ستبدو عبثيـــة وزائفة، فليس من الضروري أن يكون الزيف زيفـــا مرجعيـــا، بـــل هـــو زيـــف موسوعي"[4]، فعلاقة المرجع بالاستعارة هي علاقة غير مباشرة، والموســـوعة هـــي المجال الذي تعبر فيه الاستعارة عن كيانها، فهي متضمنة في الموسوعة، وعلى المتلقـــي أن يكتشف المضامين الكفيلة بالتفسير اللازم لما يرد إليه من أقوال استعارية.

أمّا مفهوم "العوالم الممكنة" فهو "من الوسائل التي تمكننا من معالجة الاستعارة معالجة مرجعية وجوب النظر إلى الاستعارة في بعدها الحرفي والقيام بعـــد ذلـــك بإسقاط مضمونها على عالم ممكن. إن تأويل الاستعارة معناه تصور عوالم ممكنـــة

(1) المرجع السابق، ص 150.
(2) المرجع نفسه، ص 150.
(3) المرجع نفسه، ص 154.
(4) المرجع نفسه، ص 156.

حيث: (تسيل الورود) (يصبح الإنسان ذئبا)"[1]؛ ففي هذه الحالة يبدأ القارئ بالقراءة المرجعية الحرفية، ثم يشغل مخيلته، ويُعمل عقله لاستحداث عالم ممكن يختلف عن العالم الواقعي الذي نعيشه، وفي هذا العالم المبتكر سوف تصبح الاستعارة ممكنة الوقوع، وتجد تفسيرا وتأويلا خاصا نقنع به ونفهمه.

كما يمكن أن تجد الاستعارة مفهومها انطلاقا من تجربتنا، فإذا "كانت الاستعارة لا تتعلق بالمرجع الواقعي ولا بالكون المعياري للعوالم الممكنة، فلا أحد يتحفظ في الحديث عن المضمون دون اهتمام بالتمثيلات الذهنية والمقاصد، فإن هناك أطروحة أخرى تقول: إن للاستعارة علاقة بتجربتنا الداخلية الخاصة بالعالم، ولها علاقة أيضا بسيرورة انفعالاتنا"[2]؛ فمؤلف الاستعارة قد يلجأ إلى تجربته الذاتية، ويبتكرها وفق رؤيته بتفاعله مع العالم الخارجي، وتصويره على النحو الذي يراه، فيأتي بنتاج لغوي جديد لم يتم التطرق إليه من قبل، ولفهم هذا النتاج يجب العودة إلى تجربة هذا المؤلف والأشياء التي ساهمت في هذا البناء.

أمّا عن دور الجانب الإدراكي في خلق الاستعارة: "فإن الاستعارات الخلاقة تنبثق من صدمة إدراكية، أي من نمط علاقتنا بالعالم الذي يسبق الفعل اللساني ويحفزه، والحال أننا، وبشكل لا يقبل الجدل، نخلق استعارات للتعبير عن تجربة داخلية للعالم منبثقة من كارثة إدراكية. ولكن إذا كنا نتحدث عن الاستعارات باعتبارها نصوصا معطاة سلفا، وإذا كنا لا نستطيع تخمين أي شيء حول سيرورة توليدها إلاّ من خلال تأويلها، فسيبدو من الصعب القول إن الكاتب عاش تجربة نفسية"[3]؛ فالاستعارة الحقيقية هي تلك الناتجة عن صدمة إدراكية لكاتب تحفزه على توليد الاستعارة عبر تجربة جديدة عاشها وحفزته على الكتابة، فالحوادث اليومية التي ترافق المؤلف وتصوراته للواقع تتضافر وتتحد لتخرج في قوالب لغوية متشابكة، لأن القوالب العادية والمباشرة لا تفي بحمل الشحنات الدلالية التي تكون مضمرة في إدراك هذا المؤلف.

---

(1) المرجع السابق، ص 156، 157.
(2) المرجع نفسه، ص 158.
(3) المرجع نفسه، ص 158، 159.

تكتسي الاستعارة أبعادا حجاجية وإقناعية هامة، لا نشك لوهلة أنّها بعيدة عن أفكار القدامى الذين بنوا تصوراهم البلاغية عبر معاني المعاني وشروط الإقناع، حيث" تستعمل الخطابات السياسية أو الأخلاقية أو القانونية أو الوسائطية الاستعارة استعمالا واسعا لفرض آراء بدون التدليل عليها تأتي القوة الإقناعية للاستعارة من توفيرها لقياس مكثف وحكم قيمة مركز، فهي تخدّر يقظة الفكر بتحويلها قياسيا قيمة حاسمة مرتبطة بلفظ استعاري على القضية التي يراد حمل الناس على قبولها، فبقدر ما تعتمد الاستعارة على توافق مسبق، وتعتبر من تحصيل الحاصل تكون آثارها المناورة هامة"[1]. فاستعمال الاستعارة في الخطابات الحجاجية يغني عن استعمال الحجج والأدلة اللازمة، فهي تولّد قوة إقناعية كبيرة بحكم الحمولة الدلالية التي تحملها، وبحكم المناورة التي تضفيها على الخطاب، كما تشوش الاستعارة على يقظة الفكر، فتشغله عن عدم قبول ما يرد إليه، وما يؤدي إلى لموافقة على الأقوال الاستعارية هو جماليتها وأسلوبها الذي يتسم بالجدة والإبداع في الكلام؛ والذي يؤدي أدواره الحجاجية الهامة.

أ-2) الكناية والمؤشر

يعرّف "عبد القاهر الجرجاني" الكناية بقوله: "والمراد بالكناية ههنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه، مثال ذلك قولهم (هو طويل النجاد) يريدون طويل القامة، و(كثير رماد القدر) يعنون كثير القرى، وفي المرأة (نؤوم الضحى) والمراد أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها"[2]. أمّا الكناية عند الخطيب القزويني فهي: "لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ"[3]. أمّا: "الفرق بينها وبين المجاز من هذا الوجه، أي من جهة إرادة المعنى مع إرادة لازمه، فإن المجاز ينافي ذلك، فلا يصح في نحو قولك (في

(1) باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ص 366، 367.

(2) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 52.

(3) الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 241. (بتصرف)

الحمام أسد) أن تريد معنى الأسد من غير تأول، لأن المجاز ملزوم قرينة معاندة لإرادة الحقيقة كما عرفت"(1). الكناية إذًا هي إنجاز لغوي لعبارة تحمل معنى حقيقيا مباشرا يصلح للفهم المباشر، ثم معنى خفيا يتطلب إمعان النظر لإدراكه، ذلك هو معنى الكناية، حيث تصبح العبارة الكنائية ذات حدّين، حد أولي صادق، ومقبول من الناحية الشكلية، ثم هناك حد ثان لازم ووارد قياسا عن الحد الأول، فلا أثر في المجاز للمعنى المباشر ولا صلاحية للحد الأول فيه.

يقول محمد الولي: "إن الكناية أقرب ما تكون إلى طبيعة المجاز المرسل، وذلك لأنها مثله تقوم على علاقة المجاورة لا المشابهة كما تتغذى من ذلك النزوع العرفي عند المستعمل الذي يتقيد هو الآخر بما تتواضع عليه الجماعة، وأما حظها من الإبداع فلا يمكن أن يقارن بالتشبيه والاستعارة ومثالها العبارة التالية: هو طويل النجاد، وهو جم الرماد"(2). فالكناية تتفق مع المجاز المرسل في آلية الفهم لأنها تعتمد على علاقة المجاورة بين الصيغة المباشرة والمعنى المراد منها، وليست هناك علاقة مشابهة كما هو في الاستعارة، كما تعتمد على النزوع العرفي، حسب ما تتفق عليه الجماعة، أمّا دورها من ناحية الإبداع فيقل عن الدور الذي تؤديه الاستعارة والتشبيه، لذلك تحتل دورا غير أولي في الدراسات السيميائية والنقدية، بالرغم من أهميتها كصورة بيانية، لها أصلها التاريخي ودورها الإبداعي. إنّها إذًا" انتقال من تمثيل إلى تمثيل آخر يرتبط محتواه بعلاقة تجاور مع التمثيل المعطى"(3). كما قال أحد الباحثين: "تعتمد الكناية على الترابط التجاوري. ولنضف إلى ذلك أن المجاورة هي أيضا خاصية العلاقات المجازية المرسلة"(4). تتفق الكناية والمجاز المرسل في التجاور بين تمثيلين تربطهما علاقة، فالتمثيل الأولي يستلزم التمثيل الثاني، حيث ينتج المعنى الكنائي الذي يعتبر ابتكارا لغويا يضفي الجمالية على الخطاب والنص.

---

(1) المصدر نفسه، ص 242. (بتصرف)

(2) محمد الولي، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي النقدي، ص 21.

(3) فرانسوا مورو، البلاغة: المدخل لدراسة الصور البيانية، ص 62. (بتصرف)

(4) المرجع السابق، ص 62، 63.

أمّا وظيفة الكناية فهي: "وظيفة أساسها استخدام مدلول بالنيابة عن مدلول آخر يتعلق به بطريقة ما تعلقا مباشرا، أو يرتبط به ارتباطا شديدا. وتستند الكناية إلى علاقات تأشيرية متنوعة بين المدلولات، وبالأخص إقامة النتيجة مكان السبب"[1]، فاشتغال الكناية هو اشتغال سيميائي علامي، والصيغة بالاطلاع عليها أو سماعها تعتبر علامة أولية تحيل وتشير إلى علامة أخرى هي معنى الكناية عن طريق ارتباط شديد بين العلامات، أي علامة أولية تستدعي علامة ثانية تالية لها، ومرتبطة بها بشكل لازم وقوي، لأنّ النتيجة مكان السبب؛ كمن يقول: بسبب كثرة رماد القدر ينتج كرم فلان، فتصبح العبارة التالية كناية: **كثير رماد القدر**. لأنّ الكناية" إيحاء بالكل بوساطة وصل ما، فهي استخدام صفة أو معنى موحي، أو شيء ما قريب، بدل شيء، أو علاقة، كما عندما نقيم النتيجة مكان السبب... وينتج من ذلك علاقة تجاور"[2]. فهدف الكناية هو الإيحاء بواسطة اقتراب ومجاورة للمعنى المباشر، حيث تنتج من ذلك صفات جديدة لم تكن موجودة، لكن عليها أن تحكم بالعرف.

تقع الكناية ضمن "المؤشر" في تقسيم "بورس" للعلامة: "يقول جاكبسون إن المشبه به في الاستعارة يتصل بما يقوم هو مقامه على أساس الشبه، بينما تستند الكناية إلى التجاور أو القرب...، يرى بيرس أن التجاور سمة تأشيرية ويمكن اعتبار الكناية إسقاطا نصيا لصيغة بيرس التأشيرية"[3]. حيث تعير صيغة الاستعارة إلى وجود صفات مشتركة جزئية بين الطرفين، ما يقود إلى اتصاف هذا التشابه بالأيقونية الجزئية، بينما يوجد في الكناية تأشير بين طرفين؛ الطرف المباشر الأولي، والطرف الثاني الذي يفهم ككناية، ويأتي عن طريق المجاورة بين الصفات، ما يجعل الكناية من طبيعة مؤشرية تحت الشاهد أو المؤشر عند بورس. حيث" يعتمد اعتبار الكنايات بالواقع على إدراك تأشيريتها مما يغاير الأيقونية أو الرمزية الخالصة في الاستعارة. تبدو الكنايات أكثر استنادا إلى تجربتنا من الاستعارات لأنها تتضمن

---

(1) دانيال تشاندلر، أسس السيميائية، ص 223.

(2) المرجع نفسه، ص 223.

(3) المرجع نفسه، ص 226.

ارتباطات مباشرة. لا تتطلب الكناية النقل (الوثبة في الخيال) كما في الاستعارة. ويمكن أن يؤدي هذا الفرق إلى جعل الكناية تبدو طبيعية أكثر من الاستعارات"[1].

إنّ ما يجعل الكناية أقرب إلى الواقع هو قابلية معناها المباشر لمعناها المستنتج والمتوصل إليه. بينما تبتعد الاستعارة عن الواقع وتتطلب الخيال؛ لأنها لا تقبل بمعناها الحرفي المباشر، لأنها تتناقض مع المرجع والعالم الحقيقي، وهوما يجعل الاستعارة في العمل الأدبي أفضل من الكناية، لأنّ الأدب يسمو بالخيال واستحداث عوالم جديدة خيالية لم تكن موجودة، بل هي من صنع المؤلف.

وعن "الدال" و"المدلول" والاستعمال الكنائي: "تبرز الدالات الكنائية المدلول، بينما تبرز الدالات الاستعارية الدال. يرى جاكبسون أن الصيغة الكنائية يغلب أن تبرز في النثر والصيغة الاستعارية في الشعر، وأن ما يسمى الأدب الواقعي يرتبط ارتباطا شديدا بالمبدأ الكنائي"[2]؛ ذلك لأن هدف الكناية هو المعنى الثاني، لأن الصيغة الأولية (دال1+مدلول1) هي التي تصبح دالا لمدلول ثان هو المقصود. بينما الاستعارة عكس ذلك، فالهدف الدال الذي نراه لأول مرة، هو الذي ينتج عنه مدلول يساهم في معنى الاستعارة. ويكثر استعمال الاستعارة في الشعر لأنّ الخيال من أهم ركائزه، أمّا في النثر والأدب الواقعي فالكناية هي الأنسب لأنها تتفق مع الواقع والتجارب اليومية للبشر، وتقوم بوصف العالم الذي يعيشه المؤلف.

تتفوق الاستعارة على الكناية في الإيحاء، ويبدو" ضبط الكناية في نص ما أشد صعوبة بالمقارنة مع الاستعارات، إن رابط المشابهة في الاستعارة تمكن إقامته بين أطراف يكون تباعدها المتبادل، وهو تباعد يمكن أن يتنوع إلى ما لا نهاية، كبيرا جدّا. ويمكن أن يفاجئنا. وفي كل الأحوال فإنه يلفت نظرنا حين تحققه. وعلى العكس من ذلك فإن علاقة المجاورة التي تتسم بها الكناية لا يمكن أن تمتد إلى ما لا نهاية ولا تتنوع إلاّ بنسب بالغة الحصر"[3]. فالأيقونية التي تستدعيها المشابهة

(1) المرجع السابق، ص 226، 227.
(2) المرجع نفسه، ص 227.
(3) فرانسوا مورو، البلاغة: المدخل لدراسة الصور البيانية، ص 71.

تفتح باب التأويل في الاستعارة، وهو تأويل مفتوح، وتظهر الاستعارة بوضوح في الخطاب والنص لأنها بناء جديد خيالي واضح. أمّا المجاورة التي تكون في الكناية فإنها لا تؤدي إلى تنوع كبير في الدلالة، بل هو محصور ومعدود، وتظهر الكناية بصعوبة في الاستعمال لالتباس معناها المباشر بالمعنى المراد تحقيقه، والذي لا يتأتى إلاّ بالتأمل والتأويل، في حين تكون الصورة الاستعارية على وجه الإجمال تمثيلا مفاجئا وغريبا عن السياق، لأن الصورة الكنائية لا تحشر أي تمثيل غريب على المتشاكلة الدلالية، وتبدو في الغالب مجرد رؤية مبسطة عن الواقع[1].

بالرغم من التراجع الذي يقال عن الكناية مقارنة بالاستعارة فقد" سمحت... دراسة الكناية بالجواب سلبا، إذ إن هذه في الغالب صورة أقل وضوحا وأقل ظهورا بالمقارنة مع الاستعارة، لكنها صورة رغم ذلك، أي إنها انعكاس لواقع مشوه ومحول بواسطة الخيال الخلاق للكاتب"[2]. إذ يمكن أن تؤدي الكناية في بعض الحالات دورا يختلف عن دور العناصر البيانية الأخرى، فهي صورة جمالية لها كلمتها سواء في الدراسات التراثية، أم في الدراسات السيميائية الحديثة والمعاصرة.

أ-3) المجاز المرسل

يعرّف "الخطيب القزويني" "المجاز المرسل" "بقوله: "هو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة مع التشبيه، كاليد إذا استعملت في النعمة، لأن من شأنها أن تصدر عن الجارحة، ومنها تصل إلى المقصود بها، ويشترط أن يكون في الكلام إشارة إلى المولى لها، فلا يقال: اتسعت اليد في البلد أو اقتنيت يدا، كما يقال: اتسعت النعمة في البلد أو: اقتنيت نعمة، وإنما يقال: جلّت يده عندي، وكثرت أياديه لدي، ونحو ذلك"[3]. يظهر من هذا أن المجاز المرسل ملتبس بالتشبيه، وهو استعمال صيغة أو عبارة بقصد معنى آخر على شاكلة التشبيه، فلما

(1) المرجع نفسه، ص 72.
(2) المرجع نفسه، ص 78.
(3) الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 205، 206.

نقول: جلّت يده عندي، لا يعني اليد الجارحة المادية، وإنّما يقصد به أن اليد هي وسيلة جلب الخيرات والنعم، فيصبح المعنى "جلّت خيراته عندي"، وما يستخدم المجاز المرسل إلا لغرض إضفاء القيمة الجمالية على الكلام، فتظهر العبارة في كامل رونقها وهي التي كانت: "الخيرات كاليد تتجلى بها النعم".

اعتبر بعض المنظرين" المجاز المرسل صورة بلاغية مستقلة، ويرى آخرون أنه شكل خاص من أشكال الكناية، بينما يرى بعضهم أن وظائفه بأجمعها جزء من الكناية. يقول جاكبسون إن الكناية والمجاز المرسل يستندان إلى التجاور ويختلف تعريف المجاز المرسل من منظر إلى آخر"(1). فالسمات التي تطبع المجاز المرسل هي نفسها السمات التي تطبع الكناية، فكلاهما قائم على المجاورة، وهناك من السيميائيين من يعتبر المجاز المرسل صورة مستقلة كباقي الصور البيانية، ويفردونها بقسم خاص من الدراسة. إنّه إذاً" إقامة الجزء مكان الكل، الصنف مكان النوع، أو عكس ذلك"(*). كما يمكن النظر إلى أي محاولة لتمثيل الواقع أنها تتضمن مجازا مرسلا، "لأنها لا يمكن إلاّ أن تتضمن انتقاء، في حين تعكس العلاقات التأشيرية بشكل عام أقرب اتصال يمكن رؤيته بين دال ومدلول. تعكس علاقات الجزء مع الكل في المجاز المرسل الاتصال المباشر أكثر من أي علاقة أخرى. إن ما يعتبر جزءا من كلّ أوسع يرجع إليه، يرتبط وجوديا بما يدل عليه أي بالكل المتكامل الذي يدخل فيه"(2)، فما يمنح المجاز المرسل المجاورة والتأشيرية هو كونه يأخذ معناه من

---

(1) دانيال تشاندلر، أسس السيميائية، ص 228.

(*) يمكن للأمثلة الآتية أن توضح مضمون هذا التعريف: 1- الكل بدل الجزء، مثل: أوقفني القانون (أي الشرطي). فالقانون هو استعمال مجازي للكل، لأن القانون يندرج تحته الشرطي. 2-الجزء بدل الكل: سأرحل عن الدخان (أي عن لندن). فالدخان هو جزء من طبيعة لندن (الكل)، ويقصد بالضباب الذي يطبع عاصمة بريطانيا (لندن). 3- النوع بدل الصنف (اختيار الشامل): ومثال ذلك استخدام كلمة الأمومة بدل الأم. فالأمومة أشمل من الأم، والأمومة نوع والأم صنف. 4- الصنف بدل النوع (اختيار المشمول): مثال ذلك مركبة بدل السيارة، أو آلة بدل الحاسوب، فالمركبة صنف والسيارة نوع من صنف المركبات، والحاسوب نوع من الآلات. ينظر: دانيال تشاندلر، أسس السيميائية، ص 228، 229.

(2) المرجع السابق، ص 229، 230.

كلٍ أوسعَ يتخذ معه تجاورا وتمثيلا موازيا ذا مجال شاسع؛ يتصل بالعالم الخارجي. فكلّ أخذ هو مجاز مرسل، ولكي نفهم هذا التصوير البياني ينبغي أن نعود للأصل الذي تم به التأشير إلى جزء منه.

ميّز "إيكو" (Eco) بين: "الكناية التي تتضمن إبدالا داخل إطـــار المحتـــوى الأفهومي"[1] والمجاز المرسل الذي يضم: "إبدال جوانب من الواقع يرتبط بها عادة الشيء المبدل به"[2]. ففي الكناية يحل مفهوم محل مفهوم آخر، وفي المجاز المرســـل يحل مبدل من الواقع لنتحصل على شيء مبدل به مســـتندا إلى الواقـــع كـــذلك. حيث" إن الكناية والمجاز المرسل يستندان إلى التجاور ويمكن اعتبار المجاز المرســـل شكلا نصيا آخر من أشكال التأشيرية. أما إذا تم التمييز بين الكناية والمجاز المرسل، تكون الكناية بمعناها الضيق محصورة بالارتباطات الوظيفية كالسببية، لكن، حـــتى لو اعتبر المجاز المرسل منفصلا عن الكناية، يوحي الاستخدام العام أن الكناية تبقى مظلة تشمل كل الصلات التأشيرية"[3]. فأغلب الكنايات محصـــور بالارتباطـــات الوظيفية، كالسببية مثل: نوم المرأة حتى الضحى، والذي ينتج عنه كونهـــا مترفـــة مخدومة، ضمن كناية: "نؤوم الضحى"، وهو تأشير ومجاورة بين نـــؤوم الضـــحى ومترفة مخدومة، في حين أن المجاز المرسل توجد به مجاورة، ولكنها بخلاف الكناية، فلما نستعمل آلة بدل حاسوب (صنف بدل نوع) فإن المجاورة حاصلة بين صفات كل من الآلة والحاسوب، وبهذا يحدث المجاز المرسل؛ فرغم اختلافهما تبقى الكناية هي الأصل في المعاني المبنية على التجاور.

كما تصنّف ضمن حالات المجاز المرسل: "الاستعمالات المجازية الـــتي هـــي الجنس للنوع (المنشأة للسفينة)، أو النوع للجنس (الرجل للكائن الإنســـاني)"[4]، كما يمكن أن يلتبس المجاز المرسل بالكناية ولكن" يبدو ممكنا تحاشي هذا الخلط... ولكن إذا وقع الخلط فإنه قليل الأهمية نسبيا إذ إن الكناية والمجاز المرسل، منظـــورا

---

(1) المرجع نفسه، ص 230.
(2) المرجع نفسه، ص 230.
(3) المرجع نفسه، ص 231.
(4) فرانسوا مورو، البلاغة: المدخل لدراسة الصور البيانية، ص 67، 68.

إليهما من زاوية العلاقات بين الشيء المدلول والشيء الدال، يتصفان هما معـــا... بعلاقة مجاورة"[1]، و"يكون الخلط خطيرا حينما نعتبر عبارة ما كنايـــة، أو مجـــازا مرسلا، في حين أن لا شيء يجمعهما بهذين المحسنين"[2]. فعلى محلل الخطـــاب أو النص أن يتأمل جيدا تصنيف العبارة وتفسيرها، بحيث يفكك التجـــاور الموجـــود الذي تؤديه العبارة، ولكن هذا التجاور قد ينتج عن كناية أو عن مجاز مرســـل في الوقت نفسه، ولكن الخصائص الدقيقة لكل صورة هي التي تحدد الموقـــف الـــذي يتخذه القارئ منها، كما" يمكن أن يضفي التنويع على الخطاب، وذلـــك بجعلنـــا نفهم عديدا من الأشياء عبر شيء واحد، أي نفهم الكل عبر الجزء، والجنس عـــبر النوع، واللاحق عبر السالف أو العكس"[3]. لأنه تمثيل من نوع خـــاص للواقـــع، وطريقة إبداعية في تصوير المعاني، حيث يتيح عامل المجاورة للتمثيلات أن تتقارب وتتبادل بعدما كان يُظن أن كل تمثيل كيان منفصل عن الآخر.

بعد هذا العرض الموجز لأهم صور البيان، يتضح بأن السيمياء تقدم الكـــثير من التفسيرات والمقاربات لعناصر البيان، فالبيان منطق سيميائي من نوع خـــاص، وبما أن السيمياء تهتم بدراسة العمل الأدبـــي عبر اللغة، فإن عناصر البيـــان بمـــا تضفيه من جمالية عليه؛ قد تقاربت مع العنصر الدلالي، بكل ما أنتجه مـــن فكـــر دلائلي أثبت قابليته للتقسيمات المختلفة للعلامة السيميائية.

نلاحظ ممّا سبق استجابة عناصر البيان الأساسية للتفسير الســـيميائي، هـــذا التفسير الذي يرى "محمد فكري الجزار" أنّه جاء نتيجة للمشترك الإنساني للظواهر والرؤى، حيث يقول: "... إن الصورة تمثل مشتركًا إنسانيًا (قبـــل ثقـــافي)، ولم تتمكن تحولاتها الثقافية، (أيقونة–سيميوطيقا) هناك، ولا (تشبيهًا وغـــير تشـــبيه بلاغيًا) هنا، من محور فاعلية ذلك التاريخ المشترك. إن كل فاعلية تمتلك مفـــاهيم ترتكز إليها في اشتغالها، فهل لفاعلية الصورة/المشترك الإنساني ما ترتكز إليه؟ أزعم أن (نعم)... وإن لم تكن كثيرة فإنها ذات قوة أتاحت لها عبور التاريخ الإنســـاني

---

(1) المرجع نفسه، ص 66. (بتصرف)
(2) المرجع نفسه، ص 67.
(3) المرجع نفسه، ص 67.

من الطبيعي إلى الثقافي دون كثير اختلاف"[1]. ومن هذا المنطلق رأينا أن الصـــور البيانية تستجيب لتقسيم العلامة عند بورس، نظرا لاشتراكها في طبيعة الصورة في السيمياء عموما، وفي طبيعة الصورة في الحقل البياني بالخصوص.

ب) عند العرب: تقسيم الدلالة في ضوء تقسيم العلامة عند ش.س.بورس

يقول "عادل فاخوري": "ليس من مبالغة في القـــول إن الفكـــر العربـــــي استطاع أن يتوصل في مرحلته المتأخرة إلى وضع نظريـــة مســـتقلة وشـــاملة (في السيمياء) يمكن اعتبارها أكمل النظريات التي سبقت الأبحاث المعاصرة"[2]، حيث يعود تطور السيمياء عند العرب: "للتحاور بين المنطق وعلوم المناظرة وأصول الفقه والتفسير والنقد الأدبـــي والبيان. أو بوجه حصري إذا اعتبرنا أن الأبحاث الدائرة حول هذا الموضوع في علوم المناظرة والأصول والتفسير والنقد تعود إما إلى حقل المنطق أو إلى حقل البيان. كان تطور علم الدلالة عائدا إلى تزاوج هاتين الـــرؤيتين (المنطق والبيان)"[3]. فالدلائلية لم تكن غريبة على طبيعة التفكير العربـــــي، بـــل كانت نتيجة احتكاك العديد من حقول المعرفة؛ سواء البلاغة، أم المنطق، أم علوم المناظرة، أم الأصول، أم التفسير والنقد، وحسب فاخوري فإن علمـــاء العـــرب استطاعوا أن يبنوا فكرا دلائليا يضاهي النظريات الغربية اليوم، ولكن بالرغم مـــن ذلك فإن هذه المجهودات لم تكن منظمة ومقننة، وإنما كانت متناثرة عـــبر علـــوم ومؤلفات متعددة، لم تصل إلى مستوى التنظير الفعلي عند الدارسين الغرب اليوم.

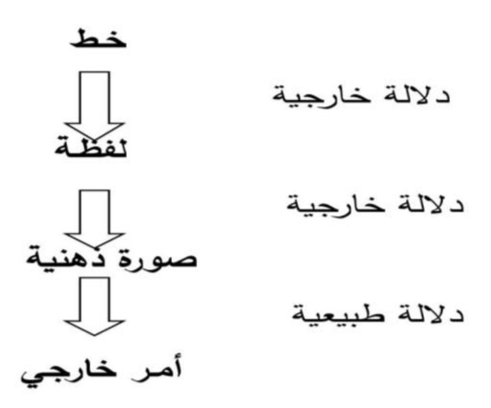
بداية علينا أن نكون حذرين من الخلط بين أفكار دلالية (تخص علم الدلالة)، وأخرى دلائلية (تتعلق بالسيمياء كعلم حديث)، إذ يمكن أن نلمس عند العـــرب مجهودا دلاليا يأخذ بعدا دلائليا في بعض الأحيان، حيث كـــان" ينحصـــر بحـــث الدلالة عند الفلاسفة المتقدمين كالفارابـــي وابن سينا والغزالي على الدلالة اللفظية

(1) محمد فكري الجزار، سيميوطيقا التشبيه، من البلاغة إلى الشعرية، نفرو للنشر والتوزيع، ط1، مصر، 2007م ص 86، 87.

(2) عادل فاخوري، علم الدلالة عند العرب، دراسة مقارنة مع الســـيمياء الحديثـــة، دار الطليعة، ط2، بيروت 1994م، ص 05.

(3) المرجع السابق، ص 05، 06.

وتعريفهم لها يتبع عن كثب مفهوم أرسطو، فالدلالة بنظرهم تتناول اللفظة والأثر النفسي، أي ما يسمى أيضا بالصورة الذهنية والأمر الخارجي، أما الكتابة فلا شك تدخل بعين الاعتبار إذ أنها دالة على الألفاظ"[1]. فاللفظ يترك أثرا في ذهن متلقيه عبر ما يسمى بالصورة الذهنية، أمّا الكتابة فهي مولدة للفظ ومعبرة عنه، والكتابة واللفظ أمران خارجيان، وتبعا لذلك تتولد العلاقة بينهما" يسميها ابــن ســينا، خارجية بين الخط واللفظة، واللفظة والصورة الذهنية، بينما هــي طبيعيــة بــين الصورة الذهنية والأمر الخارجي"[2]. فلما يتلقى السامع أو الناظر الدلالة ســوف ترد إليه من الخارج عن طريق الخط الذي يحيل على اللفظ الذي يحيل بــدوره إلى الصورة الذهنية عبر نزوع طبيعي في الدلالة بالأمر الخارجي، ما يوضحه والمخطط التالي:[3]



وفي مقارنة بين هذا المخطط وعناصر تقسيم العلامة عند "بورس" نجد" مــن الواضح أن الدلالة الخارجية هنا تعني ما يسمى عندهم بالدلالــة الوضــعية، أي الدلالة الرمزية (Symbolic) بمفهوم بيرس، والدلالة الطبيعية توافق الدلالة الأيقونية (Iconic) عند هذا الأخير من حيث الدلالة، علاقة الخط بالصورة الذهنية بتوسط اللفظ أو من دونه، هي علاقة اللفظ ذاتها بالصورة"[4]. فالرمز قائم على العــرف،

---

(1) المرجع نفسه، ص 07.
(2) المرجع نفسه، ص 08. (بتصرف)
(3) المرجع نفسه، ص 08.
(4) المرجع السابق، ص 8، 9.

أمّا الأيقونة فعلى الصورة والتشابه بين طرفي العلامة، أمّا من خـــلال التركيـــب الدلالي السابق في المخطط فـــ "إن اعتبار أربعة أمور في الدلالة اللسانية لا يعني أن العلامة اللسانية تتطلب أربعة أركان أو على الأقل ثلاثة إذا أخرجنا الكتابة: إذ أن الدلالة تكتمل فقط بركنين هما الدال والمدلول. لذلك فالتركيب الدلالي الســـابق يأتلف من ثلاث دلالات أي علامات (Sign) بالمفهوم الحديث: الخط-اللفظـــة، اللفظة-الصورة الذهنية، الصورة الذهنية-الأمر الخارجي"(1). حيث تنبني العلامـــة عند العرب وفق هذا التقسيم الدلالي الثلاثي، الذي يتطابق مع الرمزية فيما بـــين اللفظة والصورة الذهنية، والأيقونية فيما بين الخط والصورة الذهنيـــة في الإحالـــة الطبيعية.

يقول عادل فاخوري: "فمن وجهة نظر عقلية صرفة توصـــل الفيلســـوف الأمريكي بيرس (Peirce) إلى تقسيم ثلاثي للعلامات يقترب من أنواع الدلالات عند العرب. فتقسيم العلامة إلى شاهد (Index) وإيقونة (Icon) ورمز (Symbol) الذي شاع من بعده في السيمياء الحديثة يشبه ولا شك أنواع الدلالات الثلاثـــة، أعني العقلية والطبيعية والوضعية، كما أن هناك أكثر من جانب تقارب بين نظرية الدلالة عند العرب والسيمياء عند بيرس"(2). فالروافد التي استقى منـــها العـــرب وبورس منهجية التقسيم هي روافد منطقية، ومعظم العلماء نهلوا مـــن الفلســـفة اليونانية، فقد دخل المنطق إلى أفكار علماء التراث العرب القدامى (على تأسلمه)، كما أسس سيمياء بورس، وهو ما شكل نقطة تقاطع بين العرب والغرب علـــى السواء(3).

كما نقل فاخوري قولا "للتحتاني" في كتابه "شرح مطالع الأنوار" مفـــاده: "لكي تنعقد الدلالة اللفظية لابد من ثلاثة أمور: اللفظ وهو نوع من الكيفيـــات المسموعة، والمعنى الذي جعل اللفظ بإزائه، وإضافة عارضة بينهما هي الوضع، أي

---

(1) المرجع نفسه، ص 09.

(2) المرجع السابق، ص 13. (بتصرف)

(3) يمكن الاطلاع على أطروحة دكتوراه: عايدة حوشي التي قامت ببحث الروابط الفلسفية بين بورس والجاحظ. مرجع مذكور. الفصل الثاني.

جعل اللفظ بإزاء المعنى على أن المخترع قال إذا أطلق هذا اللفظ فـافهموا هـذا المعنى"[1]، وهو ما يدل على أنّ التحتاني أدرك مفهوم العلامـة اللسـانية، عـبر تكوينها من دال لفظ (صوت أو كيفية مسموعة)، أو مكتوب، ثم المدلول الـذي جعل اللفظ انعكاسا له، عبر المواضعة التي تضبط تسمية شيء ما باسم مخصوص. كما يدرج العرب تحت الدلالة الوضعية اللفظية" كل الألفاظ دون استثناء لكنّهم يميزون داخلها أصنافا تفيد في فهم تركيب العلامة"[2]. حيث يوسع العرب مـن مجال الدلالة الوضعية حتى تضم الكثير من الأصناف الدلالية، لكنهم يجعلون مـع ذلك تقسيمات أخرى تضبط هذه الأصناف، الشيء الذي أدى بهم إلى توسـيع مجال الدلالات الوضعية من خلال تعدد صفات العلامة حتى تضم صفات مختلفة؛ فـ "من منظور السيمياء البيرسية تندرج الإشاريات تحت ما أسميناه بالشـاهد (Index)، وليس تحت الرمز أي الفرع الذي يوافق الدلالة الوضعية عند العـرب. مع ذلك فالاختلاف بين المنظورين عائد فقط للتباين في اعتبار إحـدى حيثـيتي الدلالة: فمن جهة هذه العلامات هي اتفاقية اختيارية، ومن جهة أخـرى يتعلـق الدال فيها بالمدلول على المجاورة والالتزام. وليس من تناقض بين الرأيين في أن كل واحدة من الخاصيتين تعود لها. لكن العرب يأخذون خاصـية الاتفاقيـة بعـين الاعتبار"[3]. حيث يدرج العرب الميزان تحت الدلالة الوضعية لأن الميزان والعـدل وضعا ليرمزا للعدل. أمّا الشاهد عند بورس فمن قبيل اللاعرف بـل الاخـتلاف كإشارات المرور.

وحتى نفهم أكثر أنواع الدلالة في دلائل بورس موازاة بما ورد عند البلاغيين القدامى، علينا التمعن في التقسيم الذي قدمّه "فخر الدين الـرازي" (544هـ-606هـ) عن أقسام الدلالة اللفظية، والتي" إما أن تكون وضعية أو عقلية، كدلالة الألفاظ على المعاني التي هي موضوعة بإزائها. كدلالة الحجر والجـدار والسـماء والأرض على مسمياتها، ولا شك في كونها وضعية، وإلاّ لا امتنع اختلاف دلالاتها

(1) عادل فاخوري، علم الدلالة عند العرب، دراسة مقارنة مع السيمياء الحديثة، ص 16.
(2) المرجع نفسه، ص 16. (بتصرف)
(3) المرجع السابق، ص 22.

باختلاف الأوضاع"[1]. فالرازي يحدد الدلالة الوضعية بأنها اعتباطية وهذا هو السر في اختلاف اللغات، وهي تأتي عبر الاتفاق والاصطلاح، كما أن الدلالة الوضعية حسب "التهانوي" هي: "دلالة يجد العقل بين الدال والمدلول علاقة بالوضع ينتقل لأجلها منه إليه. والحاصل أنها دلالة يكون للوضع مدخل فيها على ما ذكروا فتكون دلالة التضمن والالتزام وضعية، وكذا دلالة المركب ضرورة أن لأوضاع مفرداته دخلا في دلالته، ودلالة اللفظ على المعنى المجازي داخلة في الوضعية لأنها مطابقة عند أهل العربية... وهي عند أهل العربية والأصول كون اللفظ بحيث إذا أطلق فهم المعنى منه للعلم بالوضع"[2]. وعن الدلالة العقلية يقول الرازي" أما العقلية: فإمّا أن يدل على ما يكون داخلا في مفهوم اللفظ كدلالة لفظ بيت على السقف الذي هو جزء مفهوم البيت. ولا شك في كونها عقلية، لامتناع وضع اللفظ بإزاء حقيقة مركبة، ولا يكون متناولا لأجزائها وإما على ما يكون خارجا عنه، كدلالة لفظ السقف على الحائط. فإنه لما امتنع انفكاك السقف على الحائط عادة، كان اللفظ المفيد لحقيقة السقف مفيدا للحائط بواسطة دلالته على الأول. فتكون هذه الدلالة عقلية"[3]. فالدلالة العقلية تستقى بإعمال العقل والفكر، فمن مكونات لفظة بيت السقف، حيث نستنتج مباشرة أن السقف هو دلالة على مجموع البيت، كما أن هناك دلالات ترتبط بألفاظ، وهذه الألفاظ تحمل دلالات أخرى مجاورة لها، فدلالة البيت بها دلالة السقف والجدران، والحجر والخشب أيضا.

كما يضيف التهانوي شارحا: "ويمكن تقسيم الدلالة أولا إلى الطبيعية والعقلية والوضعية، ثم يقسم كل منهما إلى اللفظية وغير اللفظية، هكذا ذكر الصادق الحلوائي في حاشية الطيبي. فالدلالة العقلية هي دلالة يجد العقل بين الدال والمدلول علاقة ذاتية ينتقل لأجلها منه المراد. والمراد بالعلاقة الذاتية استلزام

---

(1) فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تح: نصر الله حاجي، ص 30. (بتصرف)

(2) محمد علي التهانوي، كشاف اصطلاحات العلوم والفنون، ص 789، 790. (بتصرف)

(3) فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص 30.

تحقق الدال في نفس الأمر تحقق المدلول فيها مطلقا سواء كان استلزام المعلول للعلة كاستلزام الدخان للنار أو العكس، كاستلزام النار الحرارة أو استلزام أحد المعلولين للآخر كاستلزام الدخان الحرارة، فإن كليهما معلولان للنار"(1). ففـــي الدلالـــة العقلية علاقة معللة وسببية بين الدال والمدلول، فلما نشاهد الدخان (دال) يستلزم تحقق المدلول وجود النار، ووجود النار يستلزم وجود حرارة، فلا نار بلا حرارة، ويمكن أن ننتقل مباشرة إلى القول: بما أن هناك دخان فأكيد أنّ هناك نار؛ أي ما يفضي إلى الدلالة العقلية. لكن كيف سنلفيها عند المحدثين؟

يذهب عادل فاخوري إلى أنّ" إرجاع الدلالة العقلية إلى العلية الخارجية؛ يضـــيق مجالها جدّا بالنسبة لفروع العلامة المساوق لها عند بيرس؛ أي الشاهد، ولا تعـــود ذات منفعة للعلوم التي تستخدمها كالبيان والتفسير، لكن بالرغم من الأمثلة المقدمة في باب البحث عن علم الدلالة، فالرسم السلبـــي الذي يرد عادة بشأنها، وهو أن ليس للوضع ولا للطبع دخل في تحقق الدلالة فيها يتيح لها أن تتساوى مـــع الشـــاهد تقريبـــا"(2). فالدلالة العقلية عند العرب تنطبق مع الشاهد عند بورس، لأن فيها تأشيرا ومجـــاورة. لكن إرجاع الدلالة العقلية إلى العلية الخارجية؛ هو تقليص من مجالها المعتمـــد، الأمـــر الذي ينقص من نفعية هذا التصنيف بالنسبة إلى البيان والتفسير في اعتمادهما عليه.

أمّا الدلالة الطبيعية فهي: "دلالة يجد العقل بين الدال والمدلول علاقة طبيعيـــة ينتقل لأجلها منه إليه. والمراد من العلاقة الطبيعية إحداث طبيعة من الطبائع ســـواء كان طبيعة اللافظ أو طبيعة المعنى أو طبيعة غيرها عروض الدال عنـــد عـــروض المدلول، كدلالة (أُح أُح) على السعال، وأصوات البهائم عند دعاء بعضها بعضا، وصوت استغاثة العصفور عند القبض عليه، فإن الطبيعة تنبعث بإحـــداث تلـــك الدوال عند عروض تلك المعاني فالرابطة بين الدال والمدلول هي الطبع"(3). فالدال في الدلالة الطبيعية يظهر بالطبيعة والطبع، وهي تؤتى بالعقل والنظر. فلما نســـمع سعالا (أح أح) فسوف نستنتج دلالة على المرض (ربما...)

(1) محمد علي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ص 788.
(2) عادل فاخوري، علم الدلالة عند العرب، دراسة مقارنة مع السيمياء الحديثة، ص 23.
(3) محمد علي التهانوي، كشاف اصطلاحات العلوم والفنون، ص 788.

يمكن للدلالة الطبيعية أن تكون لفظية أو غير لفظية، فقد" قيل حصـــر الدلالـــة الطبيعية في اللفظية كما اختاره السيد الشريف منقوص بدلالة الحمرة علـــى الخجـــل والصفرة على الوجل وحركة النبض على المزاج المخصوص منها. قال المولوي عبـــد الحكيم: ولعل السيد الشريف أراد أن تحققها للفظ قطعي، فإن لفظة أح لا تصدر عن الوجع، وكذا الأصوات الصادرة عن الحيوانات عند دعاء بعضها بعضا لا تصدر عـــن الحالات العارضة لها، بل إنما تصدر عن طبيعتها بخلاف ما عدا اللفظ فإنـــه يجـــوز أن تكون تلك العوارض منبعثة عن الطبيعة بواسطة الكيفيات النفسانية"[(1)]، فدلالة الحمرة على الخجل دلالة طبيعية غير لفظية، وأصوات الحيوانات طبيعية، ذات دلالات طبيعية غير لفظية، ولفظة "أح" إن صدرت عن الوجع، فهي دلالـــة طبيعيـــة لفظيـــة، أمّـــا الكيفيات النفسانية وما يصدر عنها من طبائع فهي دلالات طبيعية.

يقول عادل فاخوري: "من وجهة نظر حديثة تعود هذه الأمثلة إلى صـــنف الشواهد وعلى وجه التخصيص إلى علاقة أثر بمؤثر. كذلك من وجهة نظر تاريخية التقسيم الثنائي للدلالة عند أرسطو إلى وضعية (Thesei) وطبيعية (Physei) يحمل تحت هذه الأخيرة مفهوم كل من الدلالتين العقلية والطبيعية عند العرب"[(2)]. يدرج فاخوري الدلالة الطبيعية تحت الشاهد (Index) من الدلالات، ويبدو أن التقسيم الدلالي عند العرب قد وجد طريقه عند أرسطو- مثلما سبق وأوردنـــا، فهنـــاك مجاورة وتأشير في الدلالة الطبيعية، فبتأثير الخجل توجد الحمرة وبتأثير الوجل توجد الصفرة، فالحمرة تتجاور مع الخجل، والصفرة تتجاور وتشير إلى الوجل.

يمكن للدلالة الطبيعية إذن أن تندرج ضمن العلامة الأيقونية حيـــث يقـــول "محمد بن محمد الرازي القطب التحتاني": "فصارت الكتابة دالة على العبارة وهي على الصورة الذهنية وهي على الأمور الخارجية، لكن دلالتها على ما في الخـــارج دلالة طبيعية لا يختلف لا الدال والمدلول"[(3)]. فالتحتاني بتفسيره للدلالة في الكتابة

---

(1) المصدر السابق، ص 789. (بتصرف)

(2) عادل فاخوري، علم الدلالة عند العرب، دراسة مقارنة مع السيمياء الحديثة، ص 24.

(3) القطب التحتاني، لوامع الأسرار في شرح مطالع الأنـــوار، جامعـــة الملـــك ســـعود للمخطوطات، 766م/10هـــ، ص 27.

يقصد الرسوم والصور، فلما نرى الكتابة ستحيلنا إلى العبارة، ثم إلى الصورة الذهنية التي تدل على الأمور الخارجية عن طريق ارتباط بين الدال والمدلول برباط يحمل فيها الدال صفات المدلول ذاتها، ما يعني العلامة الأيقونية. يقول فاخوري شارحا: "فعند اعتبار المدلول إذا استبعد كونه أثرا للدال لا يقصد بكلمة الطبع سوى خاصية في صورة المدلول، كونها مماثلة أو مشابهة للدال. وبهذا التفسير تتفق الدلالة الطبيعية مع الأيقونة عند بيرس، القائمة على التشارك في الخصائص بين المدلول والدال"[1]، ففي الدلالة الطبيعية واتفاقها مع الدلالة الأيقونية أمثلة قليلة في الموروث العربي، لأن أغلب الدلالات الطبيعية تندرج ضمن العلامة التأشيرية.

كما نقل فاخوري عن تودوروف قوله: "فهذه الأمور يمكن إدراكها بعلامات، لكن ليس بالعلامات ذاتها، بل الأولى تدرك بعلامات تذكرة والأخرى بعلامات كشف أو تدليل. تسمى علامة التذكرة العلامة التي إذا ما لوحظت بالوقت ذاته الذي لوحظ فيه الشيء المدلول غامضا، إلى أن نتذكر ما لوحظ معها، حتى وإن لم يقع بوضوح تحت حواسنا، كحال الدخان والنار. أما علامات الكشف، كما يقولون فهي التي لم تلاحظ بوضوح في الوقت ذاته مع الشيء، لكنها بمقتضى طبيعتها وتركيبها تشير إلى الأمر الذي هي علامة له، مثلما أن حركات الجسم هي علامة على النفس"[2]. فالدلالة العقلية تتفق مع علامات التذكرة حسب تودوروف، كدلالة الدخان على النار، فنحن في حالة تذكر أنّمن مشمولات مؤشرات الدخان النار والحرارة، كما تتفق الدلالة الطبيعية مع الكشف والتدليل، فالحمرة على الوجه تكشف وتدل على الخجل. ما يدل على التقارب بين فكر العرب القدامى ومفاهيم الدلائلية الحديثة الأمر الذي يمكن توضيحه عبر المخطط الموالي:[3]

---

(1) عادل فاخوري، علم الدلالة عند العرب، دراسة مقارنة مع السيمياء الحديثة، ص 26.

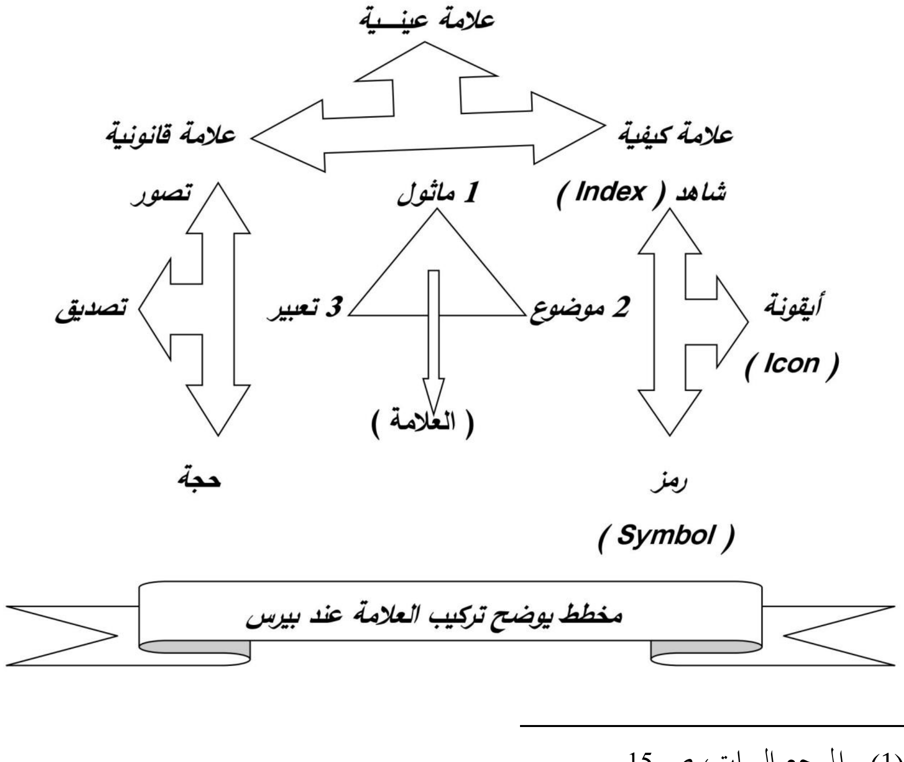
(2) المرجع نفسه، ص 25.

(3) المرجع نفسه، ص 29.

بيرس	أيقونة	شاهد	رمز
العرب	طبيعية	عقلية	وضعية

مخطط يوضح مقارنة بين تقسيم الدلالة عند العرب وتقسيم العلامة عند ش. س. بورس

يمكن للدلالة الطبيعية إذن أن تقابل علامة الشاهد عند بورس، كما يمكن أن تحمل صفة الأيقونية كما رأينا عند "التحتاني"، لأنّ الدلالة العقلية قائمة على المجاورة كما تتفق مع الشاهد عند بورس، في حين تتفق الدلالة الوضعية عند العرب مع الرمز؛ لأنها قائمة على المواضعة، كما يمكن أن تتفق مع الشاهد لأن هناك علامات تحمل صفة التأشير والمواضعة في الوقت نفسه، وهو ما أورده فاخوري بيانيا في الشكل الموالي:[1]



مخطط يوضح تركيب العلامة عند بيرس

(1) المرجع السابق، ص 15.

فكل علامة تحمل أحد التفاريع، فتأخذ فرعا مـــن **الموضـــوع**[*] وفرعـــا مـــن **الماثول**[**] وفرعا من **التعبير**[***]. و"... على ذلك مثلا تكون إشارة السير علامـــة تصديقية (على صعيد التعبير)، وشاهدية (على صعيد الموضوع)، وقانونية (على صعيد الماثول)، وكلمة (بيت) علامة تصورية رمزية قانونية"[1]. ما يعكسه المخطط التالي:[2]

	1	2	3
الماثول	علامة كيفية Quali- sign	علامة عينية Sin- sign	علامة قانونية Logi- sign
الموضوع	Icon الدلالة الطبيعية	Index دلالة عقلية	Symbol دلالة وضعية
التعبير	Rhema تصور	Dicent تصديق	Argument حجة

جدول يوضح موقع تقسيم الدلالة عند العرب من تقسيم العلامة عند بيرس ~

(*) الموضوع ويسميه محمد فكري الجزار الموضوعة حيث يعرفها: "وهي - عنـد بـيرس - ليست من الموجودات أو الموضوعات الواقعية في شيء، إنما هي نوع من الكليات المجردة عن تلك الموجودات أو الموضوعات أو هي صفة من بين صفاتها". فلكي يكشف الباحث عن الموضوع ينبغي أن يقوم بعملية عقلية تجريدية لكشف الصفات الـتي تنـبني عليهـا العلامة. ينظر: محمد فكري الجزار، سيميوطيقا التشبيه، من البلاغة إلى الشعرية، ص 139.

(**)الماثول ويسميه محمد فكري الممثل حيث يعرفه: "هو الحامل المادي للعلامة (العلاقة) إلى الحد الذي ينصرف إليه مباشرة إطلاق كلمة العلامة، وهو يحيل إلى الموضوعة". ففـي هذا الجانب نكشف خواص مادية تدرك مباشرة لما تقع العلامة على ذهن المتلقي. ينظر: المرجع نفسه، ص 139.

(***) التعبير ويسميه محمد فكري المؤول ويعرفه: "هو المصطلح الذي تميزت به سيميوطيقا بيرس عن سيميولوجيا سوسير، إذ هو ليس متصورا ذهنيا، بل علامة جديدة قد تكون من نوع الممثل نفسه أو من نوع آخر". فهو عنصر يرتبط بتقسيم بورس للعلامة وهو يزيد من كشف خصوصيتها. ينظر: المرجع نفسه، ص 139.

(1) عادل فاخوري، علم الدلالة عند العرب، دراسة مقارنة مع السيمياء الحديثة، ص 15.

(2) المرجع نفسه، ص 38.

فالدلالة الطبيعية هي على صعيد الماثول علامة كيفية، وعلى صعيد الموضوع علامة أيقونية (كما يمكن أن تكون شاهدية)، وعلــى صــعيد التعــبير تصــور (Rhema) والدلالة العقلية على صعيد الماثول علامة عينيــة (Sin-sign)، وعلــى صعيد الموضوع علامة شاهدية وعلى صعيد التعبير تصديق (Dicent)، كمــا أنّ الدلالة الوضعية على صعيد الماثول علامة قانونية (Logi-sign)، في حــين علــى صعيد الموضوع هي علامة رمزية، وعلى صعيد التعبير حجة (Argument). كما" لا يخلو التشابه أيضا على مستوى ثلاثية التعبير، فالمصطلحات: تصور، تصــديق، وحجة هي كلمات مستعارة من المنطق التقليدي، ويقابلها عنــد العــرب علــى التوالي: المفردة (اللفظة)، القول (التام)، الحجة"[1].

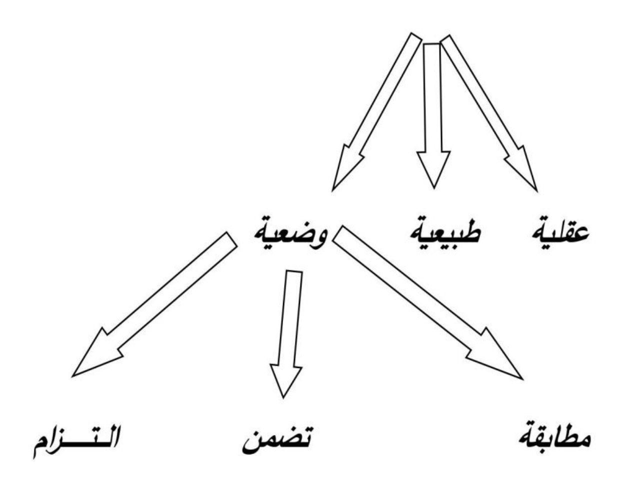
كما قسّم البلاغيون العرب القدامى وغيرهم من علماء الأصــول والمنطــق الدلالةَ اللفظية الوضعية إلى دلالة مطابقة وتضمن والتزام، وهو تقسيم ذو منفعــة كبيرة للبلاغة العربية في علاقتها بالسيمياء الحديثة.

أورد "يحي بن حمزة العلوي" عن دلالة المطابقة أنّها: "ما تكون دلالته بالنسبة إلى تمام مسماه وهذه هي دلالة المطابقة. وهذا نحو دلالة الإنسان والفرس والأسد على هذه الحقائق المخصوصة فإنها مرشدة بالوضع عند إطلاقهــا علــى معانيهــا المعقولة. وتختص دلالة المطابقة بأحكام كثيرة"[2]. فدلالة المطابقة مرتبطة بالمواضعة اللفظية، أي إنّ الدال يتطابق مع المدلول كأن يختص لفظ بمعناه، في حين تكــون "دلالة التضمن؛ نحو دلالة الفرس والإنسان والأسد على معانيها التي هي متضــمنة لها كالجسمية والحيوانية والإنسانية، فإن هذه المعاني كلها تدل عليها هذه الألفاظ عند الإطلاق، لأنها متضمنة لها من حيث إن هذه الحقائق لا تتعقّل من دون هــذه الصفات وهي أصل في معقول هذه الحقائق متضمنة لها فدلالتها عليها من جهــة تضمنها إياها"[3]. فالتضمن هو شيء مخصوص معقول في الدلالة اللفظية الوضعية،

(1) المرجع السابق، ص 38.
(2) يحي بن حمزة العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجــاز، ج1، ص 35.
(3) المصدر نفسه، ص 37، 38. (بتصرف)

وهو إدراك السامع بأن في الاسم الذي ورد إليه مميزات وخصائص تركيبة متفق عليها، فكلمة (الإنسان) هي اسم يحمل دلالة لفظية وضعية، ويتضمن كونه بشريا وعاقلا، حيث تتركب دلالة الأسماء المتواضع عليها في العقل من مجموعة من الصفات المتناسقة. أمّا: "دلالة الالتزام، وهذا نحو دلالة لفظ الإنسان والفرس على كونها متحركة، وعلى كونها شاغلة للجهة، وغير ذلك من الأمور اللازمة. فهذه مجامع دلالة اللفظ على ما يدل عليه لا تخرج عن هذه الأمور الثلاثة المطابقة والتضمن والالتزام"[1]. فالالتزام يشبه التضمن، ولكنه يختص بصفات اللفظ المتواضع عليه بكيفية أخرى، كإنسان متحرك ويشغل جهة أو حيزا من الفضاء، وما يلزمه من الصفات التي ترتبط به كونه يتنفس ويأكل. وهي خصائص توصل إليها العرب؛ كما تساهم في الكثير من التحليلات البلاغية والمنطقية واستنباط الأحكام.

بعد تقسيم دلالة اللفظ الوضعية إلى مطابقة وتضمن والتزام يصبح التقسيم كالتالي:[2]



(1) المصدر السابق، ص 38.

(2) ينظر: عادل فاخوري، علم الدلالة عند العرب، دراسة مقارنة مع السيمياء الحديثة، ص 42.

يقول فاخوري شارحا التقسيم: "هذا التصنيف للدلالة اللفظية إلى مطابقة وتضمن والتزام كان من الأفضل تعميمه على كل أنواع الدلالة من عقلية وطبيعية ووضعية. لأنه خلافا لرأي القدماء، هو أيضا في مقام الإفادة. وعندها يتساوى علم البيان بالمعنى المطلق مع علم السيمياء"[1]، ذلك أن تعميم المطابقة والتضمن والالتزام إلى الدلالتين الطبيعية والعقلية يضع البيان مع السيميائية في مستوى القدرة ذاتها تقريبا على دراسة أصناف العلامات وتحليلها، مع الكشف عن كيفية اشتغال الدلالة. كما يتضح أيضا أنّ الدرس البلاغي لا يزال بحاجة إلى الإضافة حتى يجاري العلوم الحديثة، خاصّة السيمياء، و"بسبب التساوق الحاصل بين دلالات المطابقة والتضمن والالتزام من جهة وبين الصور البيانية من جهة ثانية، كان تحديد دلالة المركب من أكثر من لفظ يفيد في تعيين نوع الصورة الناجمة عن عدة صور بيانية"[2].

فدلالة المطابقة والتضمن والالتزام المرتبطة بالألفاظ المتواضع عليها تفيد في الكشف عن معاني الصور البيانية وكيفية تركيب دلالتها، فلما نقول: زيد أسد؛ فزيد يتضمن الكائن البشري، وكونه إما شجاع أو غير شجاع فبالالتزام، حيث يلزم أحد الصفتين، وبالنسبة للأسد فهو يتضمن كونه حيوانا، ويستلزم كونه شجاعا بالالتزام، لأن كل أسد شجاع... وبطريقة عقلية وإعمال للبديهة نكشف عن هذه الصورة البيانية: زيد يختلف عن الحيوان؛ زيد شجاع، الأسد حيوان، الأسد شجاع ولا يهاب. (فزيد هو كالأسد في شجاعته) أيكل تركيب يمكن أن تشكله صورة بيانية عن طريق المطابقة، والتضمن، والالتزام...

بالنسبة لتقسيم الدلالة اللفظية الوضعية" بالأصناف الثلاثة... أي المطابقة والتضمن والالتزام، يوحي أن هذه الدلالة وما يعود إليها من الصور البيانية تشكل مجالا فريدا ومغايرا للأنواع الدلالية التي تقوم عليها السيمياء بوجه عام. لكن التعمق في التحليل يزيل هذه الشبهة العالقة باستمرار في أبحاث الدلالة والبيان عند العرب. وبالفعل حاول المناطقة والأصوليون والبلاغيون في كل كتبهم أن يعينوا

(1) المرجع السابق، ص 42.

(2) المرجع نفسه، ص 58.

نوعية الدلالة بالنسبة لكل من المطابقة والتضمن والالتزام سواء أكانت وضعية أم عقلية"[1]. فطريقة العرب في دراسة الصور البيانية عن طريق التقسيم الدلالي تختلف عن طريقة دراسة الصور البيانية عند السيميائيين، وقد رأينا كيف يدرس السيميائيون الاستعارة، والكناية، والمجاز المرسل. إذ لما يتعمق الباحث في أبحاث البيان والدلالة العربيين سوف تُزال الشبهة حول أسلوب دراستهم؛ لاسيما لما نعمم تقسيم الدلالة من مطابقة وتضمن وتلازم إلى الدلالة العقلية.

يظهر ممّا تقدم أن الدلالة العقلية موجودة في الدلالة الوضعية فـ: "لا خلاف على أن العلاقة بين المدلول المطابقي واللازم هي عقلية، بينما بالنسبة للتضمن فقد اعتبر البعض أن فهم المدلول المطابقي هو سبب في فهم جزئه، وبالتالي فإن العلاقة بينهما عقلية"[2]. فإعمال الذهن والعقل يدخل في الدلالة اللفظية الوضعية، عبر المطابقة والالتزام، ولما نسمع باسم شيء ونريد معرفة توابعه وخصائصه فإننا نقوم بعملية تشريح وتفكيك لشيء مركب عن طريق العمليات الذهنية، ويؤدي هذا العمل إلى الكشف عن التضمن والالتزام، فالدلالة العقلية تعمل على مستوى الدلالة اللفظية الوضعية.

لم يعمم العرب القدامى هذا التقسيم (المطابقة والتضمن والالتزام) إلى الدلالة اللفظية الطبيعية فعند "المقارنة بين أنواع وأصناف الدلالة يكتفي المفكرون العرب بإرجاع المطابقة والتضمن والالتزام إلى نوعين فقط هما الدلالة الوضعية والعقلية مع الإغفال التام للطبيعية، ومن الواضح أن مرد ذلك إلى إبهام الدلالة الأخيرة وانحصارها في العلاقة بين التعابير البدنية والأحوال النفسية"[3]. لذلك فقد بلغت مستوى الدراسة في الدلالتين الوضعية والعقلية، مستوى متقدما، بتعميم المطابقة والتضمن والالتزام عليهما، لكن الدلالة الطبيعية لم يشملها هذا التقسيم. وذلك لأن العرب لم يتعمقوا في هذا الصنف، مثلما تعمقوا في الصنفين الآخرين. لأنهم كانوا يقصرون الدلالة الطبيعية على الأعراض البدنية والنفسية ما أبقى هذا الصنف مبهما.

---

(1) المرجع السابق، ص 63.

(2) المرجع نفسه، ص 64.

(3) المرجع نفسه، ص 69.

قدّم الدارسون العرب المحدثون دراسات مختلفة حول البلاغة العربية القديمة، ومحاولة مقارنتها بالسيمياء الحديثة، ورؤية مدى ما تستطيع أن تقدمه السيمياء للبلاغة، وما تقدمه البلاغة للسيمياء، ومجهودات عادل فاخوري ومحمد العمري، ومحمد الولي وغيرهم مثال حي حول هذا المجهود. وقد تم التوصل إلى نتائج مرضية في هذا المجال تشجع على البحث، وتعكس مدى ثراء المادة التراثية العربية، كما تدعو كذلك إلى التأكيد على دور الآليات السيميائية في إعادة قراءة ما تزخر به البلاغة.

نتائج:

أولا:

بدأت البلاغة العربية من ملاحظات بسيطة ومصنفات موجزة تتحدث عن الكلام البليغ وأهم خصائصه، ثم تطورت هذه الأعمال إلى كتب، وصارت تُتَّخذُ لها المجالس التعليمية والتربوية، فشرع كل بلاغي يأخذ عن الآخر، وأصبح التالي يضيف إلى ما جاء به الأول.

فبعدما عرّجنا على البلاغة العربية القديمة وطريقتها في تحليل ودراسة الكلام ودور كل عنصر في إيصال المعنى، لاحظنا مجموعة من الحقول والعلوم الحديثة والمعاصرة تحتاج من جهة لبعض مفاهيم البلاغة القديمة وأنساقها المعرفية، ومن جهة أخرى تنطبق بعض المفاهيم العلمية المعاصرة على دراسة جزئيات وأنساق البلاغة القديمة، ومن أهم هذه الحقول؛ حقل السيمياء. حيث تتضمن البلاغة العربية قيما وعناصر سيميائية أثبتتها الدراسات المعاصرة عبر منطق دلائلي ورد ضمن سياق البيان العربي، وهو بمثابة إعادة قراءة للبلاغة القديمة، وإثراء للدلائلية ببعض الأفكار والمفاهيم.

يقول "محمد فكري الجزار": "من وجهة نظرنا، لا يمكن إنجاز هذا الهدف ما لم نستكشف مناطق تماس بلاغتنا مع المنهجيات الغربية أو بعضها... وهذا ما كنا نحاوله... بدءا من وضع مفهوم العلامة داخل الخطاب البياني، إذ لا يمكن الحديث عن نصية بلاغية دون أن يكون مركزها ذلك المفهوم وكل استتباعاته من أنواع

العلامات، وعلاقاتها فيما بين بعضها البعض، وحراك ممثلها من موضوع إلى آخر أو من مؤول إلى آخر"[1]؛ فبعدما كانت البلاغة تقتصر في الغالب على الأداء الكلامي، صارت تمتد إلى مختلف عناصر التواصل الكلامية وغير الكلامية من الصورة، والإعلام، والمسرح، وغير ذلك. حيث أكسبت طريقة البلاغيين العرب القدامى في الدراسة والتحليل البلاغة فيضا من الخصائص والملامح، أتاحت عبر التفكير الموسوعي لأولئك العلماء خصوبة في الرؤى تقاطعت وأفكار المحدثين.

ثانيا:

جعلنا تتبع مفاهيم الدلائلية نتلمس إرهاصات كثيرة للسيمياء بين الغرب والعرب قديما وحديثا، فمن المعروف أن "السيميائيات علم حديث النشأة إذ لم يظهر إلاّ بعد أن أرسى السويسري فيرديناند دي سوسير أصول اللسانيات الحديثة في بحر القرن العشرين، مع الإشارة إلى أنه قد كانت هناك أفكار سيميائية متناثرة في التراثين الغربي والعربي على حد سواء، ولأنه علم استمد أصوله من مجموعة من العلوم المعرفية فإن مهمة تحديده وإعطاء مفهوم عام له من الأمور الصعبة جدّا لهذا السبب تعددت الآراء في تعريفه وفي تحديد مصطلح دقيق له سواء في اللغات الغربية أو في اللغة العربية"[2].

لقد جلبت طبيعة السيمياء المهيمنة والممتدة إلى مختلف جوانب الحياة اهتمام الكثير من الدارسين، الذين تدارسوا مفاهيمها وأنظمتها التواصلية. فللسيمياء أصول تاريخية ضاربة في القدم، أدركها اليونانيون والعرب ضمن ملامح دلائلية تجسدت عبر أصول العلامات والفلسفة والمنطق والبيان، ما ربطها بالأفكار الحديثة، وزاد من طواعيتها بين مختلف الشعوب. حيث اهتم الدارسون العرب المحدثون بهذا العلم وترجموا الكثير من أعمال الغربيين بغية استنباط التلاقح الفكري، لما يمكن أن يقدمه للسيمياء بوصفها درسا بيانيا بامتياز.

---

(1) محمد فكري الجزار، "الأسس السيميائية لعلم البيان العربي"، ص 37.

(2) فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 11.

ثالثا:

درس "شايم بيرلمان" البلاغة الكلاسيكية اليونانية، وكان هدفه إغناء السيميائيات من ذلك المنطق الموجود في بلاغة أرسطو الحجاجية، ما أعطى لبلاغة اليونان أبعادا مهمة في الدرس السيميائي الحديث.

يرى بيرلمان: "أن نظرية المحاجة لا يمكن أن تنمو إذا تصورنا أن الدليل البرهاني إنما هو مجرد صيغة مبسطة بديهية. ولذلك فإن هدف نظرية البرهان (Argumentation) لديه هو دراسة تقنيات الخطاب التي تسمح بإثارة تأييد الأشخاص للفروض التي تقدم لهم. أو تعزيز هذا التأييد على تنوع كثافته"[1]. فتقنيات الخطاب وردت في كتاب الخطابة لأرسطو وقد تحدث كذلك عن كيفية زيادة الإقناع، سواء بالاهتمام بخصائص الكلام الإقناعي أو بمعرفة الحالة والكيفية التي يكون عليها السامع، وقد عرضنا لجزء من الحالات والنوازع التي يجب على الخطيب معرفتها حتى يكون حجاجه فعّالا وخطابه موجها لتحقيق الغرض والهدف المتوخى منه. يرى بيرلمان: "أن ما ينبغي أن يحتفظ به من البلاغة التقليدية (اليونانية) إنما هو فكرة المستمعين التي تنبثق مباشرة فهم طبيعة الخطاب"[2]. فبقدر تشخيص وضعية السامع، بقدر ما يكون الكلام والخطاب موجها ومعروضا بكيفية تعزز الإقناع، ولقد أدرك العرب القدامى هذه الأمور عن طريق أعمال وترجمات "ابن رشد" لكتب أرسطو، حيث خالط الحجاج والإقناع أذهان وأفكار علمائنا القدامى وأفادهم.

تكتسي أعمال أرسطو البلاغية قيما سيميائية هامة، في دراسة الخطاب القضائي والمشوري والحفلي (أو المثبت)، وقد أفادت السيميائية منها. كما تدل هذه الأعمال على أن الفكر السيميائي كان موجودا في الحاضرة الأثينية. كما" كان هدف البلاغة قبل كل شيء هو فن الكلام المقنع للجمهور. فهي تتصل إذن باستخدام لغة التكلم. بالخطب التي تلقى في الميادين العامة أمام حشود من الناس. وتستهدف الحصول على تأييدهم للأطروحات المقدمة"[3].

---

(1) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 67.

(2) المرجع نفسه، ص 68.

(3) المرجع السابق، ص 68.

فالحجاج والإقناع هما عناصر مهمة حفلت السيمياء في نشأتها بهما وهما همزة الوصل الكبيرة في علاقة السيمياء بالبلاغة اليونانية، وهو ما عكسته أعمال أرسطو البلاغية.

رابعا:

توصلنا ونحن نبحث في المصادر العربية البلاغية والمنطقيـة والمعجميـة إلى وجود إشارات ومباحث سيميائية هامة، حيث أعطى العرب القدامى عناية كبيرة لكل العناصر التي تؤدي دورا في المعنى والدلالة. ما يؤكده فيصل الأحمـر قـائلا: "وحقا فتراثنا العربـي قد خلّف لنا أفكارا سيميائية عميقة وقيمـة لا تنتظـر إلاّ التصفية والترتيب لنحصل على سيميائيات بأصول وقواعد عربية خالصة، ولـيس هذا الكلام تعصبا منا للتراث. وإنما هي الحقيقة التي لمسناها ونحن نبحث بسطحية تامة في هذه الإشارات... ومعظمها كانت متعلقة بعلم الدلالة وبالفلسـفة عنـد بعض أعلامنا"[1]. فقد ولع البلاغيون القدامى بكثرة التقسيم والتصـنيف، وهـو عمل يشابه ما تقوم به السيمياء المعاصرة في ضبط وتقنين العلامة اللغويـة وغـير اللغوية.

كانت فاتحة الأعمال السيميائية العربية مع الجاحظ الذي فصّل في العناصـر الحاملة للمعنى، ثم تلته إشارات وأعمال بلاغيين، ومناطقة، وصناع معاجم كـل واحد يعتمد على سابقيه، ليضيف عناصر جديدة تتعلق بالدلالة؛ فلقد لمسنا ونحن نقرأ هذه الأعمال مدى النضج الذي كان يسم هذه الدراسـات مـا يؤكـد أن علماءنا العرب قد اطلعوا على أعمال سابقيهم من اليونان بخاصة في تقسيم الدلالة إلى: طبيعية ووضعية وعقلية. حيث اتضح" أن القدامى قد تفطنوا في وقت مبكـر إلى قيمة العلامة من حيث هي حقيقة حسية تعود وتحيل إلى حقيقة مجردة غائبـة. وكانت دراساتهم التطبيقية تتمركز حول الدراسات القرآنية، فالقرآن هو الموجـه والباعث الحقيقي للدرس السيميائي"[2].

(1) فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 29.

(2) بلقاسم دفّة، "علم السيمياء في التراث العربـي"، ص 77.

فقد لاحظنا أن الجاحظ والعسكري وعبد القاهر الجرجاني كثيرا ما يدعمون آراءهم البلاغية ذات البعد السيميائي بالاستدلال بالآيات القرآنية، لأن العلماء العرب القدامى كان همهم الانتصار لإعجاز القرآن ولبلاغة اللسان العربي الذي نزل به هذا الكتاب. وبهذا فإن الدراسات الدلالية عند العرب ذات الصبغة الدلائلية موجودة في البلاغة، وفي الفقه، والأصول متشابهة، ولكن خصوصية كل علم تفرض دراسة تختلف قليلا عن العلوم التي تجاوره.

خامسا:

بعدما قمنا بمقاربة أهم الصور البيانية (الاستعارة، والكناية، والمجاز المرسل) وجدنا أن السيمياء تقدم الكثير لمباحث البيان الغربي والعربي، فقد وجدت الصور البيانية ضمن تقسيم بورس للعلامات تموقعها وتفسيرها ودلالتها، حيث ينبغي: "أن نعدد المحسنات التي يمكن تسميتها صورا، نستطيع أن نميز تلك التي تقوم على علاقة المشابهة بين طرفين: التشبيه والاستعارة والتمثيل والرمز. وتلك التي تجمع بين الطرفين علاقة المجاورة: الكناية والمجاز المرسل... إن التغييرات الدلالية المركبة المسماة المجازات المركبة تكمن في استعمال نفس الكلمة بمعنيين مختلفين في الآن ذاته... وهذا ينتج عنه: الكناية أو المجاز المرسل أو الاستعارة"[1]، كما لاحظنا أن التعريفات التي تقدمها السيمياء لعناصر البيان تتفق مع التعريفات التي قدمها علماء العرب البلاغيين القدامى. كما أولت السيمياء في وقتنا أهمية كبيرة لدراسة الاستعارة مقارنة بالصور البيانية الأخرى.

ينطبق كل ما تم عرضه حول عناصر البيان على البلاغة في كل اللغات، لأن المشابهة في الاستعارة موجودة في كل نتاج كلامي وأدبي أيا كانت اللغة، إلى جانب المجاورة الموجودة في الكناية والمجاز المرسل؛ ما يجعل هذه الدراسة بمثابة بلاغة عامة وليست خاصة، إذ يمكن تتبادل البلاغة والسيمياء الكثير من المواقف والإفادات في دراسة التصوير البياني، وهو ما يتيح الفرصة للتقارب بين العلمين وإفادة كل منهما للآخر.

---

(1) فرانسوا مورو، البلاغة: المدخل لدراسة الصور البيانية، ص 19، 20.

سادسا:

عرضنا حول علاقة البلاغة بالسيمياء عند الدارسين العرب المحدثين لتجربة "عادل فاخوري" بوصفه الباحث العربي الذي قدّم الكثير للبلاغة العربية القديمة، بحكم اطلاعه الواسع على السيمياء لدى الغربيين. فقد لامست دراساته عمق الفكر السيميائي عبر علم الدلالة العربي.

كما أفاد المنطق – بتحفظ – كثيرا علماء البلاغة في تطوير وكشف نظام الدلائل، سواء اللفظية أم غيرها، وذلك على اختلاف الدلالات غير اللفظية كالدلالتين العقلية والطبيعية، وهو ما فتح المجال للموروث العربي حتى يأخذ دورا في إثراء السيميائية العربية، كما أعطاه الفرصة ليقاربه... ولو بنوع من التحفظ.

الفصل الثاني

البلاغة وتحليل الخطاب

مثلما خصصنا الفصل الأول من بحثنا للبحث في أصول التفكير الدلائلي عند القدامى والمحدثين، علينا في هذا الفصل أن نلج مستويات تحليل الخطـــاب فيمـــا ترتبط فيه والبلاغة عبر ما يلي:

مفهوم تحليل الخطاب

ورد عن "**الأصفهاني**" في كتابه "المفردات في غريب القرآن" أن: "خَطَبَ: الخطْبُ والمخاطبة والتخاطب المراجعة في الكلام، ومنه الخُطبة والخِطبة، لكن الخُطبة تختص بالموعظة، والخِطبةُ بطلب المرأة. وأصل الخِطبة الحالة التي عليها الإنسان إذا خطب نحو الجِلسة والقِعدة، ويقال من الخُطبة: خاطب وخطيب. وفصل الخطاب: ما ينفصل به الأمر من الخطاب"[1]. تتعلق مادة "خطب" إذن بمراجعة الكلام، وبالجانب الديني عند العرب، ولاسيما أمور عيشهم، كما يذكر الأصفهاني الحالة أو الهيئة التي يكون عليها الخطيب، والتي تساهم في التواصل الفعال عبر الجلسة والقعدة، إلى جانب أن ذلك لا يتم إلاّ بالأدلة والحجج المقنعة.

عرّف "بدر الدين الزركشي" (745هـ-794هـ) الخطاب بقوله: "عرّفه المتقدمون بأنه الكلام المقصود منه إفهام من هو متهيئ للفهم. وعرّفه قوم بأنه ما يقصد به الإفهام أعم من أن يكون من قصد إفهامه متهيئ أم لا"[2]. فالخطاب هو الكلام الذي يراد به الإفهام، ثم يعمم ليكون ما فيه قصدية للإفهام عند البعض، رغم أن التهيؤ له أعم من ذاك وأوسع.

فالصحيح الذي قال به الأشعري "أنه يسمى خطابا عند وجود المخاطَب قال ابن القشيري: وهو الصحيح"[3]. حيث يشترط حسب الأشاعرة وجود المستقبل أو السامع حتى يكون الكلام خطابا، فيصبح الخطاب صلة بين المخاطِب والمخاطَب. كما روى الزركشي رأيا مخالفا حول الجواز اللغوي في عدم حضور المخاطَب، فحواه

(1) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج1، ص 200.
(2) بدر الدين الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، ج1، تحرير: عبد القادر عبد الله العاني، دار الصفوة للطباعة والنشر، ط2، الكويت، 1992م، ص 126.
(3) المصدر نفسه، ص 126. (بتصرف)

أنّ" البحث في هذه المسألة لفظي يرجع إلى اللغة من حيث جواز الإطلاق. وأما من جهة المعنى فالاقتضاء القديم معقول وإن كان سابقا على وجود المأمور، كما في حق الولد"[1]. حيث أجاز الزركشي عدم حضور المخاطَب، لأنه المُوصِي المتوفي لما يترك وصية، قد يكون الموصى له غير حاضر، فهو خطاب (وصية) مقبول وذو إفادة ومعنى، وليس شرطا حضور السامع. وبعد عرض بعض من آراء العرب القدامى حول مفهوم الخطاب، سنعرّج لتتبع بعض آراء المحدثين حول حقل تحليل الخطاب.

جاء في معجم (Dictionnaire Raisonné de la théorie du langage) لـ "**جوليان غريماس**" و"**جوزيف كورتاس**" أن" لفظة تحليل تعني في السيمياء، منذ هلمسليف: كل الإجراءات المستعملة في وصف موضوع سيميائي، وهي ميزة خاصة، إنها نقطة الانطلاق للكشف عن مسألة المعنى..."[2]. فالتحليل في اللغة يسعى للكشف عن المعنى، وهو يتماشى مع إجراءات محددة يضبطها المحلل، للوصول إلى هدف معين. في حين كما يردف صاحبا المعجم: "في أول مقاربة، نعرّف مصطلح الخطاب، مع الاحتكام للسيمياء، والنظر إليه في إطار نظرية الخطاب التي تتكلم بلسان الحقائق السيميائية (علاقة، وحدات، عمليات...). يقع على المحور الأفقي للغة. إذ يشير الخطاب إلى اثنين من التشكيلات السيميائية (العالم اللفظي) يندرج تحته الشكل اللغوي الطبيعي، وعالم طبيعي مصدره سيميائي غير لغوي..."[3]. يحتكم هذا التعريف إلى أطروحات السيمياء واللسانيات، حيث يكون الخطاب علامات لفظية تسند إلى علامات غير لفظية، أي: العلامات المتضمنة التي تكتشف بالاستدلال والتأمل في الظواهر السطحية.

ورد في "معجم تحليل الخطاب" أن بداية تحليل الخطاب كانت: "عن فصل ز.س هاريس (1952) ويعني به توسيع الطرق التوزيعية التقليدية لتشمل ما فوق الجمل من وحدات"[4]. فقد أراد هاريس (Z. harris) اللساني التوزيعي أن يشمل

---

(1) المصدر السابق، ص 126، 127.

(2) Algidas Julian Greimas, Joseph courtes, Sémiotique, Dictionnaire Raisonné de la théorie du langage, Hachette Supérieur, 2009, p. 14.

(3) Ibid. p. 102.

(4) دومينيك منغنو، باتريك شارودو، معجم تحليل الخطاب، ص 44.

التحليل اللغوي إلى أكثر من الوحدات الجملية، وذلك عن طريق التحليل التوزيعي الذي كان سائدا في أمريكا في القرن الماضي، فأطلق على هذا المنحى الذي هو أوسع من مستوى الجملة (الجملة الكبرى)؛ تحليل الخطاب. إلاّ أنه: "في البلدان الأنجلوساكسونية خاصة، العديد من الناس ينظرون إن قليلا أو كثيرا إلى تحليل الخطاب وتحليل الحديث وكأنهما شيء واحد، نظرا لكونهم يعدّون الخطاب نشاطا تفاعليا أساسا"(1). فتحليل الخطاب حسب بعض الباحثين ينطلق من المحادثات اليومية، أي من الفضاء التفاعلي للكلام في سياقات اجتماعية حية وحقيقية، كما أنّ تحليل الحديث هو تحليل للخطاب، بحيث يتم اللجوء إلى الأحاديث ليتم تحليلها وتأويلها، واستنتاج مختلف العناصر التداولية المتضمنة فيها.

ولأجل هذا كما ورد عند **دومينيك منغنو**: "نرى من المستحسن اعتبار تحليل الخطاب المخصص الذي بدل أن يقدم على التحليل اللغوي للنص في ذاته أو على التحليل السوسيولوجي أو النفساني لمحتواه، يسعى إلى مفصلة (Articuler) تلفظه مع موقع اجتماعي بعينه، وهكذا، يجد تحليل الخطاب نفسه حيال أنواع الخطابات المشتغلة في قطاعات الفضاء الاجتماعي (المقهى، المدرسة، المحل التجاري...)، أو في الحقول الخطابية (السياسي، العلمي...)"(2). فالنص – حسب منغنو – هو جزء من الخطاب بعيدا عن السياق، لذلك فإن تحليل الخطاب يدرس التلفظ في بيئته المحيطة به، والتي ساهمت في بنائه وفق ظروف اجتماعية، وعبر سياق خاص، لأنّه يهتم بالكلام الحيوي في المقهى والمدرسة والمحلات التجارية، كما يهتم بمختلف الحقول التي تنشأ فيها الخطابات المختلفة؛ (تعليمية، سياسية، دينية، وإخبارية)، فلكل ما يحيط بالخطاب أهمية في زيادة فهمه، وتحليله، ومعرفة قوانينه، والأمور المتحكمة فيه.

أمّا فيما يخص **النص وتحليل الخطاب**، فيطلق: "تحليل الخطاب بصفة عامة كما هو الشأن في هذا المعجم على العلاقة بين النص والمقام، فلا داعي للحديث

(1) دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2008م، ص 09.

(2) المرجع نفسه، ص 10.

إذن عن تحليل الخطاب في أبحاث تتعلق بالتداولية كأبحاث أ. ديكرو مثلا التي تتناول ملفوظات منقطعة عن السياق"[1]. فالباحث هنا يلح على دور السياق في تحليل الخطاب، وفي ربط النص بالمقام المحيط به، كما أنه يستبعد تلك الأبحاث التي تدرس الملفوظات بعيدا عن السياق (Contexte)[*].

فتحليل الخطاب هو دراسة للخطاب: "أي دراسة الاستعمال الحقيقي للغة من قبل متكلمين حقيقيين في وضعيات حقيقية، فإنه يبدو الفن الذي يدرس اللغة باعتبارها نشاطا راسيا في مقام ومنتجا لوحدات تتجاوز الجمل، وباعتباره استعمالا للغة لغايات اجتماعية تعبيرية وإحالية. وفي هذه الحالة يعمل تحليل النصوص على تعايش مقاربات شديدة التنوع: تحليل التخاطب، وإثنية التواصل، واللسانيات الاجتماعية التفاعلية"[2]؛ ففي هذه الحالة لما نعطي تعريفا متقدما لتحليل الخطاب، ستكون هناك مجموعة من الدعائم التي نتكئ عليها، دعائم سياقية بالدرجة الأولى، ودعائم تحليلية تتجاوز الجملة، وفي خضم هذا التحليل تعطى الأهمية للجانب الاجتماعي الذي يتضمن خطابا معبّرا ذا إحالة، حيث تتدخل حقول عديدة في التحليل... كما يتبنى تحليل الخطاب وجهة نظر مختلفة: "فدراسة استشارة طبية مثلا تفضي إلى الاحتفال بقواعد الحوار (موضوع تحليل الحديث)، والتنوعات اللغوية (موضوع علم الاجتماع اللغوي)، وأساليب المحاجّة (موضوع البلاغة)...إلخ، غير أن هذه الإسهامات المختلفة مدمجة من قبل محلل الخطاب"[3]. فعلى محلل الخطاب أن يأخذ بعين الاعتبار المجال أو الحقل اللفظي الذي يتعامل معه، ففي الاستشارة الطبية يكون هناك حوار ومحادثة، فنلجأ إلى تحليل القواعد

---

(1) دومينيك منغنو، باتريك شارودو، معجم تحليل الخطاب، ص 44.

(*) يمكن حسب غريماس وكورتاس أن" ندعو السياق بمجموع النص الفوقي، أو التي ترافق الوحدة الأفقية المعبرة التي تحدد المعنى، ويمكن التعبير عن السياق أو اللغة ضمنيًا، في هذه الحالة من الخارج لغوي أو من الظرف"

Julian Greimas, Joseph Courtes, Sémiotique, dictionnaire Raisonné de la théorie du langage, p. 42.

(2) دومينيك منغنو، باتريك شارودو، معجم تحليل الخطاب، ص 44.

(3) دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح في تحليل الخطاب، ص 10.

المرتبطة بفن المحادثة والتحاور، والتنوعات اللغوية من حديث في مقام الأنـــس، أو مع الجيران، أوفي المقاهي؛ أين يجب الالتزام بمعطيات علم الاجتمـــاع اللغـــوي، وأساليب الحجاج والإقناع والبلاغة، أين يجب على محلل الخطاب أن يتبنى مختلف هذه الحقول وهو يحلل الخطاب ويفحص آلياته.

يغري الخطاب ضمن تحليلاته عدة علوم ومتخصصين في مختلف المجـــالات، فهو: "عرضة لعدم استقرار جم، ذلك أنه يوجد محللون للخطاب هم بـــالأحرى علماء اجتماع، وآخرون هم بالأحرى لسانيون والبعض الآخر علمـــاء نفـــس. بالإضافة إلى هذه التقسيمات، هناك خلافات بين تيارات متعددة. وهكذا نجد أن تحليل الخطاب في الولايات المتحدة موسوم بالأنثروبولوجيا، في حـــين تنـــامى في فرنسا في الستينات تحليل الخطاب ذو توجه لساني بـــيِّن وموســـوم بالماركســـية والتحليل النفسي"(1). فيمكن إذن أن نتناول الخطاب كظاهرة لسانية، أو كظاهرة نفسية أو اجتماعية أو أنثروبولوجية، فكل باحث ومنهجيته في التحليل والمبـــادئ التي يعتمدها في التحليل، مع الأهداف والأغراض التي يريد الوصول إليها، فهنـــاك مقاربات عديدة. لكن المقاربة اللسانية هي التي أخذت اهتماما أكـــبر في القـــرن العشرين في أوربا وأمريكا، نظرا للثورة اللسانية، وكذا سطوة التوجهات اللسانية البنوية والتواصلية.

لقد بدأ تحليل الخطاب: "يستقطب فروع اللسانيات المتخصصـــة، وصـــار يوظفها توظيفا خالصا لبناء منظومته المعرفية بإطاريها النظري والتطبيقي وصـــولا إلى خطاب مكين متماسك. وليس ثمة شك في هذه المنزلة الـــتي يقصـــد محللـــوا الخطاب إلى تأسيسها، ذلك أنه مجال معرفي حاضر في كل زمان ومكان، ويمارسه الناس يوميا في معظم فعاليات حياهم وممارستها القولية والفعلية، بـــدءً بالعلمـــاء وانتهاءً بعامة الناس... لقد صار تحليل الخطاب نشاطا يوميا نمارسه بوعي حاضـــر أو كامن، إنه زمن تحليل الخطاب"(2). فحاجة المتكلمين للخطاب أكيدة، كما أنّه

---

(1) المرجع نفسه، ص 11.

(2) وليد العناتي، "تحليل الخطاب وتعليم مفردات العربية للناطقين بغيرها"، البصائر، مجلـــة علمية محكمة، مج 13، ع: 02، آذار 2010م، جامعة البترا، الأردن، ص 93.

حاضر في كل زمان ومكان، أمّا المتخصصون فقد استعانوا باللسانيات لفهمه وتحليله، لأنها الحقل الأقرب لخصوصيات الخطاب، ولدراسته ككل متماسك ومتجانس دراسة علمية موضوعية. سواء؛ في التعليميات، أم السياسة، أم الدين، أم الأدب، أم علم الاجتماع، ما أدّى به لأن يكون مناط اهتمام معظم الباحثين.

يستمد تحليل الخطاب مقوماته من مجموعة من الموارد: "اللسانيات النظرية، والتطبيقية، وعلوم الاجتماع النظرية والتطبيقية، وعلم النفس، ونظريات الاتصال والإعلام، والذكاء الاصطناعي، والقانون، وعلوم السياسة، والفلسفة والمنطق... إلخ"[1]. وذلك نظرا لأنه يكتسي مجموعة من الأسس التي تشكل كيانه. فيمكن لخطاب واحد أن يكون بهدف التواصل ويحمل قوانين معينة تحمل فلسفة ما ومنطقا محددا بأبعاد نفسية واجتماعية؛ إذ ينبغي على محلل الخطاب أن يعرف: "عددًا من العناصر التي تشترك في بلورة عملية التواصل في الخطاب. ويمكن معرفتها وفحصها من خلال النظر إلى الخطاب ذاته بوصفه الميدان الذي تتبلور فيه كل هذه العناصر، مما يحيلها إلى عناصر سياقية. وعناصر الخطاب السياقية إجمالا هي:

1-المرسل.2-المرسل إليه.3-العناصر المشتركة، مثل العلاقة بين طرفي الخطاب، والمعرفة المشتركة والظروف الاجتماعية العامة، بما تثيره من الافتراضات المسبقة والقيود التي تؤطّر عملية التواصل"[2]. فكل عنصر من هذه العناصر المذكورة له دوره في توجيه الخطاب، وبالتالي فهمه ومعرفة العناصر التي يشتغل وفقها. فثقافة المرسل والمرسل إليه تتحكم في معارف وبنية الخطاب، وكما أنّ الظرف التاريخي والمكاني لهذه العملية التواصلية أيضا له يد في تركيب وفهم هذا التخاطب... كل هذه العناصر هي مفاتيح سياقية هامة لمن يريد تحليل الخطاب.

لقد أعطى **العناني** صياغة شكلية للخطاب وفق ثلاثة فروع متضافرة: **أولا:** شكل الخطاب: ونقصد به بنية الخطاب اللغوية الشكلية من حيث هو نص لغوي

(1) المرجع نفسه، ص 93، 94.

(2) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، لبنان، 2004م، ص 39.

متماسك تتحقق فيه شروط النصية، أي التماسك الشكلي بأدوات الربط وعلاقاته المعروفة: التكرار والإحالة والحذف...إلخ. وتضاف إلى ذلك التقاليد الشكلية والعرفية للكتابة، مما يميز نصا من آخر وفنا من غيره. **ثانيا**: مضمون الخطاب: أي الرسالة والمعنى الذي يحمله الخطاب بما هو تفاعل دلالات المفردات والجمل في بنيتها العميقة لإنتاج المعنى الكلي للنص، وهو ما يتوصل إليه بمناهج وطرق متعددة، إنه تماسك الخطاب معنويا ومنطقيا ومعلوماتيا. **ثالثا**: سياق الخطاب ومرجعه: وإنّما يقصد به الإطار المعرفي والثقافي والإيديولوجي الذي أنجز الخطاب في ضوئه ووحيه[1].

يتجه التحليل حسب **العناتي** إلى النسقية في الخطاب بتضافر العلاقات بين الجمل؛ وذلك نظرا لكونها تتصل ببعضها بعلائق عن طريق الروابط النحوية أو عن طريق التلاحم المعنوي، إلى جانب اشتغال معاني الجمل في بعضها البعض. فلما يقرأ أو يستقبل سامع ما خطابا فإنه سيستنتج المعنى الكلي التام لهذا النتاج، لأن هناك ترابطا منطقيا بين البنى الجملية والمعاني العميقة. كما أن مختلف العناصر السياقية سوف تعمّق هذا الفهم وتزيد من وضوحه حول الإطار العام للخطاب وأسبابه التاريخية وارتباطاته المكانية والأهداف التي يرمي إليها القائل والمقول إليه[2].

يختلف تحليل الخطاب من خطاب إلى آخر فإذ: "كانت هذه هي المنطويات العامة لأي خطاب إلاّ أنها تتفاوت وتتمايز شكلا وبناء وفقا لطبيعة الخطاب وقصده. فالخطاب الأدبي مختلف عن الخطاب العلمي، والخطاب الديني مختلف عن الخطاب القانوني...الخ، ومن ناحية ثانية يفترق الخطاب السردي والوصفي عن الخطاب الإقناعي، ويختلف الخطاب الإقناعي عن الخطاب التمثيلي والمقارن...إلخ"[3]. فلكل خطاب خصوصياته الشكلية والمعنوية، ومن سمات الخطاب العلمي الدقة والوضوح، أمّا الخطاب الأدبي فيتسم بالخيال والتضمين،

(1) وليد العناتي، "تحليل الخطاب وتعليم مفردات العربية للناطقين بغيرها"، ص 94.
(2) المرجع نفسه، ص 94. (بتصرف)
(3) المرجع السابق، ص 94.

في حين يتسم الخطاب الديني بالوعظ وتبيين الخير من الشر، ومن سمات الخطاب القانوني توجيه الأوامر. وعلى محلل الخطاب أن يدرك خصائص المجال الخطابي الذي يعمل عليه مع المنهج المناسب لتحليله. فمما يعتبر امتيازا لتحليل الخطاب: "كونه منهجا في التحليل اللغوي والثقافي، أنّه يركز على النصوص الأصيلة وتمثلاتها الناجزة نصوصا مكتوبة، وتحليل المحادثة والخطاب الناجز قولا وكلاما"[(1)]. لأنّ أصل المكتوب هو خطاب حي أصيل يحتكم إلى ما يحتكم إليه الخطاب من ظروف سياقية متشابهة. والتحادث والمخاطبة هما البيئة الأصيلة والمُثلى للخطابات، نظرا لوجود عناصر تفاعلية هامة في ذلك.

لقد أفرزت **التعريفات المتعددة** للخطاب خلطا بين مفهومي الخطاب والنص: "والحق أن بينهما اختلاف، فالنّص، في هذه الدراسات هو مجمل القوالب الشكلية: النحوية والصرفية والصوتية، بغض النظر عمّا يكتنفه من ظروف أو يتضمنه من مقاصد. في حين يحيل الخطاب على عناصر السياق الخارجية في إنتاجه وتشكيله اللغوي وكذلك في تأويله. مما يفترض معرفة شروط إنتاجه وظروفه، كما أن هناك فرقا في العلامات المستعملة، فقد ينتج الخطاب بعلامات غير لغوية كما هو الحال في التمثيل الصامت أو الرسم الكاريكاتوري أو الخطاب الإعلاني التجاري الذي قد يقتصر على استعمال علامات غير لغوية"[(2)]. فالمفهوم المشترك بين النص والخطاب هو الذي يكمن في كونهما مجموعة من الجمل تخضع لترابط وتبادل عن طريق الأدوات النحوية والتلاحم المعنوي، كما يرتبط الخطاب إضافة إلى ذلك بالسياق الذي يحدث فيه التخاطب من مرسل ومرسل إليه وظروف زمانية ومكانية، ويستخدم الخطاب كذلك العلامات غير اللغوية كالإيماءات والإشارات التي تؤدي دالات متعددة، كما يمكن أن يكون الخطاب غير لغوي كما في الإعلانات والرسوم أو التمثيل الصامت.

لقد أعطى **الاتجاه الوظيفي** دفعا قويا لتحليل الخطاب من خلال: "استعمال اللغة كما هو عند بعض الباحثين، وذلك بتجاوز وصف الخطاب وصفا شكليا،

---

(1) المرجع نفسه، ص 95.

(2) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 39.

وعدم الاكتفاء بالوقوف عند بيان علاقة وحدات الخطاب ببعضها البعض وتحليلها. والدعوة إلى ضرورة الاعتناء بدور عناصر السياق، ومدى توظيفها في إنتاج الخطاب، وفي تأويله مثل دور العلاقة بين طرفي الخطاب، ودرجاقم الاجتماعية وطرقهم المعتادة في إنتاج خطاباقم. فالتلفظ المتعدد لخطاب واحد، مثلا، يجسد (الأنا) المتلفظة في تباينها الواقعي والاجتماعي مع المرسل إليه"[1]. **فالاتجاه التواصلي**[*] هو الذي ظهر بعد هيمنة الاتجاه البنوي في اللسانيات ضمن القرن العشرين، ويُعنى بالاستعمال اللغوي والأبعاد التداولية للخطاب، فإضافة للدراسة **النسقية**[**] التي تنظّم الخطاب، يتجه التحليل إلى العناصر السياقية من حيث التوافق والاختلاف بين المرسل والمرسل إليه والعناصر المشتركة، ودرجاقم الاجتماعية، فكل فرد يتكلم مع آخر وفق منطق محدد، والأنا تتجسد بصور مختلفة يفرضها السياق وطبيعة سامع الخطاب.

---

(1) المرجع السابق، ص 38.

(*) يقول سعيد بنكراد عن الاتجاه التواصلي: "... التواصل باعتباره علما يبحث في أشكال العلاقات التي تربطها الكائنات البشرية فيما بينها لم يظهر إلاّ في فترة متأخرة، وبالضبط في الثلاثينيات من القرن الماضي. ويعود الفضل في ذلك إلى عالمين عُرفا بانتمائهما إلى ميادين معرفية بعيدة عن عوالم السلوك البشري (يقصد علماء السبيرنيطيقا أو التواصل عبر الآلة)، ومع ذلك قدما خطاطات تختصر عملية التواصل وتحدد عناصرها الداخلية ومسارها ومجمل التأثيرات التي تعوق تحقق الإرسالية أو تسهم في إنجاحها، وهي الخطاطات التي ستلهم الباحثين في ميدان التواصل الإنساني". ينظر: سعيد بنكراد، "استراتيجيات التواصل، من اللفظ إلى الإيماءة"، مجلة علامات، ع: 21، المغرب، 2004م، ص 06. (بتصرف)

(**) يعرف "حسين خليفة الرميح" النسق بقوله: "وبحسب نظرية النسق البنيوي يُلحظ تميز نوعين، الأول: نسق تركيبي، والثاني: نسق دلالي. ويمكن اختزال المفهوم العام للنسق في أنه جملة من التكرارات المنتظمة المتميزة بالترابط في جسد النص، وقد تستغرق تلك التكرارات المنتظمة النص كله، وقد تشغل حيزات محدودة منه. ويوصف النسق بأنه تركيبي إذا كانت التكرارات تنتظم نمطا متشابهًا من التراكيب... ويوصف النسق بأنه دلالي إذا كان موضع الضغط في البناء النسقي هو الدلالات، ولكل من نوعي النسق تقنياته الخاصة في البناء النصي، كما أن لكل منهما تقنيات تحليلية خاصة". ينظر: حسين خليفة الرميح، "النسق التركيبي في إنشاد العربي الشريف"، المجلة الجامعة، ع: الخامس عشر، مج: الثالث، ليبيا، 2013م، ص 34، 35.

تحليل الخطاب إذن: "مصطلح جامع ذو استعمالات عديدة، يشتمل على مجالات واسعة من الأنشطة: التداولية، السيميائية، اجتماعية، نفسية، أسلوبية...إلخ، إنه في استفاضة دائمة: موضوعا، مجالا، منهجا. يسعى في اجتماع جزئيتيه اللتان ساهمتا بشكل فعّال في تكوينه إلى تحليل وفك شفرة الخطاب من أجل فهمه على اختلاف أنواعه: (أدبي/شعري/نثري) سياسي، إشهاري، اجتماعي، نفسي، تعليمي، علمي...إلخ. حتى لا نقف عند هذا الأخير (الخطاب) مكتوفي الأيدي وعاجزين لا نملك آليات التحليل، ولا قدرة على القراءة والتأويل، باعتباره خطابا متماسكا غاية في التعقيد والتشابك"[1]. فيمكن أن نقارب تحليل الخطاب من عدة زوايا؛ سيميائية، أو أسلوبية، أو تداولية، أو حجاجية... والذي يفرض علينا اختيار المقاربة المناسبة هو نمط الخطاب والأهداف منه. فهو فضاء يحمل العديد من القيم والعناصر المتكاملة عبر أنظمته وجزئياته.

يمكن لمحلل الخطاب أن يجمع في المقاربة بين عدة حقول تخصصية حيث" خلال هذه السنوات... أخذ يتطور في أوربا وأمريكا ما يدعى بعلم الدلالة التداولي، الذي يتغذى من الفلسفة التحليلية الإنجليزية من خلال نظرية أفعال اللغة. إنه علم الدلالة الذي لا يهمل التلفظ، والأفعال الإنجازية، ويدمج مواضعات الاستعمال ويحدد الاستراتيجيات التخاطبية"[2]. فلما ينتج الفرد خطابا فإنّه يخضعه لقوانين التداول اللغوي، ولاسيما التحليل الدلالي للعبارات الخطابية، حيث يكون هناك تقارب بين علم الدلالة والتداولية كمجالين يخدمان ويكملان بعضهما البعض في التحليل. كما يخدم علم الدلالة تحليل الخطاب، بحيث: "يكون تحليل الخطاب في وضع اختيار لابد من القيام به عندما يتعلق الأمر بمقاربة المعنى... ينقل جهاز ملاحظاته من الكلمة إلى التركيب، ومن الكلمة إلى الجملة، ومنها إلى النص

---

(1) نعيمة سعدية، "تحليل الخطاب والإجراء العربي"، أشغال الملتقى الدولي الثالث في تحليل الخطاب، جامعة قاصدي مرباح بورقلة، مجلة الأثر (ع خاص)، ص 76. (بتصرف)

(2) ذهبية حمو الحاج، "ترجمة الفصل الأول من كتاب فرنسين مازيير (تحليل الخطاب)"، مجلة الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، ع: 03، ماي 2008م، نشر دار الأمل، تيزي وزو، ص 394، 395.

دون الاستغناء أبدا عن الكلمة ما دام تحليل الخطاب يذهب إلى حد الإعلان عـــن معجم الخطاب، لكن دون إهمال علم الدلالة الجملي وعلم الدلالـــة النصـــي"[1].
فتحليل الخطاب يبدأ من الكلمة لأنها أصغر وحدة دالة فيه، ثم ينتقل إلى الجملـــة وهي تلك العلاقات بين المونيمات (monème) (الوحدات الدالة)، ثم ينتقـــل إلى الخطاب الذي يضم مختلف التراكيب أو الجمل، وفي كل هذا لا يهمل الكلمـــات كعناصر معجمية ذات دلالة، إلى جانب الجمل والنص بكل الحمولـــة الدلاليـــة المتعلقة بها، مما يؤكد دور علم الدلالة في مقاربة الخطاب وإمداداته بالمفاهيم الـــتي تساعده على تحليله وتفسيره.

---

(1) المرجع السابق، ص 395.

إرهاصات تحليل الخطاب عند القدامى

أولا) في البلاغة اليونانية القديمة

لقد جاء تحليل الخطاب عند اليونانيين ضمن ممارساتهم البلاغية، وهو ما أثبتته البحوث عند الغربيين حول موضوع البلاغة الجديدة التي أفادت كثيرا من أعمال اليونانيين التي تحمل العديد من القيم الحجاجية، وكذا الإلمام الواسع بكل من المرسل والمرسل إليه وظروف التواصل التخاطبية.

رأى **اليونانيون** القدامى: "أن الضرورة تحتم تعلم الخطابة، وفن التأثير على المستمعين وكسب الجدل بأي وسيلة ممكنة. إذن فالريطوريقا في نظرهم هي الفضيلة وهي أسمى العلوم. والواقع أن الوقت آنئذٍ كان في صالح السفسطائيين"[(1)]. فلقد كانت الخطابة تستخدم لحاجات عملية ونفعية لصالح **السفسطائي**[(*)] كي يؤثر في السامع بالمجادلة والمحاججة، فقد كانت البلاغة من العلوم الشريفة عندهم.

---

(1) عبد الله حسن المسلمي، أفلاطون، محاورة منكسينوس أو عن الخطابة، ص 09.

(*) ورد في معجم التعريفات للشريف الجرجاني أن السّفسطة: "قياس مركب من الوهميات والغرض منه تغليط الخصم وإسكاته، كقولنا الجوهر موجود في الذهن، وكل موجود في الذهن قائمٌ بالذهن عرض لينتج أن الجوهر عرضٌ". ينظر: الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، ص 124.

وحسب "خيرة بن علوة": "معنى ذلك أن السفسطة بدأت بطابع تعليمي يحاول تبصرة العوام بفنون القول وحيله، حتى تتكافأ الفرص بين الجميع، ويسقط عامل الاحتكار للسلطة الذي عرفته أثينا زمنًا فكان المتلقي عند هؤلاء يقابل مصطلح المتعلّم أو المتلقن". ينظر: خيرة بن علوة، "المتلقي في بلاغة الخداع: البلاغة السفسطائية أنموذجًا"، مجلة Semat، مج: 02، ع: 01، جانفي 2014م، ص 106.

كانت الخطابة فنا تعليميا، حيث" كان **السفسطائيون** يجمعون حولهم الشبان ويتعهدون بتدريبهم. وكان هذا التعليم على يد السفسطائيين يمتد لثلاث إلى أربع سنوات. وكان الطالب يدفع أجرا على ذلك"[1]. فمدة تعليم الخطابة هي مدة طويلة جدا، لأنها عبارة عن فن واحد، كما أن حاجة المتعلم لهذا الفن حاجة ضرورية، ولو لم تكن ضرورية لما صبر على الوقت المبذول، والمال في مقابل تعلم البلاغة على يد السفسطائي، وقد أظهر السفسطائيون: "تفوقا بالغا حقا. إن مناسبات معينة كانت تتطلب خطبا معدّة من قبلٍ كالخطب التي تلقى في تأبين الشهداء. ولكن الحياة الديمقراطية كانت تتطلب رجلا يستطيع أن يقنع المؤسسات النيابية المختلفة والمحاكم القضائية على أنواعها، وهذا يتطلب خطابا مرتجلاً"[2]. كان اليونانيون يعدون الخطب ثم يحفظونها لكي تلقى ارتجالا في المقامات المناسبة (عبر المناسبات الأليمة وفي المحاكم القضائية بمعرض الدفاع أو الاتهام)، وهو دليل على أنهم اكتشفوا بناء الخطابة وأسلوبها وخصائص جزئياتها.

كما كانت **الريطوريقا** رائدة عند السفسطائي، "كان **جورسياس** فارس هذا الميدان، وكانت صقلية منبع أول مظاهرها البارزة. وظل جميع من تعرّضوا للريطوريقا بعد جورسياس يسيرون على قواعده التي تتكون من ثلاث عناصر: المقابلة، وتوازن العبارة، والسجع"[3]. فقد وضع **جورسياس** قواعد للخطابة صار كل من يأتي بعده يعتمد عليها، وقد كان يعي دور العبارات والشكل اللازم للخطاب الموجه للاستعمال. وما زاد من الإحاطة بموضوع البلاغة الفلسفةُ، فقد" كانت دراسة البلاغة وتدريب العقل تتطلبان دراسة الفلسفة. وقد أيّد سقراط دراسة الفلسفة بالنسبة لطلبة التعليم العالي، ورآها ضرورية. فالفلسفة هي التي ساعدت على اكتشاف القوانين، واكتشاف الصواب والخطأ والعلم والجهل. وهي البحث عن الحكمة والثقافة"[4]. فالمنطق ومواضيع الفلسفة تساهم في توجيه الكلام عن طريق القياس ومعرفة نفسية

---

(1) عبد الله حسن المسلمي، أفلاطون، محاورة منكسينوس أو عن الخطابة، ص 23.
(2) المرجع نفسه، ص 24.
(3) المرجع السابق، ص 24.
(4) المرجع نفسه، ص 31.

السامع، كما أن الفلسفة تفتح الذهن وتعطيه الحرية اللازمة لفحص القضايا والبناء عليها، ليخلص المتكلم إلى خطاب سليم وموجه نحو الهدف. وبهذا درست الريطوريقا" كعلم دخل الأكاديمية. قد جعل دراسة الأدب واللغة وفن الحوار. وكذلك جميع الفنون التي تقوم عليها الريطوريقا ضرورية"[1]. فلقد استقرت الريطوريقا كعلم تحليلي لفنون الأدب والمحادثة، واللغة البشرية. ما يمكننا من القول: إن اليونان قد قاربوا الخطاب بشتى أنواعه انطلاقا من البلاغة، واستعانوا في ذلك بمختلف الحقول المجاورة المساعدة على تطوير هذا التحليل وإثرائه[*].

لقد كان **الحجاج** عند اليونان في مستوى متقدم جدًّا، والذي يعتبر من أهم عناصر تحليل الخطاب في الفترة الحديثة، و"يعود ظهور النظريات الأولى في الحجاج، تقريبا، إلى ما بين (450- 440 ق م) وذلك في صقلية اليونانية. والاسمان المرتبطان بهذا التأسيس هما كوراكس (Corax) وتلميذه تيزياس (Tisias). وكما يقول شيشرون الذي يذكر أحد نصوص أرسطو المفقودة: لم يعرف قبل ذلك أن أحدا ما قد اعتاد أن يترافع بمنهجية وآلية محددة، حتى وإن كان البعض يؤدي ذلك ببراعة ودقة"[2]. فالحرية الممنوحة لليونانيين في تلك الفترة تطورت على إثرها المحاكم، ومعها تطورت المرافعة القضائية، التي تعتمد في محتواها على الحجاج وفن

---

(1) المرجع نفسه، ص 33.

(*) نقل "عبد الله المسلمي" قولا عن أرسطو مفاده: "إن المنهج التعليمي لأولئك الذين يعلمون فن الخطابة القضائية من أجل الأجر، إنما يشبه نظام جورسياس. لقد كان هو وزملاؤه يعدون الأحاديث الريطوريقية كي تحفظ عن ظهر قلب وكان معلموا الخطب القضائية يدبجونها على شكل سؤال وجواب. والسائد هو أن مثل هذه الأحاديث كانت تشمل على الحوار بين طرفي النزاع. ونتيجة لذلك كان التعليم سريعا ولكنه غير منظم... مثل هذا المعلم يأتي ليسد حاجة عملية لا يعلم فنا". فنظام جورسياس كان قائما على التعليم والتلقين والممارسة الخطابية، ما يؤدي إلى سرعة التعلم، لكن بالرغم من هذه الطريقة ذات الإفادة الكبيرة، انتقدهم أرسطو في أنهم لم ينظّروا لهذه الصناعة، ولم يخلصوا إلى قواعدها المجردة التي تسد على المتعلم عناء البحث، لكي يستنتج هذه الصناعة ويستنبطها من القواعد المستخرجة. ينظر: عبد الله حسن المسلمي، أفلاطون، ص 34، 35.

(2) فيليب بروتون، جيل جوتييه، تاريخ نظريات الحجاج، تر: محمد صالح ناجي الغامدي، مركز النشر العلمي، ط1، جامعة الملك عبد العزيز، المملكة العربية السعودية، 2011م، ص 19.

الإقناع، فأخذ البلاغيون على عاتقهم الإلمام بهذا الفن، ومعرفة الأساليب التي تساهم في تطويره وتوجيهه بدرس جزئياته وعناصره والأمور المتحكمة فيه من اللغة ومعرفة حالة السامع، إلى جانب العناصر التي يجب أن تتوفر في المتكلم.

كان أول مؤسس للخطابة "**كوراكس**" (Corax): "الذي كتب وقتها كتيبا (مفقود منذ ذلك الوقت) صار الأساس الذي بنى عليه كل الخطباء من بعده. ومن إلى من كان يتوجه هذا الموجز؟ في الأساس إلى الكتاب الذين امتهنوا كتابة الخطب والمرافعات، لأولئك الذين سيتواجهون أمام العدالة... أن على المدَّعي والمتهم الحضور شخصيا والدفاع بلسانيهما أمام القضاة"[1]. ولنا أن نتساءل كيف يكون الحجاج؟ وما هي متطلباته؟ وكيف يكون فعالاً؟

لقد ولد الحجاج من صلب الخطاب الحي، الذي يأتي من المحاورة والمشافهة المباشرة أمام العدالة، كما أدرك اليونان قوانين الخطاب، وبنائه، ومدى دور عناصر السياق فيه، مع خصوصية كل من المرسل والمرسل إليه؛ حيث قدّم **كوراكس** أعمالاً هامة في الحجاج القضائي، وهي عبارة عن: "مجموعة من الآليات التي تساعد على الحجاج بطريقة فعالة أمام المحاكم. مما يفيد أن البلاغة ولدت في سياق قضائي. ومن رحم التفكير في الطرق التي تسمح بوضع طريقة فعالة للكلام. وهذا الكتيب الموجز لم يصلنا منه سوى آثار غير مباشرة، خاصة عن طريق أرسطو الذي يستشهد به"[2]. فالحجاج هو أكثر ارتباطا بالخطاب القضائي، وقد درسه كوراكس وقدّم توصيفا دقيقا له، كي ينجز المرافع خطابه كما يريد لربح القضية، منطلقا في ذلك من دراسة وافية لسياق الخطاب، حيث اعتقد **بونوا** (Benoit) أنّ عمل كوراكس: "مصنف من الحيل والخدع لكل جزء من الخطاب، وصيغ للبداية، واحتياطات بلاغية للاستهلال، ومهارات لترتيب الأحداث المسرودة للقضية، وحجج متخصصة، وألف وسيلة تفصيلية للإثبات والتفنيد سواء أكان في الاتهام أم في الدفاع"[3]. لذا فإن الخطاب الحجاجي قد بلغ مستوى متقدما قبل أرسطو.

(1) المرجع نفسه، ص 20.
(2) المرجع السابق، ص 21.
(3) المرجع نفسه، ص 21.

كما كان **لسقراط** (469 ق م – 399 ق م) دور في الخطابة، وهو في الواقع" لم يرفض البلاغة، لكنه عرض توسيع دائرة استخدامها من جهة، وربطها بمناهج البحث عن الحقيقة من جهة أخرى، فعندما يعرّف سقراط فن البلاغة، وهو نص مفصلي لعرض وجهة النظر هذه، بأنّه: امتلاك التأثير على الأنفس، فإنّه يضيف أن هذا لا يتعلق فقط بالخطابات التي توجه في المحاكم، والاجتماعات العامة، وإنما أيضا بتلك التي تستخدم في الاجتماعات الخاصة، وأن الأمر يتعلق بفن لا يختلف وفقا لصغر أو كبر الموضوع المطروح للنقاش"[1]؛ فسقراط لا يعترض على أعمال البلاغيين السابقين، ولا يرفضها، لكنه يرى ضرورة إخراج الخطابة من أروقة المحاكم والخصومات إلى صلب الحياة الاجتماعية، ومن الخطابات التي توجه إلى الجماهير إلى الخطابات الفردية. حيث" أعطى سقراط بعد ذلك لـ فيدر درسًا في المنهجية، لقد شرح لصديقه الشاب أنّه في ذلك الوقت لم يكن يستخدم الخطباء سوى تقنيات غير متقنة. وقد اقترح بداية هجين من المفيد أن يتيح لنا الفن اكتساب قوتهما، والمقصود هنا أولا: التوليف (Synthèse) الذي يسمح بتجميع عناصر مشتتة في كل الاتجاهات صوب شكل واحد، وثانيا: التقسيم (التحليل) الذي يسمح بعملية معاكسة، وهي تقسيم العناصر باتباع ترابطها الطبيعي، وبذل ما في الوسع لعدم كسر أي جزء، خلافا لما يفعل الجزار السيئ الذي يقطّع قربانا"[2]. فقد رأى سقراط أن السابقين في الخطابة كانت تنقصهم المنهجية الخطابية. فاقترح خطوتين لها: خطوة أولية: على الخطيب أن يركز كل جهده صوب اتجاه واحد وتنظيم الأفكار والأقوال وضبط الهدف، ثم في مرحلة ثانية على الخطيب أن يحسن تنظيم الأمور، وذلك بحسن التقسيم والانتقال المنطقي، فقد شبّه من لا يتقن هذه الخطوات بالجزار السيئ الذي لا يعرف كيف يقطع الفريسة.

استقرت الخطابة مع **أرسطو** فقد استطاع: "أن يوسع حقل الخطابة لأبعد من المجال القضائي، بحيث يشمل كل الأماكن التي يستخدم فيها الحجاج، وذلك بخلاف صناع الكلام الذين حصروه في المحكمة والأفلاطونيين الذين حصروه في النقاش

---

(1) المرجع نفسه، ص 25.

(2) المرجع السابق، ص 26.

الفلسفي. وبهذا أصبح للبلاغة وللمرة الأولى بعد عام، كما أصبح لها، وللمرة الأولى أيضا، نظرية منظّمة. وهكذا لم تعد البلاغة تعرَّف بأنّها ببساطة فن الإقناع، وإنما القدرة على الكشف بتدبر عند كل حالة، عما يمكن أن يكون مقنعا فيها"[1]. فقد أرسى أرسطو بذلك صرح البلاغة اليونانية، ووسّع من مجال الحجاج، حتى وصف بأنّه موجود في كل الممارسات الخطابية، ووضع حدًّا للذين كانوا يضيّقون من مجال البلاغة في الخطبة القضائية وفي النقاش الفلسفي. كما وصل إلى حد التنظير لها، فبعد أن كانت الخطابة هي فن الإقناع، صارت الخطابة مع أرسطو تصف هذا الإقناع وتنظّر له؛ ما أدّى بالغربيين في العصر الحديث إلى أن ينهلوا من أعمال أرسطو الحجاجية التي تحمل قيما علمية براغماتية ذات أهمية كبيرة.

لقد فرّق **أرسطو** بين الخطاب الشعري والخطاب العادي أيضا، حيث قال: "كما أن استعمال الكلمات العادية أو الدارجة فيها (اللغة الشعرية) يكسبها الوضوح المستهدف ولكن أكثر ما يعين على وضوح اللغة وتجنيبها الابتذال والركاكة هو تطويل الكلمات، وإنقاصها، وتحوير شكلها، وبناء الكلمات على هذا النحو بجعل اللغة مخالفة لما هو شائع مألوف يكسبها مظهرا بعيدا عن لغة المحادثة اليومية"[2]، فمن سمات اللغة الشعرية الإتيان بالتراكيب الجديدة غير المألوفة بشرط أن تكون واضحة وغير مبتذلة، وبالتوازي فإن لغة المحادثة اليومية تتم بألفاظ مألوفة وعادية، لكنها تخالف لغة الشعر، كما يمكن أن تستخدم الكلمات الموجودة في لغة المحادثة مع تحويرها بالبراعة في الاستعارة لإنتاج لغة شعرية.

كان أرسطو هو أول من وضع قواعد للجدل، فقد" طرق سبيلا بكرا. فالجدل الموافق لتصوره كان يمارس بأثينا دون أن تكون هناك تآليف تصف قواعده لذلك أرسى في دراسة هذه الممارسة القولية المفاصل التي رأى وبنى أصول هذا المجال الحجاجي دون أن يضطر إلى مراجعة ما كُتب في الموضوع قبله"[3]. وهذا

(1) المرجع نفسه، ص 29.

(2) أرسطو، فن الشعر، ص 190.

(3) حمادي صمود وآخرون، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، نشر كلية الآداب منوبة، تونس، ص 116.

دليل على جدارة أرسطو في كشف قوانين الخطاب، فالممارسة الحجاجية كانت موجودة بشكل دقيق في الحاضرة الأثينية لكنهم لا يعلموا قواعدها ومحدداتها، إلاّ أن أرسطو بادر إلى وصفها وتحديدها؛ نضرب مثالا لأرسطو حول أحد عناصر الخطاب الحجاجي وهو "التبكيت" (Réfutation) وهو: "في المعنى الأرسطي قياس. هو قياس على نتيجة تكون نقيض القضية التي يريد المجيب حفظها، فهو قياس موسوم حجاجيا باستعماله في النقض وبطريقة بنائه. فالسائل يفحص في ضوء المواضيع الجدلية القضية التي يريد المجيب حفظها ثم يستعرض إثر ذلك الفحص في حركة عود على بدء أشكال الأقيسة التي يمكن أن تستعمل في نفي تلك القضية"(1). أي إن المجادل والمحاجج لما يكون في معرض الكلام يفحص كلام السامع ثم يعرف هدفه ومبتغاه واستراتيجيته الخطابية، فيحفظها، ثم يقيس عليها بالضد والنقيض حتى يفنّد آراءه، ويُفحم خصمه، ويقنعه، ويغيّر وجهته التي كان متشبّثا بها، فالتبكيت مبني على الفحص والقياس وبراعة الخطيب. والخطاب يتأسس في ضوئه على المجادلة الخطابية.

والتبكيت مفهوم فاعل في التداولية الحديثة فـ: "إذا فحصنا مفهوم التبكيت في ضوء التحليل التداولي الحديث، وهو تحليل قائم بروحه في عمق التناول الأرسطي فإننا نتبين أنّه يمثل العمل بالقول الأكبر في جنس المناقشة الجدلية (Macro acte illocutoire) هو فعل بالقول يبدأ مع بداية المحاورة ويتم تحقيقه في نهايتها بتلفظ النتيجة، فبمجرد تلفظ السائل بالنتيجة النافية للوضع الذي أراد المجيب حفظه تنتهي المناقشة"(2). نلاحظ بهذا أن أعمال أرسطو الحجاجية قد أثرت في الدراسة التداولية الحديثة وفي تحليل الخطاب عموما، فبعد فحص المتكلم أو المخاطَب لكلام سامعه والقيام بعملية قياس بالنسبة لآرائه يتم بناء المحاورة الجدلية، وبمجرد الوصول إلى النتيجة المراد تحقيقها تنتهي المناقشة.

لقد حقق أرسطو نتائج هامة في صرح البلاغة اليونانية وفي مقاربة الخطاب في الموروث اليوناني، حيث: "أخرج الجدل بأقسامه جميعا، كما أخرج بعض

---

(1) المرجع السابق، ص 151.

(2) المرجع نفسه، ص 152.

الأقسام من الخطابة من طور الممارسة الاختبارية إلى طور بناء الصناعة المكتملة، أي من المرحلة قبل النظرية إلى المرحلة النظرية المتدبّرة لوضع القول الحجاجي والمستعرضة لقواعد بنائه والمُنزِّلة له في إطار نسق متكامل للمعرفة ولتصنيف الأقاويل بما هي وسائط مختلفة"[1]. فلم يكن همُّ أرسطو دراسة البلاغة كوسيلة للإقناع، بل وكذلك دراسة كيفية هذا الإقناع بالتقنين له وجعله في نسق منظّم يُلم بكل توصيفات القول الحجاجية وغير الحجاجية، كما كان كثيرا ما يلجأ إلى التقسيم المنطقي، وذلك لتسهيل الدراسة وجعلها وفق أنساق تشكل بنية متكاملة، كي يستوفي كل نسق بما يجبه من الشرح والضبط والاستقراء.

كما يشترط أرسطو وجود طرفين في المخاطبة الجدلية حيث: "المناقشة الجدلية جنس حجاجي ينشئه طرفان اثنان خلافا للخطبة. وإن تضافر جهود الطرفين جميعا هو الشرط الأساسي لتقديم مناقشة جيّدة حسب أرسطو، فمهما تكن مهارة الجدلي فإنه لن يستطيع وحده أن يجعل الجدل ذا مستوى جيد، إذ ليس في قدرة طرف واحد من المتخاصمين أن ينجز على نحو مرضٍ عملا يشترك فيه اثنان"[2]. فالمجال الناجح للجدل هو في الخصومات (المحاكم)، وكذا اختلاف الآراء ووجهات النظر في السياسة والفكر مثلا، حيث لا يتم إلاّ بوجود طرفين بينهما محادثة ونقاش، كما يحاول كل واحد التأثير في الآخر وتغيير وجهة نظره حول قضية ما، أمّا البراعة الخطابية وحسن الحوار بالحجج والأدلة؛ فهي الكفيلة بتحقيق الغلبة وفرض وجهات النظر. وقد عرف العرب هذا الفن خاصةً المعتزلة الذين كانوا يتسمون بالقوة الجدلية والحجاجية حتى لم يوجد من يرد عليهم وقت الجاحظ، إذ استمر الجدل حتى الفترة المعاصرة، ونحن نراه دائما على القنوات التي تفتح باب الجدل حول وجهة نظر سياسية أو فكرية أو حتى عقائدية.

أمّا وظائف **الأجناس الخطابية** فهي: "وظائف تتنزّل في مستويين اثنين: ففي المستوى الأول نجد مجموعتين من الوظائف: مجموعة أولى فيها مصطلحات ثلاثة هي (المشاجرة، المشاورة، التثبيت)، ومجموعة ثانية فيها أفعال متقابلة ستة هي:

(1) المرجع نفسه، ص 119.

(2) المرجع السابق، ص 124، 125.

[يتهم/يدافع، يحض/ينهى، يمدح/يذم]، أما المستوى الثاني فنجد فيه وظيفة واحدة هي الإقناع (Persuasion) وإلى هذه الوظيفة تقصد الأجناس الخطبية الثلاثة"[1].

فغاية كل الأنواع الخطابية حسب أرسطو الإقناع والتأثير والحجاج الجيد الفعال، أما الأجناس الخطابية فهي ثلاثة، يمكن في الخطابة القضائية إما أن نتهم أو أن ندافع، ويمكن في الخطابة المشورية إما أن نحض على فعل شيء أو ننهى عنه، أمّا في الخطابة التثبيتية فإما أن نمدح شخصا ما أو نذمه، ونحن في كل هذه الأمور نبغي الإقناع بما أوتينا من الحجج عبر العناصر الخطابية من اللغة واستغلالٍ للسياق الذي يندرج فيه ظرف الخطاب بمعرفة طبيعة السامع، والظروف التي تحيط بنا زمانيا ومكانيا.

كما لخّص "محمد الولي" و"عائشة جرير" أهم المراحل التي يقطعها الخطاب، نتيجة قراءتهما لأعمال أرسطو الخطابية، حيث يتم ذلك وفق خمس مراحل:

- **أولا**: "الإيجاد (Inventio): ينبغي في الخطابة العثور على الموضوع الأساسي والحجج التي تستخدم بغاية الإقناع. وهذه الحجج هي بالنسبة لأرسطو الشاهد والقياس الإضماري"[2]. فأول ما يقوم به مؤسس الخطاب هو تحديد مجال الكلام وضبط محتواه ومضمونه، كما أنه يجب تحضير الحجج اللازمة لدعم الموضوع المطروح، التي تكون إما شاهدا أو قياسا على آراء يريد الخطيب دعمها أو تفنيدها.
- **ثانيا**: "الترتيب (Dispositio): يأتي في الخطوة الثانية ترتيب المواد التي حصلت في الخطوة الأولى، وهي مواد فكرية وعاطفية وحجحية مكرسة للإقناع"[3]. وقد رأينا ذلك سابقا مع سقراط الذي تحدث عن لزوم حسن ترتيب الأجزاء وشبّهه بالقربان التي إذا لم يحسن الجزار تقسيمها فإنه سيقع في الخطأ والفوضى، وكذلك الخطاب فإن الترتيب

(1) المرجع نفسه، ص 141.

(2) فرانسوا مورو، البلاغة: المدخل لدراسة الصور البيانية، تر: محمد الولي، عائشة جرير، ص 10.

(3) المرجع نفسه، ص 11.

والتنسيق فيه مهمان للمواد الفكرية والحجاجية؛ كـــي يـــتم الإقنـــاع بصورة مرضية.

- **ثالثا**: "الأسلوب أو الصياغة اللفظية للخطاب: ويكمن في اختيار الألفاظ وتركيبها وتراعى فيه الصحة والوضوح..."[1]. فدور اللغة لا يقل أهميـــة عن العناصر الأخرى للخطاب، وينبغي أن نختار الألفـــاظ الواضـــحة، سليمة التركيب المعجمي، ثم ننتقل إلى سلامة التركيب الجملي، ثم حسن الربط بين الجمل، كما يجب أن يدعم الخطاب بالصور البيانية، مع حسن الإيقاع البديعي، حتى يأنس السامع للكلام ويتأثر به.
- **رابعا**: "الفعل (Actio): وهو الانتقال إلى الإنجاز بوصفه إلقاء الخطاب مع ما يتطلب ذلك من حركات دراماتية محاكاتية وتعـــابير قســـمات الوجه"[2]. حيث تظهر في الإنجاز العلامات غير اللغويـــة الحاسمـــة في الإقناع؛ كالإشارات، وملامح الوجه، واللباس، وحسن الـــتحكم في الصوت، وحركات الجسد، وعلى الخطيب أن يعي دور ذلك ويعطيـــه حظّه من الاهتمام.
- **خامسا**: "الذاكرة (Memoria): وهي عبارة عن خـــزن الخطـــاب في الذاكرة وحفظه تمهيدا لإلقائه مرتجلا"[3]. فقد رأينا صنيع السفسطائيين الذين يعلمون ويحفظون المرافعين الخطب، ويفهموهم جزئياتهـــا حـــتى يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم، فالخطيب يلزمه الحفظ الجيّد لما حضّره حتى يستظهره كلما دعت الحاجة إليه.

بعد هذا العرض الموجز للبلاغة اليونانية القديمة، وما تحمله من قـــيم تـــدعم حقل تحليل الخطاب المعاصر، نقول إن اليونانيين وعلى رأسهم أرسطو قد قـــاربوا الخطاب من منظور بلاغي مقاربةً ملفتة للانتباه لا تزال آثارها باديـــة إلى اليـــوم؛ خاصة ضمن البعدين؛ الحجاجي والجدلي.

---

(1) المرجع نفسه، ص 11.
(2) المرجع السابق، ص 11.
(3) المرجع نفسه، ص 12.

ثانيا) في البلاغة العربية القديمة

سنحاول أن نتتبع إشارات وآراء وردت في البلاغة العربية تمتُّ بصلةٍ للمفاهيم التي تتعلق بتحليل الخطاب وبدراسته في العصر الحديث، متتبعين ترتيبا زمنيا لعلمائنا العرب وبُغيتنا في ذلك أن نجد بعض المفاهيم والأفكار ذات الأهمية في الربط بين المبحثين موضوع البحث.

يقول **الجاحظ**: "قال بعض الحكماء: من لم ينشط لحديثك فارفع عنه مؤونة الاستماع منك"[1]؛ فلكي يكون للخطاب معنى وغاية، فإنه يتطلب سامعا جيّدا نشطا، فالجاحظ يعي البعد التداولي للكلام، فلما تنتفي القابلية لدى السامع للتلقي معنى هذا؛ إيقاف عملية التواصل لأنها ستكون غير مجدية، وستنقصها أحد الأطراف الضرورية وهو وجود السامع الذي يعي ما يرد إليه، كما جاء في السياق نفسه عن الجاحظ: "لا تُقبل بحديثك على من لا يُقبل عليه بوجهه، وقال عبد الله بن مسعود: حدّث الناس ما حدجوك بأبصارهم، وأذنوا لك بأسماعهم (ولحظوك بأبصارهم)، وإن رأيت منهم فترة فأمسك"[2]. أي إن التخاطب يتم وفق وضع مطلوب، وهو تقابل كل من المتكلم والسامع وجها لوجه، مع تواصل إضافي بالبصر، لأن ذلك يزيد من استيعاب الخطاب لكي يتلقّى السامع الإشارات وتعابير الوجه، كما يبقى نشِطًا ومتفاعلا مع الكلام، فلمّا يتسرب الفتور للتخاطب لابد من تعديل للموقف؛ إمّا بضبط الكلام على النحو الصحيح، أو التوقف عن هذا التخاطب لأنه صار غير مجدٍ.

يقابل الاستعمال الكلامي عند الجاحظ "البيان" الذي ذكره في كتبه، والذي يقول عنه: "قال بعض جهابذة الألفاظ ونُقَّاد المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم، والمتخلّجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية وبعيدة وحشية... وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها... والدِّلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان

---

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 105.

(2) المصدر نفسه، ص 104.

الذي سمعت الله عزَّ وجلَّ يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه، بذلك نطـــق القـــرآن، وبذلك تفاخرت العرب وتفاضلت أصناف العجم"[1]. فالبيان هـــو الاســـتعمال الكلامي حسب الجاحظ وهو الذي تقوم عليه الأهمية عند البلاغيين، حيث يتم به الكشف عن المعاني التي تختزنها الأنفس، وتتم به المنفعة لأنه حصيلة مجموعة مـــن العوامل والتجارب، ولّما يُخرج الإنسان ما بضميره فإنه يستعمل اللغة وفق ســـياق مناسب لشخص مناسب، ضمن ظروف زمانية مناسبة، إلى جانب خبرة المـــتكلم التي تُعينه على البيان وفق الشكل المطلوب والألفاظ المناسبة[*].

كما يؤكد الجاحظ على ضرورة تناسب الجمل باتساقها وانسجامها، قائلا: "وفرق ما بين نظم القرآن وتأليفه، و**نظم سائر** الكلام و**تأليفه**، فليس يعرف فروق النظر واختلاف البحث إلاّ من عرف القصيد من الزَّجر والمخمَّس من الأسجاع، والمزاوج من المنثور والخطب من الرسائل، وحتى يعرف العجز العارض الذي يجوز ارتفاعه من العجز الذي هو صفة في الذات"[2]. فالنظم أساس الخطاب (الكلام). ولكل خطاب تأليف معين، تصطف فيه الكلمات بشكل مخصوص وهيئة معينـــة، ورصف خاضعٍ لقواعد محددة، والخبير حسبه هو الـــذي يمعـــن النظـــر في كـــل الاستعمالات الكلامية حتى يدرك ماهية هذا النظم وهذا السبك في كل صـــنف، و"أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنّه قد أُفرغ إفراغا واحدا، وسُبك سبكا واحدًا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان"[3]. فالشعر يبلغ الإجادة لما يكون خاضعا للنسقية والانتظام عن طريق تلاحم الأجزاء وانسجامها واتساقها، حتى يسهل على اللسان ولا تمجّه الأذهان، فهو مســـبوك، كما تُسبك القطعة المعدنية الدقيقة الملامح والمنظمة البنية.

أمّا **ابن طباطبا العلوي** (ت 322هـــ)، فيقول عن صناعة الشعر: "بل يعلّـــقُ كلّ بيتٍ يتفق له نظمه، على تفاوت ما بينه وبين ما قبله. فإن كملت له المعـــاني،

---

(1) المصدر نفسه، ص 75.

(*) يراجع عنصر البيان عند الجاحظ من الفصل الأول لهذا الكتاب. ص 55.

(2) الجاحظ، العثمانية، ص 16.

(3) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 67.

وكثرت الأبيات وفّق بينها بأبيات تكون نظاما لها وسلكا جامعا لما تشتت منها"(1). فلقد ركز البلاغيون العرب في تحليلاتهم على مفهوم النسق، والبنية، والكلية في الخطاب بنوعيه النثر والشعر، حيث ركز ابن طباطبا على توافق الأبيات ونظمها؛ إذ يرى لزوم تضمن أبيات القصيدة لوحدة البنية، حيث يجب أن تخضع لمجموعة من العلاقات المتبادلة بين الأبيات؛ إذ يواصل شارحا: "ويكون كالنساج الحاذق الذي يفوِّف (يزيّن) وشيه بأحسن التفويت ويسدِّيه (يمد ما بين خيوطه) وينيِّره (يقيده) ولا يهلهل شيئا منه فيشينه وكالنقاش الرفيق الذي يضع الأصباغ في أحسن تقاسيم نقشه، ويشبع كلّ صبغ منها حتى يتضاعف حسنُه في العيان وكناظم الجوهر الذي يؤلّف بين النفيس منها والثمين الرائق، ولا يشين عقوده بأن يفاوت بين جواهرها في نظمها وتنسيقها"(2). فواضح من هذا الكلام أن العرب كانوا كثيرا ما يلجئون في وصفهم للنظم الكلامي إلى الاستعانة بالصنائع التي كانت منتشرة في زمانهم، فصناعة الشعر هي كالنسيج المتلاحم الأجزاء والمضبوط المقاييس، عن طريق حسن التسدية، بعيدا عن الهلهلة، أو كالنقاش أو ناظم الجوهر، فالأمر سواء، والمعنى أنه ينبغي أن يتصف الخطاب بحسن النظم، والسبك، وعدم ترك أي مكون بدون ترابط ببقية المكونات.

ثمّ روى "ابن طباطبا" ضرورة مراعاة سياق التخاطب قائلا: "ويحضر لبّه عند كل مخاطبة ووصف، فيخاطب الملوك بما يستحقونه من جليل المخاطبات ويتوقى (يتجنب) حطّها عن مراتبها، وأن يخلطها بالعامة، كما يتوقى أن يرفع العامة إلى درجات الملوك. ويعد لكل معنى ما يليق به، ولكل طبقة ما يشاكلها حتى تكون الاستفادة من قوله في وضعه الكلام مواضعه أكثر من الاستفادة من قوله في تحسين نسجه وإبداع نظمه"(3). فعلى مؤلف الخطاب مراعاة السياق، لأنّ الكلام يختلف ويتنوع حسب طبيعة المرسل إليه وما يحيط به من ظروف، وكلما

(1) ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تح: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، ط2، لبنان، 2005م ص 11.
(2) المصدر السابق، ص 11.
(3) المصدر نفسه، ص 12.

توفرت معرفتنا لطبيعة السامع كلما كان تداول الخطاب ناجعا بالشكل المطلوب، حيث وعى ابن طباطبا هذا الأمر ففصل فيما تستلزمه طبقة الكلام والمقام عبر الخطاب.

أمّا عن مفهوم "الاتصال والانفصال" الذي يساهم في ربط عناصر الكلم، يردف ابن طباطبا قائلا: "فإن للشعر فصولا كفصول الرسائل، فيحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامه على تصرفه في فنونه صلة لطيفة، فيتخلّص من الغزل إلى المديح، ومن المديح إلى الشكوى، ومن الشكوى إلى الاستماحة... بألطف تخلص وأحسن شكاية، بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله، بل يكون متصلا به وممتزجا معه"[(1)]. فهو يساوي الشعر بالنثر في قضية الوصل والفصل، كما يلزم الشاعر أن يعرف كيفية توصيل أجزاء الشعر حتى يكون كلاًّ واحدا؛ بطريقة لطيفة تعتمد على براعة الشاعر وتحكمه اللغوي، فيحسن الانتقال بين الأغراض البلاغية، أي من الغزل إلى المديح، ومن المديح إلى الشكوى مثلا بلطفٍ؛ حتى تكون المعاني ملائمة للغرض من الكلام، وتمتزج أجزاء الخطاب حتى تشكل نسقا ونظاما واحدا؛ مما له من فائدة في تحليل الخطاب من المنظور البلاغي، حيث يمتد التحليل من اللفظ المفرد إلى مستوى الخطاب الموحّد والمتصل بوصلات بلاغية يحسنها الشاعر. ألم يجب الفارسي عن معنى البلاغة بقوله: "معرفة الفصل والوصل"[(2)]. الأمر الذي يواصل أبو هلال شرحه بقوله: "وكان يزيد بن معاوية يقول: إيَّاكم أن تجعلوا الفصل وصلا. فإنّه أشد وأعيب من اللحن... وكان أكثم بن صيفي إذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكتابه: افصِلوا بين كل منقضي معنى... وصِلوا إذا كان الكلام معجونا بعضه ببعض"[(3)]. فمراعاة الفصل والوصل كان من المسائل الهامة في البلاغة، وبه يحسن تأليف الكلام.

وفيما يتعلق بصفات الكاتب الجيّد يروي العسكري: "قال الحسن بن سهل لكاتبه الحراني. ما منزلة الكاتب في قوله وفعله... قال: أن يكون مطبوعا محتنكا

(1) المصدر السابق، ص 12.
(2) أبو هلال العسكري، الصناعتين، تح: محمد الأمين الخانجي، مطبعة محمود بك، ط1، تركيا، 1319 ه، ص 349.
(3) المصدر نفسه، ص 351.

بالتجربة. عالما بحلال الكتاب والسنة وحرامها... مع براعة اللفظ، وحسن التنسيق، وتأليف الأوصال بمشاكلة الاستعارة وشرح المعنى، حتى تنصبّ صورها بمقاطع الكلام. ومعرفة الفصل من الوصل، فإذا كان ذلك كذلك فهو كاتب مُجِيدٌ"[(1)]. فمن صفات الكاتب الجيد براعته في التنسيق بين الألفاظ، وحسن ربط الجمل ومقاطع الكلام، مع معرفة الفصل والوصل بحسن التوصيل والربط بين الملفوظات، بوسائل نحوية ومعنوية مقبولة. يقول الجرجاني: "فلو أن واضع اللغة كان قد قال (ربضَ) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد. وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق. وكذلك كان عندهم نظيرا للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير، وما أشبه ذلك مما يوجِبُ اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة كونه هناك"[(2)]، فتتابع الألفاظ مرتبط بالمعنى الذي يقبله الحدس الإنساني، ويوافق مراد المتكلم وقصده، حيث يتم ذلك عن طريق النظم، أي عن طريق النسج، والبناء المقبول عند أهل العلم بالنظم فيصير الخطاب مؤلفا من أجزاءٍ وأنساق تخضع للكلية الحاملة لكل الأنساق والوحدات[(*)].

أمّا عن وصف عملية الربط بين الجمل عن طريق النحو فيردف عبد القاهر قائلا: "اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض،

(1) المصدر السابق، ص 351.

(2) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 40.

(*) يقول عبد القاهر في السياق نفسه: "واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علِمتَ علمًا لا يعترضُه الشك، أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلّق بعضها ببعض، ويُبنى بعضُها على بعض، وتُجعل هذه بسبب من تلك، هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس، وإذ كان كذلك فبنا أن ننظر إلى التعليق فيها والبناء وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها ما معناه وما محصوله". فقد جزم عبد القاهر أن النظم لا يكون إلا إذا ترابطت أوصال الكلام وأصبحت بنية واحدة، وفق علائق ومسببات تثبت هذا الاتصال والضم؛ ليتم بعد ذلك تحصيل المعنى الكلي للخطاب أو الكلام. ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 44.

أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة"[1]. فلمّا يكون الكلام متصلا وخاضعا للنظم؛ فإن ذلك يتم إما بـــالعطف أو الاستئناف توافقا وأسرار البلاغة ومستلزماتها؛ ففي البداية يعرض "عبد القاهر" للعطف بالواو، والذي كان عنده على ضربين، فالعطف من شأنه اتصال الجمـــل وتلاحمها، قال: "فإن الجمل المعطوف بعضها على بعض على ضربين: أحدهما أن يكون للمعطوف عليها موضع من الإعراب، وإذا كانت كذلك كـــان حكمهـــا حكم المفرد، إذ لا يكون للجملة موضع من الإعراب حتى تكون واقعـــة موقـــع المفرد، وإذ كانت الجملة الأولى واقعة موقع المفرد كان عطف الثانية عليها جاريا مجرى عطف المفرد، وكان وجه الحاجة إلى الواو ظـــاهرا والإشـــراك في الحكـــم موجودا"[2]. فما ينطبق على عطف الجمل في مثل هذه الحال ينطبق على تجـــاور المفردات نحويا، وتعرب الجملة المعطوفة في محل مفردة إما حالا أو صـــفة أو غـــير ذلك، فالمشاركة بين الجملتين هي ما يمنح ارتباطهما واتصالهما النحوي، والـــواو موجودة ظاهرا فقط. والمثال على ذلك قولنا: جاء زيد وهو مبتســـمٌ، ونســـتطيع كذلك القول: جاء زيدٌ مبتسما. فإن: وهو مبتسم = مبتسمًا.

أمّا الضرب الثاني: "وذلك أن تعطف على الجملة العارية الموضع من الإعراب جملة أخرى، كقولك: زيد قائم وعمرو قاعد، والعلم حسن والجهـــل قبـــيحٌ، لا سبيل لنا إلى أن ندَّعي أن الواو أشركت الثانية في إعرابٍ قد وجب للأولى بوجـــه من الوجوه، وإذا كان كذلك فينبغي أن تعلم المطلوب من هذا العطف والمغـــزى منه، ولَمَ ولْمْ يستوِ الحال بين أن تعطف وبين أن تدع العطف فتقول: زيدٌ قـــائم عمرو قاعدٌ، بعد أن لا يكون هنا أمر معقول يؤتى بالعاطف لِيُشرِكَ بـــين الأولى والثانية فيه"[3]. في هذه الحالة من العطف لا تكون الجملة واقعة موقـــع المفـــرد، ولكن المشاركة موجودة وتستطيع أن تتخلى عن حرف العطف ولا ضير في ذلك، لأن الجملتين متصلتان في المعنى وفي الإعراب كذلك، فهذه إحدى طرق الوصـــل

(1) المصدر السابق، ص 170.
(2) المصدر نفسه، ص 171.
(3) المصدر نفسه، ص 171، 172.

بين الكلام. ثم تحدث عبد القاهر عن وجود الوصل من غير الحاجة إلى حرف العطف مثل الواو كما رأينا، قال: "واعلم أنّه كما كان في الأسماء ما يصله معناه بالاسم قبله، فيستغني بصلة معناه له عن واصل يصله ورابطٍ يربطه، وذلك كالصفة التي لا تحتاج في اتصالها بالموصوف إلى شيء يصلها به، وكالتأكيد الذي لا يفتقر كذلك إلى ما يصله بالمؤكَّد كذلك يكون في الجمل ما تتصل من ذات نفسها بالتي قبلها وتستغني بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها، وهي كل جملة كانت مؤكدة للتي قبلها ومبينة لها... ومثال ما هو من الجمل، قوله تعالى: {ألم، ذلك الكتاب لا ريب فيه}، قوله: {لا ريب فيه} بيان وتوكيد وتحقيق لقوله: {ذلك الكتاب}"[1]. فهذه أيضا إحدى طرق الاتصال الكلامي، وإحدى وسائل النظم والترابط الجملي، من دون الحاجة إلى حرف العطف عبر الجملة التي تصف جملة قبلها، وكالتوكيد الجملي الذي يؤكِّد جملةً قبله، والقرآن الكريم به الكثير من هذه الأمثلة التي احتفى بها عبد القاهر لوصف إعجاز القرآن ونظمه، وهو اتصال يضاف كذلك إلى وسائل الاتصال التي ذكرناها[*].

لقد اكتسى النحو أهمية كبيرة عند عبد القاهر، حيث يقول: "واعلم أنه وإن كانت الصورة في الذي أعدنا وأبدأنا فيه من أنه لا معنى للنظم غير توخي معاني النحو بين الكلم قد بلغت في الوضوح والظهور... وأنك إن عمدت إلى ألفاظ فجعلت تتبع بعضها بعضا من غير أن تتوخى فيها معاني النحو لم تكن صنعت شيئا تدّعي به مؤلّفا، وتشبه معه بمن عمل نسجا أو صنع على الجملة صنيعا، ولم يتصور أن تكون قد خيّرت لها المواقع"[2]. فالنحو عند عبد القاهر وسيلة للربط بين الجمل وللاتصال بين المعاني، وبه يكون للنظم معنى، فمن لا يتوخى معاني النحو لا يمكن له أن يجعل من الكلام نسيجا واحدا وسلسلة متتابعة، بعبارة بسيطة النظم هو توخي معاني النحو.

بعدما تم عرضه من آراء عبد القاهر الجرجاني في الاتصال الكلامي نعرض الآن لفكرتين هامتين وردتا عند **حازم القرطاجني؛ الأولى ضمن قوله**" اعلم أن

(1) المصدر السابق، ص 174، 175.
(2) المصدر السابق، ص 282، 283.

الأبيات بالنسبة إلى الشعر المنظوم نظائر الحروف المقطعة مـــن الكـــلام المؤلـــف، والفصول المؤلفة من الأبيات نظائر الكلم المؤلفة من الحروف، والقصائد المؤتلفـــة من الفصول نظائر العبارات المؤلفة من الألفاظ. فكما أن الحـــروف إذ حســـنت، حسنت الفصول المؤلفة منها إذا رتبت على ما يجب وضع بعضها من بعض علـــى ما ينبغي، كما أن ذلك في الكلم المفردة كذلك"[(1)]. فالكلام هو مجموعـــة مـــن الحروف المتصلة، أمّا القصائد فهي مجموع العبارات المتصلة كذلك، وكلما أحسن الشاعر تأليف الحروف وترتيبها، ثم أحسن التأليف بـــين الكلمـــات والعبـــارات حسنت الفصول كذلك، فالشعر خطاب محكم الترتيب والتموضع؛ سواء علـــى مستوى الحروف، أم على مستوى الكلمات، أم على مستوى العبارات كـــذلك، فكأنه يحلل الخطاب إلى مكوناته، ثم يشرح كيفية الانتقال في التحليل من أصـــغر جزء إلى أكبر بنية يمكن أن يحويها.

أمّا الثانية فهي البعد التداولي للبلاغة العربية، حيث يقول: "ومعرفة طـــرق التناسب في المسموعات والمفهومات لا يوصل إليها بشيء من علوم اللســـان إلاّ بالعلم الكلي في ذلك، وهو علم البلاغة الذي تندرج تحت تفاصيل كلياته ضروب التناسب والوضع، فيعرف حال ما خفيت به طرق الاعتبارات من ذلك بحال مـــا وضحت فيه طرق الاعتبار، وتوجد طرقهم في جميع ذلك تترامى إلى جهة واحدة من اعتماد ما يلائم واجتناب ما ينافر"[(2)]. فالبلاغة هي العلم الذي يشرح كيفيـــة تناسب الكلام مع المستمعين، وفيها نجد كل ضروب الاســـتعمالات الكلاميـــة، حيث إنها تجلي الخفاء وتوضح كل الاعتبارات السياقية، فالعرب لديهم ما يناسب الكلام في موضعه، ولديهم المعرفة فيذلك بأن الكلام قـــد يتنـــافر مـــع بعـــض المواضع[(*)]...

(1) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 287.

(2) المصدر السابق، ص 226، 227.

(*) البلاغة بهذا تضرب بعمق في التداولية والاستعمال الخطابـــي، وتشرح ما يعزز التداول الكلامي من مراعاة المقامً الذي فيه السامع، والظروف الزمانية، والمكانيـــة، وســـياق التحادث، والتخاطب... وهو ما سيتم شرحه لاحقا في هذا البحث ضـــمن عنصـــر التداولية وتحليل الخطاب.

لقد أشار "**الشريف الجرجاني**" (ت 816هـ) إلى أنّ البلاغة هي الإتيان بالكلام حسب الحال والسياق، حيث قال: "البلاغة في الكلام مطابقته لمقتضى الحال، المراد بالحال الأمر الداعي إلى المتكلم على وجه مخصوص مع فصاحته، أي فصاحة الكلام، وقيل البلاغة تنبئ عن الوصول والانتهاء يوصف بها الكلام، والمتكلم فقط دون المفرد"[1]، فعبر البلاغة تتغير السياقات، كما يتغير الخطاب من حيث شكله ومضمونه. ذلك أنّ" البيان عبارة عن إظهار المتكلم المراد للسامع"[2]. فلما يبين متكلم ما ويفصح عما في نفسه عبر الخطاب، يحقق القصد من خطابه للمخاطَب، ولا يكون ذلك إلاّ عبر النظم الذي يعني: "في اللغة جمع اللؤلؤ في السلك وفي الاصطلاح تأليف الكلمات والجمل مترتبةً المعاني متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل، وقيل الألفاظ المترتبة المسوقة المعتبرة دلالاتها على ما يقتضيه العدد"[3]؛ فالنظم هو التأليف الكلامي، من حيث التلاحم والنسق، فالألفاظ تنساق واحدة بعد أخرى عن طريق علاقات تجاور يفرضها موقع الكلمات في الجمل عبر النحو.

ورد لـ "**أبي البقاء الكفوي**" (ت 1094هـ/1683م) تعريفٌ للخطاب، قال فيه: "الخطاب: خاطبهُ، وهذا الخطاب له، لا خاطب معه، والخطاب معه إلاّ باعتبار تضمين معنى المكالمة. وهو الكلام الذي يقصد به الإفهام. ولفظ المخاطب لم يوضع لمخاطب يتوجه إليه الخطاب بلفظ المخاطب، بخلاف أنت بل هو، وكذا لفظ المتكلم موضوعان لمفهومهما لا لذاتهما في الأحكام"[4]؛ ودونما إسقاط لما يستقبل من البحث، وعبر بعد تداولي للخطاب يضيف الكفوي عن الخطاب ما يلي: "الخطاب: اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه احترز باللفظ عن الحركات والإشارات المفهمة بالمواضعة وبالمتواضع عليه عن الألفاظ المهملة، وبالمقصود به الإفهام، عن كلام لم يقصد به إفهام المستمع فإنه لا يسمى

---

(1) الشريف الجرجاني، التعريفات، ص 47.
(2) المصدر نفسه، ص 48.
(3) المصدر السابق، ص 211.
(4) أبو البقاء الكفوي، الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، إع: عدنان درويش، محمد المُضري، مؤسسة الرسالة، ط2، لبنان، 1998م، ص 419.

خطابا"[1]. يشترط في الخطاب إذن استعمال ألفاظ متواضع عليها، عبر توافق حول الألفاظ الحاصلة بين المتكلم والسامع ليحصل التفاهم، كما يشترط أن يوجد استعداد للفهم من طرف المتلقي، ويمكن أن تستعمل الحركات والإشارات في التخاطب شريطة أن تكون متواضعا عليها، أمّا الكلام الذي لا يقصد منه الإفهام، فهذا الكلام لا يرتقي لأن يكون خطابا.

كما عرّف **محمد علي التهانوي** الخطابة بما يقاربها بالحجاج قائلا: "الخَطابة بالفتح، التأثير بالبيان، كما في الصُّراح. وعند المنطقيين والحكماء هو القياس المؤلّف من المظنونات أو منها ومن المقبولات ويسمى قياسا خُطبيًا أيضا، ويسمى أمارة عند المتكلمين... وصاحب هذا القياس يسمى خطيبا والغرض منه ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم، كما يفعلُه الخُطباءُ والوعاظ"[2]. فقد عرف البلاغيون العرب الحجاج الذي يقصد به التأثير بالبيان خاصّةً عند المعتزلة. وقد كان المناطقة يضعون له قواعد عن طريق ما يسمونه القياس الخُطبي، أي وضع الكلام بمقدّمات متعددة مدروسة تقاس بعضها ببعض، حتى نخلُص إلى نتيجة أو نتائج محددة. وقد استخدم عند الحكماء وعلماء الدين في ترغيب الناس أو ترهيبهم فيما ينفعهم أو يضرهم في أمور معاشهم ومعادهم[*].

هذا بعض ما عرضناه حول إرهاصات تحليل الخطاب عند البلاغيين العرب القدامى؛ فلقد عرّف العرب السياق، واهتموا بالسامع، ووضعية المخاطبة؛ من الظروف الزمانية والمكانية، وحول ما يجب أن يعيه المرسل حول المتلقي، كما ركّز البلاغيون على الكلام ككل متناسق ومتّصل ومنسجم، تترابط معانيه وتتضام

---

(1) المرجع نفسه، ص 419.

(2) محمد علي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ص 750.

(*) كانت "الخُطبةُ" عند العرب مجالا قائما بذاته، وقد تكلّم عنها أهل البلاغة بقواعدها وأساليبها وخصائصها، قال التهانوي: "الخُطبة: بالضم، هي عبارة عن كلام مشتمل على البسملة والحمدلة والثناء على الله تعالى بما هو أهله والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وتكون في أول الكلام. ثم خطبة المنابر غير خطبة الدّفاتر، لأن خطبة المنابر تشتمل على ما ذكرنا مع اشتمالها على الوصية بالتقوى والوعظ والتذكير ونحو ذلك بخلاف خطبة الدفاتر فإنها بخلاف ذلك". ينظر: المصدر نفسه، ص 752.

مفرداته عن طريق العلاقات التجاورية النحوية؛ وما نظرية النظم ومفهوم الاتصال والانفصال عند البلغاء لخير دليل على ذلك. ولهذا يمكن أن نقول إنّ تحليل الخطاب كمنهجٍ علمي وُجدت إشاراته عند علمائنا، ما سنسعى إلى التفصيل فيه في ضـــوء الدراسات المعاصرة التالية:

المبحث الثالث

البلاغة وتحليل الخطاب عند الدارسين المحدثين

أولا) البلاغة والأسلوبية

جاء عند "ابن منظور" ضمن مادة (س.ل.ب): "... ويُقال للسطر من النخيل: أُسلوبٌ. وكل طريق ممتد، فهو أسلوب. قال: والأسلوب الطريق، والوجهُ والمذهبُ، يُقال: أنتم في أسلوب سوء، ويجمع أساليب. والأسلوب: الطريق تأخذ فيه. والأسلوبُ: بالضم: الفن. يقال: أخذ فلان في أساليبٍ من القول، أي أفانينَ منه"[1]؛ فالأسلوب هو انتظام النخيل وامتدادها باستقامة واحدة، والطريق هو سبيل وأسلوب مفتوح، ومن معاني الأسلوب الوجهة والمذهب، كما يعني الأسلوب الفن القولي والأداء الكلامي على وجهٍ مخصوص. أمّا على وجه العموم فإن ابن منظور يرى أن الأسلوب هو انتظام وسلوك على طريق مخصوص، أيا كان هذا الطريق مذهبيا أو خُلقيا أو قوليا.

يرى "ميكائيل ريفاتير" (Michael Riffaterre) أن اللسانيات هي العلم الأقرب للأسلوبية، فيقول: "ويقتضي الوصف اللساني البنيوي للأسلوب مع ذلك ضبطًا دقيقًا: فالوقائع الأسلوبية، من جهة، لا يمكن ضبطها إلاّ داخل اللغة ما دامت هي حاملتها، وينبغي من جهة أخرى، أن يكون لهذه الوقائع طابعٌ خاص وإلاّ فإنه لا يمكن تمييزها عن الوقائع اللسانية"[2]. فالأسلوب بطبيعته وقائع لسانية، ولكن ليست كل الوقائع اللسانية هي الأسلوب المقصود، ولا يمكن دراسة الأساليب إلاّ داخل حدود اللغة.

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، ج01، دار صادر، بيروت، ص 473.

(2) ميكائيل ريفاتير، معايير تحليل الأسلوب، تر: حميد لحمداني، منشورات دراسات سال، ط1، الدار البيضاء، 1993م، ص 17.

تكلم ريفاتير عن موضوع الأسلوبية فقال: "تدرس الأسلوبية، داخل الملفوظ اللساني تلك العناصر المستخدمة لفرض طريقة تفكير المسنِّن (Encodeur) على مفكّك السنن (Décodeur)، بمعنى أنها تدرس فعل التواصل، لا كنتاج خالص لسلسلة لفظية، ولكن باعتباره حاملاً لبصمات شخصية المتكلم ومُلزمًا لانتباه المرسل إليه...، إنها تدرس المردودية اللسانية عندما يتعلق الأمر بتبليغ شحنة قوية من الخبر"[1]. فمجال الأسلوبية هو التأثير بواسطة مرسل ما يريد إحداث فعل التواصل باللغة صوب متلق معين.

للباحث الأسلوبي مهمة، حيث: "... إذا كانت مهمة اللساني (البسيطة نسبيا)، هي تجميع كل سمات الخطاب وسمات مبلغه (Informateur) دون أن يلقي بواحدة منها، فإن الأسلوبي ينبغي أن يختار فقط تلك السمات التي تبث المقاصد الأكثر وعيًا عند المؤلف"[2]. فوظيفة الباحث الأسلوبي أكثر تعقيدا من وظيفة اللساني لأن الأسلوبي يختار من السمات ما تتصف بالقصدية التي يبثها المؤلف عبر خطابه ليؤثر على سامع معين.

يقدّم "بيير جيرو" (Pierre Giroux) تعريفا للأسلوبية، فيقول: "ليس ثمة شيء أحسن تعريفا من كلمة أسلوب، فالأسلوب طريقة في الكتابة، وهو من جهة أخرى، طريقة في الكتابة لكاتب من الكتاب ولجنس من الأجناس، ولعصر من العصور، فقواميسنا المعاصرة ورثت هذا التعريف المضاعف عن القدماء"[3]، كما يقول: "ويمكننا القول إن الأسلوبية بلاغة حديثة ذات شكل مضاعف، إنها علم التعبير، وهي نقد للأساليب الفردية. ولكن هذا التعريف لم يظهر إلاّ ببطء، وكذلك فإن العلم الجديد للأسلوب لم يعرف أهدافه ومناهجه إلاّ ببطء أيضًا"[4]. فالأسلوبية ضاربة بعمق في تاريخ البحث اللغوي والأدبي، وهي تختص بفن الكتابة، وتتعلق ببلاغة تتسم بالتحديث، عكس البلاغة القديمة التي تتعلق بالجانب

---

(1) المرجع نفسه، ص 66.
(2) المرجع السابق، ص 34.
(3) بيير جيرو، الأسلوبية، تر: منذر عياشي، مركز النماء الحضاري، ط2، سورية، 1994م، ص 09.
(4) المرجع نفسه، ص 09.

الفردي في الأداء والكتابة فهي ضد القوالب الجاهزة، وقد تطورت عبر زمن طويل أدى إلى حدوث تغيرات بطيئة وذات مراحل مختلفة.

لقد كان "شارل بالي" (Charle Bally) رائـــدًا في البحـــث الأسلوبـــــي، حيث: "خلف... بالي سوسير في تدريسه للسانيات العامة في جامعـــة جنيـــف، ونشر في عام (1902) كتابه (بحث في الأسلوبية الفرنسية) ثم أتبعه بكتاب آخر هو (الوجيز في الأسلوبية) وقد أسس معتمدًا على قواعد عقلانية، أســـلوبية التعـــبير وعمل على تعريف موضوعها منذ الوهلة الأولى، إنّه يقول: تدرس الأسلوبية وقائع التعبير اللغوي من ناحية مضامينها الوجدانية، أي إنها تـــدرس تعـــبير الوقـــائع للحساسية المعبر عنها لغويا، كما تدرس فعل الوقائع اللغوية على الحساســـية"[1]. فمنشأ الأسلوبية كان نتاجا للدرس اللساني السوسيري وتطبيقاته، فكانت هنـــاك أسلوبيات مختلفة حسب نوعية توظيف معطيات اللسانيات العامة، فبالي يركز على الوظيفة التعبيرية للغة التي تتعلق بالتأثير العاطفي والوجداني على المتلقي.

أمّا **الأسلوبية حسب منذر عياشي فهي**: "علم يـــدرس اللغـــة ضـــمن نظـــام الخطاب. ولكنها -أيضا- علم يدرس الخطاب موزَّعا على مبدأ هوية الأجناس. ولذا، كان موضوع هذا العلم متعدد المستويات، مختلفَ المشارب والاهتمامـــات، متنـــوع الأهداف والاتجاهات. وما دامت اللغة ليست حكرا على ميدان إيصالي دون آخـــر، فإن موضوع علم الأسلوبية ليس حكرًا -هو أيضا- على ميدان تعبيري دون آخر"[2]؛ فمجال الأسلوبية؛ هو اللغة كنظام متجسِّد، عبر دراسة مختلف الخطابـــات، حيـــث تتوزع الأسلوبية على مستويات عديدة، مستعينة في ذلك بعلوم مجاورة تتماشى معهـــا لاسيما علوم اللسان. فقد: "حدد اللسانيون موضوع علم الأسلوبية -علـــى ضـــوء الدراسات اللسانية- ورأوا أنه دراسة للتعبير اللساني، أي لخواص الكلام ضمن نظـــام الخِطاب. فعزلوه بذلك عن باقي النظم الإشارية التي تضطلع هي الأخـــرى بـــالتعبير، بواسطة أدوات غير لسانية"[3]. تستمد الأسلوبية خصوصيتها من اللسانيات، كما تهتم

---

(1) المرجع السابق، ص 54.

(2) منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، ط1، 2002م، ص 27.

(3) المرجع نفسه، ص 35.

بالوظيفة التعبيرية ضمن نظام الخطاب. فهي توجه لغوي أدبـــي يهتم بالتعبير، ويُسند إلى النظُم غير اللغوية التي تدرس التعبير رغم استقلاليتها؛ ومن المهم كما يقول **محمـــد عبد المطلب**: "الإشارة إلى أن التناول الأسلوبـــي إنما ينصب على اللغة الأدبية، لأنهـــا تمثل التنوع الفردي المتميز في الأداء، بما فيه من وعي واختيار، وبما فيه من انحراف عن المستوى العادي المألوف، بخلاف اللغة العادية التي تتميز بالتلقائية، والتي يتبادلها الأفراد بشكل دائم وغير متميز"[1]؛ حيث ينصب مجال الأسلوبية على العمل الأدبـــــي، لأن من ميزاته العُدول والانحراف عن الاستعمال العادي للغة، كما أنّ الانحراف اللغـــوي يُكسب اللغة البعد الجمالي والإبداعي؛ لكن هذا الانحراف يبقى ضـــمن حالـــة مـــن التحكم والوعي اللغوي.

كما" يمكننا القول بأن علم اللغة هو الذي يدرس ما يُقال، في حين أن الأُسلوبية هي التي تدرس كيفية ما يقال، مستخدمةً الوصـــفَ والتحليـــل في آنٍ واحـــدٍ"[2]. فاللسانيات تدرس الكلام دراسةً وصفيةً علميةً كيفما كان. ويتم ذلك عبر الوصـــف والتحليل المنصب على الأسلوب والتعبير، و"الواقع كما يقول تشومسكي أنّ النقطـــة الأساسية التي تمركزت حولها الدراسات الأسلوبية هو المظهر الإبداعي للغة، حتى على مستوى الاستعمال العادي. إن كل المظاهر لتوحي بأن الذات المبدعة تخترع لغتـــها – بوجه من الوجوه- كلما عمدت إلى التعبير عن نفسها... وكأنما هي قـــد مثلـــت في صميم جوهرها المفكر نظامًا متّسقًا من القواعد"[3]. فالأسلوبية تركز علـــى الإبـــداع الكلامي عبر مختلفِ الاستعمالات، والمؤلف هو مخترع لكلامه بصيغةٍ تخصه وينفـــرد بها، حيث يخضع الكلام للاتساق الناتج عن قواعد اللغة، كما يتجسد مـــن العقـــل البشري إلى مختلف الإنجازات الكلامية الإبداعية.

تتحدد الأسلوبية حسب "عبد السلام المسدي": "بدراسة الخصائص اللغوية التي بها يتحول الخطاب عن سياقه الإخباري إلى وظيفته التأثيرية والجمالية"[4]. فالأســـلوبية

---

(1) محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص 186.

(2) المرجع نفسه، ص 186.

(3) المرجع نفسه، ص 206.

(4) عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ط3، ص 36.

حسب المسدي لا تهتم بالخطاب كإخبار ومعلومات، بل تهتم بالخطاب ذي البعد الجمالي التعبيري والتأثيري على المتلقي، والذي يحمل خصائص تركيبية تجعل منه كذلك. إذ" يبلور جاكبسون في مقارنة شمولية هذا المنحى، فيعرّف الأسلوبية بأنها بحث عمّا يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولا وعن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانيا"[1]. بمعنى أنّ الأسلوبية تدرس مميزات الخطاب الفني مقارنةً بمستويات الخطاب الأخرى، ثم في مرحلة ثانية ما يتميز به الكلام الفني عن مختلف ما يصدر عن الإنسان من فنون أيا كان نوعها. تعنى الأسلوبية إذن" بالجانب العاطفي في الظاهرة اللغوية وتقف نفسها على استقصاء الكثافة الشعورية التي يشحن بها المتكلم خطابه في استعماله النوعي، لذلك حدد بالي حقل الأسلوبية بظواهر تعبير الكلام، وفعل ظواهر الكلام على الحساسية"[2]. فالكلام الأدبي ملازم للخاصية العاطفية التعبيرية، وهذا ما تهتم به الأسلوبية وتدرس كثافته في الخطاب المنتج، حيث تعتبره جانبا عاطفيا لظواهر تطبع الاستعمال الفني الذي له وقعٌ خاص على السامع.

نقل المسدي تعريفا عن ريفاتير للأسلوبية مفاده أنّ الأسلوبية" علمٌ يهدف إلى الكشف عن العناصر المميزة التي بها يستطيع المؤلف الباث مراقبة حرية الإدراك لدى القارئ المتقبل، والتي بها يستطيع أيضا أن يفرض على المتقبّل وجهة نظره في الفهم والإدراك فينتهي إلى اعتبار الأسلوبية لسانيات تُعنى بظاهرة حمل الذهن على فهم معين وإدراكٍ مخصوص"[3]. فالأسلوبية تكشف عن الملامح والمميزات التي تؤثر في السامع وتجعله يذعِن لما يلقى عليه من نتاج كلامي، بحيث يمتلك زمام فكره وإدراكه. فالأسلوبية واللسانيات تتفقان في أن هدف اللغة هو التواصل والإفهام، من مرسل يرسل رسائلَ يدركها المتلقي، ويزيد حجم هذا الإدراك بالقدرة على إكساب الكلام خصائص فنية وأسلوبية معينة.

وبعد هذه الالتفاتة لمفهوم الأسلوبية عند الباحثين العرب والغرب، سنحاول مقاربة العلاقة بين البلاغة والأسلوبية.

---

(1) المرجع السابق، ص 37.

(2) المرجع نفسه، ص 41.

(3) المرجع نفسه، ص 49.

حسب "**أوزفالد ديكرو**" و"**تزفيتان تودوروف**"، فإن: "**الأسـلوبية هـي الوريث الأكثر قربًا للبلاغة**، وليس هذا بالتأكيد من قبيل المصادفة أن يرصـد في نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م. ولكن، إذا كانت فكرة الأسلوبية جديدة، فإن مفهوم الأسلوب ليس كذلك، والأصل الحالي للأسلوبية مـن الواجـب السـعي للتفكير فيه بمفاهيمه المتأخرة زمانيا... أوّلاً، من القرن 18م: نقد الأسلوب، أو فن الكتابة: وهي مجموعة من الإرشادات العملية حول الكتابة بشكل جيّد. في كـثير من الأحيان تُدعّم بأمثلة عملية كلاسيكية. هذه الأعمال، معيارية وتعليميـة، لا تزال موجودة إلى اليوم"[1]. فالأسلوبية الحديثة تقابل مفهوم البلاغة القديمة، حيث اتهمت البلاغة حديثا بمعياريتها، والتركيز على الأساليب والقوالب الجـاهزة؛ مـا جعلها توصف بأسلوبية القدماء.

لقد أثبتت الدراسات الحديثة وجود علاقة متينة بين البلاغـة والأسـلوبية، حيث" عرف التراث العربـي الظاهرة الأسلوبية، فدرسها ضمن الدرس البلاغي. ولو تأمل المتأمل، لتأكَّد له أن الدرس البلاغي العربـي إنما كان درسـا أسـلوبيا على وجه الإجمال. وما كان ذلك ليكون إلاّ لأن الدرس اللغوي كان سابقا على الدرس البلاغي في التراث العربـي. وهذه نقطة خلاف وتميز مع التراث اليونـاني الذي كان الدرس البلاغي فيه سابقا على الدرس اللغوي"[2]. فقد لحقت البلاغـة العربية بالدرس اللغوي عكس ما شهدته الدراسات اليونانية القديمـة، كمـا أن أسبقية الدراسات اللسانية على الدراسة البلاغية، قد أكسبت البلاغة العربية بعـدًا أسلوبيًا لسانيا؛ حيث" انطلق العرب في درسهم اللغوي مـن الـنص –تـنظيرا وممارسة– فجاءت علومهم في هذا الميدان تمثيلا حضاريا له. وكانـت نظـرتهم للأسلوب –في جملة تلك العلوم– أنه أثر من آثار النص، ونتيجة من نتائجه الدالّة عليه، فأسسوا بذلك بنيان حضارة معرفية يمكن أن نصطلح عليها باسم حضـارة النص"[3]. فالبعد النصي الأسلوبـي قيمة معرفية هامة صاحبت أعمال اللغـويين

---

(1) Oswald Ducrot, Tzevetan Todorov, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage p. 101.

(2) منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ص 27، 28. (بتصرف)

(3) المرجع السابق، ص 28، 29. (بتصرف)

والبلاغيين العرب القدامى، ما يدل على المعرفة العلمية التي كانت تطبع أعمالهم وتؤسس للتقارب الموجود بينها وبين الدراسات الحديثة اللسانية والأسلوبية. لأنّ: "كل ما يقال في البحث الأدبي الذي ينصب على الأسلوب لا مأتى إليه إلا من جهة اللغة والنظر فيها، غير أن لنظرية الأسلوب تاريخا طويلا يرجع إلى تصور قديم وآخر جديد. فالقديم قوامه من النظر في العمل الشعري وتفسيره... وعلى هذا عوّلت البلاغة العربية وغيرها مما يجري مجراها"[1]. فدراسة العمل الأدبي متَّصِلة باللسانيات والأسلوبية، التي يوجد لها تصوران؛ قديم وحديث، والقديم منه له اتصال بالبلاغة العربية التي درست اللغة الشعرية والأعمال الفنية بطريقة تتفق مع الدراسات الأسلوبية الحديثة للعمل الأدبي.

عقد "لطفي عبد البديع" مقارنةً أولى بين البلاغة العربية والأسلوبية، فقال: "وغاية ما تؤدي إليه هذه الطريقة تصنيف الشعراء بحسب الأدوات والصور البيانية التي يستخدمونها، كأن يُقال إن (امرأ القيس) يكثر من التشبيه و(أبو تمام) يعوِّل على الجناس أو الطباق وهلمَّ جرًّا... أما الأسلوبية الجديدة فإنها على الجملة، لا تكتفي بتعيين ما هنالك من خصوصيات للكلام ولا تقتصر على تعميم الأحكام، بل تبحث عن العلل وتُقيِّم من التحليل الذّري الذي تعتمده البلاغة"[2]. فالأسلوبية - حسب عبد البديع - تتجاوز ما تقوم به البلاغة من مجرد الوصف والتحليل، بل تسعى إلى التعليل والتفسير متسلحة في ذلك بالوصف والدراسة العلمية لا سيما وأنها فرع من علوم اللسان. ثم عقد مقارنةً أخرى فقال: "فاللغة في الأسلوبية تؤول إلى الشاعر أولا وأخيرا، بحيث تُبطل فيها القسمة إلى معانٍ أُوَل، ومعانٍ ثوانٍ، أما في البلاغة فتشبه أن تكون كالماهية لها وجود في حد ذاتها بقطع النظر عن الشاعر، وما يُساق في قضية اللفظ والمعنى مبناه على هذا التصور الذي يستوي فيه من ينسب إليهم القول بتفضيل اللفظ كالجاحظ، ومن يُعزى إليهم إيثار المعنى كعبد القاهر"[3]. تعتبر الأسلوبية الخطاب الأدبي خطابا مرتبطا بالشاعر كعنصر

(1) لطفي عبد البديع، التركيب اللغوي للأدب، بحث في فلسفة اللغة والاستيطيقا، دار المريخ للنشر، الرياض، ص 118.
(2) المرجع نفسه، ص 118.
(3) المرجع السابق، ص 119.

معبّر ومنتج، أمّا النتاج الأدبـــي في البلاغة فينفصل عن المنـــتج -حســـب عبـــد البديع- أثناء الدراسة، وأمّا قضية اللفظ والمعنى فناتجة حسبُه إلى الفصل بين الشاعر وعمله في الدراسة ذاتها.

فالأدب بشعره ونثره محور اهتمام كل من البلاغة، والأسلوبية، والنقد، مـــا يلزم وجود علائق أكيدة بين مختلف هذه الحقول، رغم تفردها في المنهج والهدف من الدراسة، لأنّ: "الأسلوبية أحد مناهج النقد الأدبـــي الحديث، ويراها بعـــض المفكرين علما مستقلا برغم صلته الوثيقة بالنقد الأدبـــي، والبلاغة شريك فاعـــل في الدرس النقدي والأسلوبـــي، وهذا ما يجمع بين البلاغة والأســـلوبية والنقـــد الأدبـــي، وهو في الوقت نفسه ما يمكن أن يوثق الصلة بينهم، فهم جميعا يقومون بفحص مادة واحدة هي الأدب"[(1)].

من الدّراسات البارزة في مجال العلاقة بين البلاغة العربية والأســـلوبية الحديثـــة؛ دراسة لــ "محمد عبد المطلب" حاول فيها أن يجد ملامح الدرس الأسلوبـــي الحديث في البلاغة العربية القديمة، حيث اتّضح من هذه الدراسة أن هناك علاقة وثيقـــة بـــين الحقلين، ونحن في هذا البحث سوف نعرض لبعض مفاهيم البلاغة العربية التي تحمـــل بعدًا أسلوبيا معتمدين في ذلك على أقوال وآراء محمد عبد المطلب.

أولت البلاغة العربية أهمية كبيرة لقضية تحسين الكلام، وكـــان لكـــل نتـــاج أدبـــي أدواته التي تخصّه من المحسنات، "ولشدة حاجة العرب إلى تحسين كلامهـــا اختص كلامها بأشياءَ لا توجد في غيره من ألسُن الأمم. فمن ذلك تماثل المقاطع في الأسجاع والقوافي لأن في ذلك مناسبةً زائدةً، ومن ذلك اختلاف مجاري الأواخـــر، واعتقاب الحركات على أواخر أكثرها، ونياطتهم حرف الترنم بنـــهايات الصـــنف الكثير المواقع في الكلام منها، لأن في ذلك تحســـينا للكلـــم بجريـــان الصـــوت في نهايتها... فكان تأثير المجاري المتنوعة وما يتبعها من الحروف المصوتة مـــن أعظـــم الأعوان على تحسين مواقع المسموعات من النفوس"[(2)]. يـــرى القرطـــاجني إذن أن

---

(1) سعد أبو الرضا، "البلاغة والأسلوبية، ائتلاف لا اختلاف"، ندوة الدراسات البلاغيـــة، الواقع والمأمول، الرياض، 1432 ه، ص 687.

(2) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 122، 123.

تحسين الكلام الموجود في العربية لا يمكن أن يوجد في أي لغةٍ أخـــرى، كتشـــابه حرف الرَّوي في الشعر؛ لأن ذلك يزيده حسنًا، فنهايات الكلم في الخطب والرسائل المسجوعة يكسبها رنينا صوتيا له وقعه الجميل في النفوس. وقد أفـــرد الدارســـون للمحسنات البديعية علما خاصا بها يدرس مجالات استعمالها وخصائصها.

من الواضح – عبر ما تقدم –: "أن البلاغيين قد حاولوا الإفـــادة مـــن وظيفـــة التحسين في اللغة، من حيث هي إمكانيات لغوية، لها تصور شكلي محـــدد في إبـــراز الناحية الجمالية، التي تتجاوز مجرد الإفهام والإفادة مع مراعاة المقتضى في علم المعـــاني أو الإفهام والإفادة بطرق مختلفة كما في علم البيان"(1). أمّا المحسّنات فقد" مثَّلـــت – عندهم– حيلاً أسلوبية، يستعين بها الأديب بعد تحويلها من طبيعتها اللغوية العامـــة إلى خواص فردية، ترتبط بطريقة متميزة في الأداء أو تطغى على هذا الأداء فتجرّه وراءها وتعطّل إفادته"(2). نفهم من هذا أن المحسنات البديعية ذات طابع شكلي أسلوبـــــي، عني بها البلاغيون وأعطوها الأهمية بشرط أن يكون التحسين بمراعاة مقتضى الحال مع قواعد علم المعاني والبيان، حتى لا نقع في التحسين والإكثار منه على حساب المعـــنى فنُفرغ الخطاب من محتواه. فالمحسنات تزيد من جماليات الخطاب أيا كان نوعه، وهـــي وسيلة بيد الأديب تبرز فيها شخصيته عبر حسن الاستخدام، حيث تشـــجّع علـــى العبقرية الفردية في الاستعمال، لكن يجب على هذا المنتج أن لا ينجرَّ وراء الاستخدام على حساب مقتضى الحال وقواعد المعاني.

كما ارتبطَ الأسلوب المثالي لدى الكاتب بالعُدول عند الدارسين الأسلوبيين حيث: "إن المتتبع لمباحث الأسلوبية يدرك أن من أهم هذه المباحث ما يتمثـــل في رصد انحراف الكلام عن نسقه المثالي المألوف أو كما يقول ج. كوهين الانتـــهاك الذي يحدث في الصياغة، والذي يمكن بواسطته التعرف على طبيعة الأسلوب، بل ربما كان هذا الانتهاك هو الأسلوب ذاته"(3). والبلاغيون أنفسهم أقرّوا بـــذلك – أي العدول–ودوره في تحقيق الجمالية في النتاج الكلامي. فـــإذا" كـــان النحـــاة

(1) محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص 267.
(2) المرجع نفسه، ص 267. (بتصرف)
(3) المرجع السابق، ص 268.

واللغويون قد أقاموا مباحثهم على رعاية الأداء المثالي فإن البلاغيين ساروا في اتجاه آخر، حيث أقاموا مباحثهم على أساس انتهاك هذه المثالية والعدول عنها في الأداء الفني"[1]. فالأسلوبية تشجع الكاتب على الإتيان بالجديد من الإنجازات اللغوية لأن ذلك من خواص الكاتب المُبدع، حيث يعدل عن الاستعمال العادي المألوف مراعاة لالتفات القارئ لما هو جديد من الأساليب. وقد توفَّر هذا الفهم لدى بلاغيينا القدامى، حيث كانت هناك مباحثٌ كثيرةٌ تلحُّ على التغيير في أسلوب الصياغة لأغراض مجازية وإفادات معنوية هامة.

فترتيب الكلام في اللغة العربية مضبوط ومحدد في الأصل، ولكن الضرورات البلاغية تتيح التصرف في هذا الأصل من حيث القدرة على التقديم والتأخير، لكن من غير فساد معنوي. وهذا في حدّ ذاته عدولٌ أسلوبيٌ في التراكيب الكلامية تتيح للكاتب حرية التصرف في اللغة، وتوليد خطاب جمالي فني متميز؛ حيث يقول عبد المطلب: "أما مباحث التقديم والتأخير فتمثّل في علم المعاني أهمية خاصة، من خلال التركيب الذي يخضع بالضرورة لطابع اللغة ونمطها المألوف في ترتيب أجزاء الجملة من حيث كان العدول عن هذا النمط بمثابة منبهات فنية يعمد إليها المبدع ليخلق صورة فنية متميزة"[2].

رأى النحاة[*] في اللغة المثاليةَ لأنهم ينطلقون من التراكيب المألوفة والمتداولة، "فإذا كان النحاة يهتمون بمسألة الرتبة باعتبارها ممثلة لمثالية الأداء في التركيب

---

(1) المرجع نفسه، ص 269. (بتصرف)

(2) المرجع نفسه، ص 271، 272.

(*) قال السكاكي: "... وإذا أُحتيج إلى إبرازه (الفاعل) إما لجري الفعل على غير ما هو له في موضعٍ يلتبسُ، أُبرزَ منفصلا على نحو: زيدٌ عمرو يضربُه هو، والزيدان العمرانِ يضربهما هُما، وإما لكونه ضمير غير واحدٍ أو واحدةً أُبرزَ متصلا على نحو: الزيدان قاما والهندان قامتا، والزيدون قاموا، والهندات قمن...". فالمتكلم أو الكاتب في بعض الحالات يمكن أن يغيّر من نمط تركيب الجملة لغرض بلاغي، فنبرز الفاعل ونقدمه على الفعل والمفعول به، وفي التثنية نقدم الفاعل، وفي الجمع كذلك. وكل هذا في ذاته عدولٌ وانتهاك لأصل ترتيب الكلام، فإمكانات اللغة توفر مساحةً للكاتب ليخلقَ عبارات جديدة لها وقعها الخاص على السامع، وفق أساس بلاغي وجمالي. ينظر: أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، ص 87.

المألوف، فإن البلاغيين لا يهتمون في مباحثهم بهذه الرتب إلاّ بالمقدار الذي يساعد على تحديد كمية العدول وكيفيته، وهو عدول يتم من خلال عوامل نفسية تكتنف عملية التخاطب: كتشويق السامع أو للتفاؤل أو للتلذذ"[1]. فكثيرا ما كان الشاعر أو الخطيب يتصرف في العبارات ويقدم ويؤخّر حتى ينبه السامع ويدفع عنه الرتابة والملل، بل يقوده إلى الاستماع بتلذذ وشوق. كل ذلك بالعدول الذي تتيحه إمكانات اللغة العربية، لأن العبارات التي مسّتها ظاهرة العدول[2] تطبعها قرائن موصولة بها تحافظ على المعنى الأصلي، بل وتثريه وتزيد من وظيفته الجمالية عبر **العدول الموجز أو المطنب**[*].

كما يكتسي مفهوم **"الالتفات"** في البلاغة العربية قيمة أسلوبية هامة تنطوي تحت مفهوم العدول، "وهذه المطابقات تمثل النسق اللغوي المثالي في الأداء، الذي من خلاله كان الالتفات ظاهرة أسلوبية تعتمد على انتهاك هذا النسق بانتقال الكلام من صيغةٍ إلى صيغة، ومن خطابٍ إلى غيبة، ومن غيبة إلى خطاب، إلى غير ذلك من أنواع الالتفاتات"[3]. فالالتفات ظاهرة بلاغية تعتمد على استراتيجية التغيير عبر التراكيب، وذلك لأغراضٍ معنوية وجمالية، وهو في حد ذاته عدول عن النمط المألوف وفق البعد الأسلوبي في التأليف.

---

(1) محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص 272.

(2) المرجع نفسه، ص 275.

(*) عرّف "بدر الدين بن مالك" (ت 686هـ) الإيجاز والإطناب بقوله: "الإيجاز: هو أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارة متعارف الأوساط أو مما يليق به حال المتكلم من التوسيع والانبساط. والإطناب: هو أداء المقصود من الكلام بأكثر من عبارة متعارف الأوساط. وسواء كانت القلة أو الكثرة راجعة إلى الجمل أو إلى غيرها. ولكل منهما مراتب، فما صادف منها الموقع حُمد وإلا ذُمَّ، وسمي الإيجاز إذ ذاك عيا وتقصيرا، والإطناب إكثارا وتطويلا". فحسب بن مالك فإن مؤلف الخطاب قد يوجز بأقل العبارات المتعارف عليها في الاستعمال، وهذا في ذاته عدول أسلوبي عن الأصل المعتاد البناء عليه، وطبيعة السامع هي من تمنحها هذا الإيجاز، خصوصا إذا كان السامع لا يحتاج إلى الكثير من الأبنية اللسانية حتى يفهم ويتأثر. ينظر: بدر الدين بن مالك، المصباح في المعاني والبيان والبديع، تح: حسني عبد الجليل يوسف، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز، ط1، 1989م، ص 73، 74.

(3) محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص 277.

قال "العلوي" عن الالتفات: "اعلم أن الالتفات من أجَلِّ علوم البلاغة، وهو أمير جنودها والواسطة في قلائدها وعقودها، وسمي بذلك أخذًا له مـــن التفـــات الإنسان يمينا وشمالا، فتارةً يُقبل بوجهه وتارة كذا، وتارة كذا، فهكذا حال هـــذا النوع من علم المعاني فإنه في الكلام ينتقل من صيغة إلى صيغة، ومن خطـــابٍ إلى غيبة، ومن غيبة إلى خطاب إلى غير ذلك من أنواع الالتفات"(1). فالمعنى اللغـــوي للالتفات يعني التغيير في الأسلوب أو الوجهة، وهو من عناصر علم المعاني، وهـــو تغيير في طريقة الخطاب الشكلية لأداة معاني إضافية معينة، وهو ما يفتح المجال لـــه لأن يدخل ضمن العدول في الكلام الموجود في الدرس الأسلوبـــي.

روى العلوي قولاً عن الالتفات الذي هو ظاهرة بلاغية قديمة، ومن يـــتمعن هذا القول يظن وكأنه يقرأ مفهوما من مفاهيم الأسلوبية الحديثة، قـــال: "القـــول الثالث محكي عن الزمخشري، وحاصل مقالته هو أن ورود الالتفات في الكلام إنما يكون إيقاظًا للسامع عن الغفلة، وتطريبا له بنقله من خطاب إلى خطابٍ آخر، فإن السامع ربّما ملَّ من أسلوب فينقله إلى أسلوب آخر تنشـــيطًا لـــه في الاســـتماع واستمالةً له في الإصغاء"(2). فالالتفات وسيلةٌ بيد البلاغي ينشـــط بهـــا المتلقـــي، ويخلّصه من الرتابة في الإصغاء، كما أنه وسيلةٌ جمالية تُضفي الذوق على الخطاب، وذلك بتغيير الأسلوب وفق إمكانات تمنحها اللغة وتضبط حدودها كي لا يخـــرج المعنى عن إطاره، وهو عدول أسلوبـــي عن النمط المعتاد في الخطابات المباشرة(*).

---

(1) يحي بن حمزة العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجـــاز، ج2، مطبعة المقتطف، مصر، ص 131.

(2) المصدر السابق، ص 133.

(*) نضربُ للالتفات بمجموعة من الأمثلة التي رواها العلوي في كتابه: "قـــال الله تعـــالى: {وقالوا اتخذ الرحمان ولدًا، لقد جئتم شيئا إدًّا}، ولو أراد الغيبةَ، لقال: لقد جاءوا شيئا إدا وإنما عدل عنه إلى الخطاب لما ذكرناه من الإيقاظ والتنشيط. ومن ذلك قوله تعالى: {سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً}. فهذا واردٌ على جهة الغيبة، ثم قال: {الذي باركنا حوله لنُريه}، وهذا واردٌ على جهة التكلم، ثم قال: {إنه هو السميع البصير} وهذا غيبةٌ أيضا ولو جاء به على أسلوب واحدٍ من غير الالتفات لقال: سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المَسجد الأقصى الذي باركَ حوله ليريه من آياته، إنه هـــو السميع البصير". ينظر: يحي بن حمزة العلوي، الطراز، ج02، ص 135، 136.

يضافُ إلى المسائل السابقة مفهوم "الفصل والوصل" في البلاغة العربية ذات الملمح الأسلوبـــي، ومن ضمن أدوات الربط الحروف التي تعدل في الاستعمال إلى استعمالات أخرى، يقول عبد المطلب مفصلا: "ومن مباحث المعاني الـــتي تتميـــز بإمكاناتها الأسلوبية مبحث الفصل والوصل لاعتماده على الأدوات الرابطة، الـــتي يطلق عليها حروف المعاني، والتي خرج بها البلاغيون عما تؤديه من وظيفةٍ نحويـــة إلى أمور وراء ذلك، من حيث قدرتها على الربط بـــين الجمـــل والمفـــردات"[(1)]. فالفصل والوصل مبحثٌ من مباحث علم المعاني، وهـــو يعتمـــد علـــى الأدوات والحروف التي تربط الجمل بعضها ببعض حتى يأتلف الخطـــاب. ويمكـــن لهـــذه الحروف الرابطة أن تخرج إلى معاني أخرى تشترك في الحرف الرابط عـــن طريـــق الخروج عن سياق استعمالها المعتاد وفق أغراض بلاغية معينة تفتح مجـــالا فريـــدًا للعدول الأسلوبـــي؛ لأنّ" مسألة العدول في استعمال الحروف قـــد امتـــدت في مباحث النحو إلى خارج حدود العطف والجر، وتتبعها بعض البلاغيين محـــاولين الإفادة من ذلك في خلق صلات متجددة في صياغة الجمل وعدم الاكتفاء بالصور الوظيفية (الجاهزة) لتلك الحروف، مما يعد أحد عناصـــر البحـــث الأسلوبـــــي الحديث"[(2)]. فعمل الحروف[(*)] مجالٌ نحوي وبلاغي في الوقت نفسه، لكن عملـــها

(1) محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص 284.

(2) المرجع السابق، ص 288. (بتصرف)

(*) نرصد قولاً لـــ "ضياء الدين ابن الأثير" (ت 637هـــ) عن العدول في استعمال الحروف قال: "وأما حروف الجر فإن الصواب يشذ عن وضعها في مواضعها، وقد عُلم أن (في) للوعاء، و(على) للاستعلاء، كقولهم: زيدٌ في الدار، وعمرو على الفرسِ، لكن إذا أريد استعمال ذلك في غير هذين الموضعين مما يشكل استعماله عُدِل فيه عن الأولى. فممـــا ورد من قوله تعالى: {قل من يرزقكم من السماوات والأرض، قل الله وإنا أو إيَّـــاكم لعلى هُدًى أو في ضلال مبين}. ألا ترى إلى بداعة هذا المعنى المقصود لمخالفة حـــرف الجر ههنا، فإنه إنما خولف بينهما في الدخول على الحق والباطل لأن صاحب الحق كأنه مستعلٍ على فرسٍ جوادٍ يركض به حيث يشاء وصاحب الباطلِ كأنه منغمسٌ في ظلامٍ منخفضٍ فيه لا يدري أين يتوجّه، وهذا معنى دقيقٌ قلّما يراعى مثله في الكـــلامِ...". ينظر: ضياء الدين ابن الأثير، المثلُ السائر في أدبِ الكاتبِ والشاعر، تح: محمد محـــي الدين عبد الحميد، ج2، مطبعة مصطفى الحلبـــي وأولاده، مصر، 1939م، ص 53.

ضمن الحقل البلاغي زائدٌ من حيث القدرة على الاستعمال(*)، ما تفطّن إليه البلاغيون عبر العدول عن الاستعمال المتداول فيما بين البلاغة والأسلوبية(**).

أمّاعن مفهوم **المعاظلة** في البلاغة العربية، فهو من الملامح الأسلوبية الهامة في تأليف الكلام. وقد قال العلوي عنها: "اعلم أن المعاظلة قد تكون وصفا عارضا للمعنى وقد تكون من عوارض الألفاظ... ولكنا إنما نذكر ههنا ما يختص بالمعاظلة اللفظية وهي من عوارض التركيب والتأليف في الكلام"(1). فوظيفة المعاظلة؛

(*) ضرب "ابن الأثير" مثالا آخر عن العدول في استعمال الحروف لغرض الإفادة، قال: "ومن هذا النوع قوله تعالى: {إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل}. فإنه إنما عُدل عن اللام إلى (في) في الثلاثة الأخيرة للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره باللام. لأن (في) للوعاء فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات كما يوضع الشيء في الوعاء وأن يُجعلوا مظِنةً لها... وسياق الكلام أن يقال: وفي الرقاب والغارمين وسبيل الله وابن السبيل... وهذه لطائفٌ ودقائقٌ لا توجد إلاّ في هذا الكلام". فابن الأثير لاحظ هذه اللمسة البيانية في آي القرآن، وذلك لأن الله عز وجل استعمل حرف الجر ليؤكِّد أحقية الصدقات لفئةٍ أكثر من فئةٍ أخرى، وهذا عدول أسلوبي في استعمال حرف الجر لتحقيق غايات معنوية وبلاغية، وهو وسيلة بيد كل متكلم وكل مرسل ليتفطن إلى هذا الأسلوب، بحيث يعدل ببعض الحروف ليستعملها وفق أغراض أخرى فيحقق معانٍ جديدة، وصياغات يتفاعل معها القارئ النابه. ينظر المصدر السابق. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج2، ص 54.

(**) كان لـ عبد المطلب انتقادات جانبية لعلم البديع العربي، ولكنه قال بأننا يمكن أن نلحظ دوره الأسلوبي في الدرس الحديث، حيث أثبت أن هناك علاقات هامة بين البديع والأسلوبية، قال: "لقد كانت محاولة البلاغيين في مجال البديع بمثابة استكشاف لإمكانات اللغة، ومن المؤكّد أنهم قدّموا في استكشافاتهم بعض الانجازات اللافتة، ولكن مما يؤسف له أنهم لم يطوّروا كل ذلك وصولاً إلى منهج أسلوبي في فهم الأداء الفني. كما لم يحاولوا الربط بين التوصيف الشكلي لبديعياتهم والبنية الحقيقية للعمل الأدبي". فالبديع عند العرب هو أحد عناصر الثراء اللغوي، بحيث إن العرب قد قطعوا شوطا محمودا ضمن هذا المجال، ولكن ما يؤخذ عليهم هو: أن نظرية البديع عندهم غير مكتملة كمنهج لدراسة أسلوب الكاتب، وكان البديع عندهم لا يتعدى من مجرد التوصيف الشكلي، و لم يتغلغل إلى ما وراء البنى اللغوية، أي التفسير العلمي العميق للأشكال اللغوية. ينظر: محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص 303.

(1) يحي بن حمزة العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج03، ص 50.

التحسين في الكلام بحيث يبدو متآلفًا في النطق، مع اتسام الحـــروف بالبعـــد في المخارج، لئلا يجد المتكلم صعوبةً في النطقِ أو التعبير، كما لا يجدُ المتلقي تنافرًا في الحروف أو عدمِ تقبّلٍ للمعنى، و"... مما لاحظه اللغويون منذ القـــديم أن تـــأليف الكلمة العربية يعتمد على جذر ثلاثي (ف، ع، ل) وأن التأليف بين هذه الأصول يقوم على أساس صوتي خاص يهتم بتجاور مخارج الحروف أو تباعدها، ومن هنا قال البلاغيون: إن فصاحة الكلمة تقتضي نوعا من التناسق في ترتيـــب الحـــروف بالنسبة إلى مخارجها، ولذا رفضوا بعض التعبيرات التي تمثل نوعا من التنافر اللفظي، مثل كلمة: مستشزرات"(1). فالبلاغي يرى أن الأصوات لما تتجـــاور ينبغـــي أن تكون منسجمة ومتآلفة فلا تجد ثقلا على اللسان أو تعقيدًا ولا صعوبة في النطق، كما لا تجد الحروف وقعًا سلبيا عند المتلقين. لأجل هذا عمد اللغويون والبلاغيون إلى تمحيص الألفاظ العربية، حيث استثنوا الألفاظ صعبة النطق منها.

يقول العلوي: "... وهذه معاظلة في الكلم المفردة كالأدوات نحو: من وإلى وعن، وعلى، وما شاكلها من أحرف المعاني، فإذا وقعت في الكلام وكان السبك بها تاما جاريا على جهة الانتظام فهو حسن، ومتى جاءت متقاربةً أفادت التنـــافر والثقل على اللسان وكان ذلك مجانبًا لجيّدِ البلاغة ومُلحِ الكـــلام ورشـــيقه"(2). فمؤلف الخطاب في العربية مثلما يراعي الكثير من قوانين البلاغة، هو ملزم بتحقيق شرط المعاظلة كأحد هذه القوانين، فلا يصح أن يُسبك الكلام متنافرًا على صعيد الكلمات أو الحروف. وذلك لكي يلقى الاستحسان من السامع بلغةٍ يتسم أسلوبها بالجمالية والتأثير، ولا يتأتّى ذلك إلاّ بموسوعية المؤلف في حفظ كـــلام العـــرب، وأشعارها وخطبها، ورسائلها الفصيحة لكي يمتلك زمام التحســـين والروعـــة في الأسلوب.

أمّا مفهوم **السياق اللغوي** فكان نقطة مشـــتركة بـــين البلاغـــة العربيـــة والأسلوبية الحديثة، فعندما "يعمد المبدع إلى تكوين جملة لغوية يقـــوم بعمليـــتين متكاملتين: في الأولى يجري اختيارا في مفردات مخزونه اللغوي، وفي الثانية يجـــري

(1) محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص 294، 295. (بتصرف)

(2) يحي بن حمزة العلوي، الطراز، ج03، ص 53، 54.

عملية تنظيم لما تمّ اختياره، بحيث يتلاءم هذا التنظيم مع النسق الذي يدور فيه الكلام"[1]. فالمبدع لما يقوم بالكتابة، فإنه سيشتغل في المرحلة الأولية على **محور الاستبدال**(*)، أي يختار الوحدات من معجمه اللغوي، وفي مرحلة ثانية يؤلف بين هذه الوحدات وينسق فيما بينها على مستوى **المحور التركيبي**(**)، فيصيغ بذلك تراكيب إبداعية جديدة تتنوع بتنوع مختلف الاستعمالات التي تتيحها اللغة.

وقد كان للبلاغيين والنحويين العرب مفهومهم للسياق اللغوي، ومن أهم الظواهر في ذلك **الحذف**، إذ"... يتضح لنا أن اتجاه البلاغيين في بحث سياق الحذف وغيره من السياقات كان يرمي إلى رصد الإمكانات التعبيرية في اللغة، وما ينتج عنها من تطبيقات في الكلام الإبداعي والإخباري على سواء. وهي إمكانات تهتم بالتنوعات التي لا تقوم على أساس فردي، وإنما تهتم بالمحيط الأسلوبي العام الذي يرتبط بموقف كلامي أو نمط أدبي تتحرك على أساسه الصياغة لتستقر في سياقات محددة"[2]. فالحذف يمنح المؤلف مجالا أسلوبيا فريدًا من نوعه، من حيث القدرةُ على التصرف في سياقات الكلام، وفي إثبات براعة الكاتب سواء في الإخبار أم في الإبداع، من خلال ارتباط دائم بالموقف الكلامي. حيث يتحكم في

---

(1) محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص 305. (بتصرف)

(*) يقول سوسير عن المحور الاستبدالي: "... تكتسب الكلمات علاقات خارج الحديث... فالكلمات التي تشترك في أمر ما ترتبط معًا في الذاكرة. ويتألف منها مجموعات تتميز بعلاقات متنوعة... ونلاحظ أن الارتباط الذي يتألف خارج الحديث يختلف كثيرا عن ذلك الذي يتكون داخل الحديث. فالارتباطات التي تقع خارج الحديث لا يدعمها التعاقب الخطي. ويكون مكانها في الدماغ: فهي جزء من الذخيرة الداخلية للغة التي يملكها كل متكلم". ينظر: فردينان دي سوسور، علم اللغة العام، ص 142. (بتصرف)

(**) كما يقول سوسير عن المحور التركيبي: "تكتسب الكلمات، في الحديث، علاقات تعتمد من جهة على الطبيعة الخطية للغة لأنها مرتبطة بعضها ببعض. وهذه الحقيقة تحول دون النطق بعنصرين في آن واحد... إن هذه العناصر مرتبة بصورة متعاقبة في سلسلة الكلام. فالربط الخطي بين العناصر تنتج عنه السنتاكم (Syntagm) ويتألف السنتاكم من وحدتين متعاقبتين أو أكثر... ويكتسب العنصر قيمته في السنتاكم لأنه يتقابل مع كل ما يسبقه أو يأتي بعده، أو معهما في آن واحد". ينظر: نفس المرجع، ص 142. (بتصرف)

(2) محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص 326. (بتصرف)

الصياغات والأساليب اللغوية. يقول **ابن سنان الخفاجي**" ونحن نذكر قبل الكلام في معنى الفصاحة نُبذًا من أحكام الأصوات والتنبيه على حقيقتها، ثم نذكر تقطعها على وجهٍ يكون حروفًا متميزة، ونشير إلى طرف من أحوال الحروف في مخارجها، ثم ندل على أن الكلام ما انتظم منها"[1]، كما قال: "الكلام عندنا ما انتظم من هذه الحروف التي ذكرناها أو غيرها... وحده ما انتظم من حرفين فصاعدًا من الحروف المعقولة إذا وقع ممن تصح عنه أو من قبيله الإفادة، وإنما شرطُنا الانتظام لأنه لو أتى بحرفٍ ومضى زمان وأتى بحرفٍ آخر لم يصح وصف فعله بأنه كلام"[2]. الأهم فيما ذهب إليه ابن سنان؛ هو أنّ الكلام يبدأ بحرفين فما فوق، ولا يسمى الحرف الواحد كلاما؛ لأنّ النطق بهذه الأحرفِ يكون متتابعًا وغير منفصلٍ بزمن، كما لا يصح الفصل الزمني بين الحروف المشكلة للكلام، ما يجعل ما ذهب إليه الخفاجي فهما متقدّما في تحليل بُنى النسق اللغوي.

ذلك أنّ" دراسته تقدم لنا صورة عن طبيعة العملية الاستبدالية، وأنها ليست عفوية، وإنما تقوم على أسس تتعين بها اللفظة المختارة، ويُستبعد بها غيرها. وهي محاولةٌ تجعل للصياغة الأدبية بعدًا لغويا ينطلق من مفهوم العلاقات السياقية في حدودها الجزئية لبناء المفردات، ثم الترقي إلى مستوى السياق العام، أو ما أُطلق عليه المقام"[3]. فلقد تطرّق ابن سنان لدراسة السياق اللغوي، كما تفطّن لعملية الاستبدال التي تتم فيه، وهي عملية تتم بوعي المؤلف وبراعته في الاختيار، حيث يوظّف ألفاظا ويستبعد أخرى. فالنشاط وفق هذا المنحى هو نشاط لساني أسلوبي، يرتبط بالمقام الذي يتم التواصل وفقه.

بعد جملة ما تمّ التوقف عنده؛ لنا أن نتساءل على لسان صلاح فضل؛ "فإذا ما طرحنا هذا السؤال المتصل بالعلاقة بين البلاغة وعلم الأسلوب على صعيدنا العربي، فقد يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى أن البلاغة بنزعتها التقعيدية الفلسفية وبمراحل تطورها في الدراسات العربية يمكن أن تعد من قبيل علم أسلوب اللغة،

---

(1) ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، ط1، لبنان، 1982م، ص 14.

(2) المصدر نفسه، ص 32.

(3) محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص 312.

على أساس أنها في آخر صياغةٍ لعلومها الثلاثة عند الخطيب القزويني أصبحت تشمل المعاني والبيان والبديع بشكل متراكب"[1]. فلا تنافر بين معطيات البلاغة العربية ومتطلبات الأسلوبية المعاصرة، أمّا عن الإفادة التي تقدمها البلاغة العربية للأسلوبية فيرى فضل أنّه: "بالرغم من اختلاف المعالجات البلاغية للصور البيانية عما ننشده اليوم، فإنها بالغة الأهمية بالنسبة للتحليل الأسلوبي، فلا يكفي أن نعثر على صور بيانية ونطلق عليها تسمياتها، بل إنها تبدأ في اكتساب معناها في إطار النظرية الأسلوبية، عندما يتم تصورها كنظام كامل من الوسائل الإقناعية الجمالية يستخدمه المؤلف لتحقيق تأثيرات معينة على الموجه إليهم"[2]. حيث لا يجب أن تتوقف البلاغة عند حدود انتظار صدور الخطاب، ثم إظهار دراسة للصور البيانية التي يحتويها. فالبلاغة تصبح قريبة جدا من الأسلوبية لما تقدم خدمةً للمبدع أثناء الإنتاج فتعينه على توجيه صياغاته، وجمالياتها، وتمنحه العبقرية في استخدام الصور والعناصر البلاغية.

لكن رغم كل ذلك لا تزال البلاغة العربية في حاجة إلى مزيدٍ من النضوج، "وقد كان الأقدمون صادقي الحدس عندما قالوا عن البلاغة إنها علمٌ لم ينضج و لم يحترق في عصورهم، أي أنه مدعو للنضج في العصر الحديث على ضوء أو نار تطورات علم اللغة ومعطيات نظريات الأدب والجمال، ليعبر عن مفهوم جديد للعالم، ورؤية مستحدثة لموقف الإنسان منه"[3]. فالبلاغة حسب فضل لا تزال تحتاج إلى مزيد من الجهد، وإلى الإفادة من علوم اللسان، وعلم الأسلوب، والأدب، وغيرها من العلوم والفنون، كي تعدِّل في بعض المواقف وتفيد من بعضها، حتى تتخلص من نعتها بالمعيارية في قوانينها.

---

(1) صلاح فضل، علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، ط1، القاهرة، 1998م، ص 182.

(2) المرجع نفسه، ص 179.

(3) المرجع السابق، ص 184.

ثانيا) البلاغة والتداولية

نقوم أولا بتحديد مفهوم التداول. وردت كلمة (د.و.ل) عند ابن منظور قال: "تداولنا الأمر: أخذناه بالدول. وقالوا: دواليك، أي مداولة على الأمر. قال سيبويه: وإن شئت حملته على أنه وقع في هذه الحال. ودالت الأيام أي دارت، والله يداولها بين الناس. وتداولته الأيدي: أخذته هذه مرّة وهذه مرّة"[1]، كما قال أيضا: "وفي حديث الدعاء: حدّثني بحديثٍ سمعته من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لم يتداوله بينك وبين الرجال، أي لم يتناقله الرجال وترويه واحدًا عن واحد، إنّما ترويه أنت عن رسول الله"[2]. لذا فقد ارتبط التداول بالأقوال بين الرجال سواء في الحديث أو في غيره من مجالات الكلام، أي التواتر والتعاقب والتبادل.

ورد في القاموس الموسوعي للتداولية لصاحبيه جاك موشلر وآن ريبول (Jacques Moeschler Anne Reboul,) أن التداولية: "... دراسة استعمال اللغة مقابل دراسة النظام، والذي تعنى به تحديدا اللسانيات، وإذا تحدثنا عن استعمال اللغة، فلأن هذا الاستعمال ليس محايدًا، من حيث تأثيراته، في عملية التواصل ولا في النظام اللغوي في حدّ ذاته. فمن نافل القول، فعلا، أن نشير إلى أن بعض الكلمات (المشيرات الدالة على الزمان أو المكان أو الأشخاص من قبيل الآن وهنا وأنا) لا يمكن تأويلها إلاّ في سياق قولها. وأقل سذاجة أن نذكّر بأننا، عند التبادل اللغوي، نبلّغ من المعاني أكثر مما تدل عليه الكلمات. وليس من الساذج أن تقول أخيرًا إن استعمال الأشكال اللغوية ينتج عنه بالمقابل إدراجٌ للاستعمال في النظام نفسه، فمعنى القول يقوم على شرحٍ لظروف استعمال أي لأداء ذلك القول"[3]. فالتداولية حسب الباحثين تتعلق بالاستعمال، وبالتالي فمن الضرورة أن يلصق به عناصر أخرى غير لغوية، كالسياق مثلا، فالكلمات تتضاعف دلالاتها ومعانيها لما

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، ج11، دار صادر، بيروت، ص 252.

(2) المصدر نفسه، ص 252.

(3) جاك موشلر، آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، تر: مجموعة من الأساتذة والباحثين، إش: عز الدين المجدوب، دار سيناترا، تونس، 2010م، ص 21.

تستخدم في ظرف ما، نتيجة التأويل المضاعف، مما يؤدي بالتداولية أن تختلف مع اللغة ككيان مجرد ومعزول عن العوامل الخارجية.

يمكن القول إنّه لمن: "الصعب أن نتكلم في التداولية، لأنّ هذا اللفظ يغطي في الواقع العديد من التيارات والمصادر المختلفة التي تتشارك في عدد معين من الأفكار الرئيسية على جانبٍ واحدٍ. لدينا انطباع أنّه لم يغزو العلوم الإنسانية مؤخّرًا، وهو الآخر، كان وسيلة لاستحضار الاعتبارات على اللغة الذي كان قـديمًا جـدًّا في وجوده. في الواقع علينا ألاّ نخلط في النظر حول الظواهر اليوم باعتبارها أنّها تنتمي إلى حقل التداولية بقانون يشتبك معها بتعمد"[1]. فالتداولية كمفهوم هي أوسـع من حقل اللغة، ويمكن أن يشتغل هذا المفهوم على اللغة، لكن مـن الأحسـن ألا نقحم بعض المفاهيم غير التداوليـة ضـمنها تفاديـا للـبس. فالتداوليـة (La pragmatique): "ليست علما لغويا محضًا، بالمعنى التقليدي، علمًا يكتفي بوصف وتفسير البنى اللغوية ويتوقف عند حدودها وأشكالها الظاهرة، ولكنها علمٌ جديد للتواصل يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال، ويُدمج من ثمَّ، مشاريع معرفية متعددة في دراسة ظاهرة التواصل اللغوي وتفسيره"[2]. فالتداولية تدرس وتفسـر الظاهرة اللغوية في إطار الاستعمال والتداول، لأنّ معظم الدارسين" يقر بأن قضية التداولية هي إيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللغوي والتعرف علـى القـدرات الإنسانية للتواصل اللغوي، وتصير التداولية، من ثمّ، جديرةً بأن تسـمى: علـم الاستعمال اللغوي"[3]؛ لأنّها تبحث دائمًا عن القوانين التي تسمح بأفضل استعمال للخطاب، وذلك بمعرفة المرسل إليه من الخصائص التي تلم به كعنصـر فاعـل في تلقي الكلام.

أمّا مصطلح التداولية في **معجم تحليل الخطاب** فهو: "مفهوم يستعمل اسمـا (التداولية) كما يستعمل صفة (مقاربة تداولية) وقيمته على عدم استقرار شـديد:

---

(1) Dominique Maigueneau, l’Analyse Du Discours, Hachette Supérieur, France, p. 170.

(2) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربـي، دار الطليعة، ط1، بيروت، 2005م، ص 16. (بتصرف)

(3) المرجع نفسه، ص 16، 17.

فهي تسمح في نفس الوقت بتعيين فن فرعي من اللسانياتّ، ونزعة ما في دراسة الخطاب أو بصفةٍ أوسع تصور ما للغة"[1]؛ حيث" تهتم بعلاقات العلامات بمستعمليها واستعمالها وآثارها. وبصفة أعم فنحن عندما نتحدث اليوم عن مكون تداولي، أو عندما نقول: إن ظاهرة ما خاضعة لعوامل تداولية، فإننا نشير بذلك إلى المكون الذي يدرس مسارات تأويل الملفوظات في مقام"[2]. فإذا كانت السيميائية تدرس العلامة ودلالتها وتصنيفها ونظام اشتغالها، فإن التداولية تدرس العلامات في التداول والاستعمال وآثارها. فالكلام لّما يُنتج من طرف مرسل محدد؛ فإن ذلك النتاج سوف يتم في مقام محدد يساهم في توضيح المقاصد وفي تلقي العلامات اللغوية وغير اللغوية.

تعتبر التداولية مقاربةً هامة في تحليل الخطاب فـ: "لتحليل الخطاب علاقات وطيدة بالتداولية متصورة في تنوع وجوهها. وهو مُجبرٌ على الاعتماد دائما على دراسة ظواهرَ كالترابط، والإحالة الاسمية، وأعمال اللغة...الخ. وهو زيادة على ذلك موسوم عميق الوسم بالأفكار الحاسمة للتصور التداولي للغة (تفاعلية، الدور الحاسم للضمني)"[3]. فمحلل الخطاب في حاجة للتصورات التي تطرحها التداولية؛ كدور الروابط في تفسير الخطاب، والاستعمال، والإحالات، والضمائر، والأفعال الكلامية، كما أنها تدرس التفاعل التخاطبي الذي يحكم بنيات الخطاب، وتتطرق كذلك إلى دراسة مقاصد ومضمون الخطاب، وهو ما أتاح للتداولية أن تتبوأ مكانة مهمة في حقل تحليل الخطاب عند الدارسين.

يرى "**شارل موريس**" (Charles morris) أن التداولية تُعنى بـ: "العلاقات بين العلامات ومستخدميها والذي استقر في ذهنه أن التداولية تقتصر على دراسة ضمائر التكلم والخطاب وظرفي المكان والزمان (الآن، هنا) والتعابير التي تستقي دلالتها من معطيات تكون جزئيا خارج اللغة نفسها، أي من المقام الذي يجري فيه التواصل"[4]،

(1) باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ص 442.
(2) المرجع نفسه، ص 442.
(3) المرجع السابق، ص 444.
(4) آن روبول، جاك موشلار، التداولية اليوم علمٌ جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة، ط1، لبنان، 2003م، ص 29.

فالتداولية تدرس ضمائر التكلم في الخطاب والسياق الذي يتم فيه التواصل عبر الزمان والمكان، وكل عناصره التي عادةً ما تكون غير لغوية. فالسـياق يسـاهم في نجاعـة الخطاب، والمرسل قبل التلفظ يكون قد أجرى مسحًا لكل العوامل المحيطة التي تعطـي خطابه القبول وحسن التلقي.

يقول "**آن روبول، جاك موشلار**": "يحتل الفيلسوف الأمريكي جون سيرل (John Searle) موقع الصدارة بين أتباع أوستين ومريديه، فلقد أعاد تناول نظرية أوستين وطوّر فيها بعدين من أبعادها الرئيسية هما: المقاصد والمواضعات. وبالفعل يمكننا اعتبار الأعمال اللغوية والجمل التي أنجزت بواسطتها وسيلة تواضعية للتعبير عن مقاصد وتحقيقها"[1]. فلقد كان انطلاق التداولية من تصورات فلسفية عـن طريق أوستين (J. l. austin)، ويمثل **ج. سيرل** (John Searle) نموذجا مهما حول تطبيقات التداولية على اللغة، فالكلام لما يرسل فهو متضمن لأقوال تجسّد أفعـالا على المتلقي، ويقصد به السامع بتحريكه للقيام بشيء ما[*]. وقد أثبـت التـراث العربـي استجابةً كبيرةً لنظرية **الأفعال الكلامية**[**].

بعد تقديم مفهوم التداولية علينا أن نتوقف لرصد علاقـة البلاغـة العربيـة بالتداولية. فقد ورد في كتاب "بلاغة الخطاب وعلم النص" أن البلاغة والتداوليـة متعاونتان في النشاط. ولهذا" يقول الباحث الألماني لوسبيرج (Laus.Berg.h): إن

---

(1) المرجع السابق، ص 33.

(*) ورد عند "محمود أحمد نحلة" في كتابه آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ما مفاده: "تعد نظرية الفعل الكلامي Speech ActTheory (و يطلق عليها أيضا نظرية الحـدث الكلامي، ونظرية الحدث اللغوي، والنظرية الإنجازية) في نظر أغلب الباحثين جزءً من اللسانيات التداولية (Pragmatics)، وبخاصة في مرحلتيها الأساسيتين: مرحلة التأسيس عند أوستين (J. l. Austin) ومرحلة النضج والضبط المنهجي عنـد تلميـذه سـيرل (J. R. Searle) وكلاهما من فلاسفة أكسفورد، أما بعد هاتين المرحلتين فقد ناشـتها بعض النظريات المعاصرة، وبخاصة اللسانيات التوليدية ولسانيات النص". ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2002م، ص 59.

(**) سيكون لنا تتبع للأفعال الكلامية وعلاقتها بالبلاغة العربية فيما يستقبل مـن البحـث ضمن هذا العنصر.

البلاغة نظام له بنية من الأشكال التصورية واللغوية، يصلح لإحداث التأثير الذي ينشده المتكلم في موقف محدد. وبنفس الطريقة يرى ليتش (V. Leitch) أن البلاغة تداولية في صميمها، إذ أنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة للتأثير على بعضهما. ولذلك فإن البلاغة والتداولية تتفقان في اعتمادهما على اللغة كأداة لممارسة الفعل على المتلقي"[1]؛ فالبلاغة تدرس وضع التلقي وتقوية التواصل، لكن فيم يتجلى وماهي حدوده؟

يقول حمادي صمود: "ثم إن الخطابة تتأسس على ما يمكن أن نسميه (المواجهة) ذلك أن الخطيب يلقي كلامه في حفل. والتوجه إلى الجماعة في مناسبة معلومة وموضوع مضبوط أمر عسير يتطلب من المتصدر له خصالاً نفسية وشخصية تشدّ أزره وتقوي عزمه ليمضي في كلامه على ما يقتضيه المقام، فلا تبرز عليه علامات الارتباك والرهبة ولا يتقطع السلك الناظم لأفكاره، كما أن لخلقته وهيأته دخَلاً في تحقيق مقصده باعتبار المعاينين له يتأثرون بحد بعيد بكل الظروف الحافة بالنص"[2]. فالمواجهة في التخاطب تساهم بشدة في التواصل، خاصة عندما تضاف العناصر غير اللغوية، كملامح الوجه وحركات الجسد، حيث تجبر طبيعة هذا الجمع المتكلمَ على اختيار ألفاظ وعبارات بعينها تساهم في لفت انتباه السامع، وكلما كان كلام الخطيب مقبولا لدى السامع، كان خطابه فاعلا ومؤثرا. فلا يهمل الخطيب أي عنصر يساهم في قوة الإبلاغ.

يرتبط القصد في الخطاب بالسياقين المقالي والمقامي، "واستنادًا لهذا السياق بنوعيه المقالي والمقامي ينطلق المتلقي في كشف قصد المتلفظ بالخطاب، حيث تشكل أدوات النص اللغوي وخواصه التركيبية، إضافةً لما يكتنف النص من أحوال، قرائن مساعدة في كشف المقاصد والأغراض التواصلية للكلام"[3].

(1) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 89.
(2) حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، ص 233، 234.
(3) باديس لهويمل، "السياق ومقتضى الحال في مفتاح العلوم -متابعة تداولية-"، مجلة أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، ع: 09، 2013م، ص 168.

فالمتحكم في الخطاب هو السياقات اللغوية، من حيث طبيعة التراكيب والإسناد، والعلاقات التي تربط الجمل والضمائر، ثم هناك عنصر ثانٍ وهو سياق التخاطب، حيث يُفهم القصد لدى السامع عن طريق السياقين اللغوي والمقامي؛ "فإن كان مقتضى الحال إطلاق الحكم، فحسن الكلام تجريده عن مؤكدات الحكم، وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك، فحسن الكلام تحليه بشيء من ذلك بحسب المقتضى ضعفا أو قوة، وإن كان مقتضى الحال في ذكر المسند إليه، فحسن الكلام تركه، وإن كان المقتضى إثباته على وجه من الوجوه المذكورة، فحسن الكلام وروده على الاعتبار المناسب، وكذا إن كان المقتضى ترك المسند، فحسن الكلام وروده عاريا عن ذكره"(1). حيث ينبغي على مؤلف الخطاب - حسب السكاكي أن يهتم جيدا بكلامه، وذلك بأن يعطي السياق اللغوي القدر الذي يحتاجه من التأليف، فيراعي أحوال الإسناد، ومواضع الحذف أو الذكر وكيفية الوصل بين الجمل، فللبنى الكلامية آثارها الهامة في المتلقي وزيادة قبول الخطاب أو رفضه، مع خبرة ورصيد الخطيب، لأنه تلقى اللغة مشافهةً، وأدرك دقائق النحو وموازين البلاغة، فعرف كيف يكيِّف السياق اللغوي حسب الحاجة والمقام التواصلي.

أمّا عن السياق المقامي فيردف السكاكي قائلا: "لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداءً يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار، جميع ذلك معلوم لكل لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضًى غير مقتضى الآخر"(2). فعلى قدر إلمام المتكلم وفهمه لتركيب كلام السامع، وكذا معرفة الموقف الذي يتم فيه التخاطب، بقدر ما يكون التواصل فعالا ومؤديًا للغرض، قصد إفهام المتلقي وتوصيل الأفكار إليه بوضوح وبأكثر الطرق اختصارا ونجاعةً. فالسكاكي وفق هذا التحليل يعطينا

---

(1) أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، تع: نعيم زرزور، ص 169.

(2) المصدر نفسه، ص 168.

درسا في التداولية التي من أهم عناصرها مراعاة سياق التخاطب، لأن معطيات السياق هي التي تحدد دورة التواصل وتساهم في حدوثها.

من أهم المباحث التي تحتفي بها التداولية "**نظرية الأفعال الكلامية**" عند الدارسين الغرب المحدثين، وقد استجاب التراث البلاغي العربي كثيرا لهذه النظرية. قال صحراوي: "تندرج ظاهرة الأفعال الكلامية تحديدا ضمن الظاهرة الأسلوبية المعنونة بـ: الخبر والإنشاء وما يتعلق بها من قضايا وفروع وتطبيقات. ولذلك تعتبر نظرية الخبر والإنشاء عند العرب من الجانب المعرفي العام مكافئةً لمفهوم الأفعال الكلامية عند المعاصرين"[(1)]. فلقد احتفت البلاغة العربية كغيرها من العلوم بأسلوبي الخبر والإنشاء، حيث كانت تدرس الإنجازات الكلامية التي تم تصنيفها أسلوبيا، كما تم تفسير كيفية إفادة هذه الإنجازات؛ فأسلوب الخبر يختلف في الإفادة عن أسلوب الإنشاء، وقد أثبتت دراسات المحدثين أن نظرية الأفعال الكلامية مجسَّدةٌ في البلاغة العربية عن طريق أسلوبي الخبر والإنشاء.

ذهب مسعود **صحراوي** إلى أن ظاهرة الأفعال الكلامية تندرج ضمن البلاغة العربية في علم المعاني، وموضوع هذا الفرع اللغوي في التراث موجود في آراء السكاكي[(2)]. يقول السكاكي: "اعلم أن علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره"[(3)]. لقد ركز السكاكي بهذا على مفهوم الإفادة في الخطاب، "فمفهومُ كلامه أن دراسةَ العلماء العرب مقتصرةٌ على التراكيب الدالة المفيدة، أي التي لها دلالات مباشرة (حرفية) أو غير مباشرة (ضمنية) تُفهم منها أو ملازمة لها بتعبير السكاكي، والملاحظ أن العلماء العرب عامّة كثيرا ما كانوا يركزون على دعامة الإفادة في دراستهم للجملة والنص، إذ هي مناط التواصل بين مستعملي اللغة"[(4)]. فقد ركز العلماء العرب

(1) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 49.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص 49.

(3) أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، ضبط وتع: نعيم زرزور، ص 161.

(4) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 51.

على البعد التداولي للكلام عن طريق مفهوم الإفادة الذي يراعي السامع وأحواله مع كيفية توصيل الأفكار إليه. فالكلام قد يكون مباشرا حقيقيا كما قد يكون غير مباشرٍ مجازيا، لذلك يعي المرسل مدى استيعاب المرسل إليه لكل نوع من أنواع الكلام، فللتعبير المجازي ضوابطه في الإفادة، وللكلام فاعلية ومعنى لما يكون مفيدا ومقصودا يصب في دعم الاستعمال الذي يراعي القوانين التداولية.

كان "**أبو نصر الفارابي**" (260هـ-339هـ) من الأوائل الذين صرّحوا بنظرية أفعال الكلام التي هي مدار النقاش لدى التداوليين الغربيين، قال صحراوي: "وهو (الفارابي) بصدد تقسيم أنواع المخاطبات، قد صنّف العبارات الكلامية الصادرة عن الإنسان إلى صنفين كبيرين هما: عبارات القول وعبارات الفعل. وقد ابتدأ مما ابتدأ به الفيلسوف أوستين من اعتبار المخاطبات نوعين: أقوالاً وأفعالاً تتم بالأقوال"[1]. قال الفارابي: "والقول الذي يقتضي به شيء ما فهو يقتضي به إمّا قول ما وإما فعل ما. والذي يقتضي به فعل شيء ما، فمنه نداء، ومنه تضرع، وطِلبة، وإذن، ومنع، ومنه حث، وكف، وأمر، ونهي"[2]. فالبلاغيون العرب كانوا سباقين إلى فكرة أن الأقوال ينتج عنها أفعال، والتي ندعوها حديثا أفعال الكلام الموجودة عند التداوليين. فالنداء، والطلب، والمنع، والحث، والأمر، والنهي؛ كلّها أقوالٌ إنشائية، وهي كذلك أقوال يُبتغى منها إحداث أفعال، وهي ذات أثر على المتلقي، فأسلوب الإنشاء ذو خاصية تداولية بالأساس، وقد كان للبلاغيين تفصيل دقيق لكل تمظهراته؛ ما يعطي المجال لتأسيس درس تداولي عربي بإعادة قراءة علم المعنى عند البلاغيين وفق معطيات الدرس التداولي الحديث.

كما أورد الفارابي قائلا: "والنطق بالقول هو فعل ما، واقتضاء النطق إنما يكون بأحد تلك الأقاويل الأُخر التي تقتضي فعلا"[3]؛ ثم علّق صحراوي على مذهبه قائلا: "ومن الطريف أن الفارابي يلتفت منذ ذلك العصر المبكر إلى

(1) المرجع السابق، ص 87.

(2) أبو نصر الفارابي، كتاب الحروف، مكتبة المصطفى الإلكترونية، ص 52.
http: //www.al-mostafa.com

(3) المصدر نفسه، ص 53.

مفهوم اللفظ الإنجازي الذي يتحدث عنه أوستين وسيرل في عصرنا والذي كثيرا ما يقدم على أنه اكتشاف حديث في كل من الفلسفة التحليلية والأبحاث التداولية المعاصرة"[1]. فالعرب القدامى يدركون جيّدا أن الأقوال يترتب عنها أفعال، ولهذا سميت أفعال الأقوال، وهو من ناحية مكسب للبلاغة العربية حتى تفيد من آرائها في حقل التداولية المعاصرة.

ومن المفاهيم التي وردت عند أوستين مفهوم الفعل التأثيري، فقد: "رأى أوستين أن من الأفعال الكلامية نوعا ثالثا سماه: الفعل الناتج عن القول (Acte perlocutionnaire) أو الفعل التأثيري. وقد ربط الفارابي ذلك بأن لكل قوة كلامية جوابًا معينا"[2]. **والفعل التأثيري أو الفعل الناتج**[*] عن القول حدث فكره وتمحيصه لدى الفارابي الذي يقول: "وكل مخاطبة يقتضي بها شيء ما فلها جواب. فجواب النداء إقبال أو إعراض. وجواب التضرع والطِّلبة بذل أو منع، وجواب الأمر أو النهي وما شاكله طاعة أو معصية، وجواب السؤال عن

(1) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 87.

(2) المرجع نفسه، ص 88.

(*) جاء في المعجم الموسوعي للتداولية عن الفعل التأثيري أو الفعل الناتج عن القول لأوستين ما مفاده: "في حالة عمل التأثير بالقول، كما هو الشأن في حالة العمل المتضمن في القول، يتعلق الأمر باستعمال اللغة ولكن الفرق بين العملين يعود إلى وجود مظهر وضعي إنشائي في الثاني يخلو منه العمل الأول. والعلامة على مدى الاستعمال الوضعي هو إمكان التصريح بالعمل المتضمن في القول بواسطة صيغة إنشائية توافقه. ومن جهة أخرى إذا كان من الممكن أن يكون لعمل التأثير بالقول، مثل العمل المتضمن في القول تأثيرات، فإن هذه التأثيرات تختلف بحسب كل صنف منها. وتوجد أنواع ثلاثة من التأثيرات ترتبط على نحو مميز بالأعمال المتضمنة في القول:

(أ) إن فهم معنى القول وقيمته (توافق القيمة نوع العمل المتضمن في القول) يحدد مباشرة توفيق العمل.

(ب) إن التأثيرات المرتبطة وضعيا بالعمل المتضمن في القول يجب تمييزها عن التبعات المحتملة لهذا العمل.

(ج) يرتبط النوع الثالث من التأثيرات بكون جل الأعمال المتضمنة في القول تفرض عملا لاحقا إذا كانت موفقة". ينظر: جاك موشلر، آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ص 65، 66.

الشيء إيجاب أو سلب، وهما جميعا قول جازم"[1]. فالفعل التأثيري النـــاتج عـــن القول الذي قال به أوستين وُجد عند الفارابـــي، وهـــو حســـبه؛ المخاطبـــات الإنشائية كالنداء، والتضرع، والأمر، والنهي، والسؤال؛ فكلها أقـــوال تأثيريـــة تتطلب استجابة بالفعل. كما أنّها أساليب تداولية لأنها عبارة عن كلام المقصـــود منه السامع الذي يقوم بفعل بناءً على أقوال إنشائية وردت على سمعه. ما يشـــير لإنجازات العرب التي تستجيب لبعض أفكار التداولية المعاصرة.

كانت دراسات السكاكي البلاغية ثرية جدًّا على الصعيد التداولي، وقد ورد عنه حديث ينم عن إدراكه للسياق اللغوي علـــى صـــعيد الاســـتعمال مفـــاده: "... استوثقت من جواب أبـــي العباس للكندي حين سأله قـــائلا: إني أجـــد في كلام العرب حشوًا، يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولـــون: إن عبـــد الله قـــائم، ثم يقولون: إن عبد الله لقائم، والمعنى واحد، وذلك أن قال: بـــل المعـــاني مختلفـــة، فقولهم: عبد الله قائم، إخبار عن قيامه، وقولهم: إن عبد الله قائم، جـــواب عـــن سؤال سائلٍ، وقولهم: إن عبد الله لقائمٌ، جواب عن إنكار منكر قيامه. هذا ثمَّ إنك ترى المخلقين السحرة في هذا الفن ينفثون الكـــلام لا علـــى مقتضـــى الظـــاهر كثيرا"[2]. يقول صحراوي معلقا على قول السكاكي: "وهو تقسيم تداولي قال به أبو العباس، وأوضحه للكندي الفيلسوف (ت 260هـــ) بعد اشتباه حصل لـــه في قصة مشهورة، وهو تقسيم تداولي قوي صريح لأنه يقوم على ملاحظة مقتضـــى الحال، أي مراعاة الموقف النفسي من حال السامع تجاه ما يُخبر بـــه، واضـــطرار المتكلم إلى تعديل الكلام والتصرف فيه حتى يلائم حال السامع ويؤدي وظيفتـــه التواصلية الإبلاغية، وهو ما عُرف عند بعض المعاصرين بالتعالق بين الوظيفة والبنية في الأنماط المقامية المختلفة"[3]. فالبنى الكلامية تتأثر بالسياق الذي يوجـــد عليـــه السامع، وكل تغيير في الكلام هو نتيجة لتغير في ســـياق التواصـــل، فقـــد أدرك السكاكي المسألة، وهو وضع تداولي مرتبط بالوضعية التي يحصل فيها التخاطـــب.

---

(1) أبو نصر الفارابـــي، كتاب الحروف، ص 53.
(2) أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، ضبط وتع: نعيم زرزور، ص 171.
(3) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 95.

فلا يصدر المتحدث كلاما إلا وفي حسابه الوضع الذي عليه السامع، إن كان الكلام إجابةً عن سؤال أو إخبار عن وقائعٍ أو إنكار...[1].

من أهم عناصر التداولية "القصد"، وقد قال صحراوي عنه: "غير أن أحد علمائنا، هو إبراهيم الشيرازي (ت 476هـ)، ويعد من الأصوليين، كان قد ذكر كلاما ينبئ عن تصور يؤسس لفكرة تداولية صريحة تعتمد هذا المعيار وحده (القصد)"[2]. قال الشيرازي: "وقالت المعتزلة: الخبر يصير خبرًا إذا انضم إلى اللفظ قصد المتكلم إلى الإخبار به، كما قالوا في الأمر"[3]. فالمرسل لما يقصد بكلامه أن يخبر السامع عن شيء ما، فهو بذلك يؤسس لقوانين التداول، أي الخطاب وحدود استعماله، فالفيصل في الأمر هو المرسل إليه، من حيث حاجته إلى كلام محدد يحوي إخبارًا أو غير الإخبار (الإنشاء)؛ فالأصوليون والبلاغيون يدركون مقتضيات الكلام من حيث الاحتكام إلى الحاجات المتعلقة بالذي يرسل إليه الخطاب. فقد "رأى الشيرازي أن مما يمكن أن يكون رائزًا للتمييز بين الخبر والإنشاء، إضافة إلى اللفظ الدال بالوضع على الخبر، قصد المتكلم وغرضه من الخطاب. فإن كان غرضه الإخبار مع موافقة اللفظ إياه فهو خبر، وإن كان غرضه غير الإخبار فالكلام إنشاء"[*]. فالقصد هو الذي يحدد الكلام ما إذا كان إخبارًا

---

(1) المرجع نفسه، ص 96، 97.

(2) المرجع السابق، ص 78.

(3) أبو إسحاق إبراهيم الشيرازي، شرح اللمع، ج2، تح: عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، ط1 لبنان، 1988م، ص 568.

(*) يجد المتتبع للدراسة التي قام بها صحراوي حول "سيرل" تشابها كبيرا مع ما قاله السكاكي حول تساؤل الكندي، وقد نقل صحراوي فكرةً عن سيرل حول هذا، من كتابه: "Sens et expression" قال: "أما بمعايير الفيلسوف سيرل فيكون الفرق بين هذه الأنواع كامنا فيما سماه: درجة الشدة للغرض المتضمن في القول، فقد لاحظ سيرل أن جملتين قد تتشابهان في الغرضِ المتضمن في القول، غير أنهما تختلفان في درجة الشدة، ومن ثم تتفاوتان إنجازيًا. ومثّل لذلك بالفرق بين الجملتين: (أقسم أن بيل سرق المال) و(أظن أن بيل سرق المال) إن اختلاف درجة الشدة بين قوى لها نفس الأغراض قد حمل سيرل على إعادة تصنيف خاص لهذه القوى على أساس هذا التفاوت". فسيرل بهذا يرى أن التغيير في المبنى ينتج عنه تغيير في المعنى نتيجة مقتضيات مختلفة، ويشبه هذا التحليل لسيرل، كلامَ السكاكي السابق حول تشابه الجمل. وسمى سيرل ذلك درجة الشدة، ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 78. (بتصرف)

أو إنشاءً، وهو مرتبط بالسامع والخطاب الموجه إليه، فنحن نستعمل الأساليب حسب قصدنا وحاجتنا تجاه السامع، وذلك بتوجيه أساليب التخاطب لدى القائل، فلا معنى للكلام ما لم يحتكم إلى القصدية تجاه من يوجه إليهم الكلام.

وبهذا، فإن الأساليب الإنشائية التي دُرست عند العرب من طرف عدة تخصصات وعلوم عدة قرّبت التراث العربي من التداولية الحديثة. يقول **عمر بلخير**: "لا يسعنا... إلا أن نقول أن الأساليب الإنشائية عند العرب شكّلت حجر الأساس في الدراسات الأصولية والنحوية والبلاغية... وجاء تحليلهم لهذه الأساليب دقيقًا إلى درجة أن نظرية أوستين وسيرل لا يمكن أن نعتبرها إلاّ تابعًا لما بحثه العرب في هذا المجال، وفي نفس الوقت، لا يمكن أن ننكر فضل الفلاسفة في التعريف بهذا الجانب من اللغة الذي مكّن الدارسين العرب من اكتشاف تلك الجهود الفذّة والفريدة من نوعها للعلماء العرب القدامى"[1]. وقد برزت إلى ساحة الدراسات العربية مؤخرا أعمال متعددة لنظرية أفعال الكلام في البلاغة العربية وعلم الأصول وغيرها؛ نظرًا لوجود أسلوبي الخبر والإنشاء في علم المعاني. حيث يبقى المجال مفتوحا لتناول هذه الأساليب وتفصيلاتها من منظور مجهودات سيرل وأوستين، والتي سيبرز من خلالها مدى ثراء المادة البلاغية على صعيد نظرية الأفعال الكلامية.

قدّم الباحث "**عبد الهادي بن ظافر الشهري**" دراسةً قيمةً حول "**استراتيجيات الخطاب**" (مقاربة لغوية تداولية)، وهي دراسةٌ حديثة في التداولية وتحليل الخطاب، وقد أفاد كثيرا من البلاغة العربية القديمة بما تحمله من قيمٍ تداولية. حيث يقول: "فقد نظر العلماء إلى استعمالات اللغة في السياق من خلال الخطابات التي ينتجها المستعملون من أجل إنجاز أعمال لا تنجز إلاّ في اللغة وباللغة. واهتم هذا الصنف بوصف استعمال اللغة من خلال التطبيق على نصوص عربية ومن أبرزهم علماء اللغة، والبلاغة، والأصول. مثل: الجرجاني في دلائل الإعجاز من خلال نظرية النظم والسكاكي في مفتاح العلوم، والغزالي في

(1) عمر بلخير، "نظرية الأفعال الكلامية وإعادة قراءة التراث العربي"، أشغال الملتقى الدولي الثالث في تحليل الخطاب، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، ص 73، 74.

المستصفى، والشاطبـــي في الموافقات"[1]. ينبهنا الشهري بهذا إلى الثراء التـــداولي للموروث العربـــي، بما في ذلك البلاغة واللغة وعلم الأصول. نظرا لمـــا كانـــت تحققه من إنجاز العمل باللغة وفي اللغة آخذين في حســـبانهم كـــل خصوصـــيات السياق التي تساعد على الاستعمال الأمثل للكلام. ولما نذكر البلاغة العربية فـــإن من أهم الأعمال التي تجول بخواطرنا، أعمال عبد القاهر والسكاكي لأنهما يمـــثلان المرحلة التي استقر فيها الدرس البلاغي كعلمٍ مفصّلٍ وبتحديدات دقيقة.

كما تحدّث الشهري في دراسته عن **استراتيجيات الخطاب**، ومـــن أهمهـــا: التوجيهية والتلميحية، اللتان تضربان بعمقٍ في البلاغة العربيـــة. حيـــث عـــرّف "بالاستراتيجية التوجيهية" فقال: "فإن الخطاب ذا الاستراتيجية التوجيهيـــة يعـــدّ ضغطًا وتدخّلاً، ولو بدرجاتٍ متفاوتة على المرسل إليه، وتوجيه لفعل مســـتقبلي معين... من خلال استعمال بعض الأساليب والأدوات اللغوية"[2]. فاللغة وســـيلة بيد المرسل يستخدمها باستعمال بعض أساليب الكلام حتى يجبر المرسل إليه للقيام بعملٍ في المستقبل؛ وهي استراتيجية تعني استعمال اللغة عن طريق توجيه المرســـل إلى فعل ما، فهي ذات ملمح تداولي بالأساس. حيث: "نجـــد مـــا يتعلـــق بهـــذه الاستراتيجية مبثوثًا في دراسات القدماء وكل دراسة تنظر إليها وفقًا لما يخصها من أهداف إذ نجدها موزعة في الدراسات النحوية والصرفية والبلاغية، كمـــا نجـــدها أخذت حيّزا من دراسات الأصوليين"[3]؛ وهو ما جعل بنية الخطاب البلاغي عند السكاكي" على نوعين: بناء على إمكان حصوله، إذ يمثل التمني النوع الأول، أما النوع الثاني فيمثله الاستفهام والأمر والنهي والنداء. ولا يقتصر التمني عنده علـــى الخطاب الذي يستعمل فيه المرسل الأداة (ليت)، بل يـــدخل فيـــه كـــل أدوات التحضيض. مثل: ألا، وهلا، ولولا، ولوما. وينطلق هنا من بنية الخطاب العميقـــة التي تمثلها هذه الأدوات، وهي ما يسميه بالتنديم، والتي تكون منطلقا للمرســـل في توجيه المرسل إليه إلى فعل في المستقبل، حتى لو تأخر حصول هذا الفعل عن زمن

(1) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ص 26، 27.

(2) المرجع نفسه، ص 322، 323.

(3) المرجع نفسه، ص 330.

التلفظ بوقتٍ بعيد"[1]. تحمل الأساليب الإنشائية في العربية قدرةً توجيهية تجاه المرسل إليه، فهي وسيلة كلامية تقوده إلى القيام بفعل في المستقبل، كما أنّ أساليب الإنشاء متعددة؛ تعمل ضمن المستوى العميق للخطاب المنجز، ولها وقع التأثير في السامع الذي يقوم بردود الأفعال، خاصة إذا كان الخطاب منجزًا وفق آليات الإقناع المقبولة لدى المرسل إليه؛ حيث سننقل أقوالا للسكاكي حول هذه الأنواع كما يلي:

- **الاستراتيجية التوجيهية**. قال السكاكي: "أما النوع الأول من الطلب: التمني. أو ما ترى كيف تقول: ليت زيدًا جاءني، فتطلب كون غير الواقع فيما مضى واقعًا فيه، مع حكم العقل بامتناعه، أو كيف تقول: ليت الشباب يعود، فتطلب عود الشباب مع جزمك بأنه لا يعود، أو كيف تقول: ليت زيدًا يأتيني، أو ليتك تحدثني، فتطلب إتيان زيدًا، وحديث صاحبك في حال لا تتوقعها ولا لك طماعية في وقوعهما، إذ لو توقعت وطمعت لاستعملت: لعل أو عسى"[2]. فالتمني حسب الأمثلة المذكورة عند السكاكي يمكن أن يؤدي بالسامع إلى القيام بفعل في المستقبل، كمجيء زيد في المستقبل وليس الماضي لأن ذلك مستحيل، وليس كل التمني يؤدي توجيها، كتمني عود الشباب لمن فاته وقت الشباب، فقيام التمني بالتوجيه يرتبط ببعض الحالات، كما يمكن أن نستعمل أداتي التمني "لعل وعسى" اللتان تفيدان إمكان الوقوع وقيام الاستراتيجية التوجيهية للقيام بفعل المجيء. كما يقول السكاكي عن **الأساليب الطلبية الأخرى**: "والاستفهام لطلب حصول في الذهن والمطلوب حصوله في الذهن، إما أن يكون حكما بشيء على شيء أو لا يكون... كما تقول: الانطلاق ثابت أو متحقق أو موجود كيف شئت. أو ما الانطلاق ثابتا، فتحكم على الانطلاق بالثبوت أو الانتفاء بالإطلاق. وأما الأمر، لا النهي والنداء، فلطلب الحصول في الخارج...

(1) المرجع السابق، ص 330.

(2) أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، ص 303.

كقولك في النهي للمتحرك: لا تتحرك، وفي النداء: يا زيد"[1]؛ فلمّا نستعمل الاستفهام؛ فإننا نوحي للسامع للقيام بفعل ما في المستقبل، كأن نقول: هل تقومون هكذا أشياء؟ فإننا نؤدي بالسامع إلى القيام بتلك الأشياء، خاصة إذا كانت محمودة، أمّا في الأمر، فلمّا نأمر آخرين؛ وتكون لنا سلطة عليهم فإنهم سينفّذون الأوامر، فنحن وجهناهم للقيام بأشياء هي أفعال ناتجة عن أقوال، والأمر نفسه بالنسبة للنداء والنهي، فهذه أساليب تستعمل لتوجيه السامع. وقد فصّلت البلاغة العربية في مختلف هذه الأساليب، وهي ذات بعد استراتيجي توجيهي.

- "**الاستراتيجية التلميحية**" يقول **الشهري**: "... يمكن أن نعرف الاستراتيجية التلميحية بأنها الاستراتيجية التي يعبر بها المرسل عن القصد بما يغاير معنى الخطاب الحرفي لينجز بها أكثر مما يقوله، إذ يتجاوز المعنى قصده مجرّد المعنى الحرفي لخطابه، فيعبّر عنه بغير ما يقف عنده اللفظ مستثمرًا في ذلك عناصر السياق"[2]. فالاستعمال الكلامي من طرف المرسل قد يتعدى المعنى المقصود من هذا الكلام مجرد المعنى الحرفي المباشر، وهي استراتيجية تلميحية، تلمِّح إلى أكثر من الكلام الذي يتبادر إلى ذهن السامع من أول وهلة، ويتجسد ذلك أكثر في التعابير المجازية. وحول وجود هذه الاستراتيجية في التراث البلاغي قال الشهري: "وكانت البلاغة هي ميدانها الواسع خصوصا علم البيان. فتميزت برصد آليات بعض هذه الاستراتيجية، وتصنيفها مع التمثيل لها بوصفها موضع الدرس البلاغي، مثل: المجاز بأنواعه والتشبيه والكناية، ومخالفة أصل في التراكيب بالتقديم والتأخير"[3]. ثم قال: "وكان عبد القاهر الجرجاني وأبو يعقوب السكاكي من أبرز العلماء الذين تناولوا

---

(1) المصدر السابق، ص 303، 304.
(2) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 370.
(3) المرجع نفسه، ص 374.

بشيء من الدراسة والتحليل إذ قرّر الجرجاني في نظرية النظم أن ما خالف الأصل، يستلزم غير الظاهر. كما عرض للتلميح على مستوى معنى الخطاب، وذلك عند التعبير بالمفهوم عن القصد، إذ عقد فصلاً (في اللفظ يطلق والمراد به غير ظاهره) إذ يدور في الأمر الأعم على شيئين: الكناية والمجاز"[1]. حيث تنطبق هذه الاستراتيجية على المجاز بأنواعه، فلما يطلق المرسل خطابًا مجازيا، فإن المعنى يتضاعف فوق حدود المعنى الحرفي المباشر، أي عبر الفائض الدلالي والتلميحات التي يحويها الكلام؛ وقد كان عبد القاهر[*] على وعي بما لدور المجازات من استراتيجيات تلميحية، فعقد بذلك فصلا للحديث عن اللفظ والمراد به غير ظاهره.

تكتنز البلاغة بصفة عامة أبعادًا تداوليةً هامّةً، كنظرية أفعال الكلام المجسَّدة في علم المعنى، وبالضبط في أسلوبي الخبر والإنشاء، إلى جانب مفهوم السياق الذي منحه البلاغيون حيّزًا هاما من اهتماماتهم، عبر دور كل من الخطيب والسامع في تقوية دورة التواصل، مع مراعاة مقام التخاطب والظروف الزمنية في الكلام ومكان إجرائه. ما يؤشر إلى تقاربٍ أكيد بين البلاغة والتداولية، لأن

---

(1) المرجع السابق، ص 374، 375.

(*) قال عبد القاهر الجرجاني: "اعلم أن لهذا الضرب اتساعًا وتفننًا لا إلى غاية، إلا أنه على اتساعه يدور في الأمر الأعم على شيئين: الكناية والمجاز. والمراد بالكناية ها هنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه، مثال ذلك: هو طويل النجاد، يريدون طويل القامة. وأما المجاز: فقد عوّل الناس في حدّه على حديث النقل، وأن كل لفظ نقل عن موضوعه فهو مجاز... وأنا أقتصر ههنا على ذكر ما هو أشهر منه وأظهر، والاسم والشهرة فيه لشيئين: الاستعارة والتمثيل". ففي الكناية والمجاز يقوم المرسل بتأليفهما ويقصد بذلك سامعًا ما، فلما يتلقى السامع هذين الخطابين فإنه سيقوم بعملية تفكيك وتحليل، فأول ما يتبادر لذهنه هو المعنى المباشر، الذين يكون مقبولا في الكناية وغير مقبول في المجاز، ثم ينتقل إلى معنى المعنى ليتم الكشف عن المعنى النهائي المقصود من هذه الاَستعمالات، وهذه النقلة في التحليل المعنوي ندعوها الاستراتيجية التلميحية، وهي نشاط تداولي، ضمن حقل البلاغة العربية. ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قراءة وتع: محمود محمد شاكر، ص 66، 67.

البلاغة العربية تداولية في صميمها على حد تعبير الدارسين المحدثين، وقد أُجريت دراسات عدة لعرب محدثين حول التداولية في البلاغة العربية، ولا يزال مجال البحث مفتوحًا نظرًا لحجم الدراسات البلاغية التراثية الممتدة عبر قرون، وقد زاد المنطق والفلسفة من تفعيل التفجيرات الخاصة بالنقاش حول البلاغة مع إثرائها؛ ما أدى إلى تقاربٍ أكبر مع مناهج التحليل الغربي، خاصة التداولية واللسانيات.

ثالثا) البلاغة والحجاج

جاء في "لسان العرب" لابن منظور: "يقال: حاججتُهُ أُحاجُّه حجاجًا ومُحاجّةً حتى حججتُه أي غلبته بالحُجج التي أدليت بها"[1]. ثم قال: "والحجّةُ: البرهان، وقيل: الحجّة ما دُوفع به الخصم. وقال الأزهري: الحجّة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، وهو رجلٌ مِحجاجٌ أي جدِلٌ. والتحاج: التخاصمُ، وجمعُ الحجّةِ حُجَجٌ وحِجاجٌ. وحاجّه محاجّة وحجاجًا: نازعه الحجّة. وحجّة يحجّهُ حجًّا: غلبه على حجّته. وفي الحديث فحجَّ آدم موسى أي غلبهُ بالحجّةِ، واحتجَّ بالشيء: اتّخذه حجّةً"[2]. فلقد كان العرب قديما أمة الحجاج، فليس (الحجاج) مفهوما غريبا عنهم لغويًا أم اصطلاحيًا، وقد قدّم ابن منظور مفاهيم للحجاج؛ تتفق في أغلبها مع ما هو واردٌ اليوم في مفهوم الحجاج عند الغرب. حيث يستعمل المجادل الحجج للظفر في الخصومات، ومن معاني الحجاج الجدل عند العرب، حيث كانت هناك تيارات سياسية وعقائد متخالفة، كل توجه يحاجج ويجادل خصومه بالآليات التي كانوا يتعلمونها، فالحجج كانت تتم بالقرآن والحديث، والشعر، والأمثال، والحكم، وعلم الكلام، والفلسفة، وخير من يجسد الحجاج هم المعتزلة وغيرهم من الفرق الكلامية.

يعد الحجاج في الدراسات الحديثة جزءا من تحليل الخطاب، فقد ورد في معجم تحليل الخطاب أنه يمكن أن" نميز بين الحجاج الذي يحدد بأنه التعبير عن وجهة نظر في ملفوظات عديدة أو ملفوظ واحد، بل حتى في كلمة واحدة، وبين

(1) ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص 228.

(2) المصدر نفسه، ص 228.

الحجاج باعتباره طريقة خصوصية في تنظيم مجموعة ملفوظات وليس هذان التحديدان متنافرين"[1]. فالحجاج عبارة عن تعبير يتم بالألفاظ لوجهة نظر معينة، وليس ضروريا أن يكون الحجاج خطابًا طويلاً، فقد يتم الحجاج بلفظة واحدة، وقد يتم بعدة ملفوظات، كما يعتبر الحجاج أسلوبًا وخاصية من خواص اللغة، يتم بتنظيم محدد ذي مميزات يتصف بها عبر الخطاب الذي يحوي مجموعة من الملفوظات. كما ورد في المعجم نفسه بأنه: "إذا ما حددنا الحجاج بأنه محاولة لتغيير تمثلات المخاطَب، فمن الواضح أن كل إخبار من شأنه أن يضطلع بهذا الدور، ويمكن أن يسمى بهذا المعنى حجاجيا. فكل ملفوظ، وكل ملفوظات متعاقبة متناسقة تقيم وجهة نظر أو ترسيمة تمثل دراستها موضوع المنطق الطبيعي والحجاج... تمشٍّ يرمي إلى العمل على التأثير في رأي شخص أو موقفه، بل وحتى في سلوكه بوسائل الخطاب"[2]. فالحجاج وسيلة بيد المخاطب ترمي إلى تغيير بعض قناعات المرسل إليه، وكل وسيلة تضطلع بهذا الدور فهي حجاج، كما تنتج عن هذا الحجاج ملفوظات تكون متناسقة ولها علائق وخيوط ناظمة، أي إن هناك ما ينظم الملفوظات؛ فالحجاج خطاب غرضه التأثير في المواقف والأفكار والقناعات.

الحجاج عند "دومينيك منغنو" (Dominique Maigueneau) هو: "... واحدٌ من العوامل التي تزيد من اطّراد التناسق. تفترض في الواقع حادثةً مركبةً منتهيةً. الحجج عبارة عن تسلسل منظم متعلق باستراتيجيات شاملة تهدف للاندماج مع الجمهور والدفاع عن أطروحة متلفِّظْ. نوع من التفاعل الشفهي معدٌّ لتغيير حالة الإدانة لموضوع ما"[3]. فللحجاج دور في زيادة تناسق الخطاب وانتظامه، كما يعتمد المخاطِب ترتيبا ممنهجا لحججه حتى تؤدي دورها كاملاً، وحتى يؤثر المخاطب في السامعين ويكسب تأييدا حول كلامه وقناعاته.

---

(1) دومينيك مانغونو، باتريك شارودو، معجم تحليل الخطاب، ص 69.

(2) المرجع نفسه، ص 69.

(3) Dominique Maigueneau, l'Analyse Du Discours, Hachette Supérieur, France, p. 228.

أورد "**فيليب بروتون**"، "**جيل جوتييه**" في كتاب"**تاريخ نظريات الحجـــاج**" تعريفًا آخر لـــ "**بلانتان**" تناول: "الحجاج من وجهة نظر لغوية بالأســـاس، فهـــو يعرفه كعملية لغوية يحاول من خلالها مستخدم اللغة الحصول على قبـــول متلقيـــه لنتيجة ما، وذلك بتقديمه لسبب يجعل هذه النتيجة مقبولة، ولفهم كيفية نمو الحجـــة في لحظة التلفظ والتعبير، يقوم بلانتان بعملية مراجعة شاملة للدراســـات المختلفـــة المخصصة للحجاج"[(1)]. فمجال الحجاج – حسب بلانتان – هو اللغـــة، إذ يـــتم بالكلام الذي يتخذه المرسل لفرض نتيجة على المرسل إليه، وذلك بالاعتماد علـــى الحجج والأسباب، أمّا الحجة فلها وسائلها التي تنمو بها أثناء التلفظ والكلام، عـــبر خبرة المرسِل في مجال الحجاج الذي يعرف بأنّه" دراسة التقنيات الخطابية التي تسمح بإثارة الأذهان أو زيادة تعلقها بالأطروحات التي تعرض من أجـــل أن تقبلـــها"[(2)]. حيث يعتبر **بيرلمان** (**Chaïm Perelman**) رائد التوجـــه الحجـــاجي في العصـــر الحديث، وقد عرّف الحجاج بأنه المجال الذي يدرس الوســـائل والتقنيـــات الـــتي يستخدمها المتكلم حتى يؤثر في ذهن المتلقي حول أطروحة ما حتى يقبلها ويقتنع بها، فمفهوم بيرلمان، هو مفهوم منطقي فلسفي، لأنه أعاد دفع مجال الحجاج اعتمادًا على أعمال أرسطو البلاغية التي تتضمن التفسيرات اللغوية المنطقية للحجاج[(*)].

---

(1) فيليب بروتون، جيل جوتييه، تاريخ نظريات الحجاج، ص 101.

(2) المرجع نفسه، ص 42.

(*) ورد في كتاب صلاح فضل بلاغة الخطاب وعلم النص عن الحجاج عند بيرلمـــان مـــا مفاده: "ولد مصطلح البلاغة الجديدة ذاته عام 1958م في عنوان أحد الكتب الشـــهيرة التي وضعها المفكر البولوني المولد البلجيكي المقام بيريلمان Perelman.Ch تحت اســـم: مقال في البرهان: البلاغة الجديدة: ويعتمد هذا الكتاب على محاولة لإعـــادة تأســـيس البرهان أو المحاجة الاستدلالية باعتباره تحديدا منطقيا بالمفهوم الواسع، كتقنية خاصـــة ومتميزة لدراسة المنطق التشريعي والقضائي على وجه التحديد، وامتداداتـــه إلى بقيـــة مجالات الخطاب المعاصر. وقد عرفت هذه المدرسة فيما بعـــد بمدرســـة (بروكســـل) وتفرعت إلى تيارات عديدة متخالفة في الأعوام التالية: إذ انبثقت من دراســـة المنطـــق القضائي لكنها لم تلبث أن تجاوزت إلى الفلسفة... ويلاحظ عموما على مبادئها أنهـــا تدور حول وظيفة اللغة التواصلية، وأنها ليســـت منبتـــة الصـــلة بالتقاليـــد البلاغيـــة الكلاسيكية...". ينظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 65، 66.

ارتبطت الدراسات الحجاجية بحقل الخطاب، حيث: "إن البلاغة الجديدة تتمحور أساسا حول تحليل تقنيات الحجاج، وهذه التقنيات يتم بسطها على محورين كبيرين: من جهة، محور الخطاب ذاته، خاصة بنيات الحجاج الموضوعة موضع التنفيذ، ومن جهة أخرى، محور تأثير هذا الخطاب على المتلقي، وذلك في علاقته بقصدية منتج الخطاب. ففي الحالة الأولى تجري دراسة الحجج وتصنيفها، وفي الحالة الثانية تتم دراسة الموقف التواصلي الذي يمثل حدث الحجاج (Acte d' argumentation)"[1]. فالبلاغة الجديدة تحتفي كثيرًا بالحجاج وتعطيه مساحةً هامة في الدراسة، خاصة مع دراسات شايم بيرلمان ورولان بارت الحجاجية التي انطلقت من أعمال البلاغيين اليونان، والتي كانت تدور بكثرة حول الحجاج كخطاب مورس في الحاضرة الأثينية. حيث تم وفق مرحلتين، أولا على مستوى الخطاب ذاته كأنساق مشكلة له ذات وظيفة حجاجية، وفي مرحلة ثانية أثر هذا الخطاب على المتلقي، فلمّا يؤسس المرسل للخطاب الحجاجي فإنه يقصد به المتلقي، لأنّ الحجاج ذو خاصية تداولية.

اعتبر الكثير من الدارسين الحجاج مبحثا ينتمي إلى حقل التداولية حيث: "إن أخذ الحجاج في الاعتبار في الدراسات التداولية هي خصيصةٌ للسنوات الثمانين من القرن العشرين، تشهد على ذلك البيبليوغرافيا وتوضحه المفاهيم. إذ يجمع جون بليز غرايز بين المنطق والحجاج، أما روبار مارتان فيدمج مفهوم ممكن الوقوع في نظريته الدلالية، وقد عاد أوزفالد ديكرو أخيرًا إلى مفهوم المواضع لوصف آليات اللغة الحجاجية"[2]. فالتداولية تدرس اللغة في الاستعمال، كما يدرس الحجاجُ الخطاب وأثره في المتلقي، وللحجاج منطق خاص يحكمه أدى بالدارسين لوصفه ورصد آلياته.

ارتبط الحجاج إذًا بأعمال اللسانيين والتداوليين، وحسب "صابر الحباشة" فـ "إن أعمال أوزفالد ديكرو وجون كلود انسكمبر تتميز عن النظريات التداولية الأخرى بمصادرة مخصوصة: إنهما يعتبران أن هذه القطبيات الحجاجية ليست

(1) فيليب بروتون، جيل جوتييه، تاريخ نظريات الحجاج، ص 46.

(2) صابر الحباشة، التداولية والحجاج، مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، ط1، سورية 2008م، ص 16.

مضافةً للملفوظ، ولكنها مسجلة في اللغة بوصفها أساسًا لكل دلالة. إن الحجاج في نظر هذين اللسانيين لم يعد نشاطًا لسانيًا من بين أنشطة أخرى، ولكنه أساس المعنى نفسه وأساس تأويله في الخطاب"[1]؛ يعتبر الحجاج أحد آليات اللغة بتقنياته وأساليبه في التأثير في المرسل إليه، إذ يُدخل السامع في مجال دلالي وتأويلي تتضح حدوده وملامحه ضمن الحقل التداولي بمعين اللسانيات.

للبلاغة علاقة وثيقة بالحجاج، وقد قال الحباشة في شأن هذه العلاقة: "ليس الحجاج علما/فنا يوازي البلاغة، بل هو ترسانة من الأساليب والأدوات يتم افتراضها من البلاغة (ومن غيرها كالمنطق واللغة العادية...)، ولذلك فمن اليسير الحديث عن اندماج مع البلاغة في كثير من الأساليب. ولما كان مجال الحجاج هو المحتمل وغير المؤكّد والمتوقع، فقد كان من مصلحة الخطاب الحجاجي أن يقوي طرحه بالاعتماد على الأساليب البلاغية والبيانية"[2]، فالبلاغة دعامة للحجاج، كما يمكن في بعض الحالات أن يصير الحجاج بلاغةً ويتكلم بلسان حالها، ولما كان الحجاج يتوجه إلى مخاطبٍ بخطاب مجهول النتيجة، لأن المرسل إليه قد يقبل هذا الخطاب الحجاجي أو يرفضه، فإن من مصلحته أن يستند إلى معطيات البلاغة وثرائها في التأثير في الآخر. لأنّ: "الأساليب البلاغية قد يتم عزلها عن سياقها البلاغي لتؤدي وظيفةً لا جمالية إنشائية، بل تؤدي وظيفةً إقناعية استدلالية (كما هو مطلوب في الحجاج). ومن هنا يتبين أن معظم الأساليب البلاغية تتوفر على خاصية التحول لأداء أغراض تواصلية، ولإنجاز مقاصد حجاجية ولإفادة أبعاد تداولية"[3]؛ فالبلاغة تتضمن عدة وظائف؛ كالوظيفة الجمالية والتعبيرية، ويمكن أن تؤدي الوظيفة الحجاجية، بالإقناع والاستدلال وهما لب الحجاج وجوهره، والبلاغة بترسانتها الأسلوبية يمكن أن تؤدي أغراضا عدة في دعم الحجاج، وتيسير الإقناع بتركيز المقاصد على المتلقي لإقناعه، فتصبح البلاغة وفق ذلك حجاجية تداولية.

---

(1) المرجع السابق، ص 18.
(2) المرجع نفسه، ص 50.
(3) المرجع نفسه، ص 50.

حفِل التراث البلاغي العربـــي بالحجاج، وسوف نحاول أن نرصـــد تلـــك العلاقة التي تربط البلاغة العربية بالحجاج اعتمادًا على دارسين محدثين عرب وآراء لعلماء عرب تراثيين. ومن أهم الأقطاب الأوائل للحجاج العربـــــي "الجـــاحظ" الذي قال "الشهري" عنه بأنّه: "تناول استراتيجية الإقناع في كتابه البيان والتبيين، إذ فصّل القول فيما يخص الخطيب من صفاتٍ جسديةٍ وملكاتٍ ذهنيةٍ، و لم يقتصر حديثه على تعداد مميزات الخطيب الإيجابية التي تمنحُ خطابه القبول، مـــن حـــلاوة القول والحذق فيه، بل فطِن إلى التنبيه على الخصائص السلبية التي تضـــعف مـــن موقفه مثل العيوب النطقية والعي"[1]. فالجاحظ يعي دور البلاغـــة في الحجـــاج والإقناع، لأنه متكلم ومحاجج معتزلي، مثلما كان بلاغيا ولغويًا، فلكي يتم الإقناع بنجاحٍ يعطي الجاحظ الدور في ذلك للخطيب سواء من المظهر الخارجي كاللباس والهيئة، أم من صفات داخلية كالملكات الذهنية مثل: الذكاء والفطنـــة والتعقـــل، ويضاف إلى ذلك حسن اختيار العبارات والألفاظ الفصيحة التي تؤدي الغـــرض وتحدث الأثر، كما وعى الجاحظ العناصر التي تعطّل الوظيفة الإقناعية، كعيـــوب النطق والعي والتشدق واللحن، ما أسس لدرسٍ في الحجاج العربـــي مندمج مـــع الدراسات البلاغية.

مارس العرب الحجاج في خطاباهم، "وكان خطـــاب المنـــاظرة في التـــراث العربـــي، ومازال من أهم أنواع الخطاب الذي ينتجه المرسل للإقناع، إذ بـــرزت وتبرز فيه سمات الكفاءة التداولية والقدرة على توظيفها طبقًا لما يتطلبه السياق من أجل بلوغ هدف الخطاب الكلي الذي يصبوا إليه. فالإقناع هو المطلب الأســـاس من الخطابات التي تدور بين هؤلاء الذين تختلف توجهاهم"[2]. وطبيعيٌ أن يكون الحجاج البلاغي سمة مميزةً لحضارة العرب، لأنها أمة فكرٍ ونقدٍ وإقناع، كما أنهـــا حضارة تراثٍ لغوي وبلاغي بامتيازٍ، ولأن القرآن -كذلك- يـــدعو إلى المجادلـــة بالحسنى في الدين الإسلامي. وبسبب اختلاف التوجهات وتعدد الفرق الكلاميـــة تطور أسلوب المناظرة وأصبح كل توجه يستعمل كل الحجج لـــدحض أفكـــار

(1) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 448.

(2) المرجع السابق، ص 449.

المجادِل، كما أن الأسلوب البياني الذي يتمتع به المناظرون زاد من ثراء هذا الفــن على صعيد الاستعمال والإقناع.

يمكن أن نلمسَ مجهوداتٍ أخرى في الحجاج عند الدارسين العرب القــدامى، حيث نستطيع: "الاستشهاد على ذلك ببعض جهود القدماءِ على سبيل المثــال لا الحصر، ومنها ما فعلهُ الباجي في مقدمة منهاجه، حيث ذكر ما ينبغي للمنــاظر أن يتأدب به مع المرسل إليه بيد أنه لم يُغفل ما ينبغي أن يراعيــه المرســل في حــقِّ نفسهِ"[1]. فقد كان **"أبو الوليد الباجي"** (403هــ-474هــــ) دارسًــا ملمًّــا بالحجاج وحيثياته، حيث ذكر أنه على المناظر أن يتّصف بمزايــا تؤهلــه لقبــول مناظرته وحججه الإقناعية، وهي آراء ذات صبغة تداولية للخطــاب الحجــاجي، فيمكن للمرسل أن يعدّل من موقف المرسل إليه بتمظهرات ومواصفات شــكلية ولغوية تمنح خطاب المحاجج القبول. كما" ينبغي للمناظر... أن يتوقر في جلوســه ولا ينزعج من مكانه فينسب إلى الركّة والخرق ولا يعبث بيده ولحيته، فإن ذلــك يذهب بالوقار، ولا يكثر الصياح حتى يشق على نفسه لأن ذلك يقطعه وينســب منه إلى الضجر، ولا يخفي صوته جدًّا فينسب منه إلى ضعف المنّة، وكان بين ذلك قوامًا، ولا يشغف بكلامه ولا يعجب بجداله، فإن ذلك يدعو إلى المقت، ويُقبــل على خصمه، فإنه أحسن في الأدب، ويحسن الاستماع إلى كلامه، فإنه ربما بان له في كلامه ما رآه له على فساده، فيكون عونًا له على نظره ولا يسمح في النظر ولا يثق بقوته وضعف خصمه..."[2]. فالباجي بهذا التوصيف للحجاج، كان يــدرك الخصائص الشكلية واللغوية التي تؤثر في المتلقي وتجعله يقبل الخطاب الحجــاجي للمرسل، فالوقار، والسكون، وقلة العبث، وعــدم الصــياح ورفــع الصــوت، وجهارته، وعدم الغرور، وحسن الإقبال، وعدم استصغار الخصم؛ كلها صــفات بلاغية وتداولية للخطاب الحجاجي. وكتاب الباجي (المنهاج في ترتيب الحجاج) خطوةٌ كبيرةٌ في النهوض بالحجاج العربــي، وفتح لمجالات هامة علــى صــعيد

---

(1) المرجع نفسه، ص 449.

(2) أبو الوليد الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج، تح: عبد المجيــد تركــي، دار الغــرب الإسلامي، ط2 لبنان، 1987م، ص 09، 10.

القراءة التداولية للحجاج في التراث، لأن الباجي قد عرض فيه كل خصائص الحجج وكيفية الاستدلال وبناء القياسات الخُطبية.

لقد قام الباجي بعرض للمصطلحات المتعلقة بالخطاب الحجاجي وشرحَها، حيث نذكر أهمها: "أول ذلك معرفة الحد، وبيان حقيقته. الحد: هو اللفظ الجامع المانع، والعقل: بعض العلوم الضرورية ومحله القلب. وقال أبو حنيفة: محله الرأس والدليل على القول الأول قول الله تعالى: {أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها}... والجدل: تردد الكلام بين اثنين قصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه... والدليل: ما صحّ أن يرشد إلى المطلوب، وهو الحجّة والبرهان والسلطان. والدلالة: هو الدليل... وقد يكون المحتج بالدليل... والبيان: الإيضاح. والنص: ما رُفع في بيانه إلى أبعد غاياته... والتأويل: صرف الكلام عن ظاهره إلى وجه ما يحتمله... ودليل الخطاب: تعليق الحكم بمعنى في بعض الجنس... وفحوى الخطاب:... تنبيه اللفظ على ما هو أبلغ منه... والحقيقة: تستعمل في الحد وتستعمل ضد المجاز... والمجاز: كل لفظٍ تجوّز به عن موضوعه..."(1). ينبغي للمحاجج إذن أن يكون متسلحا بموسوعية معرفية تؤهله لممارسة المناظرة، ومن هذه الموسوعة ما هو بلاغي ومنها ما هو ديني، ومنها ما هو فلسفي منطقي. فلما يكون المناظر بصدد بناء الخطاب الحجاجي فعليه أن يأتي بالحجة والبرهان من القرآن وبالبلاغة ومن المنطق، وكلها وسائل تداولية تعطي للكلام الحجاجي تقبلا لدى السامع وزيادة في التأثير وتغيير للقناعات. كما أنّ للخطاب الحجاجي خصوصيات تنظيمية تختلف عن بقية الخطابات البلاغية الأخرى، وهوما دعا الباجي إلى ترتيب الحجاج كمجال له خصوصياته اللغوية والمنهجية.

كان العلماء العرب في البداية مختلفين حول مدى مشروعية المناظرة التي أسست للحجاج العربي كفن له ضوابطه؛ وهو خلافٌ نشأ بين الأصوليين الرافضين لدخول مجالات غريبة على الحاضرة العربية، وبين منفتحين على الحضارات الأخرى، ويرون في الحجاج مكسبًا للحضارة العربية الإسلامية. قال "**محمد العمري**": "وقد أدّت دراسة الخطاب حسب أحوال الجمهور إلى

(1) المصدر نفسه، ص 10، 11، 12.

الاختلاف بين دارسي الخطاب القرآني من الفلاسفة المتأثرين بالفلسفة اليونانية، والسلفيين (الأصوليين) المسلمين. نجد أصداء هذا الاختلاف بيّنًا في رد ابن القيم على ما جاء في (فصل المقال) لابن رشد"[1]. فقد كان "ابن رشد" يرى أن الحجاج وتعلمه ضروري بالنسبة للشريعة الإسلامية. حيث يقول: "وإذا تقرر أنّ الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات، واعتبارها، وكان الاعتبار ليس شيئا أكثر من: استنباط المجهول من المعلوم، واستخراجه منه، وهذا هو القياس، أو بالقياس، فواجبٌ أن نجعل نظرنا في الموجودات بالقياس العقلي، وبيّنٌ أن هذا النحو من النظر، الذي دعا إليه الشرع وحثّ عليه، هو أتمّ أنواع النظر بأنواع القياس، وهو المسمى برهانًا. وإذا كان الشرع قد حثّ على معرفة الله تعالى وسائر موجوداته بالبرهان، وكان من الأفضل، أو الأمر الضروري، لمن أراد أن يعلم الله، تبارك وتعالى، وسائر الموجودات بالبرهان، أن يتقدم أوّلاً فيتعلم أنواع البراهين وشروطها، وبما يخالف القياس البرهاني القياس الجدلي والقياس الخطابي، والقياس المغالطي"[2]. يدعو ابن رشد وفق هذا المنحى إلى تعلم الحجاج واستعماله في الشريعة وفي معرفة الله جل وعلى، لأن الحجاج حسبه يكشف عن المجهول من المعلوم عن طريق القياس والبرهان. ثم يذكر مجموعةً من المصطلحات المتعلقة بحقل الحجاج، مثل: القياس البرهاني، والجدلي، والخطابي، والمغالطي. وكلها مصطلحات لها ما يقابلها في الحجاج عند الدارسين الغرب المحدثين.

لقد كان الصراع المذهبي عند العرب القدامى من أهم الأسباب التي ساهمت في تطور الحجاج، ويعتبر "الحسن البصري" من الأوائل الذين أسسوا له، قال العمري: "فالحسن البصري الذي يعتبر شيخ الخطباء الوُعَّاظ في عصره، هو أيضًا من أوائل من خاضوا بنثرهم موضوع المحاجّة المذهبية، وهو يؤرّخ لبداية الخوض في القضايا المذهبية في رسالةٍ موجهة إلى عبد الملك على يد الحجَّاج"[3].

(1) محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، أفريقيا الشرق، ط2، المغرب، 2002م، ص 35، 36.

(2) ابن رشد، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، تح: محمد عمارة، دار المعارف، ط3 القاهرة، ص 23، 24.

(3) محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 49.

فلمّا رأى البصري اختلاف التوجهات المذهبية واحتدام النقاشات أخذ يحدّ من ذلك بالدفاع عن منهج السلف في معرفة الله عزّ وجلّ. فقد قال البصري في الرسالة: "سلامٌ عليك، أما بعد: فإن الأمير أصبح في قليل من كثيرٍ مضوا، والقليل من أهل الخير مغفولٌ عنهم، وقد أدركنا السلف الذين قاموا لأمرٍ الله، واستنّوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يبطلوا حقًّا، ولا ألحقوا بالرب تعالى إلاّ ما ألحق بنفسه. ولا يحتجون إلاّ بما يحتج الله تعالى به عن خلقه، وقوله الحق: {وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون} ولم يخلقهم لأمر ثم حال بينهم وبينه، لأنه تعالى ليس بظلاّمٍ للعبيد، ولم يكن أحدٌ في السلف يذكر ذلك ولا يجادل فيه، لأنهم كانوا على أمرٍ واحد"[1]. حيث راسل الحسن البصري عبد الملك بن مروان، يثني عليه أوّلاً ويلحقه بالأسلاف الذين كانوا لا يجادلون في الله عزّ وجل، في صفاته وخلقه وما كتبه الله عز وجل لخلقه ليأتي أناس يختلفون ويتناظرون في أمورٍ كانت عند من سبقهم واحدةً متفقا عليها. فالخلافات الدينية حسب البصري هي من أذكت الحجاج والمناظرات وساهمت في وجودها.

تحدث العمري عن الخطابة القضائية الحجاجية عند العرب، حيث كانت تمارس في حياتهم الاجتماعية، وهي تحمل قيمًا بلاغية وتداولية هامة، فالحجاج عند العرب كان ممارسةً أكثر منه تنظيرًا وتقنينًا؛ ولهذا سنستشهد ببعض الخطب لنرصد ملامح الحجاج البلاغي فيها، ومن نماذج الخطابات الحجاجية القضائية، تلك الخطبة أو المحاكمة التي جرت بين "أبي الأسود الدؤلي" وزوجته التي طلّقها وتخاصما في كفالة الولد، فاشتكت منه إلى "زياد" والي البصرة آنذاك، فجاءت كما يلي:

- " جرى بين أبي الأسود الدؤلي وبين امرأته كلامٌ في ابنٍ كان لهما منه، وأراد أخذه منها، فسار إلى زياد وهو والي البصرة. فقالت المرأة: أصلح الله الأمير، هذا ابني، كان بطني وعاءه، وحجري فناءه، وثديي سِقاءه، أكلؤه إذا نام، وأحفظه إذا قام، فلم أزل بذلك سبعة أعوام،

(1) أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية، ج2، لبنان، ص 233.

حتى إذا استوفى فصالُه، وكمُلت خِصالُه، واستوكعت أوصاله، وأمّلت نفعه، ورجوتُ دفعه، أراد أن يأخذه مني كُرهًا، فآدِني أيها الأمير، فقد رام قهري، وأراد قسري. فقال أبو الأسود: أصلحك الله، هـذا ابـني حملتُه، قبل أن تَحملهُ، ووضعتُهُ قبل أن تضعُهُ، وأنا أقوم عليه في أدبـه، وأنظر في أَوَدِه، وأمنحه علمي، وأُلهمه حِلمي، حتى يكتمـل عقلـهُ، ويستحكمَ فتَلُهُ. فقالت المرأة: صدق أصلحك الله، حمِله خِفًّا، وحملته ثقلاً، ووضعه شهوةً ووضعتُهُ كُرهًا. فقال له زياد: أُرددْ علـى المـرأة ولدها، فهي أحق به منكَ ودعني من سجعِكَ. أو قال: إنّها امرأةٌ عاقلةٌ يا أبا الأسود"[1].

علّق العمري على هذه المرافعة فقال: "احتجّت المرأة في هذه المرافعة بما بذلته في تربية الطفل، وما سبّب لها من عناء تريد جزاءه، كما حاولت التأثير بما سيصيبها من حرمان إذا ما انتزع منها ابنها بعـد أن أمّلـت نفعه. واعتمد أبو الأسود على المغالطة أوّلاً ليوهن حجـج المـرأة، ثم احتجّ بمصلحة الطفل وتربيته الرجولية، وانتبـهت المـرأة إلى ضـعف الجانب الأول من مرافعة أبـي الأسود فعادت لتستغله ضدّه، ثم إنهما معًا اعتمدا التأثير الأسلوبـي"[2]. فالخطابة الحجاجية كانت من أبـرز أنواع الخطاب عند اليونان ودارسيهم البلاغيين، وقد نبّـه بيرلمـان إلى أهمية هذا النوع من الخطابات، ونهل الكثير من عند اليونان حول هـذا الموضوع في دفع البلاغة الجديدة. ونحن من خلال هذه المنـاظرة الـتي جرت بين المرأة والدؤلي نلاحظ مدى البراعة في استخدام الأسـاليب البلاغية في التأثير على والي البصرة، فالمرأة تعمـد إلى إثـارة الـوالي عاطفيا؛ عبر وصف عنائها في تربية الولد والآمال المعلقة عليـه، حـتى ترجّح الكفة إليها في الظفر بكفالته، وفي الوقت نفسه يعمدُ الدؤلي إلى

(1) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العرب الزاهـرة، ج02، مطبعـة مصطفى البابي الحلبـي وأولاده، ط1، القاهرة، 1933م، ص 376، 377.

(2) محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 63، 64.

الأساليب عينها، من غير أن يصل إلى مستوى التأثير الذي كانت تملكه المرأة فرجّحت الكفة لها وربحت القضية. وقد كان أرسطو -كما رأينا- يعي دور الحجاج الجيد في استمالة الحكام ونيل تأييدهم بالإقناع وإثارة النوازع المتعلقة بالسامع، كالرأفة، والمحبة، والخوف، والرجاء، وهذا ما تجسَّدَ في الخطبة التي رويناها من خلال إثارة عاطفة الرجاء وأمل رجوع الولد.

أمّا وسائل الحجاج فهي: (القياس، المثال، الشاهد)، وهي التي تؤدّي إلى انسجام الخطاب الحجاجي. حيث: "تشترك هذه الوسائل (القياس والمثال والشاهد) في دعوتها العقل إلى الانسجام مع مبادئه (السببية وعدم التناقض...) أو مع العالم الخارجي المحيط به بما فيه من قيم ومواضعات اجتماعية ورصيد ثقافي ونصوص مقدّمة وتشريعات وقوانين ومصلحة عامة"[1]. إنها وسائل تؤدي بالعقل إلى الانسجام، بمعنى تجعل العقل يقيس القضايا المطروحة في الحجاج بالتناسق حتى يخدم كل جزء منها الجزء الآخر، كما تمتد هذه الصور إلى العالم الخارجي حتى تتوافق معه وتستدل به على صدق القضايا ودعمها.

أمّا فيما يتعلق بـ "القياس"، أو "القياس الخطابي أو المضمر" عند الدارسين المحدثين، فيعرّفه العمري انطلاقًا من "هافت" (Havet): "ففي حين يقوم القياس المنطقي على الاستنتاج العلمي الصارم، يقوم القياس المضمر، أي القياس الخطابي على الرأي، وعلى هذه الاحتمالات التي تكفي في معالجة الأمور، فالقياس المضمر هو قياسٌ يقوم على الاحتمالات"[2]. فالقياس المنطقي يعتمد على الاستنتاج العلمي الصارم، وهو من انشغالات المفكرين والفلاسفة وعلماء المنطق، وفيه الكثير من التجريدات الرياضية والدقة والرموز، ما يقل في دراسة

---

(1) المرجع نفسه، ص 71.

(2) المرجع السابق، ص 71.

الخطابات الحجاجية التي يستعملها الأناس العاديون، أما القياس المضمر أو الخطابـي المعتمدُ على ربط الآراء والاستنتاج منها؛ فهو كثيرٌ عند الخطباء والبلاغيين والكثير من المتكلمين يفقهه ويعمل به، وهو كثيرٌ في خطب العرب ورسائلهم. فلمّا يربط السامع بين قضيتين أو عدة قضايا فإنه يستطيع أن يقوم باستنتاج الاحتمال المقصود من الخطاب الحجاجي. ولنا أن نمثّل بنموذج خطابي لـ "القياس الخطبي (المضمر)"، من خلال خطبة "الحسين رضي الله عنه" وردت في كتاب "جمهرة خطب العرب" جاء فيها:

- " وخطب الحسين أصحابه وأصحاب الحُرِّ بالبيضة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من رأى سلطانًا جائرًا مستحلاًّ لحرم الله، ناكثًا لعهد الله، مخالفًا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعلٍ ولا قول، كان حقًّا على الله أن يُدْخِلَهُ مُدْخَلَهُ. ألا وإن هؤلاء قد لزِموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمان، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحق من غير، وقد أتتني كتبكم، وقدمت علي رسلكم ببيعتكم أنكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، وأنا الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، فلكم فيّ أسوةٌ، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من أعناقكم فلعمري ما هي لكم بنكرٍ، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم، والمغرور من اغترَّ بكم فحظّكم أخطأتم، ونصيبكم ضيعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، وسيغني الله عنكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته"[1].

(1) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ج2، ص 40.

استخرج العمري "قياسًا خطبيًا" من هذه الخطبة فقال: "ويمكن الاكتفاء باستخراج قياس أساسي في هذه الخطبة وهو:

- **المقدمة (1):** من رأى سلطانا جائرًا و لم يغير منكره ناله العقاب.
- **المقدمة (2):** بنو أمية جاروا عن طريق الرحمن وساروا في طريق الشيطان.
- **النتيجة:** يجب تغيير منكر بني أمية، وإلاّ نزل العقاب. وأنا قد قائمٌ لذلك اعتمادًا على بيعتكم ونصرتكم"[(1)].

فالحسين رضي الله عنه كان يعرف كيف يوجه هذا الخطاب الحجاجي ببلاغته وبديهته وقدرته على التأثير في السامعين، وقد استنتج العمري قياسًا خُطبيًا (مضمرًا) ضمن هذه الخطبة، فقد قدّم الحسين رضي الله عنه لكلامه بافتتاح، ثم انتقل إلى مقدّمةٍ ثانية، ينتقد ويهجو بني أمية فيها بأنهم أحلّوا الحرام، وحرّموا الحلال، واستأثروا بالفيء، وخرجوا عن حدود الله. ليصل إلى نتيجة مبنية على المقدمتين السابقتين: إنّه ليجب إزالة بني أمية من الحكم، لأننا مأمورون بذلك، فالعرب كانوا يعرفون كيف يضمنون خطبهم الإقناعية بالقياسات الخطبية المضمرة لكي تلقى قبول السامع، وتملك زمام قبوله للخطاب الحجاجي.

وكما للخطبة دورها الحجاجي عبر المنطق والقياس، "يقوم المثل في الخطابة مقام الاستقراء في المنطق، أو المثل هو استقراء بلاغي، والمثل هو حجّة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتها ويراد استنتاج نهاية احديها بالنظر إلى نهاية مماثلتها"[(2)]. فالمثل (المثال أو الأمثال) يقابل الاستقراء في المنطق، وهو استقراء بلاغي، عبارة عن حجة يستخدمها الخطيب لزيادة الإقناع ولتقوية الحجاج، وفيه مشابهة بين حالتين، كأن نسرد قصّةً على لسان الحيوان ونريد أن نسقطها على واقعٍ ما، فالقصة التي نسردها تعتبر مقدمّةً أولى، والوضع الذي تنطبق عليه يعتبر مقدمةً ثانية، فنستخلص منهما نتيجة، بأن الحال ستؤول إلى ما آلت إليه القصة الممثّل بها.

---

(1) محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 78.

(2) المرجع السابق، ص 82.

كان العرب القدامى مدركين دور المثال في تقوية الخطاب الحجاجي وزيادة إقناعه، وقد روى "قدامة بن جعفر" قولاً في ذلك مفاده: "فأما الحكماء والأدباء فلا يزالون يضربون الأمثال، ويبينون للناس تصرف الأحوال، بالنظائر والأشباه والأشكال، ويرون هذا النوع من القول أنجح مطلبًا وأقربُ مذهبًا، ولذلك قال الله عزّ وجلّ: {لقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثلٍ} (سورة الإسراء)، وقال: {وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبيّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال} (سورة إبراهيم). وإنما فعلت العلماء ذلك لأن الخبر في نفسه إذا كان ممكنًا فهو يحتاج إلى ما يدل عليه وعلى صحته والمثل مقرونٌ بالحجة..."[1]، فالقرآن الكريم هو رائد المثل عند العرب، لأنه كثيرا ما كان يسرد قصص الأوائل وأخبارهم، وذلك ليزيد في الحجة والإقناع، كما تأثر البلاغيون به، وعمدوا إلى تقليد صنيعه برواية القصص والحكايات في ثنايا الخطابات الحجاجية ليزيدوا من دعم أخبارهم وأفكارهم، فالمثل هو شبهٌ مع الحال الموصوفة لزيادة الحجة، وهو دليل وتصحيحٌ للمواقف المعروضة. حيث سنعرض لخطبةٍ رُويت عن "الحجاج بن يوسف الثقفي" (ت 95هـ) خطبها بمكةٍ بعد مقتل "ابن الزبير" (سنة 73هـ) على يده وفيها أسلوب "المثال"، جاء فيها:

- " لما قتل الحجاجُ عبد الله ابن الزبير، ارتجّت مكة بالبكاء فصعد المنبر، فقال: ألا إن ابن الزبير كان من أحبار (العالم أو الصالح) هذه الأمة، حتى رغب في الخلافة ونازع فيها وخلع طاعة الله، واستكنّ بحرم الله، ولو كان شيء مانعًا للعصاة، لمنع آدم حرمة الجنة لأن الله تعالى خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وأباحه جنّته، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته، وآدم على الله أكرمُ من ابن الزبير، والجنّة أعظم حرمةً من الكعبة"[2].

وقد أخرج العمري من هذه الخطبة التمثيل الذي أجراه الحجّاج بين ابن الزبير وقصة آدم عليه السلام وإخراجه من الجنة:[3]

---

(1) قدامة بن جعفر البغدادي، نقد النثر، دار الكتب العلمية، لبنان، 1980م، ص 66.
(2) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ج02، ص 273، 274.
(3) محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 86.

~ ابن الزبير	~ آدم: آدم أكبر من ابن الزبير .
~ حبر هذه الأمة	~ خلقه الله و أسجد له الملائكة .
~ الطمع في الخلافة	~ الأكل من شجرة الخلد
~ الخلافة	~ شجرة الخلد .
~ مكة	~ الجنة
~ الدولة (الخليفة+ الحجاج)	~ الله
~ القتل	~ الطرد من الجنة

فقد أراد الحَجَّاجُ في هذه الخطبة أن يقنع المسلمين في ذلك الوقت بعد تهويل مقتل ابن الزبير –رضي الله عنه–، فاحتجّ بقصة آدم عليه السلام، بأنه ليس ابن الزبير بأكرم من آدم. فأخذ يمثل بقصته لدعم رأيه في قتل ابن الزبير، فإن كان آدم الذي أسجد الله له الملائكة وإن عُرف الزبير بالصلاح والاستقامة، فقد أُخرج آدم من الجنة من طرف الله عز وجل، وهو ما كان مع ابن الزبير الذي قُتل لأنه طمِع في الخلافة، مثلما طمع آدم في الخلد بأكله من الشجرة مثلما أغواه إبليس (عليه اللعنة). فلقد كان الحجاج واعيا أهمية هذا التمثيل ليقنع ويؤثر في المخاطبين...

بقيت لنا الصورة الثالثة من الحجاج، وهي "الشاهد" الذي قال عنه العمري: "ومنها في الخطابة العربية تضمين الآيات القرآنية والأحاديث وأبيات الشعر والأمثال والحكم. وهي حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها ومن مصادقة الناس عليها وتواترها، وتدخُّل الخطيب ينحصر في اختيارها وتوجيهها إلى الغرض المرصودة للاستدلال عليه"[1].

فالشاهد حسب العمري هو تلك القوالب اللغوية الجاهزة والتي لها من القوة الإقناعية الكثير، وقد تواضع الناس على صدقها وأحقيتها بالاستدلال بها متى كان الوضع والمقام مناسبًا، مثل القرآن الكريم الذي هو من مسلمات المسلمين في الاحتجاج، إلى الأشعار والأمثال الشعبية

(1) المرجع السابق، ص 90.

التي تثبتها التجارب وتعطيها المشروعية في الوجود.

لقد نبّه الجاحظ إلى أهمية الشاهد في الخطابة حيث قال: "وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع آيٌ من القرآن، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار، والرقّة، وسلس الموقع. قال الهيثم بن عدي: قال عمران بن حِطّان: إن أول خطبةٍ خطبتها عند زيادٍ فأُعجب بها الناس، وشهد عمي وأبي. ثم إني مررت ببعض المجالس فسمعت رجلاً يقول لبعضهم: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن. وأكثر الخطباء لا يتمثّلون في خطبهم الطّوال بشيء من الشعر ولا يكرهونه في الرسائل، إلاّ أن تكون إلى الخلفاء"[(1)].

لقد كان العرب يضمنون خطبهم في مختلف المناسبات آيات من القرآن الكريم، لَمَ لا؟ وهو كلام الله المعجز، المنزّه عن الخطأ، وكانوا يرون في القرآن شاهدا يزيد من قوة الخطاب وحجته، كما كان للشعر أثره ودوره في بعض أنواع الخطب، مثل الخطب التي تكون بين يدي الحاكم، ومهما يكن من أمر، فإن الشاهد هو الحجة بامتياز، ومتى كان قويّا زادت قوة الخطاب وقدرته على كسب قناعات المتلقين. ولنا أن نعرض لخطبةٍ وردت لدى الجاحظ تعتمد على شواهدَ كلُّها من القرآن، وفيها:

- " وقدم مصعب بن الزبير العراق فصعد المنبر ثم قال: بسم الله الرحمان الرحيم: {طسم، تلك آيات الكتاب المبين، نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقومٍ يؤمنون، إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعًا يستضعف طائفةً منهم، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين}. وأشار بيده نحو الشام. {ونريد أن نمنّ على اللذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين}. وأشار نحو الحجاز. {ونمكّن لهم في الأرض ونُرِيَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون}. وأشار بيده نحو العراق"[(2)].

---

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 118.

(2) المصدر السابق، ص 299، 300.

نلاحظ من خلال هذه الخطبة كيف أن القرآن كان مرجعًا للعرب في كـــل خطبهم، لدرجة أنهم يؤلّفون خطبةً كاملةً قوامها مجموعة آيات، وذلك لزيادة قوة الخطاب حجاجيا، فالخطيب عند العرب، لا يكون مفوّهًـــا إلاّ إذا كـــان ملمّـــا بالشريعة ومرجعياتها ويحفظ الأشعار والقصص والأخبار، والأمثال والحكـــم، لأن بناء الخطبة مستمد من هذه المعطيات التي ذكرناها التي تحتل المكانـــة لدرجـــة أن العرب يحفّظُونها لأبنائهم حتى تستقيم ألسنتهم. قال العمري: "والـــنص القـــرآني سلطةٌ في خطب الشيعة خاصة، كما أن المعاني الدينية كثيرة الـــورود في خُطـــب الخوارج. ويميل خطباء بني أمية إلى التمثل بالشعر (الوظيفة الثانيـــة). واســـتغلال إمكانياته الإيقاعية والبيانية والمعجمية في خلق جوٍّ من الإغراب مهيأ للمســـتمع. وهذا ما نلاحظه بالرجوع إلى خطب الحجـــاج"[1]. فـــالعرب قـــد دخلـــوا في اختلافات فكرية وعقائدية كما رأينا، وتطور مع ذلك أسلوب المناظرة، وكـــان الشعر والقرآن مادتي هذه الخطب الجدلية، فقد كانت كل فرقةٍ تحتكم إلى القرآن وتفسّره على حسب منهجها وطريقتها في التفسير، فصارت الخطب الحجاجية لا تكتسب وجودها إلاّ من خلال القرآن والشعر ببيانهما وقوتهما في الإقناع.

في الأخير، وبعد هذا العرض لمفهوم الحجاج؛ تبين لنا أن هذا الحقـــل مـــن الدراسات الحديثة في تحليل الخطاب عند الغربيين، له جذوره الضاربة في البلاغتين اليونانية والعربية، وهو مجال احتفى به العرب كثيرًا وأسســـوا لـــه بمجهـــوداتهم البلاغية، وصنّفوا كتبًا للحجاج على وجه الخصـــوص، وكانـــت اللبنـــة الأولى للحجاج على يد البصري والجاحظ اقتضته ظروف فكرية وسياسية كانت سائدة آنذاك، كما أن الموروث اليوناني لما تُرجم إلى العربية، أثّر على المفكرين والفلاسفة العرب، خاصة ابن رشد، فصار بذلك الحجاج مجالا له وزنه وصـــيته في تـــراث العرب، وهو لا يختلف كثيرا عن الحجاج في البلاغة الجديدة التي وضع أساســـها "بيرلمان". أمّا ما يلاحظ على الدراسات الحجاجية العربية الحديثة فهـــو اتســـامها بالنقص مقارنةً بما يجري عند الغربيين. أمّا التراث فغني بهذه المادة الهامة على صعيد الخطاب.

---

(1) محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 94.

نتائج:

أولا: تتجاذب تحليل الخطاب عدة اتجاهات بحثية، حيث: "لم ينشأ تحليل الخطاب داخل علوم اللغة عن فعل مؤسس ولكنه أتى من التقاء تيارات منطلقاتها شديدة الاختلاف ظهرت في أوربا وأمريكا في الستينات، ولا يزال الالتقاء يتطور يومًا بعد يوم، وكلها تدور على دراسة الانجازات المتجاوزة للجملة شفويًا كان الانجاز أو مكتوبًا"[1]. فتحليل الخطاب تتجاذبه تيارات وروافد عدة لسانية وأسلوبية وتداولية وحجاجية، وكلها عناصر تشتغل ضمن الخطاب، ولكن درجة الاشتغال تختلف حسب نمط ونوع الخطاب المنجز، كما تتدخل فيه عدة عوامل تخص المرسل، والمرسل إليه والمكان والزمان واللغة؛ وكلها عناصر ينبغي على من يُقبل على تحليل الخطاب إدراكها. فمفهوم تحليل الخطاب يتضمن معرفة الخطاب أوّلاً ثم منهج تحليله ثانيا، وهو مجال متطور وخاضع كل يوم لمزيدٍ من الإضافات، عدا بعض العناصر التي تعتبر من المسلمات، كالعلمية في دراسة الخطاب بوصفه بنية متماسكة ومتناسقة.

ثانيا: يعود الفضل في تحليل الخطاب بدرجة كبيرة للبلاغيين اليونان القدامى الذين اعتنوا بالخطاب وقوانينه، وما شهدته ولا تزال تشهده أعمال محللي الخطاب في إعادة قراءة بلاغة اليونان والإفادة منها في مقاربة الخطاب لدليل على ذلك، خاصةً البعد الحجاجي، حيث تبيّن أن: "قراءة هذه الكتب المختلفة التي صدرت في السنوات العشر الأخيرة (فترة التسعينات) لا تغني عن الفائدة الكبيرة للكتب الأربعة التي سجلت تطور البلاغة القديمة، وهي (البلاغة) لأرسطو، و(في الخطابة) لشيشرون، و(البلاغة في هيرنيوس) لكاتب مجهول، و(المؤسسة البلاغية لكانتليان)، وإذا حكمنا على هذه الكتب من خلال تأثيرها الذي مارسته في التجديد المعاصر للحجاج، فإننا نجد أن عالميتها قد عبرت القرون من دون أن تضعف"[2]، ما يؤكّد أن تحليل الخطاب حاضرٌ في بلاغة اليونان، والحجاج المعاصر هو امتدادٌ لذلك الحجاج اليوناني القديم.

---

(1) باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ص 09.

(2) فيليب بروتون، جيل جوتييه، تاريخ نظريات الحجاج، ص 110.

ثالثا: هناك الكثير من الأفكار والآراء البلاغية العربية التي تدل على الدراسة العلمية للخطاب بنوعيه الشعر والنثر، خاصة أعمال الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني والسكاكي وغيرهم. حيث" تستقي كلمة خطاب (Discours) الداخلة في بنية هذه البلاغة، مشروعيتها من طبيعة تصور المادة التي تعالجها والسياق الذي تندرج فيه، لأن الخطاب البلاغي في ذاته يتجه إلى أن يكتسب طبيعة كلية شاملة، تتجاوز الصبغة الجزئية التي غلبت عليه... إنّه يتجه اليوم ليصبح طريقة في التناول التقني ومنهجًا في التحليل العلمي"[(1)]. فمفهوم الاتصال، ونظرية النظم، والأدوار النحوية للجمل، ومفاهيم التداول الكلامي؛ كلّها عناصر لها الدور الفاعل في الدراسة العلمية للخطاب كبنية ونسق موجّه للاستعمال.

رابعًا: أثبتت الدراسات الحديثة في العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبية وجود نقاطٍ مشتركة هامّة بين العلمين، "ولا شكّ في أن كثيرًا من مباحث هذه البلاغة قد اتّصل بشكل مباشر بالأسلوب وتركيبه في المعاني والبيان والبديع، حيث نجد في المعاني دراسةً وافية للمقام والحال مع ربطهما بالصياغة الأدبية، كما نجد في البيان توافقًا مع دروس علم اللغة في مباحث الدّلالة، وفي البديع تحرّكًا على مستويات مختلفة صوتية ودلالية لها أهميتها في الصياغة الأدبية"[(2)]. فالعدول الأسلوبي حاضرٌ في البلاغة عبر التقديم والتأخير، والحذف، والالتفات، وغيرها من المباحث؛ حيث ينشأ خطابٌ معبر له وقعه الخاص على السامع، كما درست البلاغة الكلام دراسة علمية كنسق ونظام متكامل. وبالرغم من الاختلافات في بعض النقاط بين علم الأسلوب والبلاغة، إلاّ أن النتائج التي تظهر في دراسة نقاط الاتفاق توحي بمدى المساهمة الكبيرة للبلاغة العربية على صعيد الدرس الأسلوبي الحديث.

خامسًا: للبلاغة العربية علاقات وثيقة بالتداولية الحديثة، فمختلف المواضع والجوانب التي عالجتها التداولية كان للبلاغة كلامٌ فيها، وتعتبر الأفعال الكلامية، والأوضاع المتعلقة بالمتكلم والسامع في التخاطب، والسياق وضروب الاستعمال

---

(1) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 07.

(2) محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص 05، 06.

اللغوي همزة وصلٍ بين العلمين، فلكل منهما آراءٌ مشتركة تعزز هـذا التقـارب وتدعمه، قال صحراوي: "وعليه فإننا نرى أن التداوليـة بمقولاتها ومفاهيمها الأساسية: كسياق الحال، وغرض المتكلم، وإفادة السامع، ومراعاة العلاقـة بـين أطراف الخطاب، ومفهوم الأفعال الكلامية، يمكن أن تكون أداة من أدوات قراءة التراث العربـي في شتى مناحيه ومفتاحًا من مفاتيح فهمه"[1].

سادسًا: يكتسي الحجاج دورًا هاما في الدراسات الخطابية الغربية، وقـد أثبتت دراسات العرب المحدثين وجود هذا المجال من الخطاب في تـراث العـرب القدامى سواءً من حيث التنظير له كجزء من البلاغة العربية أم متضمّنًا في الخطب والرسائل القديمة. قال الشهري: "تبلورت بعض الجهود في الوجهة الأخـرى، أي في الجانب الذي يتعلق بوضع ضوابط السياقات التي ينبغي أن يتحلى بها طرفـا الخطاب، ومنها ما يخص الضوابط التخاطبية في المناظرات الـتي دوّنها القـدماء لتقنينها، مثلما ورد في بعض أعمالهم التأليفية التي كانـت تهـتم أساسًـا بعقـد المناظرات وتفعيل الحجاج مثلاً، بوصفها الممارسات التي يتمثل فيهـا الخطـاب الرامي إلى تحقيق الإقناع أكثر من أي هدفٍ آخر"[2]. وهو ما يزيد من ثراء المادة البلاغية العربية على صعيد مقاربة الخطاب حجاجيًا، أي إنّه مطلـبٌ يحتـاج إلى مزيد من البحث والعمل؛ لا سيما وأن مفهوم الحجاج مجال قائمٌ بذاته في تـراث العرب وحضارتهم.

---

(1) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 226.

(2) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 449.

الفصل الثالث

نماذج عن دراسات سيميائية خطابية للنتاج البلاغي العربي القديم

المبحث الأول: تجليات السيمياء ضمن جهود عبد القاهر النقدية والبلاغية، كتاب "مملكة النص" نموذجا (النموذج الأول)

أولا) الوحدات المجازية والسيمياء.

ثانيا) السيمياء والتشبيه (التمثيل).

ثالثا) كتاب "أسرار البلاغة"، والتداخل السيميائي.

المبحث الثاني: سيمياء التأويل، الحريري بين العبارة والإشارة (النموذج الثاني)

أولا) التحليل السيميائي لمقدمة مقامات الحريري.

ثانيا) دراسة سيميائية للمقامتين العُمانية والبصرية.

المبحث الثالث: التوظيف البلاغي لتحليل الخطاب الشعري القديم، كتاب: في سيمياء الشعر القديم –دراسة نظرية وتطبيقية–نموذجًا (النموذج الثالث)

أولا) المستويان الحرفي والصوتي في الشعر.

ثانيا) المستوى المعجمي.

ثالثا) مستوى التركيب.

رابعا) المستوى التداولي (المقصدية).

استنادا لما حواه الفصلان السابقان من تقصٍ عن علاقة البلاغة العربية بالسيمياء وتحليل الخطاب؛ يأتي هذا الفصل لتسليط الضوء على نماذج تطبيقية أنجزها دارسون عرب في مقارباتهم لهذه العلاقة.

المبحث الأول: تجليات السيمياء ضمن جهود عبد القاهر النقدية والبلاغية، كتاب "مملكة النص" نموذجا (النموذج الأول)

لقد درس "محمد سالم سعد الله" بعض قضايا البلاغة العربية القديمة من منظور سيميائي وفق خطة مدروسة ومنظمة. وهي دراسة تعزز ما ذهبنا إليه في الفصلين السابقين، حيث إن النظام السيميائي لم يبارح كتابات عبد القاهر، خاصة في كتابه "أسرار البلاغة"، وبحس وبصيرة ناقدة وفاحصة، حيث استطاع "**محمد سالم**" أن يكشف عن التوظيف السيميائي في البلاغة عند الجرجاني، عبر ما يلي:

حضور السيمياء
في الخطاب البلاغي النقدي

أولا) الوحدات المجازية والسيمياء

أ) علاقة السيمياء بالمجاز والاستعارة (الفهم السيميائي للوحدات المجازية)

يعتبر المجاز كما سبق وبينا ذلك في الفصل الأول من بحثنا؛ محور الاتصال بين السيمياء والبلاغة. إنّه" ظاهرة خفية ترافق التطور اللغوي، وهي الأساس الذي يكون عليه معمار الأعمال الأدبية، وقد تجاوز مفهوم المجاز الحدود اللغوية، وإذا تأملنا الجانب اللغوي فيه، فسنجد أن اللغة المجازية تتطور بصورة مستمرة وبطريقة معقدة"[(1)]، لأنه يُأخذُ من اللغة في استعمالها العادي، ويتجاوز حدود المعاني الحقيقية ما يجعله ظاهرة تتطور وتتعقد في الاستعمال اللغوي، و"قد اشتغل الخطاب المجازي الجرجاني على ثلاثة أنظمة تواصلية، كان الغرض منها تصوير الفاعلية التي يشتغل بها هذا الخطاب، ويمكن تحديد تلك الأنظمة بالآتي:

1- النظام اللساني: الألفاظ/الدوال.

2- النظام الدلالي: المعنى/المدلولات.

3- النظام الماورائي: معنى المعنى/المدلولات الثانية"[(2)]. لقد عمد محمد سالم إلى تلخيص ظواهر المجاز المتعددة عند الجرجاني، والذي يشكله نظام

(1) حسن أحمد مهاوش العزاوي، "المجاز بين الحقيقتين العقلية واللغوية"، مجلة الفتح، ع: السابع والعشرون، جامعة ديالى بالعراق، 2006م، ص 05. (بتصرف)

(2) محمد سالم سعد الله، مملكة النص، التحليل السيميائي للنقد البلاغي -الجرجاني نموذجا-، عالم الكتب الحديث، ط1 الأردن، 2007م، ص 39.

لساني مكون من ألفاظ أو دوال لغوية، كما يحمل نظاما دلاليا يتم استقصاؤه من البنية اللسانية، ولاسيما النظام الماوراء سيميائي، لأن المعاني الأولية التي تتولد تستدعي على غرارها معان أخر، ليتم تحصيل المعاني النهائية المتوخاة من هذا الاستعمال المعقد، ما قام عبد القاهر بدراسته عبر مختلف تشكيلات النظم وأنسجته الدلالية والدلائلية.

يمر المجاز عبر مرحلتين ليتم تحصيل المعنى، و " يمكن الرجوع إلى المجاز، حيث تتشكل العلاقة بين الدال و المدلول في الشكل المجازي عند الجرجاني، و كما يأتي :

العبارة اللغوية (دال) ⟸ المعنى: المعنى الأول (المدلول) .

المعنى الأول (دال) ⟸ معنى المعنى: المعنى الثاني (المدلول) .

..."[1]؛ فالمدلولات تتولد عن بعضها ليتم فهم هذا النتاج لدى المتلقي، وأول ما يقع على السمع هو تلك العبارة اللغوية التي تمنح مدلولا أوليا مباشرا ليصير ذلك المعنى الأولي دالا لمدلول ثان؛ يتم تحصيل المعنى المقصود منه. ويمكن للمثال التالي أن يوضح ذلك:[2]

فتاة نؤوم الضحى ⟸ تنام حتى ترتفع الشمس في السماء ⟸ فتاة مترفة ناعمة .

دال سطحي (مدلول أولي، يتحول إلى دال باطني) (مدلول ثاني)

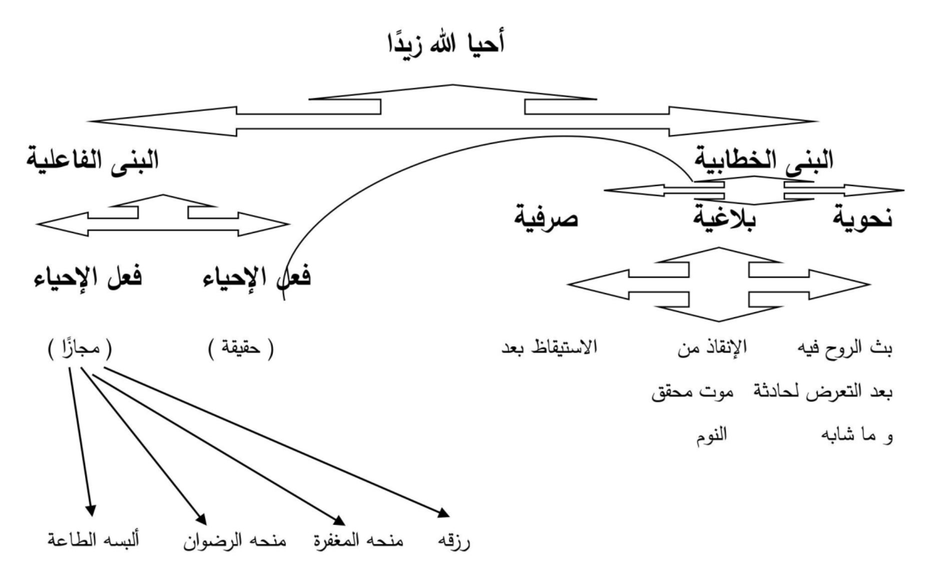
فالسامع يتفاعل مع المجاز، ويقوم بعملية الاستنتاج والانتقال من معنى أولي، يفضي به إلى معانٍ أخرى، حتى يستوفي المجاز حقه من التحليل والاستنباط. تحيط بالعناصر التي تشكل المجاز أبعاد تحليلية معقدة وعميقة وضّحها محمد سالم بالمخطط التالي:[3]

---

(1) المرجع نفسه، ص 42.

(2) المرجع نفسه، ص 42.

(3) المرجع السابق، ص 44.



مخطط توضيحي يبين نشاط اشتغال المجاز

يوضح هذا المخطط كيفية تلقي المجاز وتحليله من طرف السامع، حيث يتم وفق شبكة معقدة ومنظمة وعميقة على مستوى الذهن عبر التحليل المباشر للوحدات، ثم التحليل العميق لها، "وهكذا يتمثل الدال والمدلول في البنى الخطابية، والبنى الفاعلية على صعيد ما سماه الجرجاني (المعنى ومعنى المعنى)، أو على صعيد ما سماه تشومسكي (البنية السطحية والبنية العميقة)"(1). فالجرجاني – حسب محمد سالم سعد الله – كان واعيا للعملية الذهنية أثناء تلقي المجاز وفهمه مثلما كان تشومسكي يعي ذلك، حيث إنه على مستوى البنية العميقة يتم الوصول إلى مقصد التركيب المجازي(*) ومعناه. وقد استنتج محمد سالم من نصوص المجاز عند عبد القاهر ما يلي:(2)

(1) المرجع نفسه، ص 45.

(*) وقد قام عبد القاهر بوضع مجموعة من المفاهيم تؤطر لحدود المجاز، قال: "ومتى وصفنا بالمجاز الجملة من الكلام، كان مجازا من طريق المعقول دون اللغة، وذلك أن الأوصاف اللاحقة للجمل من حيث هي جمل، لا يصح ردّها إلى اللغة ولا وجه لنسبتها إلى واضعها، لأن التأليف هو إسناد فعل إلى اسم، أو اسم إلى اسم، وذلك شيء يحصل بقصد المتكلم". كما قال: "وإذا كان الأمر كذلك علمت أن لا سبيل إلى الحكم بأن ههنا مجازا أو حقيقة من طريق العقل، إلاّ في جملة من الكلام". ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح: محمود محمد شاكر، ص 408. 415.

(2) محمد سالم سعد الله، مملكة النص، ص 48.

1- المجاز لا يأتي إلا في الجملة.

2-المجاز لا يتأتى إلا من خلال الإسناد.

3-المجاز ودلالته تكمن في التركيب.

4-المجاز طريقه الرئيس هو العقل.

كما تضمنت نظرية النظم حسب محمد سالم أربعة مستويات: "(التعليق، والتأليف، والإسناد، والتركيب)، والمجاز كذلك يندرج في الجملة من الكلام، وفي إسناد بعضه لبعض، وفي التأليف القائم على عنصر التخييل، كما أراده النص الجرجاني"[1]، ثم يخلص إلى أن عبد القاهر يعتبر بحق **مؤسسا للسيميائية**، قال: "وكشوفات الجرجاني السابقة حول الحديث عن السلسلة الكلامية والنظام النصي من خلال قيم: التركيب والتأليف والإسناد والتعليق، جعلته **يحمل الطبيعة التأسيسية لمباحث السيميائية**، والمرتكزات التمهيدية الأولى لقيامها، وليس هذا من قبيل **الغلو** و**التطرف في القول**، لكنه الحقيقة العلمية التي انبثقت من النص الجرجاني في هذا الميدان"[2]. فالمجاز هو وحدة بلاغية قديمة عرفها الدارسون العرب القدامى، وافتتنوا بها، كما أن السيميائيين المحدثين قد أعطوها حقها من التفسير والإحاطة؛ ما يظهر مدى التقارب بين النشاط السيميائي الحديث والنشاط البلاغي القديم لدى الجرجاني ذي الطبيعة السيميائية. الأمر الذي يعزز ما ذهبنا إليه في الفصل الأول لما عرضنا لتجلي الفكر السيميائي في التراث العربي، عبر التفسير البلاغي المتميز مقارنة بالسيميائية الحديثة.

ب) التناص السيميائي للوحدات المجازية

حظي مفهوم التناص (Intertextualité) باهتمام كبير من طرف الدارسين المحدثين الغرب والعرب على السواء، فهو: "عبارة عن قراءة لنصوص سابقة وتأويل لهذه النصوص، وإعادة لكتابتها ومحاورتها بطرائق عدّة على أن يتضمن النص الجديد زيادة في المعنى عن النصوص السابقة التي تشكل نواة له، كما أننا

---

(1) المرجع نفسه، ص 48.

(2) المرجع نفسه، ص 48، 49.

نلحظ أن للتناص حدًّا أعلى هو التفاعلية... وله حد أدنى وهو السرقات عند العرب أو (Plagiarism) الذي يترجم إلى التلاص"[1]. فالتناص حسبما نفهم هو اشتغال نصوص سابقة ضمن نص حالي، يتفاعل مع كتابات وأفكار وآراء سبقته، ووردت فيه إن بقصد أو بغير قصد.

كما استنتج محمد سالم مفهوما عاما للتناص عبر فنون البيان العربي؛ "ومن بين تلك المفاهيم يمكن استخلاص مفهوم عام للتناص يتعلق بماهيته محددا وظيفته الدلالية، خارجا عن إطار النص بوصفه إبداعا، مقتربا من التداخل الحاصل بين المصطلحات الأخرى في ميدان التنظير، ونعني بذلك التداخل الكائن بين مصطلحات البيان في البلاغة العربية وفنونها بشكل عام التي اقتنصها الجرجاني بشكل خاص"[2]. فالناظر في كتاب أسرار البلاغة يرى بعين "محمد سالم سعد الله" أن عبد القاهر قد بيّن كيفية تداخل فنون البيان وتشاركها للمساحات الدلالية، لأنّ" هناك قوى فاعلة تعمل داخل نسيج الفنون البيانية لتجعلها متداخلة فيما بينها، تلك القوى تحكمها أنظمة العلاقات التي تشكل كل فن:

- فالاستعارة = المستعار له + المستعار منه + المستعار.
- التشبيه = المشبه + المشبه به + وجه الشبه + أداة الشبه.
- المجاز= المعنى الظاهر (المعنى) + المعنى الباطن (معنى المعنى)"[3].

فيمكن لفنون البيان العربي أن تتشابه في مجموعة من الخصائص تجعلها تتداخل في مساحات محددة، كما يمكن أن تكون هناك خصائص أخرى متخالفة، وهذا ما أدركه عبد القاهر الجرجاني وأعطاه أهميته في كتاب أسرار البلاغة، ما جعل محمد سالم يستنتج عبر المخطط التالي التناص الحاصل بين فنون البيان:[4]

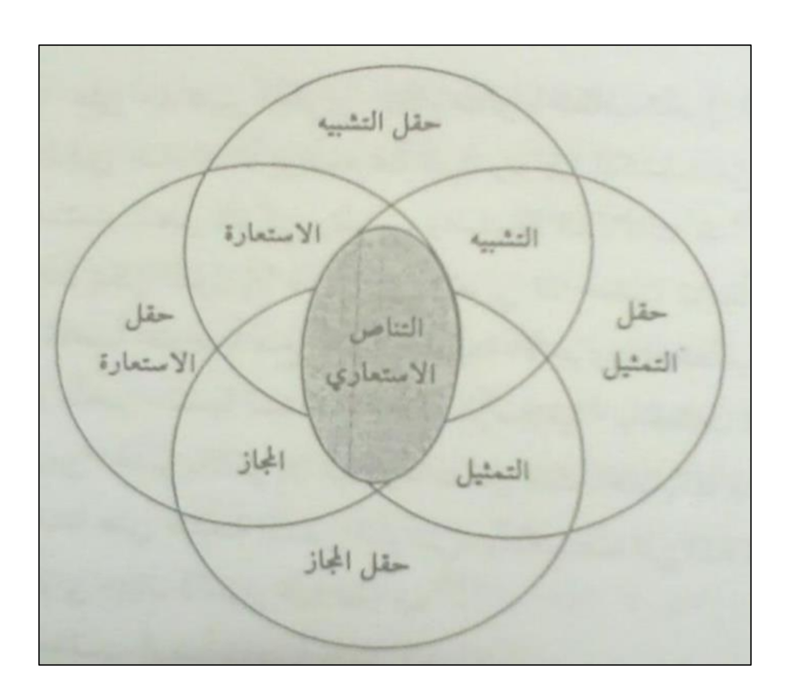
---

(1) إبراهيم عبد الفتاح رمضان، "التناص في الثقافة العربية المعاصرة، دراسة تأصيلية في ببليوجرافيا المصطلح"، مجلة الحجاز العالمية، ع: 05، نوفمبر 2013م، ص 156.

(2) محمد سالم سعد الله، مملكة النص، ص 51.

(3) المرجع السابق، ص 52.

(4) المرجع نفسه، ص 53.



مخطط يوضح التناص الحاصل بين فنون البيان

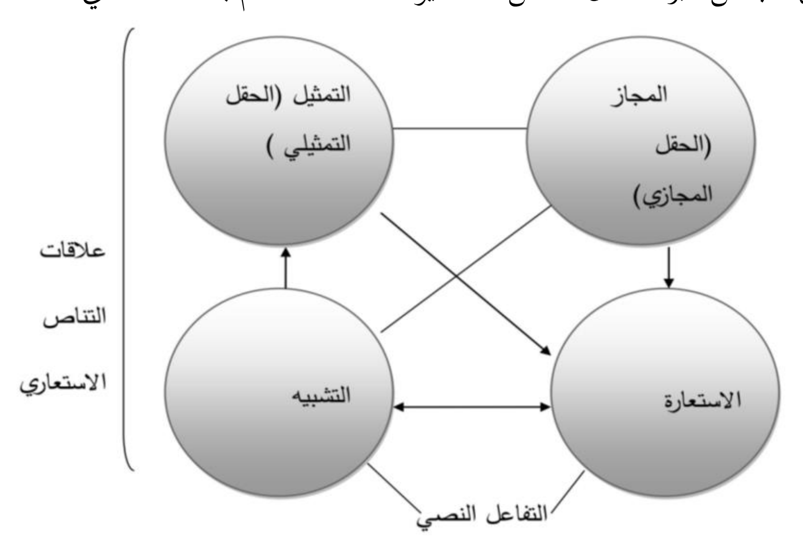
فلكل فن بياني مجاله الخاص به ودائرته، وهناك حيز مشترك يتشارك فيه كل من المجاز والاستعارة والتمثيل والتشبيه ندعوه التناص الاستعاري؛ فبهذا يظهر أن أحد العناصر السيميائية، والذي هو التناص موجود بين فنون البيان العربي(*)، ما يعزز علاقة الخطاب البلاغي العربي القديم بالسيمياء الحديثة، لأنّ التداخل بين فنون البيان هو نشاط دلالي سيميائي، فقد" حققت... تناصا داخليا فيما بينها داخل الخطاب البياني نفسه: مباحث الاستعارة مع مباحث التشبيه، والتشبيه مع مباحث التمثيل، والمجاز مع الاستعارة، فهذا التبادل الحواري بين هذه الفنون جعل التصرف في حقل الدلالات يشكل فضاءً ضمنيا لتبادل المدلولات المختلفة بينها"[1]. ولهذا نجد أن النظام

(*) يؤكد عبد القاهر هذا التداخل الحاصل بين فنون البيان فيقول: "وأوّل ذلك وأولاه، وأحقه بأن يستوفيه النظر ويتقصاه، القول على التشبيه والتمثيل والاستعارة فإن هذه أصول كبيرة، كأن جل محاسن الكلام، إن لم نقل كلها متفرعة عنها وراجعة إليها، وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها، وأقطار تحيط بها من جهاتها". ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 27.

(1) محمد سالم سعد الله، مملكة النص، ص 54.

السيميائي ومفاهيمه حاضرة ضمن الخطاب البلاغي العربـــي، ويمكن للسيمياء أن تقدم تفسيرا لهذا التناص الحاصل بين الصور البيانية؛ الاستعارة، والتشبيه، والتمثيل، والمجاز.

كما نجد عبد القاهر يتحدث عن تشارك المدلولات وتداخلها في فنـــون البيـــان قال: "واعلم أن الذي يوجبه ظاهر الأمر، وما يسبق إلى الفكر أن يُبتدأ بجملة من القول في الحقيقة والمجاز، ويتبع ذلك القول في التشبيه والتمثيل ثم يُنسّـــقُ ذكـــر الاســـتعارة عليهما، ويؤتى بما في أثرهما. وذلك أن المجاز أعم من الاستعارة، والواجب في قضـــايا المراتب أن يبدأ بالعام قبل الخاص، والتشبيه كالأصل في الاستعارة، وهي شبيهٌ بالفرع له..."[1]. يقول محمد سالما معلقا: "وانطلاقا من هذا النص، ومتابعـــة للـــدوال الـــتي يطرحها، يجد البحث أن النص الاستعاري أصبح نصّا مكوّنًا من نصوص أخرى، يحتل فيه النص التشبيهي الأولوية والمساحة الكبرى..."[2]. فعبد القاهر لا يذكر أي فن بياني إلاّ وهو يتحدث عن الذي يجاوره ويشاركه في الخصائص، فالمجاز أعمّ من الاستعارة، التي هي جزء من المجاز، والتشبيه أصل كل بنية استعارية، أمّا النص التشبيهي فهو الذي يأخذ الحيز الأكبر من التناص الاستعاري لأنه كالأصل. حيث تتركب الـــدوال مـــن بعضها البعض عبر اشتغال التناص... ما يوضّحه محمد سالم بالمخطط التالي:[3]



---

(1) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 29.
(2) محمد سالم سعد الله، مملكة النص، ص 54.
(3) المرجع السابق، ص 60.

حيث" يتضح من هذا المخطط أن علاقات التناص الاستعاري، ثلاث هي:

1- العلاقة الأولى: التفاعل النصي ←── يحدث بين الاستعارة والتشبيه، وهو جوهر (التناص الاستعاري).

2- العلاقة الثانية: العام والخاص ←── تحدث هذه العلاقة ما بين العامين (المجاز/التشبيه) والخاصين (الاستعارة والتمثيل).

3- العلاقة الثالثة: الاستعاضة ←── تحدث بين (المجاز والتشبيه) من جهة، وبين (التمثيل والاستعارة) من جهة أخرى"[1].

فالتناص ركيزة أساسية بين الاستعارة والتشبيه، لأن أصل الاستعارة تشبيه، وبالتالي فإن هناك تداخلا في الصفات والدلائل، ثم هناك علاقة عموم بين المجاز والتشبيه لامتلاكهما صفة الأصل، أما ما يكون بين الاستعارة والتمثيل فهو علاقة الخصوص لأنهما فرع عن أصل، كما تبقى علاقة الاستعاضة بين المجاز والتشبيه لأنهما يحلان محل بعضهما بدلا؛ و"يبدو واضحا -من خلال المخطط- أن هناك انقطاعا أو فجوة بين علاقة المجاز والتمثيل وذلك لبعد الحقل الدلالي لكل منهما عن الآخر، فلا يمكن أن تشتغل آليات الحقل المجازي ومدلولاته مع آليات الحقل التمثيلي ومدلولاته، فالمجاز يعتمد على المعنى القريب والمعنى البعيد، فضلا عن اعتماده على البنية السطحية والبنية العميقة، في حين يشتغل التمثيل على الصورة الحاصلة والمثل الكائن من مجموعة مشبهات ومجموعة مشبهات به"[*]؛ فالتناص الاستعاري لا يشتغل بين المجاز والتمثيل نظرا للدلائل التي يحملها كل عنصر، إذ تتولد خصائص لدى كل صنف لا يتشارك خصائص الصنف المجاور[**].

---

(1) المرجع نفسه، ص 61.

(*) يشرح محمد سالم الاستعاضة الموجودة بين التشبيه والتمثيل فيقول: "وهذا التداخل كائن عن طريق (الاستعاضة)، فبما أن التشبيه والتمثيل وجهان لشيء واحد كـ (العملة الواحدة) بحيث يغدو التشبيه في كثير من مباحثه تمثيلا إذا استخدمت معه آليات التأويل"؛ فالتشبيه والتمثيل متبادلان ويتشاركان الصفات والدلائل بحيث يغدو تشابههما كتناص استعاري واضح وبيّن. ينظر: محمد سالم سعد الله، مملكة النص، ص 56.

(**)وقد قال عبد القاهر في علاقة التشبيه بالتمثيل: "وقد عرفت الفرق بين الضربين فاعلم أن التشبيه عام، والتمثيل أخص منه، فكل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلاً". فالأصل هو التشبيه والفرع منه هو التمثيل، وبالتالي فالتناص حاصلٌ ومؤكّد لأنّ الصفات

يعد التناص من المفاهيم البارزة في الدراسات السيميائية الحديثة، وهو آلية فهمها عبد القاهر ووظفها في تفسير التداخل بين فنون البيان. ما يهيئ لعلاقة أكيدة بين البلاغة والسيميائية عبر التحليل الذي قدمه "محمد سالم سعد الله"، الأمر الذي يعطي بعدا سيميائيا للتداخل الحاصل بين الوحدات المجازية في البلاغة العربية. ويدعم فصلنا الأول حول ضرورة ربط البلاغة القديمة بمفاهيم السيمياء الحديثة عند العرب.

ثانيا) السيمياء والتشبيه (التمثيل)

أ) التأويل البلاغي السيميائي للتشبيه

لقد ارتبط التأويل بالسيمياء، كما ارتبط كذلك بالتشبيه والتأويل عند عبد القاهر، فهو" عملية التحول العلامي إلى (اللب)، عن طريق تفسير بعض الشفرات الموجودة على المستوى الظاهري للنص، بمعنى الانتقال من الصورة إلى المعنى... ومن الكلمات إلى الدلالة الباطنية للنص"[1]، فلقد" خلّف لنا التاريخ تصورين مختلفين للتأويل. فتأويل نص ما، حسب التصور الأول، يعني الكشف عن الدلالة التي أرادها المؤلف، أو على الأقل الكشف عن طابعها الموضوعي، وهو ما يعني إجلاء جوهرها المستقل عن فعل التأويل. أما التصور الثاني فيرى، على العكس من ذلك أن النصوص تحتمل كل تأويل"[2]. فالنص يحتاج إلى الاستنطاق وإلى توليد المعاني والدلالات عن طريق الشفرات التي هي الدوال الظاهرية التي لا تكشف عن

والسمات متواجدة في الفرع وأصله أي التمثيل والتشبيه، وقد ضرب عبد القاهر مثالا حول التمثيل نأتي به لمزيد من الإيضاح حول هذا الفن البياني، قال: "وما أشبهه مما الشبه فيه من قبيل ما يجري فيه التأول، ولكن إن قلت في قول ابن المعتز: فالنار تأكل نفسها ~~ إن لم تجد ما تأكله. إنه تمثيل، فمثل الذي قلتُ ينبغي أن يقال، لأن تشبه الحسود إذا صُبر عليه وسُكِت عنه وتُرك غيظه يتردد فيه بالنار التي لا تُمَدُّ بالحطب حتى يأكل بعضها بَعضا، مما حاجته إلى التأول ظاهرة بينة". ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 95، 97.

(1) محمد سالم سعد الله، مملكة النص، ص 78. (بتصرف)

(2) أمبيرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، تر: سعيد بنكراد، ص 115. (بتصرف)

معناها إلا بعد الكشف والتعمق في بنياتها وتفسيرها... فتمر عملية التأويل عبر مراحل محددة، حيث" يرتبط الفهم التأويلي بالمستوى الأولي/الظاهري للنص من خلال محاولة استيعاب شبكة منظومة الدوال، لغرض الانتقال إلى المحاولة الثانية من النشاط التأويلي ألا وهي (التفسير)"[1]. فالذي يقوم بعملية التأويل يتتبع البنية السطحية للنص قصد إدراك المدلول، ثم يقوم في مرحلة تالية بنشاط التأويل وتفسير البنية السطحية التي تحمل دوال مخفية ومضمنة في ثنايا العمق النصي.

وفي ضوء ارتباط التشبيه بالتأويل انقسم التشبيه عند الجرجاني إلى قسمين: 1-قسم لا يحتاج إلى تأويل. 2- قسم يحتاج إلى تأويل[2]، حيث يأتي القسم الأول ضمن عدّة أطر:

- **"1- جهة الصورة والشكل: (الشيء إذا استدار في وجه وبالحلقة في وجه آخر).**
- **2- جهة اللون: (الخدود بالورد، الشعر بالليل، الوجه بالنهار)**
- **3- جهة الصورة واللون: (الثريا بعنقود الكرم المنوّر...)**
- **4- جهة الهيئة: (القامة بالرمح، القدّ اللطيف بالغصن)"[3].**

يقول عبد القاهر شارحا: "اعلم أن الشيئين إذا شُبّه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين: أحدهما: أن يكون من جهة أمر بيّن لا يحتاج إلى تأول، والآخر: أن يكون الشبه محصلا بضرب من التأول"[4]. ثم قال عن التشبيه الحاصل بضرب من التأول: "ومثال الثاني: وهو الشبه الذي يحصل بضرب من التأول، كقولك: هذه حجّةٌ كالشمس في الظهور، وقد شبِّهت الحجة بالشمس من جهة ظهورها، كما شبهت فيما مضى الشيء بالشيء من جهة ما أردت من لون أو صورة أو غيرهما. إلاّ أنك تعلم أن هذا التشبيه لا يتم لك إلاّ بتأول"[5]. فقارئ التشبيه التأويلي يتفاعل مع بنيته ويحلل طرفيه حتى يصل إلى المعنى العميق ويستجليه بعمليات عقلية فكرية،

(1) محمد سالم سعد الله، مملكة النص، ص 80.
(2) ينظر: المرجع السابق، ص 82.
(3) المرجع نفسه، ص 82.
(4) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 90.
(5) المصدر نفسه، ص 92.

وقد استقى محمد سالم مراتب التشبيه الذي يحتاج إلى تأول وهي:[1]

- **المرتبة الأولى: التأويل القريب (المتداخل).**
- **المرتبة الثانية: التأويل المتوسط (البيني).**
- **المرتبة الثالثة: التأويل البعيد (الاستنباطي).**

فالتشبيه تركيبة يتراوح فيها التأويل وفق مستويات عدة من أسفل إلى أعلى، أمّا النشاط السيميائي فيشتغل ضمن هذه البنية، لأن المدلول يتوالد، والصفات تترابط حتى يتم تشكيل معنى نهائي مقبول في عرف السامع، وهذا المفهوم (التأويل) هو أحد العناصر السيميائية الحديثة، وهو أحد الروابط التي تصل البلاغة العربية بالسيمياء الحديثة، لاسيما التقارب بين رأيي الجرجاني[*] وإيكو؛ كدليل يعزز البعد التأويلي الرابط بين البلاغة والسيمياء.. أي إن المتأمل في التمثيل والذي أصله تشبيه لما يريد تفسيره وفهمه فينبغي أن يقوم بعملية مسح له من خلال ربطه بالسياق المقالي الذي ورد فيه ويدخل في حركة التأويل الذي يزيد وينشط كلما زادت التراكيب واتسع الخطاب أو زادت الجمل من الكلام، ما يساعد على إظهار مدلولاته المفضية إلى المعنى العام.

لقد أجمل "محمد سالم" مساعي "الجرجاني" في سيمياء التأويل التشبيهي عبر ما يلي:[2]

---

(1) محمد سالم سعد الله، مملكة النص، ص 83.

(*) يزيد التأويل بشدة في التمثيل لغرض فهمه وتفسيره، و"على الجملة فينبغي أن تعلم أن المثل الحقيقي، والتشبيه الذي هو الأولى بأن يسمى تمثيلا لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح، ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر حتى إن التشبيه كلما كان أوغل في كونه عقليا محضا، كانت الحاجة إلى الجملة أكثر". كما أن التأويل المضاعف الذي يتسم به التمثيل يجعله عمدة في صناعة الكلام عند عبد القاهر الذي قال عنه: "واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه، ونُقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أُبّهةً، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا، وقسر الطباع على أن تعطيها محبّة وشغفاً". ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 108. 115.

(2) محمد سالم سعد الله، مملكة النص، ص 91، 92.

- الحديث عن فلسفة التأويل من خلال التدرج بالقول إلى (أقسام التأويل، مراتبه، وآليات التأويل).

أ) في النص (ويتجلى ذلك من خلال الكشف عن تركيبة النص وشرح العلائق التي تغلف نسيج النص، والبحث عن وحدة الخطاب الموضوعية).

ب) في المتلقي (ويظهر ذلك من خلال الإدراك)، فهم المتلقي للنص.

- الاتصال (تحقيق فاعلية الحدث الكلامي).
- الحديث عن وظائف التأويل: (وظائف تكمن في ما وراء الدال، ووظائف تكمن في مجموعة المدلولات، ووظائف تحديد مستويات المعنى، ووظائف تحديد مستويات الكلام).

فقد كان عبد القاهر واعيا بسيمياء التأويل التشبيهي بما يفضيه التشبيه والتمثيل من مدلولات ونشاط تفاعلي عميق، فتحدث عن أقسام التأويل بدقة مع كيفية حدوث ذلك. ثم عرّج على دراسة التأثير الناتج عن هذا التأويل، لأن السامع يبقى شاخص البصر ومعملا لقدراته التفسيرية لما يقع بصره أو سمعه على بنية تشبيهية، حيث راح عبد القاهر يستقصي بنية النصوص من حيث التشابك والتماسك والشمول. موليا الأهمية الكبرى لفاعلية الحدث الكلامي التشبيهي.

ب) الوحدة الدلالية للتشبيه والتمثيل

يعرف "أحمد مختار عمر" "الوحدة الدلالية" (Sémème) بقوله: "تختلف وجهات النظر اللغوية حول تعريف الوحدة الدلالية. فمنهم من قال إنها: الوحدة الصغرى للمعنى. ومنهم من قال إنها: تجمع من الملامح التمييزية، ومنهم من قال إنها: أي امتداد من الكلام يعكس تباينا دلاليا"[1]. فقد اختلف في التعريف بالوحدة الدلالية على اختلاف الباحثين ومجالات عملهم، لكنها لن تبتعد عن كونها وحدات دنيا للمعنى عبر السمات التمييزية.

---

(1) أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، ط 05، القاهرة، 1998م، ص 31.

لقد توصل عبد القاهر إلى طبيعة الوحدة الدلالية في التشبيه، حيث قال: "ولن يبعد المدى في ذلك، ولا يدقّ المرمى إلاّ بما تقدم من تقرير الشبه بين الأشياء المختلفة، فإن الأشياء المشتركة في الجنس، المتفقة في النوع، تستغني بثبوت الشبه بينها، وقيام الاتفاق فيها عن تعمل وتأمل في إيجاب ذلك لها وتثبيته فيها، وإنما الصنعة والحذق والنظر الذي يلطف ويدق في أن تجمع أعناق المتنافرات والمتباينات في ربقةٍ..."[(1)]، فالبارع في استخدام التشبيه هو الذي يستطيع أن يجد التشبيه بين أشياء مترابطة تبدو في ظاهرها غير متصلة، ولكن التأمل والتفكر يثبت وجود وحدة دلالية بين المتنافرات والمتباينات. ولقد استخلص محمد سالم خصائص التشبيه عند عبد القاهر فيما يلي:[(2)]

1- **هناك صفة جامعة بين المشبه والمشبه به.**
2- **كلما كان طرفا التشبيه متباعدين، كان التشبيه أكثر بهاءً ولطفًا وقبولاً وتأثيرًا في المتلقي.**
3- **لا يعطي التشبيه نفسه للوهلة الأولى، بل لابد من استحضار الفكر والتأمل في طرفي التشبيه.**
4- **كلما كثر التباعد بين الدوال في (الجنس)، كان ذلك أوعى إلى استحضار مدلولات متعددة ومعانٍ إضافية.**

فالنشاط السيميائي موجود بقوة في الظاهرة اللغوية التشبيهية عن طريق زيادة النشاط الدلالي الذي يوفره التباعد في الدوال (المشبه والمشبه بـه)؛ فلابد من استخدام العقل في التأويل الدلالي للوصول إلى الوحدة الدلالية التي يتضمنها الفعل التشبيهي؛ كما أنّ أصل التشبيه في التركيب هو الوحدة والتماسك، لأن" العلاقات تكون أكثر كثافة، أشد تنوعا وتشعبا، وتكون منبنية على أساس تشابك العلاقات على صعيد الدوال، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، لأن أي فصل قد يخل بالمغزى ويذهب بالغرض المرجو من الصورة الحاصلة من ذاك التركيب"[(3)].

(1) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 148.
(2) محمد سالم سعد الله، مملكة النص، ص 95، 96.
(3) المرجع نفسه، ص 98. (بتصرف)

فالذي يريد فهم الصورة التشبيهية لابد أن يعي مفهوم كلية تحكم هذا التركيب، وتؤسس لكثافة دلالية تزيد من بهاء التشبيه وقدرته على حمل الشحنات الدلالية، التي تأتي من الجمع بين السمات المشتركة.

وجد مفهوم الوحدة الدلالية للتشبيه عند عبد القاهر ما يوازيه في الدراسات الحديثة في الدلالة وعلوم اللسان، ومن" أبرز هؤلاء اللغويين جان فرباس (Jan firbas). يتخذ فرباس المنظور الوظيفي للجملة أساسا للتحليل ويحدده بوضوح على النحو التالي: المقصود بالمنظور الوظيفي للجملة هو؛ ترتيب عناصر الجملة بالنظر إليها في ضوء السياق الفعلي. ويقدم مفهوما وظيفيا جديدا يسميه دينامية الاتصال (Communicative Dynamism)"[1]، ففي التشبيه يكون هناك اتصال وثيق بين المشبه والمشبه عبر السمات والدوال التي يتركب منها هذا النص. وحسب عبد القاهر فإن التمثيل وحدة دلالية خفية لا يتأتى تحصيل معناها إلاّ بالتأمل والإجهاد، "فإنك تعلم على كل حال أن هذا الضرب من المعاني، كالجوهر في الصّدفِ لا يبرز لك إلاّ أن تشقه عنه، وكالعزيز المحتجب لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه. ثم ما كل فكر يهتدي إلى وجه الكشف عما اشتمل عليه، ولا كلّ خاطر يؤذن له في الوصول إليه، فما كل أحد يفلح في شقّ الصدفة ويكون في ذلك من أهل المعرفة..."[2]. فالدوال[*] التي يتركب منها التمثيل تحمل طابع

---

(1) يحي أحمد، "الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة"، مجلة عالم الفكر، مج: 20، ع: الثالث، الكويت، 1989م ص 77.

(2) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 141.

(*) وحسب محمد سالم فإن عبد القاهر كان يرى أن العلاقة بين الدال والمدلول معللة وغير اعتباطية مستشهدا لذلك بعدة نصوص لعبد القاهر الذي قال في إحداها: "فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا أو يستجيد نثرا، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول: حلو رشيق، وحسن أنيق، وعذب سائغٌ، وخلوبٌ رائع، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف، وإلى ظاهر الوضع اللغوي، بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده، وفضل يقتدحه العقل من زناده". ينظر: المصدر نفسه، ص 05، 06. وعقّب محمد سالم تعليقا على هذا النص فقال: "في هذا النص إشارات واضحة إلى علاقة الترابط بين الدال والمدلول، وإن علاقتهما ضرورية لا اعتباطية، إذ لو كانت لم يستسغ المرء مدلول اللفظ لاعتباط علاقته مع داله". ينظر: محمد سالم سعد الله، مملكة النص، ص 103.

الخفاء، لأنّه تشبيه خفي لا يُظهر الأداة، وإنما يستشف بالتأويل والتحليل العميق.

يقول محمد سالم ملخصا ما تقدم: "فالوحدة التركيبية الدلالية شغلت حيزا مهما في اقتناء المفاهيم والمدلولات من خلال صعيد دوالها، وإشاراتها الإيحائية، فضلا عن تلك العلاقات التي أقامتها مع بقية العناصر النصية، وقد ظهر ذلك بشكل فاعل في ميدان التشبيه والتمثيل، حيث كانت الوحدة التركيبية معيارا لتحليل مستويات الكلام والتفرقة بين التشبيه والتمثيل، وقد تابع النص الجرجاني بدقته تلك المسألة، وحدّد فضاء اشتغالها..."[(1)]. لذلك تغدو أبحاث عبد القاهر في التشبيه والتمثيل متقدمة، حيث كان الاستقصاء سيميائيا وبلاغيا في اللحظة ذاتها، من خلال تفسير نظام اشتغال المدلولات التي تجمعها سمات مشتركة تجعلها موحدة من حيث المميزات العامة التي يقتضيها الجمع في الإيتاء بالتشبيه أو التمثيل بأسلوب فني مميز يحمل الكثير من الشحنات الدلالية.

وبهذا تتعزز بعض ملامح الفصل الأول من بحثنا، بدراسة علاقة البلاغة العربية بالسيمياء، من خلال طرح "محمد سالم"، من أن هناك وحدة دلالية سيميائية فهمها عبد القاهر مثلما فهمها السيميائيون المحدثون حول التشبيه والتمثيل، وحول العلاقة الرابطة بين الدال والمدلول والتأويل.

ثالثا) كتاب "أسرار البلاغة"، والتداخل السيميائي

لقد قام "محمد سالم" بالتعمق في عمل "عبد القاهر" واستنتج بأنّه مؤلف بلاغي متداخل سيميائيا وفكريا حيث يقول عبد القاهر: "يجب أن نتكلم أوّلاً على المعاني، وهي تنقسم أوّلاً قسمين: عقلي وتخييلي، وكل واحد منهما يتنوع: أولها عقلي صحيح مجراه في الشعر والكناية والبيان والخطابة، مجرى الأدلة التي تستنبطها العقلاء..."[(2)]، ثم قال عن المعنى التخييلي: "وأما القسم التخييلي فهو الذي لا يمكن أن يقال إنّه صدقٌ، وإن ما أثبته ثابتٌ وما نفاه منفيٌ. وهو مفتن المذاهب، كثير المسالك، لا يكاد يُحصرُ إلاّ تقريبًا، ولا يحاط به تقسيما

---

(1) المرجع السابق، ص 107.

(2) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 263.

وتبويبا"[1]. فعبد القاهر لا يذكر العناصر موضع الدراسة إلاّ وهي متداخلة ومتبادلة للأفكار، وكل عنصر ومبحث يذكر بجانب أو ضمن مبحث آخر، فهو يتحدث عن التخييل والمعاني العقلية وتجلياتها وفق أسلوب الاشتغال المفاهيمي. قال "محمد سالم" عن تقسيم المعاني من طرف عبد القاهر: "إلى قسمين (عقلي وتخييلي) إشارة إلى أن التداخل بين النصوص يتم وفق مستويين: الأول المستوى السطحي، الثاني المستوى العميق"[2]. فالعناصر البلاغية تشتغل جملة حتى وإن بدت منفصلة في الدراسة، وكان عبد القاهر مدركا لتماسك الدرس البلاغي وتداخله السيميائي، ولذلك كان دائما يدرس مختلف العلائق واشتغالات عناصر البلاغة ضمن بعضها البعض، وهو دليل على وجود تداخل للدوال في إطار التناول السيميائي للدرس البياني.

نلاحظ إذن أن الطرح السيميائي لا يغادر ذهن عبد القاهر في معالجاته البلاغية ما يؤدي بنا إلى أن نتبناها في معالجة مباحث كتاب أسرار البلاغة، فنتحدث بذلك عن علاقة استلزام بين البلاغة والسيمياء. يقول محمد سالم: "يظهر بشكل فعال في النص الجرجاني وهو يتحدث عن التخييل في باب الأخذ والسرقة مبدأ (الصنعة الشعرية)، وهو ما يلحظه البحث في أكثر من موضع، وقد جعل الجرجاني ذلك مرتبطا مع ما سماه بـ (الاحتجاج، القياس، التلطف، المرانة، الحذف)، فكل تلك الدوال تشير إلى مدلولات الربط بين عملية الصنعة الشعرية وبين عملية التخييل"[3]. وهذا في حد ذاته تداخل سيميائي للتخييل ضمن عناصر رواية الشعر وقرضه، فللأهمية التي يكتسيها التخييل يصير بذلك حاضرا في كل دراسة لبنيات الشعر ونقده؛ وحسب محمد سالم فإن كتاب "أسرار البلاغة" به تناص وتداخل في الأبنية السيميائية، و"في هذا الميدان يمكن عدّ كتاب (كتاب أسرار البلاغة) نصًّا كليا واحدًا، مكونا من مجموع بنى، مشكلة لأنساقه، مولّدةً لدلالاته، وكشف التناص بين تلك البنى لا يتأتى إلاّ من خلال التنقيب في مسار

---

(1) المصدر نفسه، ص 267.

(2) محمد سالم سعد الله، مملكة النص، ص 137.

(3) المرجع نفسه، ص 138.

حركة الدوال الفصول المكونة لهذا الكتاب، وإذا أريد الوصول إلى التناص الداخلي بين هذه البنى لابد أوّلاً من كشف سر كيمياء العنوان الذي يراه البحث عنوانا موجها لدراسة فصول هذا الكتاب..."[1]. فمن خلال البعد السيميائي لكتاب أسرار البلاغة ومن خلال الخطة التي عمد إليها عبد القاهر يتضح أن كل النصوص تشتغل ضمن بعضها البعض، وموجهة لخدمة هدف واحد وهو الكشف عن سر البلاغة ومعناها وعناصرها ومدلولاتها، لاسيما وأن عبد القاهر كثيرا ما يركز على مبدأ الكلية والشمول الذي يجسد بحق التناص وآلياته السيميائية.

لذلك، وانطلاقا من نظرة عميقة لكتاب الأسرار: "يمكن القول إن كتاب (أسرار البلاغة) نص واحد متكامل لا يمكن أن ينظر إليه على أنّه بنيات متفرقة لا رابط بينها، فهو كلٌّ عضوي لا يتجزّأ، وليس استغلال الوحدات الصغرى (أي الفصول) سوى خدعة جرجانية، فهذه الوحدات تستدعي بعضها بعضا وتتكون من شبكة معقدة من العلاقات التي كونت -من ثم- جوهر نص (أسرار البلاغة)"[2]. فمفهوم التناص بين النصوص التي أوردها عبد القاهر تنم عن فكره الذي يدور في فلك مترامي الأطراف ومشدود إلى نقطة مركزية، وهي الكشف عن وحدة الخطاب البلاغي وأسراره التي تكونه كأداة لكشف البعد النقدي والجمالي للتأليف الأدبي والخطابي، ولذلك لا يتورع عبد القاهر في كل مرة عن ذكر علاقات العناصر البيانية ببعضها البعض وتموقعها من التشارك والتقارب الدلالي المفهومي، ولذلك يمكن رصد التداخل السيميائي لمختلف الأجزاء التي تشكل الكتاب كبنية متماسكة ومتواشجة ومتلاحمة.

ومن خلال هذه المعالجة التي تتبعناها لـ "محمد سالم" عن بعض جزئيات كتاب أسرار البلاغة؛ تتضح الأهمية الكامنة في ربط البلاغة القديمة بالسيمياء، كالتناص، والتأويل، والوحدة الدلالية، والبعد التحليلي للخطاب كبنية ونسق متكامل... وهي عناصر فهمها عبد القاهر بتفكير زمانه، واستجلاها الدارسون المحدثون بأفكار زماننا...

---

(1) المرجع نفسه، ص 142، 143.

(2) المرجع السابق، ص 145.

المبحث الثاني

سيمياء التأويل،
الحريري بين العبارة والإشارة
(النموذج الثاني)

قام "رشيد الإدريسي" بتطبيق نظرية "أمبيرتو إيكو" في تأويل مقامات الحريري، وهو جهد يخدم الفصول التي طرحناها سابقا حول علاقة البلاغة العربية القديمة بالسيمياء وتحليل الخطاب. فالمقامات هي بعدٌ تطبيقي للطرح النظري البلاغي العربي، لأن الحريري مفوّهٌ ومتشبع بالميراث البلاغي، وهو ما أراد أن يجسّده في مقاماته(*). فالحريري اسمه معروف في الكتابة المقامية، والتي حذا فيها حذو مقامات بديع الزمان الهمذاني الذي وضع أساس هذا الفن الأدبي البلاغي، وقد أقيمت العديد من الشروح لمقامات الحريري.

اتبع الإدريسي خطة بحثية نظرية وتطبيقية دقيقة ومدروسة، وقد انتظم البحث في قسمين: قسم نظري وقسم تطبيقي.

أما القسم الأول النظري فقد خصّص حسب الإدريسي" بكامله لعروض ومناقشة مفاهيم إيكو السيميائية، فتعرض الفصل الأول لتصور إيكو للتأويل،

(*) وهي نصوص غنية جدًّا بالدلالات والإيحاءات الخفية والعميقة ما يتناسب كثيرا مع المناهج التحليلية الحديثة كالسيمياء وهذا ما رآه الإدريسي الذي قال: "أما فيما يخص النصوص التي عملنا على تسليطه عليها فهي، كما يدل على ذلك عنوان الكتاب نصوص الأديب واللغوي المعروف القاسم بن علي الحريري. وقد وقع اختيارنا عليها لأهميتها في الأدب العربي القديم، وللمركز الذي احتلته باعتبارها مثالا تم احتذاؤه من طرف كل من أنتج داخل جنس المقامات...". ينظر: رشيد الإدريسي، سيمياء التأويل، الحريري بين العبارة والإشارة، شركة النشر والتوزيع -المدارس-، ط1، الدار البيضاء، 2000م، ص 08.

وقدّم مجمل آراء إيكو حوله، وقد ركّزنا هنا كذلك على مفـــاهيم تتصـــل بهـــذا الموضوع من مثل العلامة والمؤولة والسيرورة الدلالية والاستعمال... وحاولنا تمييز التأويل عما يسميه إيكو بالهيدان الهرمسي. أما الفصل الثاني فقد تولى التعـــرض لمفهوم الموسوعة، فبينا فيه حاجة المحلل إليه واختلافه عن مفهوم المعجم وارتباطـــه بالذكاء الاصطناعي وبالاقتضاء. أما الفصل الثالث فقد تولى بيان أهميـــة المحـــور النصي... وقد ختمنا هذا القسم بفصل رابـــع عالجنـــا فيـــه مفهـــوم العـــوالم الممكنة..."(1). فالإدريسي في هذا القسم كـــان يتســـلح بالتوصـــيف النظـــري السيميائي الذي يواجه به النص الحريري الذي لا يعطي ويمنح دلالاته ومخبوءاتـــه بسهولة، ولكن التنظير السيميائي كفيل بتقديم الآليات اللازمة لاستنطاق المقامات وتجلية خباياها(*). ونحن في بحثنا هذا وعبر ثنايا كتاب (سيمياء التأويل) ســـوف نسلط الضوء على القسم التطبيقي منطقة التماس بين السيمياء الحديثة والخطـــاب البلاغي العربـــي الذي تعتبر المقامات الحريرية أحد مكوناته، معتمدين في ذلـــك على مختلف الآراء التي تدعم البحث وتوضح الدراسة.

أولا) التحليل السيميائي لمقدمة مقامات الحريري

أ) الخطاب السردي في مقدمة كتاب الحريري

يرى الإدريسي أن عنصر "السرد" (Narratology) ذائب في مقدمة مقامات الحريري وسوف نقوم بتعريف مصطلح السرد أولاً: "علم السرد هو دراسة القص واستنباط الأسس التي يقوم عليها وما يتعلق بذلك من نظم تحكم إنتاجه وتلقيـــه. ويعد علم السرد أحد تفريعات البنيوية الشكلانية كما تبلورت في دراسات كلود

(1) المرجع نفسه، ص 09.

(*) أمّا القسم الثاني كما يقول الإدريسي: "فقد خصصناه لتحليل بعض نصوص الحريري، اعتمادا على المفاهيم المبسوطة في القسم النظري... وقد أفردنا الفصل الأول لتحليـــل مقدمة كتاب المقامات... وبالفعل فإن المقدمة لا تطرح للوهلة الأولى أيـــة مشـــاكل معقدة في التأويل، ولكن ما إن يقف عندها القارئ بعمق، حتى يكتشف بأن الحقيقـــة غير ذلك... أما بالنسبة للفصل الثاني، فقد اشتغلنا فيه على تحليل مقامتين اثنتين، همـــا المقامة العمانية والمقامة البصرية". ينظر: رشيد الإدريسي، سيمياء التأويل، ص 10.

ليفي-شتراوس... ويقوم المختص بالسرد باستخراج تلك الحكايات ليستكشف ما تقوم عليه من عناصر وما ينتظم تلك العناصر من أنظمة، وعلم السرد في بحثه هذا يتداخل مع السيمياء... الذي يتناول أنظمة العلامات بالنظر إلى أسس دلالتها وكيفية تفسيرنا لها"[1]. فالتأليف الأدبي يتضمن في ثناياه النصية أحداثا ووقائع منظمة تحكم القص والحكي، وهو منحى بخصوصية شكلية بنوية يدرس النص كما هو من ذاته ولذاته، ولكل نص عناصر تبرز مع الفهم العميق لبنيات النص، وعلم السرد له امتداد ضمن السيمياء، لأنه علمٌ يجلي الدلالات الخفية الثاوية وراء البنيات النصية الظاهرة، فهو إذا وسيلة لكشف نظام النص وأدبيته.

يرى الإدريسي أن المقدمة الحريرية تضمنت آلية سردية حاول كشفها وإظهارها، قال: "وتبعًا لذلك فإن حديثنا عن صورة ذوبان السرد، يعني أن هناك مسارًا سرديًا خفيًا يعبر ثنايا المقدمة الحريرية، والذي سنعمل من خلال القراءة المتأنية على تجليته. فقراءتنا إذن، ستكون أشبه بعملية تذوق للنص وهضمه من خلال عبوره عموديا وأفقيًا، يمينا، وشمالا، وتتبع دقائقه، وجزئياته من أجل فك مخبآته"[2]. فلكي نكشف عن النظام السردي ينبغي أن نكون مسلحين بمنهجية عميقة ودقيقة مبنية على النظر المتأني المبني على فحص كل الجزئيات ثم إعادة تركيبها، فالسرد نظام خفي ومخبوء يتطلب قارئًا نموذجيا ذو خلفية نظرية وثقافية كبيرتين.

كانت مقدمة الحريري غنية بالدلالات الناتجة عن نظم السرد، و"رب قائل يقول بأن النص الإبداعي -ومن بينه النص السردي- أكثر إسعافا للمحلل نتيجة انفتاحه أكثر من النص التصوري، ولاحتوائه على عناصر لا تتوفر في هذا الأخير تجعله مرنا وقابلا لمجموعة من القراءات، إلاّ أن تعاملنا مع مقدمة الحريري وتحليلنا لها سيثبت عكس ذلك، وسيفاجئنا دون شك بالزخم الهائل من الدلالات التي سيمدنا بها"[3]. فالمقدمة الحريرية بها من الخصوصيات والمزايا التي تختلف عن

---

(1) ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ص 174.

(2) رشيد الإدريسي، سيمياء التأويل، ص 86.

(3) المرجع نفسه، ص 87.

مقدمات إبداعات أدبية أخرى، حيث تميزت بتضمنها لعنصر السرد ونُظُمٍ خفية تتحكم في **سيرورة الخطاب**، وكانت مجالا خصبا للانفتاح الدلالي وعدد القراءات وتوالد الدلالات، التي تدعمها القدرة البلاغية المتميزة للحريري.

ب) جاذبية التأليف المقامي (بناء ودلالات)

يرى الإدريسي أن مقامات الحريري تغري الدارس والمؤول وتدعوه لولوج بنيات النص وخفاياه، قال: "إن دأبنا سيكون هو البحث عن الدلالات المدخرة في الكلمات والجمل والرموز والإشارات لإخراج معانيها الفائضة، وذلك لأن مقدمة من هذا النوع، مثلها في ذلك مثل الكثير من النصوص الأخرى، تحتوي على العديد من المناطق المظلمة التي لا تنقشع عنها ظلمتها إلاّ بتماسّها مع القارئ اللائق، الذي ديدنه الدخول على النص بتصور منفتح دينامي..."[(1)]. فالمقدمة الحريرية تخبئ الكثير من المعاني التي لا تظهر من الوهلة الأولى ولكن التقليب في البنية النصية، والتعامل بكون النص مجالاً مفتوحًا وقابلاً للتأويل سيكشف عن الدلالات ويجليها، والفاصل في ذلك الموسوعة اللازمة للقارئ...[(*)].

ج) مستويات التأويل البلاغي السميائي للنص

قال الحريري في فاتحة مقدمته: "اللهم إنّا نحمدك..."[(2)]؛ يرى الإدريسي في العبارة التي ابتدأها الحريري (اللهم إنا نحمدك) الكثير من **الإشارات** و**الإيحاءات** و**الدلالات**، قال: "إن مقدمة المقدمة هاته تأتي **إنشائية مبتدئة** بـ: اللهم إنا...

---

(1) المرجع السابق، ص 88.

(*) كان الحريري مُلامًا بصنيعه بتأليفه للمقامات، وقد استشعر الإدريسي ذلك فقال: "إننا ننطلق من أنّ الحريري كتب مقدمته تحت ضغط اللوم الذي كان يصاحبه طيلة عملية التقديم، فكان يظهر حينًا كاشفًا عن ذاته في صورة عبارة، وأحيانًا أخرى، وهي الأكثر، مضمرًا مراوغًا في صورة إشارة يصعب الإمساك بها من القراءة الأولى "وقد" اتهم بسببها بكونه خرج عن الشرع، فهو هنا يتحدث عما لاقاه من مؤاخذة وتجنٍّ من طرف الغمر، أي الذي لم يجرب الأمور، ومن طرف (ذي الغمر) أي صاحب الحقد". ينظر: رشيد الإدريسي، سيمياء التأويل، ص 88. 89.

(2) F, Steingass, The assemblies of hariri, Student's edition Of Arabic Text, London, 1897, p. 01.

التي تتلوها كلمة نحمدك التي يمكن اعتبارها بمثابة نقطة انطــلاق لمجموعــة مــن الملفوظات **المتضمنة لمعانٍ** إيجابية تعبر عن حال الحامد، وما لحقه من الــنعم الــتي غالبا ما تجلب على صاحبها الحسد والمعارضة. إن من **مؤولات** الحمد إذن النعمة، وهذه الأخيرة من **مؤولاتها** الحسد الذي من مؤولاته تمني انتقال نعمة المحســود إلى الحاسد... هذا الإطار يفتح لنا بابًا واسعًا لفهم دفاع الحريــري عــن مقاماتــه باعتبارها نعمة أنتجت حسّادًا ومعارضين"(1).

فالحريري عرف كيف يبدأ مقدمته أن افتتحها بالحمد(*) على نعمــة إتمــام تأليف كتابه، وأنه قام بشيء يرضي الله عز وجل ولا يخالف الشريعة، فبالرغم من كيد الكائدين، وحسد الخصوم إلاّ أنه قام بما أوجب نفسه على القيام به، لكــي يزيد من غم الحاسد، كما يزيد من سرور المعجب. فهناك تناص للحمــد الــذي ابتدأ به الحريري مقدمته مع القرآن الكريم الذي يفتتح هو الآخر بالفاتحة المبتــدأة بالحمد، فهو" علامةٌ تكتنز أكثر من دلالة للغنى الذي يهبها إيّاه المجــال التــداولي العربــي الإسلامي، وهي إضافة إلى كل تلك الدلالات، قد تتخذ مدخلاً لتلمس التناص الحاصل بين المقدمة الحريرية والفاتحة القرآنية التي تستهل هــي الأخــرى بــ الحمد"(2). فكل كلمة يستخدمها الحريري إلاّ وينجر عنها الكثير من الدوال، وهذا ما يدعو إلى ضرورة الاتكاء على الفهم الســيميائي التــأويلي، الــذي رآه الإدريسي وسيلة ناجعة لاستنطاق العبارات. وهي فضيلة اكتسبتها الســيمياء في مقاربة الخطاب البياني العربــي.

قال الحريري في مقدمته: "ونعوذ بك من شرة اللسن، وفضول الهذر، كمــا نعوذ بك من معرّة اللكن، وفضوح الحصر"(3). ولنا أن نرى المقاربة التي أجراهــا الإدريسي حول هذا في إطار سيمياء التأويل، حيث رأى في هذا المقطع الافتتاحي

(1) رشيد الإدريسي، سيمياء التأويل، ص 95.

(*) عرّفه الشريف الجرجاني بقوله: "الحمد هو الثناء على الجميل من جهة التعظيم من نعمة وغيرها... الحمد اللغوي هو الوصف بالجميل على جهة التعظيم والتبجيــل باللســان وحده". ينظر: الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، ص 98.

(2) رشيد الإدريسي، سيمياء التأويل، ص 96.

(3) F, Steingass, The assemblies Of Hariri, p. 01.

الكثير من الدوال والاستدلالات قال: "لو أثبت الحريري طرفًا ونفى طرفا آخر لفهمنا للتو مبتغاه، لكنه هنا ينفي الطرفين معا باستعاذته منهما معًا، وهو ما يؤدي إلى انبثاق سؤال لا مفر منه: ما هو بديل الحريري عن هذين الطرفين؟ إن نفي الطرفين يؤدي مباشرة إلى إثبات محل ثالث، وبشيء قليل من الاستدلال نصل إلى إدراك وتحديد هذا المحل الثالث الذي ليس سوى الوسط، إذ لكل طرفين مذمومين وسط محمود:

(أ)................(و)................(ب).

فالوسط إذن هو المعنى الذي يرمي إليه النص والذي نرمز له هنا بحرف (و)"[1]. فالوسطية والاعتدال كانت قضية محمودة في الفكر العربي الإسلامي، وهذا ما رأى الحريري أن يضمنه في مقدمة مقاماته، فهو يقدم هذا المقطع اللغوي لكي يترك للقارئ أحقية الاستدلال به على أن فضيلة الوسط هي من خصوصيات المقامات الحريرية، فيطمئن بأن الكاتب ليس من دعاة التفسخ أو التطرف.

يقول الإدريسي: "لو أن هذا المقطع كان من إبداع كاتب يوناني، ولو قدمناه لقارئ ينتمي إلى نفس السياق الثقافي الذي ينتمي إليه المؤلف، وقام هذا القارئ بنفس النشاط التأويلي الذي أنجزناه نحن، ووصل إلى ما وصلنا إليه من نتائج، فإنه سيعمل بطريقة تلقائية على وصل هذا المقطع بموسوعته الثقافية التي تتضمن من بين ما تتضمنه تصور أرسطو للفضيلة باعتبارها وسطًا بين طرفين"[2]. وقبل أن نتوسع في هذه الفكرة علينا أن نلتفت إلى قول إيكو: "إن المعرفة الموسوعية لا تدرج ضمنها -كما يتخوف القاموسيون- كل المعارف المخصوصة الممكنة التي يتوفر عليها فرد معزول، إنها تشتمل فقط على تلك التي تدرجها الثقافة ضمن الإرث المعرفي الجماعي"[3]؛ "على هذا الأساس، فإن الموسوعة يجب أن تتوفر على مجموعة من الإشارات الخاصة بالطريقة التي يفهم بها لفظ ما في

(1) رشيد الإدريسي، سيمياء التأويل، ص 103، 104.
(2) المرجع نفسه، ص 104.
(3) أمبرتو إيكو، العلامة، تحليل المفهوم وتاريخه، تر: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 2007م ص 164.

السياقات التي يستعمل فيها بكثرة"[1]. فكل تلفظ هو خاضع لمفهـــوم الجماعـــة، ويجد التعبير الكافي عن مدلولاته ضمن السياق الاجتماعي، والتاريخي، والثقافـــة العامة، حيث إن الاستعمال الدائم للفظ يكسبه مجموعة من الســـمات والمعـــاني تتبادر إلى الذهن بمجرد سماعه وتحليله.

نعود إلى مقطع الحريري، حيث أكّد الإدريسي بأن أي لغة وأي ثقافة غـــير الثقافة العربية لو ترجمت إليها العبارة، لأدت مفهوم الوسطية التي تحـــدث عنـــها أرسطو سابقا بوصفها حدًّا بين طرفين مختلفين، حيث يمكن أن يكون الحريري قد استقاها من ثقافة اليونان عن طريق الترجمة. فمفهوم الوسطية هو ما أراد الحريري أن يلمح به للمتلقي.

يكشف الإدريسي عن الوسط الذي أراده الحريري فيقول: "إن الممثل لهـــذا الوسط هو الفن الذي يبدع الحريري في حدوده، والذي لا يألوا جهدًا في الدفاع عنه، إنّه فن المقامة، والمقامات الحريرية على وجه الخصوص. من هنا فإن القـــارئ ما عليه إلاّ أن يضع بين شر اللسن ومعرة اللكن من جهة، وبين فضـــول الهـــذر وفضوح الحصر من جهة أخرى لفظ المقامات الحريرية التي باتخاذها مؤولة للوسط الذهبـــي"[2]. لقد كان الحريري بارعا في وضع القارئ ضمن مفهـــوم الوســـطية الذي يبتغيه عبر الضمير الجمعي العربـــي، حيث استخدم مقطعًـــا مكونـــا مـــن كلمات مختصرة، ولكنها تؤشر عن طريق التأويل إلى أبعد من ذلك، لاسيما لمـــا يكون القارئ نموذجيا...

كما تضمنت مقدمة مقامات الحريري إشارات ومعـــانٍ خفيـــة كشـــفها الإدريسي، فقال: "ونقول (قبل ذلك) لأن الحريري في دعائه هذا، يقـــدم طلـــب الكفاية من إطراء المادح وإغضاء المسامح ويؤخر الفريق الثاني الذي يســـتعمل في حقه كلمات ذات شحنة دلالية لا تحتمل إلاّ السلب، فهناك الإزراء أي الاحتقار، والهتك ذو الشحنة الجنسية القوية والذي يرفع به الحريري سلوك هؤلاء تجاهه إلى مستوى الذنب الشنيع الذي يستحق مقترفوه العقاب، بينما يرفع من شأن الطرف

(1) المرجع نفسه، ص 165.
(2) رشيد الإدريسي، سيمياء التأويل، ص 105.

المادح بتقديمه له واستعمال ألفاظ إيجابية في حقه، وفي ذلك تفضيل خفي للمادح على القادح، وإن كان يرفضهما معًا ظاهريا"[1]. فبواسطة المقطع الثاني يوجه الحريري انتقادًا لاذعًا لخصومه، كما أنه يمدح مشجعيه ويلاطفهم، فالناظر في هذا المقطع لا يتجلى منه سوى المعنى السطحي البسيط، ولكن تخبئ هذه البنية من الدلائل والمعاني الخفية الواسعة، فالحريري يعرف كيف يرسل الإشارات التي يتحدى بها الخصوم، ويثني على الداعمين له والمعجبين به وبعمله.

إن الآراء السيميائية المعاصرة لتجد مفاهيمها تشتغل على هذا المقطع وتجلي معانيه الخفية، حيث" إن هذا المقطع يطلعنا على ثنائية أساسية تتكون من قطبين: الأول يمثله القادح للمقامة والعائب لعرض الحريري والمشهر به، والثاني يمثله المشجع والمساند له، والذائد عن مقاماته المبالغ في مدحها وإطرائها، وهذه الثنائية المكونة من هذين القطبين: المعارض والمساعد، تمثل كما هو معلوم بداية تشكل للخطاطة العواملية التي وضعها غريماس من أجل تحليل الخطابات السردية بالدرجة الأولى"[2]؛ فالنموذج العاملي بثنائياته أساس الأنشطة والأحداث التي تشكل برنامجا نصيا، فهو: "أساس تشكل النص كأحداث، أو كصيغة تصويرية. ذلك أن التعرف على الانتظامات الداخلية للحكاية يدلنا على وجود تكرار في الأحداث، أي وجود خطاطة تتشكل من مجموعة من العناصر الدائمة الثبات. ولهذا السبب، يمكن اعتبار النموذج العاملي تعميما لبنية تركيبية. أو هو، بعبارة أخرى، شكل قانوني لتنظيم النشاط الإنساني، أو هو النشاط الإنساني مكثفا في خطاطة ثابتة"[3]. وهو ما بدأ يتجلى في مقدمة الحريري عبر وقائع سردية تنظم الكتابة وتوجه المدلول، فهناك معارض وهم الخصوم، وهناك المساند وهم المعجبون بصنيع الحريري والمحبون له، وهذا من بوادر المخطط العاملي الذي كشف عنه غريماس (Greimas) وأتباعه، بوصفه من الآليات السيميائية الفاعلة والمهمة التي يحفل بها

(1) المرجع نفسه، ص 116.

(2) المرجع السابق، ص 118.

(3) سعيد بنكراد، السميائيات السردية، مدخل نظري، منشورات الزمن، الدار البيضاء، 2001م، ص 71. (بتصرف)

الدرس السيميائي الحديث. وقد وجد هذا المفهوم صدًى في الخطـــاب البلاغـــي الحريري، فبالرغم من التباعد الزماني للنصوص الحريرية عن الطـــرح الســـيميائي الحديث إلاّ أن المقامات استطاعت أن تستوعب التنظيرات الحديثة وتتماشى معها، ما يؤسس بحق لشراكة استراتيجية بين الخطاب البلاغي القديم والمنهج الســـيميائي التحليلي الحديث.

د) التمثيل في الخطاب

يقول الحريري: "وأرجو أن لا أكون في هذا الهذر الذي أوردتـــه، والمـــورد الذي توردته، كالباحث عن حتفه بظلفه، والجادع مارن أنفـــه بكفـــه، فـــألحق بالأخسرين أعمالاً، الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحســـنون صنعًا"[1]. استعمل الحريري في هذا المقطع الخوف والرجاء، أن وظّف أمثالاً عربيـــة معروفة، حيث استعمل" في هذا المقطع مثلين، الأول هو: (كالباحث عـــن حتفـــه بظلفه)، وقصته أن شاةً كانت لقوم فأرادوا ذبحها، فلم يجدوا شفرةً، فنبشت بظلفها (أي برجلها) في الأرض، فاستخرجت منها شفرة فذبحوها بها، وقالوا: بحثت عـــن حتفها بظلفها، فسارت مثلاً"[2]. أما المثل الثاني: "فهو (كالجادع مارن أنفه بكفه)، وقصته أن قصيرا الذي كان عاقلا لبيبا وكان له عزمٌ وحزمٌ، كان يعمل... في دولـــة الملك جذيمة الأبرش الذي قام بالهجوم على عمر بن الظرب، فقتله وهزم جيوشـــه، لتخلفهُ بعد ذلك ابنته نائلة الملقبة بالزباء، والتي لما استحكم ملكها لجأت إلى الحيلـــة لتثأر لأبيها عمر بن جذيمة، فبعثت لهذا الأخير تطلب الزواج منه، فأشار عليه أرباب دولته بالتوجه إليها، إلاّ قصيرًا فإنه نهاه عن ذلك لعدم ثقته بها، لكنه لم يطعه وذهب إليها، لتقتله شرَّ قتلةٍ. وهنا سيحاول قصير الثأر لسيده مستعملاً سلاح الزباء نفسه، الحيلة والمكر، فطلب من عمرو ابن أخت جذيمة الذي تقلد الحكم بعد موت خاله، أن يجدع أنفه وأن يضرب ظهره، فلما فعل، ذهب قصير إلى الزباء مســـتجيرًا بهـــا، مدّعيا أن عمرا قد جدع أنفه انتقاما منه لأنه هو الذي أشار على خاله جذيمة بالمجيء

(1) F, Steingass, The Assemblies Of Hariri, p. 05, 06.

(2) رشيد الإدريسي، سيمياء التأويل، ص 162.

إليها، فوثقت به وأرسلته ليجلب لها سلاحًا وعبيدًا لتتقوى بهما على غيرها من الملوك، فاغتنم الفرصة، وذهب إلى عمرو بن أخت جذيمة ليصاحبه مع ألف من الرجال المختبئين في الجوالق، فلما وصلوا إلى المدينة خرجوا من مخابئهم وانقضّ قصير وعمرو على الزباء، وقتلاها"[1]. فالحريري كان بارعًا في توظيف الأمثال العربية السائرة، لما فيها من الحكمة والاختصار، وما تخبئه من المدلولات الكثيرة العميقة، فربّ عبارة تغني عن خطاب طويل. فالحريري يخاف من أن تكون عاقبته الخسارة والبطلان، وأن لا يقع له ما وقع لأناس من أحداث مؤلمة كانت نتيجة ضعف تفكير ورؤية قاصرة، فيبدو الحريري مدركًا لكل المآخذ والمسؤوليات التي تنجر عن كتابته للمقامات. فانطلاقا من" هذه المعطيات، فإننا في مواجهة القصة الأولى نجد أنفسنا إزاء ثلاثة أفراد: الحريري، الشاه، وقصير. والشاهد هنا هو الحريري المتكلم في المقدمة، أما الغائب فهما الشاة وقصير. ورجاء الحريري هو أن لا يتطابق الشاهد مع الغائب، فينطبق عليه ما انطبق عليهما"[2]. فالخفاء سمة المقطع السابق، ولا يمكن كشف مغزاه إلاّ عبر الموسوعة، وفق أفق الدلالات المفتوحة لتظهر وتتجلى الدلائل والمعاني.

وقد رأينا في الفصل الثاني مدى دور المثال (المثل) في دعم الخطاب الحجاجي، وهذا ما عمد إليه الحريري إذ أتى بأمثلة فيها من الإيحاءات والمعاني الكثيفة، فنقول إن معطيات تحليل الخطاب تشتغل في هذا المقطع، كما تجد السيمياء كذلك فاعليتها عن طريق الموسوعة الثقافية...

هـ) توظيف الحريري للتناص لدعم استراتيجيته الدفاعية

هناك تشابه يسري عبر المقدمة الحريرية بين تأليفه وتأليف القرآن الكريم (الفاتحة) وهو في الوقت نفسه أسلوب دفاعي عن عمله وأهدافه، قال الإدريسي: "إن التشابه الذي سنحاول تبين حدوده بين الفاتحة وبين مقدمة الحريري يمكن اعتباره جزءً من الكفاءة الموسوعية التي تفترضها المقدمة في القارئ النموذجي كي

(1) المرجع نفسه، ص 162، 163.

(2) المرجع السابق، ص 163.

يقرأها بطريقة تخدم الحريري، وتخدم أهدافه المتمثلة في الدفاع عن نفسه وعن مقاماته وعن الحكي التخييلي بصفة عامة فاستحضاره في هذه المقدمة لأكثر من لفظ وتعبير ومعنى وارد في الفاتحة يعمل على توجيه القارئ ودفعه إلى بناء صورة عن الحريري مخالفة لتلك التي حاول خصومه تقديمها عنه..."[1]. فالذي يواجه مقدمة الحريري يفترض به أن يتعامل معها بالتوسع في التأويل المفتوح على الكفاءة الموسوعية، ما يؤدي بالضرورة إلى اكتشاف أن الحريري بخياله الخصب انفتح على القرآن الكريم ومعانيه، لكي يجد الحجة البالغة لقهر الخصوم وإفحامهم، ورفع الشبهات عن معتقداته واحترامه للمرجع الاجتماعي للعرب آنذاك، وقد أقنعنا الحريري بمقدمته التي تتشابه من حيث الطرح مع روح القرآن والإسلام، "لذلك فإن القارئ وهو يستعرض مقدمة الحريري يشعر أن صاحبها كتبها في هذا العالم الحاضر، وهو يفكر في العالم الآخر، كتبها وطيف الموت ماثلٌ بين عينيه. وهذا شيء واضح في أدعيته الكثيرة التي لا يوجد حتى عشرها في مقدمة كتابه (درة الغواص في أوهام الخواص)، فالدعاء يفتتح مقدمته المقامية ويتوسطها ويختمها ليحيلها إلى شبه ابتهال"[2]. لقد مكّن الخيال الخصب الحريري من صنع التشابه بين حياة وحياة، حياة الدنيا الحاضرة، وحياة الآخرة الماثلة، لذلك فالدعاء الذي أكثر منه وكرره تستدعيه الحياة الأخرى بما تحمله من شدة وكرب وأهوال.

لقد استطاع الحريري أن يجمع بين ملمحين سيميائيين هما: التناص والإقناع (عبر الدفاع) وفق قوالب فنية بلاغية، فنقول عن مقاطعه ضمن المقدمة بأن فهمها كخطاب أدبي ثري يفترض مجهودًا سيميائيا حديثا يكشف نظام اشتغال الدوال وتظافرها ليدفع بالتحليل إلى آفاق أكثر رحابةً.

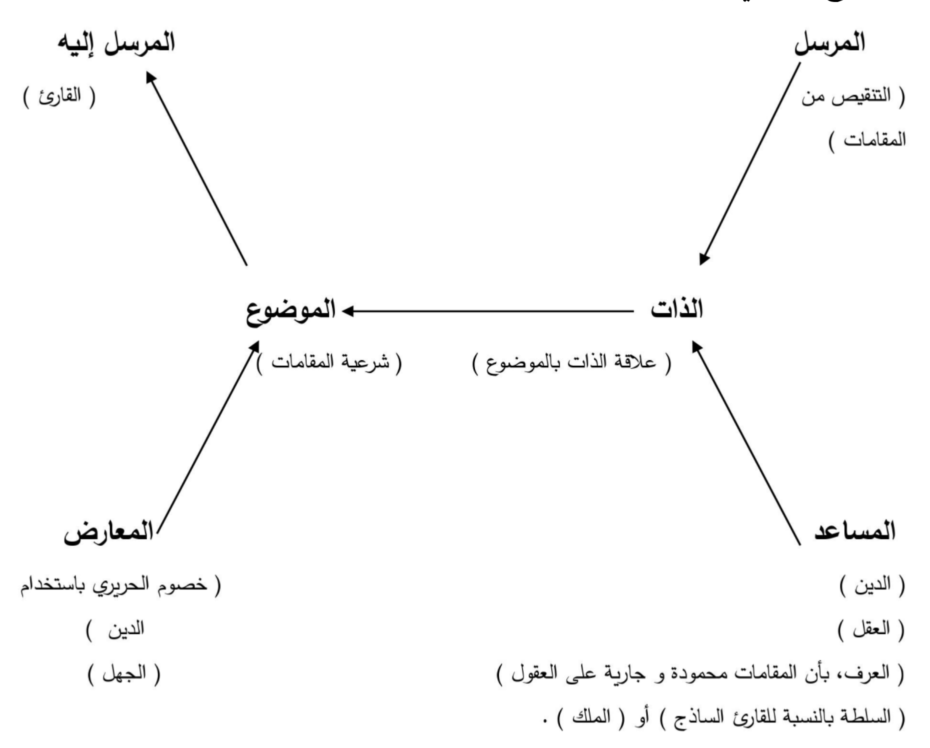
و) مظاهر السردية ضمن الخطاب المقدماتي الحريري

يقول الإدريسي: "كتب الحريري مقدمته... على هذا الشكل الدال الذي حاولنا تلمس بعض أبعاده المختلفة، فالذات التي تشعر بالنقص تتمثل في الحريري

(1) المرجع نفسه، ص 172.

(2) المرجع السابق، ص 176.

كما بينا، والإحساس بالنقص يأتي نتيجة لتعرضه للنقد، والطعن في شخصه من طرف خصومه مما سيدفعه ليصبح عامل الفعل (Agent du faire) ويعطي الانطلاقة لعملية السعي بحثا عن الموضوع الذي سيتكفل برفع هذا الشعور بالنقص، والموضوع هو حصول الشرعية للمقامات"[1]. حيث يمكن عرض النموذج العاملي كالتالي:[2]



المخطط العواملي للمقدمة الحريرية

فالمخطط العاملي هو أحد الركائز الأساسية في السيمياء السردية، وقد استطاع الإدريسي أن يصل إلى نتائج رائعة أن أخرج معانٍ عديدة على مقاطع مختصرة جدًّا تبدو للقارئ السطحي وكأنها لا تحمل إلاّ معانيها المباشرة. وهذا اتصال هام لمعطيات الخطاب القديم بالمنهج السيميائي الحديث.

(1) المرجع نفسه، ص 179.
(2) ينظر: المرجع السابق، ص 179، 180، 181.

وبعد كل ما تم ذكره حول التأويل السيميائي لمقدمة الحريري، لا يمكن أن تستحكم كل المعاني والدلالات التي تكتنزها هذه المقدمة، لأن ذلك ضربٌ من المحال الذي يسنده صوت "عبد القاهر الجرجاني" الذي قال: "وإنك لتتعب في الشيء نفسك وتكد فيه فكرك وتجهد فيه كل جهدك، حتى إذا قلت قد قتلته علمًا، وأحكمته فهمًا، كنت الذي لا يزال يتراءى لك فيه شبهةٌ، ويعرض فيه شكٌّ..."(1). فالمقدمة يحيط بها سياقٌ معقّدٌ، لا نعلم ملامحه كلّها... ولذلك فقد اجتهد الإدريسي في كشف جزء من الدلائل الخفية، ولا تزال الدلالات مفتوحة ما دامت الموسوعة الثقافية تتسم بالانفتاح.

ثانيا) دراسة سيميائية(*) للمقامتين العُمانية والبصرية(**)

أ) سيمياء العنوان

يحمل عنوان كل مقامة كتبها الحريري دلالات خاصة، وقد كان عنوان المقامة العمانية بـ (العمانية) لدلالات معينة، حيث" إن أحداث هذه الأخيرة تجري أغلبها في جزيرة مجهولة، واختيار عمان اسمًا لها يخلق لدى القارئ النموذجي

---

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمد رشيد رضا، ص 423.

(*) اختار الإدريسي أن يدرس سيمياء التأويل لمقامتين هما: العُمانية والبصرية، وقد برّر اختياره لهما، فقال: "وقد وقع اختيارنا على تحليل المقامة البصرية والمقامة العمانية؛ أما بالنسبة للسبب الذي دفعنا إلى اختيار البصرية، فيرجع إلى ما توصلنا إليه في تحليلنا السابق من أن هذه المقامة تتناغم مع المقدمة تناغما كبيرًا، لدرجة يمكن النظر إليهما باعتبارهما وجهين لنص واحد، كما يرجع إلى اختلافها البين عن مجموع المقامات الأخرى، والتي من بينها المقامة العمانية، فتحليلنا لها إلى جانب مقامة من المقامات المتبقية يعتبر فرصة للتأكد مما توصلنا إليه في التحليل السابق". ينظر: رشيد الإدريسي، سيمياء التأويل، ص 192.

(**) برر الإدريسي دراسته للمقامة العمانية، فقال: "يرجع اختيارنا لها للاعتبارات الفنية السالفة الذكر، ولكن إلى جانب ذلك وربما قبل ذلك، لتمييزها اللافت عن مجموع مقامات الحريري الأخرى، وهو التميز الذي يتجسد في جريان أحداثها في مكان مختلف عن الأمكنة الثابتة التي تجري فيها أحداث المقامات الأخرى، ولما يتوفر عليه هذا المكان من عناصر تغنيه وتمنح القارئ القدرة على الذهاب بتأويله إلى أبعد الحدود...". ينظر: المرجع نفسه، ص 192.

العارف بجغرافية شبه الجزيرة العربية عالمًا ممكنًا يشكل البحر أحد مكوناته الأساسية... إلاّ أن الشيء الأساسي المتعلق بهذه النقطة هو أن هذه المدينة يربطها خط بحري مع الهند مرورًا بجزيرة هندية مشهورة هي جزيرة سيلان التي يروي ابن بطوطة قصة رحلته إليها بما يشبه ما وقع للحارث والسروجي في هذه المقامة"[1]. ما يفتح المجال لوجود تناص بين المقامة العمانية، ورحلات ابن بطوطة، وقد اختار الحريري شخصيتين تبنى عليهما كل المقامات، وهما الحارث بن همام والسروجي، ففي الرحلات وآدابها الكثير من الأحداث والدلالات.

وقد أدّت غرابة العالم الذي جرت فيه المقامة العمانية إلى إخصاب البعد الخيالي والجمالي فيها، "ولا يستبعد أن تكون كل هذه الاعتبارات هي التي أدت بيحي بن محمود الواسطي، أحد أشهر مصوري المدرسة البغدادية، وهو يحول المقامة العمانية إلى سلسلة من الصور، إلى إعطاء سحنات هندية لشخوص الجزيرة ملونا وجوههم باللون البني، بما في ذلك الملك والزوجة والخدم..."[2]. فخيال وتصوير المقامة العمانية مشهور عند العرب القدامى مع بروز قصص من أمثال التي رواها من قبل ابن المقفع، فكلها تنتمي إلى الهند التي رويت عليها العديد من الغرائب والعجائب، وهذا ما أدى بالحريري لأن يسمي مقامته بالعمانية، وذلك لوجودها على البحر من جهة الهند عجائبيا.

فبطاقات النصوص الحريرية البلاغية، وكذا قدرتها على الخيال والتصوير تفتح مجالاً هامًا للتأويل والكشف عن المساحات المخفية، حيث تجمع بين البيان والصور المجسمة التي ابتدعها الواسطي، وتتضمن كذلك التناص الحاصل بينها وبين أعمال قصاصين سابقين كابن بطوطة والمقفع وغيره من الحكواتيين العرب، وبهذا فإن المقامات مجال بلاغي سيميائي بامتياز لكشف الدوال والقراءات المتجددة.

---

(1) المرجع نفسه، ص 194.

(2) المرجع السابق، ص 195.

ب) السمات الدلالية في المقامتين

ب-1) الإحالة الدلالية إلى الأسفار وطلب الرزق

يحيلنا عنوان المقامة العمانية إلى الكد وطلب الرزق، والذي كان مفهوما مركزيا تبنى عليه بقية المقامات، قال الإدريسي: "وسبب كثرة الأماكن في المقامات واختلاف أسمائها لا يفهم إلاّ بحضور الرحلة ومركزيتها، والتي ترجع دوافعها إلى طلب العلم أو جمع اللغة أو مواجهة خصم أو للبحث عن أبواب الرزق، وهذا الدافع الأخير هو أبرزها، وهو الأكثر وفاءً بحدود مفهوم الكدية، ولأن كسب الرزق في المقامات الحريرية غالبا ما يتم عن طريق الحيلة، فقد كان من الطبيعي أن يغير السروجي البلد أو المدينة أو الحي كلما أراد أن يحتال من جديد..."[1]. فقد كانت عمان عند العرب بلد الرزق على من تعسر عليه ذلك، ولأن طالب الرزق ملزم بالضرب في الأرض لذلك الغرض، فقد كانت عمان أحد الأماكن التي تُضرب إليها أكباد الإبل قديما. وغاية السروجي وصديقه الحارث دائما هو الحصول على لقمة العيش والبحث عن الثراء بالحيلة والخداع، ولذلك ذهبوا إلى عمان هذا المكان الذي سيكون بمثابة فاتحة خير على السروجي بفضل حكمته ودهائه.

أمّا المقامة البصرية فتحيلنا إلى التوبة والزهد والتقوى، فالبصرة" إذن بوصفها عنوانا، واستنادًا إلى هذا التأويل، تجعلنا منذ الوهلة الأولى إزاء الحياة، وتقدم لنا المقامات باعتبارها موقفا من الحياة وجوابا عن السؤال المتعلق بوصفها لدى السروجي"[2]. ففي هذه المقامة يقدم السروجي نفسه على أنه الشخص الزاهد التقي الورع؛ وكل هذه الأشياء كانت تُربط بالبصرة عند العرب؛ باعتبارها منارة للعلم والإيمان. لقد كان الحريري بارعًا في اختيار العناوين المقامية بفضل قدرته البلاغية ورغبته في تضمين الدلائل المخبوءة وراء هذه العناوين، فكل لفظ بليغ للحريري له من الدلالات التي تحتاج قدرةً تأويلية، ونظرة عميقة من قارئ يُعمل الموسوعة.

---

(1) المرجع السابق، ص 197.

(2) المرجع نفسه، ص 198.

ب-2) التستر بالرواية للهروب من نقد الخصوم

لقد كان الحريري يبعد عن شخصه الانتقاد، ولذلك لجأ إلى الرواية والوساطة في التأليف لكي لا تصير مقاماته فاضحةً له، "فهو كما عبّر عن ذلك لم يُسعف بالإقالة، و لم يعف من الكتابة، وهو ما يحتم البحث عن وسيلة لمراوغة هذه الرؤية وللتخفيف من عملية الربط بين شخصه وما سيدبجه في مقاماته، وهذه الوسيلة في رأينا ليست سوى صبغة الإسناد والرواية التي تستهل بها كل المقامات والتي تجعل شخص الحارث حاجزًا بين القارئ والحريري، وصارفًا له عن تحميل الحريري أية تبعة"(1). لقد توصل الإدريسي إلى أن: "الحريري اعتمد عنصر الرواية قصد الدفاع عن نفسه وإيهام القارئ بأن ما ألّفه ليس من تأليفه، و لم يكن شاهدًا على وقوعه"(2). فالحريري في مقاماته يعمد إلى الوساطة في الحكي والرواية لكي يخفف من وطأة النقد عليه، فيختفي وراء النص وبنياته ويتغطى بالحارث بن همام والسروجي، فيظن القارئ السطحي أن الحريري بريء مما كُتبَ، وكذلك فإن إخفاء الحريري لنفسه جعل من المقامة وكأنها حقيقية وليست من صنعه وتدبيجه.

فيبدو من خلال هذا أن العبارات البلاغية التي يستخدمها الحريري، تجد عن طريق التأويل والفحص الدقيق تفسيرها السيميائي لتتجلى الدلالات والخفايا، التي لا تظهر إلاّ للمؤول الذي يعي دور الاستخدام البياني في التلاعب بالدوال وتوجيه الأفهام.

ب-3) طبع المقامات بركوب الأهوال والأخطار(*)

جاء في المقامة العمانية ما مفاده: "وقد سنح لي أربٌ بصُحار، ملتُ إلى اجتياز التيار، واختيار الفلك السيّار، فنقلتُ إليه أساودي..."(3). ففي هذا المقطع تبدأ المقامة بركوب البحر ومواجهة الأخطار والمغامرات التي عبر عنها الإدريسي بـ "ركوب الخطر"، "وذلك لأن **علامة** [بحر] تثير لدى المتلقي العربي مجموعة من **المؤولات**

(1) المرجع نفسه، ص 200.

(2) المرجع السابق، ص 202.

(*) علينا أن نشير هنا إلى أن الإدريسي يحلل وفق نظرية القراءة لا وفق التأويل السيميائي، لكنه يتوقف عند علامات سيميائية.

(3) F, Steingass, The Assemblies Of Hariri, p. 325.

يمكن تلخيصها كلها في **علامة** واحدة هي الخطر، وأكثر من ذلـــك، فـــإن القـــارئ العربـــي المتشبع بالنصوص البحرية من مثل نصوص ألف ليلة وليلة، أو قصة النبـــــي يونس الواردة في القرآن الكريم، أو نصوص الرحالة العرب، بإمكانه الدخول في حالـــة انتظار والقيام بتوقع يشكل من خلاله عالًما ممكنا تتطابق مكوناته مع مكونات المقامـــة العمانية"[1]، و"القارئ النموذجي هنا هو الذي يستطيع الربط بين هـــذه الملفوظـــات والعناصر المبثوثة في الموسوعة المشتركة بينه وبين النص، والتي تتفق كلـــها علـــى أن ركوب البحر هو ركوب للمجهول ومقامرة للنفس بتعريضها للأهوال التي قد تكون فيها نهايتها"[2]. فالخطر وكيفية نسجه في المقامة هو الذي يزيد من أفق انتظار القارئ ويعطيه الحماسة والإقبال على القراءة الحازمة والجادة لأن المؤلف الحريري وضـــع في ذهن قارئه الرغبة في تفحص المقامة والغوص في بنياتها ولا شيء أفضل مـــن أيقونـــة البحر بما يحمله من أهوال ومآسٍ ومغامرات، وهو ركيزةٌ أساسية في الموسوعة الفكرية والثقافية لدى العربـــي في العصرً القديم، حيث ارتبط بالقرآن الكريم الـــذي ورد في آياته، وكذا ورود البحر وأخطاره ضمن قصص الحكواتيين العرب القدامى.

كان الحريري يأتي بكل عنصر يزيد من مساحة الخيال والحماس لدى المتلقـــي ثم يركبه في قوالب **بلاغية** متميزة، ولما يرتبط **التأويل** بهذه العناصر تتوالد المعاني وتتضافر مع الموسوعة العربية التي ترى في هذه العناصر (... البحر مثلا...) مكمنا للكثير مـــن العواقب والتصورات والتكهنات، فالإتيان بالعناصر الدالة مع حياكتـــها بالقـــدرات البلاغية الحريرية؛ قد أتاح مجالاً هاما من التأويلات المستفيضة والمشربة بالخصوبة.

ب-4) استعمال لفظ الاستواء للدلالة على أن السروجي صار ملكًا

يروي الحارث بن همام في المقامة العمانية أنهم اصطحبوا معهم رجلاً حكيمًا صالحًا يدعى "السروجي"، وقد افتتح روايته باصطحابه في الرحلة، فقـــال عنـــه: "فلما استوى على الفلك (السروجي) قال أعوذ بما لك من مسالك الهلك..."[3]. إنّ مدلولات الاستواء التي جاءت في المقامة عن السروجي تـــثير" لـــدى المتلقـــي

(1) رشيد الإدريسي، سيمياء التأويل، ص 203.

(2) المرجع السابق، ص 203، 204.

(3) F, Steingass, The Assemblies Of Hariri, p. 325.

مستويات مختلفة من المعاني، ويدفعه إلى استحضار ما يتم به هذا التعبير ليجعل منه جملة مفيدة، ومن بين التعابير الأكثر تأهيلاً للاستحضار هنا، تلك التي ارتبطت بـ (استوى على...) ارتباطا وثيقًا حتى أصبحت شبه تعبير مسكوك، يستعمل بطريقة تلقائية، وهذا بالتحديد ما نجده بالنسبة للملك حيث تقول العرب للكناية على التملك (استوى على سرير الملك)"(*). لقد كان الحريري بارعا في التوصيف والإتيان بالألفاظ التي تخبئ دلالات عميقة، فلفظ الاستواء واردٌ في القرآن الكريم والموروث الأدبي العربي، ما أحدث تناصا بإطلاقه على السروجي.

إن روايات السروجي لعبٌ وموقف عميق من الحياة، وهي مدعاةٌ للكثير من التأويلات العميقة، حيث يمكن أن نصف قول السروجي" عندما أخبر أصحابه بأنه يملك حرز السفر الذي يعصم من أهوال البحر، إذ ما إن ننتقل إلى المقطع الموالي حتى نكتشف أن السروجي كذب فيما ادّعاه، فذكره للأحبار في بدء حديثه وزعمه الرواية عنهم يمكن القارئ الملم بكل هذه المكونات الموسوعية... أن يستنتج منه أن حديث السروجي عن الحرز والعوذة ينطبق على أخبار الأحبار، فهي قد تكون صادقة، وقد تكون كاذبة..."[1].

يقول الإدريسي على لسان السروجي: "في العمانية [روينا في الأخبار المنقولة عن الأحبار] هدف من ورائه إلى التأكيد بأنه ساحرٌ من طراز سحرة بني إسرائيل، وأما قوله [وكنت رويت من الأخبار المسندة والآثار المعتمدة]، فقد هدف من ورائه إلى القول بأنه تقي نقي لا ينهل إلاّ من كلام النبوة، وهاتان النتيجتان اللتان توصلنا إليهما من خلال عملية استدلالية، وإن لم تصرح بهما العمانية أو البصرية، فإن القارئ مطالب باستخراجهما على اعتبار أنهما جزء من البياض الذي فوّض

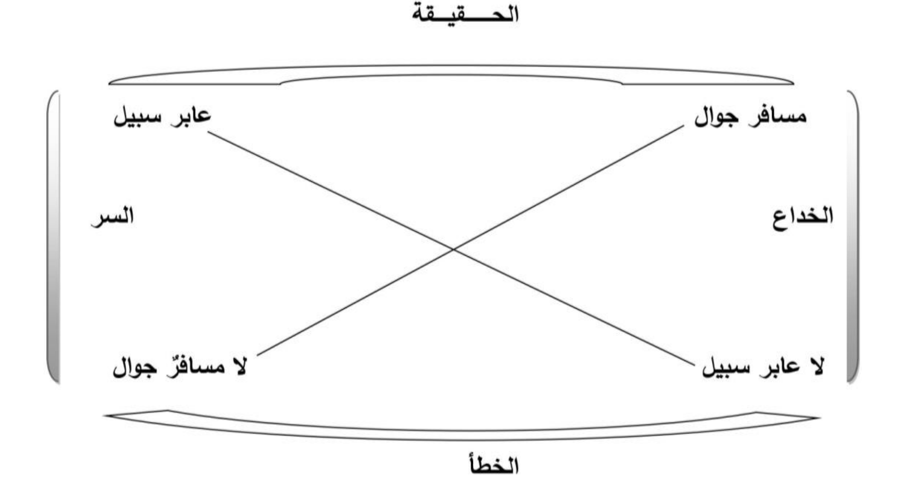
(*) لقد كان السروجي ملكا وشخصية المقامة لدى الحريري، حيث صاحب الحارث بن همام في ركوبهما البحر، ووقعت لهما أحداث عجيبة، حتى استقروا بجزيرة بها شعب، وملكٌ وزوجته التي تعاني من صعوبة في الولادة، فدلّه السروجي على وصفةٍ تسهل ميلاد الطفل، فنجح في التوصيف وجوزي من طرف الملك أن ملّكه، وأغدق عليه بالهدايا والعطايا، فصار بذلك السروجي يشبه حال الملك من السلطان والرعاية والمكانة، فرأى الحريري أن يدبجه بألفاظ السعادة والسمو والسلطة. ينظر: رشيد الإدريسي، سيمياء التأويل، ص 205.

(1) المرجع نفسه، ص 207.

النص للقارئ مهمة ملئه"[1]. فالحريري بارعٌ في اللعب بشخص السروجي، أن صوره راهبا وساحرا، وصاحب دراية بما سيكون، ثم يصوره في المقامة البصرية نقيا تقيا ورعًا ملتزما بحدود الدين، فالرواية على لسان السروجي تتغير وتبعًا لذلك يتغير التأويل الموافق لذلك، وهو ما تتيحه المعالجة الموسوعية للقارئ الذي تلزمه موقعة روايات السروجي من الحياة، والآثار السابقة ومعرفة التناص الحاصل بين رواياته وقصص ونصوص سبقت عليه تشابه حكيه.

استطاع الحريري أن يطبع السروجي بدلالات متناقضة عبر المقامتين، فالتأويل يتغير بتغير المقامة، فمرة يكون ساحرا ومرّة رجلا تقيا نقيا، وزاد الحريري في ذلك تلك البلاغة البارعة التي تصور الأشياء وكأنها حقيقة. ولما أعمل الإدريسي تأويلاته السيميائية كشف عن تلك التناقضات الحادة، والتي هي بمثابة إبداع يأسر القارئ، ويدخله في اضطرابات، وبالتالي تحريكًا نشطا لفعاليته ومشاعره.

انطلاقا من لعبة التعرف على شخص السروجي الذي أخذت تظهر ملامحه بتقادم الحكي والسرد، استخرج الإدريسي الأدوار الفاعلية التي مارسها ووضحها في الخطاطة التالية:[2]



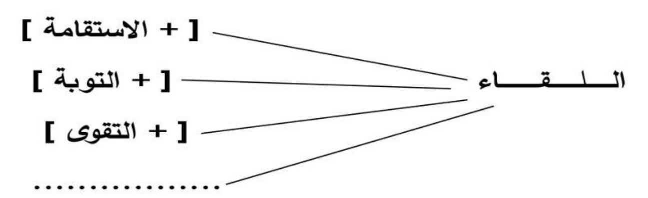
مخطط يوضح الأدوار الفاعلية التي مارسها السروجي في المقامة العمانية

---

(1) المرجع السابق، ص 210.

(2) المرجع نفسه، ص 213.

فمن خلال هذا المخطط المبني على الأضداد على مستوى البنية العميقة، لأنه بالضد تتضح الأشياء، يظهر أن السروجي في العلاقة الأولى قد خدع رفقاءه بأنه مسافر جوال وليس عابر سبيل، لكن عبر علاقة الحقيقة يكون السروجي مسافرا جوالا، وعابر سبيل في الوقت نفسه، والسر هو أنه عابر سبيل، وعلاقة الخطأ هي ألا يكون عابر سبيل ولا مسافرا جوالا. وقد كانت سمات التعرف وفق الخطاطة التالية التي رسمها الإدريسي:[1]



مخطط الأدوار الفاعلية التي مارسها السروجي في المقامة البصرية

يقول الإدريسي عن لعبة التعرف في المقامتين: "والمؤولات الأولى (العمانية) كلها مؤولات نتجت عن تمسك السروجي بالدنيا دون سواها، بينما الثانية البصرية (البصرية) نتجت عن استحضاره لمكون الآخرة، الذي حد من شغفه بالأولى وصرف نظره إلى الثانية فأدى ذلك إلى تغيير سلوكه وتغيير المؤولات المتولدة عنه"[2]. فالحريري يحدد طبيعة الفكر وأسلوب التعامل قبل إنشاء مقاماته، حيث ينطلق في **العمانية** من أن الحيلة والمكر والدهاء هم الكفيلون بتحقيق الأهداف والظفر بأعطيات الحياة، بينما في البصرية، ينطلق من أن الدنيا فانية، والتقى والإيمان هما هدفا الحياة وغايتها. ما يجعل المتناقضات موجهة للدلالات والسمات في الحكي، عبر التأويل السيميائي.

ب-5) أيقونة الريح والدخول في الأحداث والمغامرات

كانت بداية المغامرة ركوب البحر وهبوب الريح، ولما يقرأ المتلقي هذه البداية يدخل في الخيال ويفتح آفاق التأويلات. قال الإدريسي: "وعند هذه النقطة

(1) المرجع السابق، ص 217.
(2) المرجع السابق، ص 218.

من الحكي يجد القارئ نفسه في مواجهة انفصال احتمالي له أهميته مما سيدفعه إلى طرح أسئلة محددة على النص، ومحاولة الإجابة عنها بالقيام بتوقعات وبناء عوالم ممكنة باستحضارها سيناريوهات تناصية مشابهة، فهل ستقسو الرياح على السفينة لتحطمها على آخرها ويكون مصير الركاب، كمصير النبي يونس الذي [التقمه الحوت وهو مليم] أم أن حرز السفر الذي تلاه السروجي سيعمل عمله ليسكن حركة الريح ويهدئ موج البحر، ممكّنا السروجي والحارث ومن معهما من النجاة من أهوال البحر، كما نجا نوح من الطوفان؟..."[1]. فلما يربط المؤول مقدمة المقامة الحريرية العمانية بالموسوعة؛ يبدأ نشاطه التأويلي، كما أنّ الحريري يعرف كيف يستثير القارئ بخطابه الملغز مثلما توضحه العناصر الموالية:

ب-6) علامة البعث من جديد

استعمل الحريري أدوات تعبر عن النجاة والولادة الجديدة، وقد استخلصها الإدريسي، حيث طرح تساؤلاً وأجاب عنه، قال: "ألا يمكن اعتبار نجاة السروجي من الغرق بمثابة ولادة رمزية له، وللإنسان بصفة عامة؟ إذا سلمنا بهذا التساؤل، فإن مجموعة توازيات ستتفرع عنه، وهي:

- **الرياح** **توازي** **الإخصاب**.
- **السفينة** **توازي** **الأم**.
- **هيجان البحر** **يوازي** **المخاض**.
- **الجزيرة** **توازي** **الحياة الدنيا**"[2].

حيث تعبر بنية المقامة في عمقها على التجدد والحياة، ولما ننظر في عناصر المقامة العمانية نجدها تنتهي دائما بالنجاة وتجدد النفس، واكتساب حلة جديدة، فبعد العسر يأتي اليسر، وبعد الضنك يأتي الفرج، وهي معانٍ تعبر عن البعث والتجديد.

(1) المرجع السابق، ص 218.

(2) المرجع نفسه، ص 219، 220.

ب-7) علامة انفراج الأزمات والدخول في اليسر والظفر بالأعطيات

بعدما دخل الحارث والسروجي الجزيرة وجدا قصرًا مشيدًا له بابٌ من حديد، ورد في المقامة العمانية ما مفاده: "... حتى أفضينا إلى قصرٍ مشيد، له بابٌ من حديد، ودونه زمرةٌ من عبيد، فناسمناهم لنتخذهم سلّمًا إلى الارتقاء وأرشية للاستسقاء..."(1). إن الباب الذي وجده السروجي وصاحبه له من الدلالات والإيحاءات الكثيرة التي يدلي بها. قال الإدريسي: "إن الباب الذي يعتبر هنا بمثابة نقطة مركزية في النص باعتباره أحد مفاصله التشويقية التي تحث القارئ على التوقع وتجعله منتظرًا لما سيسفر عنه فتح مصراعيه، هذا الباب الذي ينتج هذه السيرورة، يزيد من تعقيدها استثارته لأكثر **من مؤولة** ينقض بعضها بعضا، فبغض النظر عن التعامل معه باعتباره حاجزًا يفصل بين عالمين، بين المعلوم والمجهول، بين الفقر والغنى، بين الخوف والأمان، وانفتاحه على سر خفي، فإنه قد **يرمز** إلى الموت أو الفرح أو النجاة أو الجحيم أو الجنة..."(2). فالحريري لا يستخدم الكلمات جُزافًا، وإنما يتخير لكل عبارة كلمات تكون مدعاة إلى مجال واسع من التأويل، فالباب في الموروث العربي له رمزيته من أنه طريق الرزق، ويُخرجُ إلى عالمٍ واسع فيه الكثير من المفاجآت التي قد تكون سارة أو محزنة، فالقارئ سوف يدخل في عملية معقدة من التكهنات ماذا يوجد خلف الباب؟ وهل انفتاح الباب سيكون بمثابة خلاص للسروجي ورفقائه؟ فيتحمّس ويبقى مشدود الفكر ومنتظرًا لما ستسفر عنه المقامة.

ففي الموسوعة العربية هناك ألفاظ ترتبط بإيحاءات، عرف الحريري كيف يتخيرها ويوظفها لتصير نصوصه بليغة وتحمل بعدًا سيميائيًا خصبا، فالباب له وقعه الحسن على أذن السامع الذي يستسيغه، ويدخله ضمن مجال دلالي عميق.

---

(1) F, Steingass, The Assemblies Of Hariri, p. 328.

(2) رشيد الإدريسي، سيمياء التأويل، ص 226، 227.

ب-8) علامة الحياة

جاء في المقامة العمانية أن السروجي وصاحبه لما وصلا إلى باب القصر كلّما خادمه بأن يفتح لهما الباب، فأبى، ثم أخذا يبحثان عن الوسيلة والحيلة التي تمكنهما من بلوغ مرادهما، فأخذ السروجي يوحي إلى الخادم بأنه عرّافٌ وعالمٌ وفقيهٌ بأمور الحياة، فردّ عليه الخادم قائلاً: "إنّ ربّ هذا القصر هو قطب هذه البقعة، وشاه هذه الرقعة..."[1]. يرى الإدريسي أن لفظة (شاه هذه الرقعة) تزيد من التأويل وتفتح فضاء واسعا للدلالات، قال: "إن أول ما يبعثه تعبير (شاه هذه الرقعة) قبل أن ينصرف الذهن إلى المعنى الحرفي، هو الشطرنج، إذ الرقعة هي من الأسماء التي تطلق على سفرة الشطرنج وشاهها وعناصرها الأخرى... هو أن المقامة تتحدث عن الجزيرة بوصفها مثل رقعة الشطرنج، أي باعتبارها لعبة،... من أن الجزيرة يمكن التعامل معها باعتبارها رمزا للحياة، فإننا سنصل عن طريق التعدي إلى أن الحياة لعبة، وهي النتيجة التي لا يمكن الوصول إليها إلاّ عبر سلسلة من التماهيات"[2]. فالحريري يعرف كيفية التلاعب بالكلمات ورمزيتها، فهو يشير إلى أن كل أحداث المقامة العمانية تجري على الجزيرة كما يجري لعب الشطرنج على السفرة، والذكاء والحيلة والدهاء؛ هي العناصر الكفيلة بترجيح الكفة، فالحياة في نظر الحريري صراعٌ خفيٌ ينبغي على الإنسان حسبه أن يعرف كيفية إدارة الحرب وكسبها، ولا يتأتّى ذلك إلاّ بالتخطيط وإتقان اللعبة.

ب-9) علامة موت ملك سفرة الشطرنج

لقد كسب السروجي اللعبة أن صدّق القوم وهمه وسحره الكاذب، وقد نال الهبات والعطايا، وظفر بما لم يكن يتوقعه، ورد في المقامة العمانية: "... حتى اندلق شخص الولد لخصّيصى الزّبد، بقدرة الواحد الصمد، فامتلأ القصر حبورًا، وأستطير عميده وعبيده سرورًا، وأحاطت الجماعة بأبي زيد تثني عليه، وتقبّل يديه، وتتبرّك بمساس طمريه... ثم انثال عليه من جوائز المجازاة، ووصائل الصلات،

(1) F, Steingass, The Assemblies Of Hariri, p. 329.

(2) رشيد الإدريسي، سيمياء التأويل، ص 229.

ما قيّض له الغنى، وبيّض وجه المنى..."[1]. رأى الإدريسي بـــأن ملـــك الجزيـــرة (الشاه) قد مات في هذه اللعبة أن صار السروجي كالملك في القصر الـــذي لـــه حظوته وكلمته، قال: "**وهذا التأويل هو المنسجم** مع ما سيتلو ذلك، بحيث لـــن يفارق السروجي -الجزيرة- الحياة... لقد أصبحت له سلطة توازي سلطة الملك، وهي السلطة التي تأتت له مما يملك من مال يوازي ذلك الذي في حوزة الملـــك... فإننا سنكون إذن إزاء السروجي وقد أصبح ملكًا فوق الملك، وشاه الرقعة الحقيقي بعد جعله للحاكم في وضع (الشاه مات) بواسطة وهمه وسحره"[2]. لقـــد كـــان السروجي في معركة على الجزيرة، وهو يواجه الملك الحقيقي بأن يأخذ من سلطته وهيبته ومكانته وكان له ذلك، ما يعني مجازيا على صعيد الشطرنج أن الســـروجي صار ملك اللعبة، وقتل الملك المضاد، ووقع في شرك السروجي الملك الجديد، فما جرى له ولصاحبه، يوازي ما يجري في لعبة الشطرنج، والغلبة للـــدهاء والحيلـــة بالسحر والوهم.

ج) المجال الأيقوني (الأيقونات الصور) (أيقونية الليالي في جزيرة الواسطي)

قام "الواسطي" الرسام العربـــي الشهير بـــ "بغداد" قديما بوضع صور تحاكي المقامة العمانية حيث كان يسود هذه الصور جو غرائبـــي، فيه الكثير من الخيال، كطيور لديها رؤوس بشر وعبيد بسحنةٍ هندية، وعالم غريب عن عالمنا، وهذا ما يزيد من العمق السيميائي لمقامات الحريري. وسنعرض لبعض هذه الصور، وهـــي كالآتي:

---

(1) F, Steingass, The Assemblies Of hariri, p. 332.

(2) رشيد الإدريسي، سيمياء التأويل، ص 239.



~ صورة للواسطي تعرض حيوانات برؤوس بشرية على الجزيرة ~

~ السروجي في حضرة الملك ~

~ السروجي ومن معه على السفينة ~

~ السروجي بباب القصر ~

يقول الإدريسي: "لقد تحدثنا فيما سبق عن بعض ما يميز هذه المقامة من جو غرائبـي متمثل في السحر وركوب البحر، والإرساء بجزيرة مجهولة، وهو الجو الذي تزيد لوحات الواسطي من حدته، وهي اللوحات التي يمكن التعامل معها باعتبارها جزءً من المقامة أو نوعًا من التلقي لها... رأينا في تصوير الواسطي للطيور ذات الوجوه البشرية نوعا من الدفاع اللاشعوري عن المقامات، وتزكية وتدعيما لدفاع الحريري، ولكن هذه المرة بلغة الخطوط والألوان"[1]. فإضافة لبلاغة الحريري الراقية تضاف إليها بلاغة الصورة، لكي تسد بعض المعاني الفائضة التي قد لا يمكن للخطاب الخطي حملها، فتأتي الصورة لتغطي ذلك النقص، خاصة الطيور البشرية والجزيرة الغريبة على ذهن العربـي الذي لا يعرف إلاّ الصحراء

(1) المرجع السابق، ص 244.

والجبال، والصور الواسطية تعتبر مكانا غزير الدلالة خاصة من الناحية السيميائية والبلاغية.

تعتبر الصورة خطابا مثلها مثل الخطابات الأخرى، ولكنها خطاب غير لغوي نستطيع أن نضعها ضمن حدود الأيقونات الصور بتعبير السيمياء، وهي بلاغية مجسّمةٌ أبدعها الواسطي؛ تمنح الدلالات والمعاني لقارئها الذي تضاف قراءته إلى القراءة عبر نصوص المقامات ذات العلامات اللغوية. فالعرب بقدر ما هم أمة الفصاحة والبيان والبلاغة، هم كذلك أمة التفكير السيميائي والدلالي والغزارة المعنوية. وهذا ما يعضد ما ذهبنا إليه في الفصل الأول من أن العرب بقدر ما هم مؤسسون بإبداع للبلاغة، هم كذلك من المؤسسين بإبداع للتفكير السيميائي. ويمكن كذلك أن تتضافر البلاغة والسيمياء كحقلين يدعمان المعنى ويساهمان في تجلية الكثير من الدلائل الخفية والغزيرة.

د) بناء المقامات بعكس ما كان يظنه القارئ واستثارته

لما يقف القارئ على مقامات الحريري سيقدم قراءة مسبقة للأحداث، لكنه لما يتقدم في الحكي سوف يظهر له عكس ما كان يتوقعه، ويراوده القلق وتناقض لظنونه وقناعاته، "إن توقع هذا القارئ إذن يمكن تلخيصه في أن امرأة الحاكم، لن تسهل ولادتها ولن يذهب عسرها، لأنه كما ظهر كذب السروجي في أول تجربة فإنه لابد أن يظهر في التجربة الثانية... وذلك لأن النهاية الأخلاقية تفترض أن ينال الكاذب المحتال عقابه حتى يكون عبرة للقارئ. وكما رأينا من خلال قراءتنا للمقامة، فإن شيئا من ذلك لم يحدث، فالسروجي سينجح في مهمته وستنطلي حيلته وكذبه على الملك والزوجة والخدم، بل وسينال ما لا يجوز في عرف هذا القارئ أن يناله سوى الأخيار، وبذلك تضع المقامة... دائما حسب توقع هذا القارئ الأشياء في غير موضعها، وهذه النهاية تشكل الخرق الأول لتوقع القارئ وانتظاراته"[1]. وهذا أسلوب جاء به الحريري ليفاجئ القارئ ويتركه يدخل في عالم من التأويل والنقاش مخالف لما هو معتاد أن يراه ويعقله، أو الغرابة في الطرح

(1) المرجع السابق، ص 246.

التي تزيد من المقامة جمالاً وجدّةً، لأن هدف الكتابة هو استثارة المتلقي واللعب على أفكاره وقناعاته ما يبعد عن الكتابة الرتابة والملل.

نصل ممّا تقدم إلى القول: إنّ رشيد الإدريسي، وإن عرج على نظرية القراءة في النقد البلاغي، إلا أنه قد أماط اللثام على مجموعة من القضايا التي لامسناها في الفصلين السابقين، كما التفت أيضا عبر الإتيان بالصور إلى ما تخرج له الأيقونات الصور، كمكمّل غير لغوي للمنحى البلاغي الذي تقوم به الاستعارة بلاغيا، وهو ما يحسب لدراسته. ومن النثر نلج الشعر عبر:

المبحث الثالث

التوظيف البلاغي
لتحليل الخطاب الشعري القديم،
كتاب: في سيمياء الشعر القديم –
دراسة نظرية وتطبيقية–نموذجًا (النموذج الثالث)

وظّف "محمد مفتاح" البلاغة العربية القديمة في التحليل العلمي للخطاب الشعري القديم وطبّق دراسته على شعر "أبي البقاء الرندي" (601هـ–686هـ) الذي رثى فيه الأندلس عندما أُخِذت من المسلمين. حيث عمد في تحليل عناصر القصيدة إلى تحليل مستوياتها الصوتية والمعجمية والصرفية والنحوية، وكذا الخصائص الشكلية للبناء الشعري. ما يدعم بحثنا في الفصل الثاني من أن المعطيات البلاغية العربية القديمة قادرة على ممارسة دور تدعيمي للمقاربة العلمية لكل أنواع الخطاب، خاصة الخطاب الشعري.

أولا) المستويان الحرفي والصوتي في الشعر

للحرف قيمةٌ تعبيرية في الشعر، فلقد" اهتم اللغويون والبلاغيون العرب بما أسموه بالقيمة التعبيرية للحرف"[1]. فتموقع الحروف وطبيعتها يساهم مساهمة فاعلة في جودة الشعر ومعناه وغرضه. فالقدامى العرب وكذا الدراسات الحديثة في الشعر لهما آرائهما المهمة حول دور الحروف وأهميتها.

(1) محمد مفتاح، في سيمياء الشعر القديم، –دراسة نظرية وتطبيقية–، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1989م، ص 29.

أ) دور الحرف الرمزي

للبلاغيين العرب رأيهم في المواد الصوتية، وقد قدّموا آراء حول دور الصوت في تلقي الشعر، قال مفتاح: "على أن البلاغيين اهتموا بما يحقق المتعة الموسيقية للأذن أكثر من اهتمامهم بالدلالة الذاتية للحرف، وإن كان الأمر إن -في نظرنا- متلازمين فقد اشترطوا في الكلمة أن تكون فصيحة، وفصاحتها خلوّها من تنافر الحروف، ووضعوا ما يشبه القوانين لخير التراكيب وأكثرها شيوعا"[1]، قال "إبراهيم أنيس": "والكلام الموزون ذو النغم الموسيقي يثير فينا انتباها عجيبا، وذلك لما فيه من توقع لمقاطع خاصة تنسجم مع ما نسمع من مقاطع لتتكون منها جميعا تلك السلسلة المتصلة الحلقات..."[2]. فللحرف مصوتا؛ إيقاع خاص على السمع تستعذبه النفس وتتلذذ به، وكلما كانت الموسيقى الشعرية مضبوطة ومراعية لقوانين الشعر كان التلقي أفضل، كما أن المتلقي يهوى الجرس الصوتي المتقن والموزع بشكل دقيق.

لاستعمال الحروف دور هام في الجانب الصوتي للكلمة وحسنها، وينبغي الابتعاد عن" الحروف التي تحتاج إلى جهد عضلي هي: حروف الحلق، وحروف أقصى اللسان، وحروف وسط اللسان، وحروف الإطباق. وهناك كلمات تكون فيها بعض الصعوبة وهي: جميع الكلمات التي كثرت حروفها، وما تضمن حرفين مما يحتاج إلى جهد عضلي، والحروف الرخوة، وما كان مخرجه أقصى الحنك، والحروف المهموسة"[3]. فللشعر خصوصياته وضوابطه الحرفية على مستوى الكلمات، فهناك من الكلمات العربية التي من الأفضل الابتعاد عنها، وعدم توظيفها في الخطاب الشعري، لكيلا تؤثر على الذوق والتلقي، خاصة تلك الكلمات التي بها حروف متقاربة، أو الكلمة كثيرة الحروف التي يصعب نطقها أو لا تستسيغها الأسماع.

للحرف رمزيته ودوره الهام في نظم الشعر، ولذلك فإن: "اليونان واللاتين والهنود والعرب تبعًا لأولئك جميعا أدركوا قيمة الحرف البيانية. وقد استغلوا هذه

---

(1) المرجع السابق، ص 31.

(2) إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلومصرية، ط2، مصر، 1952م، ص 11.

(3) محمد مفتاح، في سيمياء الشعر القديم، ص 32.

القيمة استغلالا كبيرًا. فنجد عندهم جميعا اللعب بالحروف، ومن ثمة اللعب بالكلمات. وكان شائعًا لدى العرب في الشعر (المبالغة في المحسنات البديعية)، وفي النثر (ما تعكسه مقامات الحريري مثلاً)"[1]. فالاهتمام بالحرف ودوره في الشعر هو مناط اهتمام كل الحضارات ودراساتها الشعرية، فالحروف تصنع الذوق وتحسنه، كما أنّ جمال الشعر من جمال حروفه، وللحروف دور تحسيني في الكلام، ولا يعقل شعر من دون محسنات، لكن ليس على حساب المعنى وكماله. فآراء البلاغيين واللغويين العرب في الحرف ورمزيته تدعم محلل الخطاب الشعري، لأنه يكشف عن المعاني التي يريدها الشاعر انطلاقا من مستوى الحروف الموظفة. وهذا تقارب مهم بين البلاغة وتحليل الخطاب وحتى السيمياء عن طريق مفهوم **الرمزية** الحرفية.

ب) الترديد أو التكرير الحرفي (الصوتي)

ومن الدراسات الصوتية على مستوى الشعر الدراسات المهتمة بتكرار الأصوات (الحروف)، قال مفتاح: "وقد قاد هذا الاهتمام بالمادة الصوتية البلاغيين العرب إلى رصد الألفاظ المتشابهة الأصوات الواردة في الآثار الأدبية، وبخاصة في الشعر فخصوها بالدرس والتصنيف والتعريف، وتسمية كل صنف منها بلقب"[2]. يقول **السجلماسي**: "والتكرير اسم لمحمول يشابه به شيءٌ شيئًا في جوهره المشترك لهما، فلذلك هو جنس عالٍ تحته نوعان: أحدهما: التكرير اللفظي، ولنسمه مشاكلةً. والثاني: التكرير المعنوي ولنسمه مناسبةً، وذلك لأنه إمّا أن يعيد اللفظ، وإمّا أن يعيد المعنى، فإعادة اللفظ هو التكرير اللفظي وهو المشاكلة، وإعادة المعنى هو التكرير المعنوي وهو المناسبة"[3]. فغالبا ما يلجأ الشاعر دائما للتكرار الحرفي واللفظي وذلك لأغراض جمالية، ولما يصنعه كذلك التكرار على صعيد المعنى. فالقارئ يلتفت إلى قضية التكرار لما لها من أثر في الأسماع، وكذلك التكرار يبعث

---

(1) المرجع نفسه، ص 34.

(2) المرجع السابق، ص 34.

(3) أبو محمد القاسم السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تح: علال الغازي، مكتبة المعارف، ط1، الرباط، 1980م، ص 476، 477.

السرور في النفس بسبب تذوق جرس التكرار الذي يزيد من جمالية القصيدة.

أمّا "المشاكلة" في أنواع التكرار فهي: "إعادة اللفظ الواحد بعينه وبالعدد أو بالنوع مرتين فصاعدًا. وهذا النوع هو جنس متوسط تحته نوعان: أحدهما: الاتحاد، والثاني: المقاربة. وذلك لأنه إمّا أن يتحد اللفظان من كل وجه وعلى الإطلاق، وهذا هو الملقب اتحادًا، وإما أن يتحدا من بعض الوجوه، وهذا هو الملقبُ مقاربةً"[1]. ثم ذكر الاتحاد، وذكر تحته البناء، الذي هو: "إعادة اللفظ الواحد بالعدد وعلى الإطلاق المتحد المعنى كذلك مرتين فصاعدًا"[2]، كما ذكر كذلك التجنيس الذي هو: "... إعادة اللفظ الواحد بالعدد وعلى الإطلاق لمعنيين متباينين مرتين فصاعدًا المجرد الإعراب لا لعلّةٍ"[3]. ثم إن التجنيس أنواع، فهناك:

- **تجنيس المماثلة**: وهو: "إعادة اللفظ الواحد بالعدد باختلاف المعنى مرتين فصاعدً"[4].
- **تجنيس المضارعة**: وهو: "إعادة لفظين بمعنيين مختلفين بزيادة حروف أو نقصها أو قلبها أو تقاربها سمعا أو خطًّا"[5]. فالسجلماسي دقق في دراسة التكرار اللفظي (الحرفي) بما هو ظاهرة بديعية لها دورها في تحسين الشعر وتلقيه، فكل تكرار إلاّ ويندرج تحت نوع من أنواعه التي تتعدد بتعدد الشكل والمعنى، والشاعر لمّا يقوم بالتكرار فهو يبغي رفع الرتابة عن العمل الشعري، بما له من أثر على السامع[*].

قال مفتاح: "والخلاصة التي نخرج بها من هذه الأقسام: أن هناك ألفاظًا متحدة اللفظ والمعنى، وأن هناك ألفاظًا أخرى تشترك في اللفظ مع اختلاف في

(1) المصدر السابق، ص 477.
(2) المصدر نفسه، ص 477.
(3) المصدر نفسه، ص 482.
(4) المصدر نفسه، ص 482.
(5) المصدر نفسه، ص 485.
(*) ولا تزال التقسيمات للتكرار الحرفي موجودة في كتاب السجلماسي كـ "تجنيس التركيب"، و"تجنيس الكناية"، و"المقاربة"، و"التصريف"، و"الاشتقاق"، و"الاشتراك". ينظر: المصدر نفسه، ص 490. 496. 498. 499. 502. 506.

المعنى. ولكن معظم الدارسين الغربيين يكاد يسلم بأن الجناس بأنواعه المختلفة يعزز الصلات المعنوية التي تربط بين الوحدات المعجمية... ومهما يكن، فيمكن أن نسلم بأن الشاعر يلجأ إلى التجنيس حينما يريد أن يعبّر عن تجربة متجانسة متكررة خاضعة لوتيرة الزمان الدوري وجبروته"[1]. فاستعمال التكرار يعبر عن حالة نفسية للشاعر، وعن تجربة مرّ بها ويريد ترجمتها عبر اللغة، كما أن للتكرار دوره في مقاربة الخطاب. فالتكرار الذي ورد لدى البلاغيين العرب قد ساهم في مقاربة الخطاب الشعري، لأنّه يصب في انسجام واتساق القصيدة، وهو ملمح بلاغي صوتي يدعم ما ذهبنا إليه في الفصل الثاني من دور البلاغة في المساهمة في مقاربة أنواع الخطابات المختلفة.

ج) التنغيم (من مقومات المستوى الصوتي)

يدخل التنغيم ضمن الجانب الصوتي للشعر، حيث إن: "كيفية النطق بالمواد الصوتية يسهم في إحداث ما يسمى بموسيقى الكلام أو التنغيم، أي تبدلات الصوت بحسب سياق الكلام القائم على محاور الكلام والمخاطب والعلاقة بينهما. ولم يترك العرب القدامى دراسات مباشرة متعلقة بهذا الجانب لأنهم درسوا اللغة المكتوبة، ولم يدرسوا اللغة الشفوية، ومن ثمّة لم يصفوا التنغيم في اللغة وفي الشعر"[2]. فلما يلقى الشعر خطابا شفاهيا، يلجأ الراوي إلى التغني بمقاطع الكلام لكي يلفت السامع إلى بعض المقاطع التي تزيد من التفاعل مع قصيدته، كما أن القارئ يتلذذ بتلك المقاطع لما تحدثه من أثر نفسي فيه.

ج-1) النبر (من مقومات التنغيم)

يقول كمال أبو ديب: "ما معنى أن يكون النبر فاعلاً إيقاعيًا، وكيف تتشكل الأنماط الإيقاعية على أساس من الاعتماد على النبر؟ ولفهم ذلك يجدي هنا أن تحدد طبيعة النبر بطريقة أكثر تفصيلاً... النبر فاعلية فيزيولوجية تتخذ شكل ضغط

(1) محمد مفتاح، في سيمياء الشعر القديم، ص 35.

(2) المرجع نفسه، ص 36.

أو إثقال يوضع على عنصر صوتي معين في كلمات اللغة، ويمكن تمثيل هذه الفاعلية باستخدام مخططات بيانية"[1]. فلما يلقى الشعر مشافهة تبرز فيه مقاطع يرتكز عليها التصويت لأغراض معنوية وجمالية، ولا يعلم هذه الأماكن إلاّ المتمرّس باللغة وقوانينها الصوتية.

للنبر عدة مواضع: "أشهرها وأكثرها شيوعًا نبر المقطع الذي قبل الأخير في حالة الوصل، ونبر المقطع الأخير في حالة الوقف. كما بيّن (إبراهيم أنيس) أنّ النبر يتحول من موقعه إلى مقطع قبله أو آخر بعده من الكلمة. وقد تعرّض لنبر الجمل الذي يكون بالتركيز على كلمة معينة في الجملة"[2]. يظهر النبر في مقاطع مقننة عبر التأليف الكلامي (الشعري). ولما نقوم بتحليل الخطاب الشعري فإننا ضرورةً ننطق المقاطع بنبرها لنظهر دورها التصويتي من خلال جرس موسيقي يلفت سمع القارئ ويأسره.

لا يمكن – حسب أبو ديب – الإتيان بشعر له نبر مضبوط وإنما يأتي عفويةً، حيث قال: "يتوفر في النظام الإيقاعي القائم على النبر، إذن، قالب خارجي يجب ملؤه عن طريق اختيار الكلمات التي يقع عليها نبر لغوي معين والتي تحقق بتتابعها النموذج المطلوب للنبر. لكن ذلك، طبعًا، عملية صعبة التحقيق إذا تصورنا أن كل كلمات اللغة لها نبر محدد، وأن هذا النبر لا يمكن التلاعب به أو تعديله، وقد يؤدي ذلك ببساطة إلى استحالة تأليف شعر له إيقاع مطلوب دون قسر، وتعمّل وتصنع كبيرين"[3]. فالشاعر وهو يؤلف قصيدته يأتي بالنبر بعفوية نتيجة تجاربه ونفسيته المنعكسة على أبياته، ويأتي محلل الخطاب الشعري للأبيات وهي منبورة فيصفها ويعللها كما هي، ولا يطلب ولا يؤاخذ الشاعر لماذا لم يأت بنبره في موضع بعينه.

يتركب الخطاب الشعري من مقاطع لها نبر معين يساهم في إبراز خصوصيات القصيدة الصوتية، وهو خاصية تصاحب التحليل الوافي لأي قصيدة شعرية، وبهذا يُضاف بعدٌ آخر من الأبعاد التي ينبغي مراعاتها في تحليل الخطاب الشعري.

---

(1) كمال أبو ديب، في البنية الإيقاعية للشعر العربي، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1974م، ص 220.

(2) محمد مفتاح، في سيمياء الشعر القديم، ص 37.

(3) كمال أبو ديب، في البنية الإيقاعية للشعر العربي، ص 222.

ج-2) الإيقاع (التنغيم)

تتحكم نفسية وتجربة الشاعر في الإيقاع الشعري، كما" قد يكون من الأسباب الأساسية لهذه الصعوبة أن الإيقاع تابعٌ للتجربة التي يخضع لها الشاعر أثناء صياغته لشعره. فقد يكون الإيقاع هادئا مطمئنا موحيًا بالسلامة أو الحزن أو الكآبة. وقد يكون متعثّرًا حادًّا يوحي باضطراب النفس. بل قد يبدأ البيت بإيقاع هادئ مطمئن ثم لا يلبث أن تثور ثائرته فيصير مفاجئًا حادًّا صاعدًا"[(1)]. فالإيقاع يترجم نفسية وحالة الشاعر عبر خطابه الشعري، فهو يتغير عبر مقاطع القصيدة، كما يتسم أحيانا بالهدوء ليعبر عن الحزن والكآبة، ويكون حادًّا أحيانا أخرى حيث يعكس عدم استقرار حالة الشاعر، إذ يكشف المحلل من خلال الإيقاع عن التجربة الشعورية لمؤلف القصيدة وظروف كتابتها.

د) الوزن والتقفية

إن أهم خصوصية يتميز بها التأليف الشعري عن التأليف النثري الوزن والقافية. فلقد: "كان الاتجاه الغالب لدى النقاد العرب أن جعلوا أهم علامة فارقة بين الشعر والنثر هي الوزن والقافية، وإن اختلفت تعاريفهم للشعر بحسب ثقافة المعرفين وعصورهم..."[(2)]. فالشعر: "ما نظم بالقصد من الكلام على وزن معلوم وقافية ملتزمة، وقد يأتي من الكلام ما هو على وزن الشعر وليس بشعر لأنّه خرج اتفاقًا لا قصدًا"[(3)]. كما يضاف إلى الأوزان والقوافي في الشعر؛ التخييل، القصدية، والنظم، ولا يمكن أن يتميز الكلام الشعري عن الكلام النثري إلاّ من خلال الأوزان والتقفية، ولهذا جعلت العرب للأوزان علمًا قائمًا بذاته هو علم العروض، أي دعامة تحليل الخطاب الشعري.

وقد ربط القرطاجني بين الأوزان ودورها في المعنى قائلا: "فالعروض الطويل تجد فيه أبدًا بهاءً وقوّةً، وتجد للبسيط سباطةً وطلاوةً. وتجد للكامل جزالةً وحسن اطّرادٍ،

---

(1) محمد مفتاح، في سيمياء الشعر القديم، ص 38.

(2) المرجع نفسه، ص 38، 39. (بتصرف)

(3) أبو البقاء الرندي، "الوافي في نظم القوافي"، تح: هدى شوكت بهنام، عبد الجبار عدنان، مجلة كلية التربية، ع: 04، الجامعة المستنصرية، 2007م، ص 29.

وللخفيف جزالةً ورشاقةً، وللمتقارب سباطةً وسهولةً، وللمديد رقّةً وليًنا مع رشـــاقةٍ، وللرمل ليًنا وسهولةً. ولما في المديد والرمل من اللين كانا أليق بالرثاء وما جرى مجـــراه منهما بغير ذلك من أغراض الشعر"(1). فالأوزان تســـاهم في الخصـــائص الشـــكلية للقصيدة، كما أن المعاني تساهم في الوزن الدلائلي الناتج عن التأليف الشعري.

اهتم الدارسون الغربيون المحدثون بالوزن والقافية، مثلما اهتم العرب القدامى بذلك. فقد جاء كتاب (يوري لوتمان-بنية النص الفـــني)"... عاكسًـــا لنشـــاط الشكلانيين الروس وتركيبًا لآرائهم، فقد اهتموا بموسيقى الشعر من وزن وقافيـــة وإيقاع... فرصدوا تطورها ومحافظتها ووظيفتها ودورها البنيوي. ومجمل آرائهـــم أن البنية الإيقاعية تمارس على النص تأثيرًا خاصا بها من حيـــث تبـــديل بعـــض الكلمات وإحلال أخرى محلّها. وأن للبحر نوعًا من التوجيه إلى الغرض المقصـــود والمعجم المعيّن"(2). فقد تأثر الشكلانيون الروس بعلوم اللسان، وأقـــاموا درســـا لمقاربة الخطاب الأدبـــي بما فيه الشعر، الذي أعطوه تفسيرًا بنويا، بمـــا في ذلـــك الوزن والقافية، ضمن بعده النصي الخطابـــي.

ختاما يقول محمد مفتاح: "والخلاصة التي ننتهي إليها أن البحث في الـــوزن والقافية عرفتهما جل الثقافات العالمية التي ترى في: الشعر=النثر+الموسيقى. ومـــن ثمة فإن الوزن وما إليه يكوّن جوهر الشعر القديم. على أنّ تطور الوزن والدراسات التي تعلّقت به خاضعة للتطور التاريخي ولخصوصية كل ثقافة"(3). ففـــي تحليـــل الخطاب الشعري لابد من منح الوزن والقافية الأهمية القصوى في التحليل؛ لأنهمـــا دعامة الشعر ومحور الشكل الذي يقود معانيه، إلى جانب المستوى المعجمي:

ثانيا) المستوى المعجمي

للشعر معجمه اللفظي الخاص به، الذي يكتسب منه خصوصـــيته، و"مـــن البديهي أن كل علم من العلوم يمتلك كلماته الوظيفية الخاصة بـــه، فـــالنحو لـــه

(1) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 269.
(2) محمد مفتاح، في سيمياء الشعر القديم، ص 41.
(3) المرجع نفسه، ص 41.

معجمه الخاص، والبلاغة لها ألفاظها الاصطلاحية... وهذا المعجم متطور لتطـــور الزمان والعلم... وكذا الشعر فإن له أغراضًا متعددة، وكل غرض يفترض وجـــود ألفاظ معينة تحقق بينها، حين تركب، نوعا من التمـــاكن والانســـجام، وتبعـــد الانفصال والتباين، وكل غرض من تلك الأغراض يتطور معجمه تطورًا ما تبعًـــا للتحولات المجتمعية"[1]. وقد استحدث الشعر العربـــي عبر تاريخه الطويل معجما خاصا به، يلجأ إليه الشاعر كلما أراد أن يبني قصيدته، ولما يتعامل محلل الخطـــاب الشعري مع المفردات المعجمية للقصيدة؛ سوف تعطيه لمحة عن الغرض الذي يريد الشاعر تحقيقه، كما أن تقارب المفردات واجتماعها في حقل معين ســـيزيد مـــن التفسير الشمولي للقصيدة، ويعطيها بعدًا علميا في التحليل.

ينبغي لمؤلّف الشعر أن يتخيّر المعجم المناسب لغرضه، فلا يكتفـــي بـــالنظم والتقفية فقط لأنّ" الشعرية في الشعر إنما هي نظم أي لفظ اتفق، كيف اتفق نظمه وتضمينه أي غرض اتفق على أي صفة اتفق، لا يعتبر عنده في ذلـــك قـــانون ولا رسم موضوع، وإنما المعتبر عنده إجراء الكلام على الوزن والنفاذ به إلى قافية، فلا يزيد بما يصنعه من ذلك على أن يبدي عن عواره، ويعرب عن قـــبح مذاهبـــه في الكلام وسوء اختياره"[2]. فمصطلح الشعرية الحاضر في الدراسات الحديثة كـــان معلوما لدى القرطاجني بشكل يقارب المفهوم الحديث، بحيث تتلخص الشـــعرية الحديثة (Poétique)[*] في دراسة أدبية الخطابات المنجزة، وحسب القرطـــاجني: فالخطاب الشعري متركب من الألفاظ، وهذه الألفاظ هي الـــتي تعطـــي ذلـــك الخطاب رونقه وجاذبيته، وأي إساءة للألفاظ، هي بمثابة إساءة للخطاب الشعري ككل، وهذا ما ينبغي على الشاعر أن يحرص عليه، ويحسن ربط الغرض بمعجمه.

---

(1) المرجع السابق، ص 42، 43. (بتصرف)

(2) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 28.

(*) لقد أخذ مفهوم الشعرية أهمية بالغةً في المعاجم الحديثة، وقد كان لها حقها من التوصيف ضمن معجم غريماس وكورتاس، وهي: "بالمعنى المعتاد، الشعرية من الأدوات، سواءً في دراسة الشعر أو المجموعات النثرية (النظرية العامة لمصادر الأدب) هذه الخلفية المعروضة ظهرت منذ أرسطو. وقد انتعشت مؤخّرًا من طرف المنظّرين في علم الأدب". ينظر:
Julian Greimas, Joseph Courtes, Dictionnaire Raisonné, p. 282.

الخطاب الشعري إذًا فضاءٌ واسع لاستيعاب مجال معجمي متعدد يحصر ضمن عدّة عوامل منها:

- تداخل ألفاظ آتية من أزمنة مختلفة.
- تداخل ناتجٌ عن تركيب ألفاظ متعددة الاستعمال.
- تداخل مرده إلى الإدراك المتناقض للمعطيات المعجمية ذات القيمة الاجتماعية-الثقافية.
- تداخل حاصل في الفئة مميز للأسلوب المستعمل. [إلى مستويات اللغة].[1]

فلقد جاء المعجم الشعري ثريا لأنّه نتيجة لعوامل عديدة، وهو ملمحٌ محمودٌ يزيد من قدرة الشاعر على إيجاد ما يناسب أغراضه من المفردات في حينها، وبجهدٍ أقل، كما يجعل من الشعر منفتحًا على عدّة زوايا تحليلية يتيحها الثراء اللغوي.

وقد تبنّى محمد مفتاح موقفًا خاصًّا به في معالجة ودراسة المعجم الشعري؛ إذ تبنى المنهج الفيلولوجي، حيث يقول: "ولاستغلال هذه الأبعاد وإيحاءات الكلمة الشعرية فإننا التجأنا إلى تبني المنهاج الفيلولوجي لتصنيف معانيها واستغلال ما يلائم المقام، استثمار ما توحي به من تداعيات مختلفة سواءٍ أكانت عن طريق الصور المرتبطة أو عن طريق المقاربة والمقارنة... أو عن طريق التداعي بالإحالة إلى أحداث تاريخية وثقافية (قرائية، وحديثية، ومثليّة، وشعرية...)، أو عن طريق غياب الكلمة، إذ غيابها فيه دلالة على المعنى الثاني"[2]. فقد أراد مفتاح المنهج الفيلولوجي في معالجة ودراسة الجانب المعجمي في الشعر؛ لأنه يفتح مجالاً واسعًا للدراسة، وذلك نظرا لانفتاحه على التاريخ وثقافة المجتمعات عبر العصور، حيث يُكيِّفُها مقامُ المفرداتِ مع السياق التاريخي كما تمّ تداولها.

ففي المستوى الثاني من التحليل أي المستوى المعجمي نكون قد انتقلنا إلى مقاربة الخطاب كبنية مشكلة من مستويات منتظمة ومتراكبة، بدءًا من المستوى الصوتي، مرورًا بالمستوى المعجمي، ووصولا للمستوى التركيبي والتداولي كما سنرى؛ محاولين الخروج بما يجمع البلاغة بتحليل الخطاب عبر ما يلي من التحليل الذي قام به محمد مفتاح في الخطاب الشعري.

---

(1) محمد مفتاح، في سيمياء الشعر القديم، ص 44.

(2) المرجع السابق، ص 44.

ثالثا) مستوى التركيب

لقد أدرك الدارسون العرب القدامى، كما أدرك الدارسون المحدثون أهمية الألفاظ مجتمعة، ومركبة، تعضد بعضها بعضًا، و"لكن الكلمة مهما كانت تحمل ذاتيا من خصائص، فإن التركيب هو الذي يزيد في تلك الخصائص أو يقلل منها. فالعلاقات تنتُج عن التركيب. وقد اهتم النحويون والبلاغيون العرب بالتركيب"[1]. حيث قسّم مفتاح التركيب إلى نوعين: التركيب النحوي، والتركيب البلاغي.

أ) التركيب النحوي

كان "عبد القاهر" من أبرز الدارسين العرب القدامى الذين فصّلوا في الدور الذي تلعبه الكلمات مجتمعة عن طريق نظرية النظم التي تعطي تفسيرًا علميًا للإبداع الأدبي، فقد "... تجاوز الفائدة والاستقلال إلى تبيان دور العلائق النحوية في المعنى وفي جمال النص الفني. فقد أفاض الحديث في المقومات النحوية من تقديم وتأخير، وتعريف وتنكير، وخبر وإنشاء، وفصلٍ ووصلٍ..."[2]. ولهذا أعطى عبد القاهر تفسيرا علميا لكل أنواع الخطاب بما في ذلك الخطاب الشعري، فالشاعر بفضل ما تتيحه إمكانات اللغة التركيبية، يستطيع أن يبدع في شعره ويخرجه في قالب مميز مخالف لما هو معتاد عن طريق الانزياح والتلاعب بالكلمات ضمن حدود القواعد اللسانية.

من أبرز الدارسين الغرب المحدثين في مجال التركيب النحوي للبناء الشعري كما يحدد "محمد مفتاح" في تحليله: "رومان جاكبسون" (Roman Jakobson)، فقد" انطلق من مسلمة هي: أن البنية النحوية تؤدي في الأثر الشعري وظائف مكمّلة لا تؤديها في غيره، ولخّصها في وظيفتين:

- في المواقع النحوية المتعادلة أو المتقابلة التي تؤدي وظيفة جمالية لأنها تنظم غير المنظم من الألفاظ المعجمية المختلفة.

---

(1) المرجع نفسه، ص 45. (بتصرف)

(2) المرجع السابق، ص 45.

- في إسهام التركيب النحوي في المعنى وتكوين الصورة"[1]. فقد اهتم رومان جاكبسون ومن معه من الدارسين بالشعر وفسّروه كبنية خاضعة لمجموعة من القواعد النحوية، دورها ربط العناصر المعجمية وتوزيعها وفق خصوصيات متعددة، بما في ذلك الخصوصية الشعرية كالتقابل وتكوين الصور.

يؤكد **جاكبسون** على وجود "الوظيفة النحوية" في الشعر، فيقول: "ومن البديهي جدًّا أن المفاهيم النحوية -أو بعبارة فورتيناتوف Fortunatov، أن الدِّلالات الشكلية تتوفر لها في الشعر إمكانات للتطبيق واسعةٌ جدًّا، وذلك بقدر ما يتعلق الأمر هناك بتمظهر اللغة المرتبطة بالشعر"[2]. فالشعر تركيبٌ لغوي خاضع لقواعد معينة، وطبيعي أن يتضمن مستوى نحويا مشكّلا لنظامه. والنحو -حسب جاكبسون- وسيلة بيد صانع الخطاب الشعري، حيث يقول: "إن الخاصية الملزمة للأدوات النحوية والمفاهيم النحوية تضطرّ الشاعر إلى مراعاة هذه المعطيات، وذلك إمّا بأن ينحو نحو التناظر وأن يعتمد على هذه النماذج البسيطة القابلة للتكرار والواضحة بما فيه الكفاية... لقد كرّرتُ مرارًا أن تقنية القافية هي إمّا نحوية وإما نحوية مضادة، ولا يمكن أن تكون غير نحوية، ويمكن أن نقول عنها كل ما يتعلق بالنحو عند الشعراء، وفي هذا الصدد، توجد هناك مشابهة ملحوظة بين دور النحو في الشعر، وبين قواعد التأليف عند الرسّام المعتمدة على نظام هندسي خفي أو ظاهر..."[3]. فالمستوى النحوي للخطاب الشعري، يؤثر على المستويات اللسانية الأخرى، ومؤلف الخطاب الشعري سيستعين لا محالة بالقواعد النحوية؛ التي تمنحه مساحة لتأليف الشعر، مثلما تمنح المخططات والمنحنيات المهندس حتى يبرع في إنشاءاته.

يؤكد جاكبسون على الدور الذي يلعبه النحو في الصناعة الشعرية، فيقول: "تمحورت أبحاثي... حول ما سمّاه هوبكنس الفطن بـ: صور النحو، هذا المجال

---

(1) المرجع نفسه، ص 46، 47.

(2) رومان جاكبسون، قضايا الشعرية، تر: محمد الولي، مبارك حنون، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء، 1988م، ص 65.

(3) المرجع السابق، ص 71، 72.

الذي كان إلى فترة حديثة غير مدروس، وبخصوص الدراسات المتعلقة بقضايا القافية أو الوزن فحسب، لم يفكر أحد في مؤاخذهما على إرادة اختزال الشعر إلى العروض والقوافي... ليست هناك أيّة دراسة نحوية للقصيدة تمدّنا بأكثر مما يمدنا به نحو الشعر، وعلى عكس ذلك، فإن ما يراه ملازمًا لها، أي عدم تمييزية النحو في الشعر رأي خاطئ بالطبع"[1]. فاستبعاد النحو من الدراسة الشعرية –مثلما كان من قبل– يقيض من تطور مقاربة الخطاب الشعري، وينبغي أن يأخذ الشعر كنظام لساني، يخضع لمستويات مترابطة ومنسجمة، تسهم في تطور المعنى والدلالات التي هي هدف كل تأليف شعري أدبي.

وقد رأينا في الفصل الثاني ما قدّمه عبد القاهر من آراء في مقاربة الخطاب بكل أنواعه نثريا كان أم شعريا، وقد كانت نظرية النظم مستوفية لإعطاء تفسير علمي لتركيب القصائد، ووسمها بتفسير علمي لتضام مفرداتها.

ب) التركيب البلاغي

إضافة للتركيب النحوي، نجد تركيبًا آخر يمشي بالموازاة معه، وهو التركيب البلاغي، قال مفتاح: "على أن التركيب النحوي يتداخل معه نوع آخر من التركيب، وهو ما أسميناه بالتركيب البلاغي... ونقصد به ما توفّر فيه عنصران اثنان المحاكاة والتخييل. وقد شغل التخييل والمحاكاة الفكر البلاغي والنقدي العربيين فخصوهما بعناية فائقة. وقد زاد هذه العناية تطورهما في المصدر، أي في الثقافة اليونانية نفسها"[2]. إذ تحدث عملية التخييل على مستوى التركيب البلاغي، لأنّه الفضاء الذي يصنعه الشاعر وفق خياله وتصوراته ونظرته إلى الواقع عن طريق محاكاة ما هو موجود في الطبيعة.

فالتخييل هو الذي يشكل التركيب البلاغي، و"هذا الجنس من علم البيان (**التخييل**) يشتمل على أربعة أنواع تشترك فيه ويحمل عليها من طريق ما يُحمل المتواطئ على ما تحته، وهي: نوع التشبيه، ونوع الاستعارة، ونوع المماثلة –وقومٌ

(1) المرجع نفسه، ص 80.

(2) محمد مفتاح، في سيمياء الشعر القديم، ص 47، 48.

يدعونه التمثيل -، ونوع المجاز. وهذا الجنس هو موضوع الصناعة الشعرية"[1].
فعلى الشاعر إغناء تركيبه البلاغي ببعض الصور التي تكون نتيجة تخييله وقدرته على تصوير الأشياء، وهو فضاء مجرد، يختلف عن الفضاء الموجود في الكلام العادي، فلا صناعة شعرية من غير تخييل.

يعتبر القرطاجني من أبرز البلاغيين الذين قدّموا دراسة مستفيضة عن التخييل "فعدد أقسامها وأهدافها، وهي من حيث الموضوع قسمان:

1- قياس الحاضر على الغائب لتشبيه وضع بوضع، أو حالة بحالة، أو موقف بموقف.
2- ومحاكاة خيالية لأحداث، أو أفعال لم تقع، وإنّما يخترعها الخيال اختراعا"[2].

وحسب القرطاجني فإن المحاكاة قد تكون مطابقة للشيء الموصوف كما هو، أو تنقل صفاته فقط أو بعضًا منها، قال: "وتنقسم المحاكاة من جهة ما تخيّل الشيء بواسطة أو بغير واسطة قسمين: قسم يخيّل لك فيه الشيء نفسه بأوصافه التي تحاكيه، وقسم يخيّل لك الشيء في غيره. وكما أن المحاكي باليد قد يمثّل صورة الشيء نحتا أو خطًّا فتعرف المصور بالصورة، وقد يتّخذ مرآة يبدي لك بها تمثال تلك الصورة... فكذلك الشاعر تارة يخيل لك صورة الشيء بصفاته نفسه، وتارة يخيلها لك بصفات شيء آخر هي مماثلة لصفات ذلك الشيء"[3].

يبنى الخطاب الشعري -إذن- على التخييل والمحاكاة، كما تُضاف إلى ذلك عناصر أخرى؛ لأن الشاعر لما يكون بصدد كتابة شعره يستحضر الشيء الذي يصفه فيخرجه بخياله موازاة وتمثيلا لشيء آخر يتجاور معه، فيمكن أن يكون التشابه أو المجاور كاملاً، كما يمكن أن يكون جزئيا.

كما استدل "محمد مفتاح" بكتاب (اللغة الراقية ونظرية الشعرية) لـ "جان كوهين" (Jan Kohn)، حيث يقول شارحا: "فالمقولات التي يحتوي عليها كتابه

---

(1) السجلماسي، المنزع البديع، ص 218. (بتصرف)
(2) محمد مفتاح، في سيمياء الشعر القديم، ص 49.
(3) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 94.

هي: الخرق، والكليانية، والعاطفية، والتكرار. وقد برهن عليها بتفصيل في كتابه، ولفت انتباهنا مما ورد عنده ترادف الوصف والمحاكاة، وجوهر الوصف والمحاكاة في الشعر المجاز، مما قرّب الشقة بينه وبين بعض الآراء النقدية العربية (ابن سينا، وحازم والسجلماسي...) لاشتراك المصدر المستقى منه، وهو الثقافة اليونانية"[1]. ولذلك يمكن الجمع بين مختلف الآراء اليونانية والعربية القديمة، ودراسات الغرب المحدثين للإفادة من التخييل والمحاكاة في تحليل الخطاب الشعري، بما يكونه من مجازات لا يخلو منها أي شعر، مع مراعاة خصوصية الشعر العربي الذي يختلف في تكوينه كثيرًا عن أشعار الأمم الأخرى، وبما تمنحه اللغة العربية من إمكانات واسعة للتعبير. فبهذا تُضاف لبنة أخرى إلى تحليل الخطابات الشعرية، عبر فكرة التركيب البلاغي المنبني على التخييل. فتحليل الخطاب مجال واسع ومتجدد يستوعب كل الطروحات الجديدة والعلمية، ولاسيما التداولية فيما يلي:

رابعا) المستوى التداولي (المقصدية)

يتضمن الشعر مقاصد يهدف الشاعر من ورائها إلى تحقيق غايات، كما تتحكم هذه المقاصد في البنى والتراكيب الشعرية، و"بما أن أغلب القصائد العربية الطويلة تحتوي على أغراض فرعية، فإنّها -نتيجة لذلك- تحتوي على مقاصد متعددة، وكل مقصد يستدعي ألفاظًا وهيأة من التركيب معينة تنجم عنها معانٍ أولية (صريحة) ومعانٍ ثانية (متضمنة)"[2]. وهو ما يزيد من حاجة الخطاب الشعري إلى مناهج التحليل الحديثة التي تبحث عما وراء البنية السطحية لاستجلاء البنى العميقة، فكشف المقاصد ليس بالأمر البسيط، كما لا يتحقق إلاّ إذا تتبعنا هيئات التراكيب التي تكوّن البنية اللسانية للقصيدة، حيث نتمكن من المعنى الضمني بعد الصريح، ما يساهم في كشف إيحاءات الدوال.

وقد كان البلاغيون القدامى واعين لدور المقصد في بناء القصيدة وتشكيلها، حيث قال القرطاجني: "وملاك الأمر في جميع ذلك أن يكون المفتتح مناسبًا لمقصد

---

(1) محمد مفتاح، في سيمياء الشعر القديم، ص 51.

(2) المرجع السابق، ص 54. (بتصرف)

المتكلم من جميع جهاته. فإذا كان مقصده الفخر كان الوجه أن يعتمد من الألفاظ والنظم والمعاني والأسلوب ما يكون فيه رقّةٌ وتفخيم. وإذا كان المقصد النسيب كان الوجه أن يعتمد منها ما يكون منها فيه رقّةٌ وعذوبة من جميع ذلك، وكذلك سائر المقاصد. فإن طريقة البلاغة فيها أن تفتتح بما يناسبها ويشبهها من القول من حيث ذكر"[1]؛ فالألفاظ التي يفتتح بها الشاعر قصيدته توحي بمقصده وغرضه من تأليف خطابه، كما يتفطّن المحلل من نوعية الألفاظ عبر ما يريده الشاعر، وما تحمله القصيدة من معانٍ، فلقد كانت القصدية من أهم ركائز الشعر القديم، مثلما هي من أهم عناصر التداولية الحديثة.

تشكل القصدية في العصر الحديث أساسا، من أساسيات التداولية، والتي امتدت مفاهيمها إلى الخطاب الشعري، "فالنص الشعري، إذن، ليس لعب ألفاظ، وليس نقل تجربة ذاتية فحسب، وإنما يهدف، فوق ذلك كله، إلى الحث والتحريض. وبهذا المفهوم الأخير تشمله نظرية (الكلام فعل)، أو التداولية، وتعني هذه النظرية: أن التحدث يقصد به تبادل الأخبار، وفي نفس الوقت يهدف إلى تغيير وضع المتلقي وتغيير نظام معتقداته أو تغيير موقفه السلوكي"[2]. فيمكن للقصيدة أن تتضمن أبعادًا تداولية مختلفة، كالنهي، والزجر، والقيام بفعل أو تركه؛ قصد تغيير القناعات والأفكار وحتى العقائد، ولذلك فإن محلل الخطاب الشعري يمكن أن يلمس تلك الملامح القصدية التي تنطق بها القصيدة عبر بنياتها اللسانية ونظامها الفكري.

وهذا ما ذهبنا إليه في الفصل الثاني، حول علاقة البلاغة العربية بالتداولية، ونظرية الأفعال الكلامية، حيث إن العبارات تحوي مقاصد أو أفعالا ينجر عنها قصد ما تجاه المتلقي، فقد كان هناك تشابه بين القصدية عند النقاد البلاغيين العرب، والتداوليين المحدثين، ويمكن رصد هذا التشابه حسب مفتاح من عدة أوجه أهمها:

---

(1) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 310.

(2) محمد مفتاح، في سيمياء الشعر القديم، ص 55.

أ) العقدة بين الشاعر والمخاطب

هناك علاقة بين الشاعر والمتلقي ينبغي على كاتب القصيدة أن يحترمها ويعرف خصوصياتها، فـ: "المعاني الجمهورية، والوضوح، واحترام العقدة بين المتكلم والمخاطب هي ما يسميه التداوليون... بمبدأ التعاون بما يعنيه من قواعد: الكمية (الاستقصاء) والكيفية (الصدق) والعلاقة، والجهة"[1]. حيث إن هناك آراء للقرطاجني تطابق هذه المفاهيم التداولية، منها قوله: "ولا يخلو اعتبار المعنى في جميع ذلك من أن يكون بالنظر إلى ما هو ضروري فيه أو متأكّد أو مستحب. والضروري هو ما لا يتم الغرض إلاّ به. والمتأكّد هو الذي يزيد به الكلام حسنًا، وإن كان قد يستغني عنه ويكون اعتماده بين الرّجاحة على اطّراحه، والمستحب هو المائل إلى حيّز الرجحان في ذلك"[2].

فالشاعر يحترم العقد الذي بينه وبين سامعه، حيث يكون صادقًا في أحاسيسه ومراعيًا للقدرة اللغوية للمتلقي، فلا يستعمل إلاّ ما هو ضروري من الكلام وما هو مستحب ومبجّلٌ لدى الآخر، كما يسعى في ذلك إلى تحسين أسلوبه وإخراجه وفق متطلبات المقصد؛ الذي هو التأثير في السامع وتحقيق الاستجابة المناسبة.

ب) قانون الصدق

لقد كان النقاد البلاغيون العرب يضيقون من مجال الكذب، ويوسّعون من الصدق والتعامل به في أشعارهم، ولذلك فإن هذا المبدأ يتفق مع قانون الصدق في التداولية. قال مفتاح: "وقد أدّى الحديث عن الجهات بالنقّاد العرب إلى أن يضعوا شروطًا للمعاني تشبه إلى حدٍّ كبير قانون الصدق. وبناءً على هذا رفضوا الإحالة والتناقض والتدافع، ماعدا في التهكم بالشيء والزراية عليه، والإضحاك به، وما عدا في المشاجرة والمغالبة وأجازوا في الشعر الاختلاق المكاني، وأبعدوا الاختلاق الامتناعي أو الاستحالي..."[3]. قال القرطاجني في قضية الصدق والكذب، بأن:

(1) المرجع نفسه، ص 56.

(2) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 131.

(3) محمد مفتاح، في سيمياء الشعر القديم، ص 56، 57.

"... صناعة الشعر لها أن تستعمل الكذب إلاّ أنّها لا تتعدى الممكن من ذلك أو الممتنع إلى المستحيل، وإن كان الممتنع فيها أيضًا دون الممكن في حسن الموقع من النفوس"(1). فهذا المبدأ التداولي يضاف إلى المبادئ الأخرى المحددة لخصوصيات الشعر العربي في الحد من الكذب، والسماح به في مواضع محدودة بعينها، فالصدق مبدأ تداولي يضمن للخطاب الشعري وغيره من الخطابات حسن التلقي، لأن السامع ينفر من الخطابات الشديدة الاتصاف بخاصية الكذب.

ج) قانون الاستقصاء (أو الكمية)

قانون الاستقصاء أو الكم، وهو أن يصف الكلام المعنى تامًّا من غير إنقاص، وهو أحد عناصر التداول الكلامي، وقد نقل مفتاح قولاً عن "أوزفالد ديكرو" حول هذا القانون مفاده: "إن هذا القانون يحتّم على المتكلّم أن يعطي على الموضوع المتحدث عنه المعلومات الأساسية التي يمتلكها والتي من شأنها أن تفيد المخاطب"(2). قال القرطاجني في شأن الكم اللازم للوصف في تأليف الشعر: "فالمحاكاة التامّة في الوصف هي استقصاء الأجزاء التي بموالاتها يكمل تخييل الشيء الموصوف"(3). فالقصيدة العربية الجيدة هي تلك القصيدة المبنية على التخييل الذي يبرع الشاعر في الإتيان فيه بالبنى اللسانية التي تستوعب التصوير والمحاكاة والوصف كاملاً، وقد كان البلاغيون العرب يعيبون على الشاعر الذي ينقص من المعنى أو يخل بشيء منه.

فتضافر الآراء التداولية البلاغية العربية القديمة بالآراء التداولية الحديثة يساهم مساهمةً فعّالةً في مقاربة الخطاب الشعري، وكشف معانيه ودراسة جزئياته، وهذا تعزيز لما أوردناه في الفصل الثاني من أن البلاغة العربية ترتبط بشدة بالبحث التداولي الحديث، خاصة إذا علمنا أن البلاغة العربية تداولية في صميمها.

نصل بعد ما تقدم إلى ما ختم به محمد مفتاح قائلا: "... نكون قد أنهينا الحديث عن بنية الخطاب الشعري الذي يتركّب من عدّة عناصر متضافرة وهي

---

(1) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 136.
(2) محمد مفتاح، في سيمياء الشعر القديم، ص 57.
(3) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 105.

المواد الصوتية، والمعجم، والتركيب، والمقصدية، ويجب أخذ كل منها في الاعتبار عند تحليل الخطاب الشعري، وأما البحث في عنصر واحد منها بمعزل عـــن بـــاقي العناصر الأخرى فإنّه يجعل النتائج المتوصل إليها متناقضة وجزئية وخاطئة، كمـــا يتّضح ذلك من أبحاث دارسي موسيقى الشعر أو الصورة الأدبية..."[1]. فقد أراد مفتاح من دراسته أن تكون دراسة شمولية ومتماسكة تخضع لخصـــائص البحـــث العلمي المضبوط، والذي استقاه من البحث اللساني الحديث، ليظهر لمحلل الخطاب الشعري العربـــي أن كل جزء أو مستوى من القصيدة يحيل إلى بقيـــة العناصـــر الأخرى، ليتم في النهاية استنطاق كل العمل الشعري حـــتى يفضـــي إلى معانيـــه وخفاياه، ويجلي بنيته العميقة.

نتائج

*** كتاب "مملكة النص" لـ محمد سالم**

1- كان الفكر السيميائي (الدلائلي) مجسّدًا بقوّة في أعمال عبد القاهر الجرجاني، حيث" إن مقاربات النص الجرجاني في خطابه النقدي والبلاغي هي مقاربات ذات طبيعة سيميائية، وذلك من خلال تحليله الذي أسند لنفسه مهمة كشف علامية اللغة، لأنه يعدّها نظامًا من العلامات والسمات، وبهذا توصل البحث إلى أن الجانب العقلي التأسيسي عند الجرجاني جانبٌ ذو طبيعة علامية، بمعنى أن السيميائية كانت -في الإطار المفهـــومي- بنيـــة مؤسســـة في الفكـــر الجرجاني"[2]. فالجرجاني يرى العالم حوله نظامًا من السمات والدوال، بما في ذلك الاستعمال اللغوي، وقد أثبت محمد سالم الحضور السيميائي في الفكر البلاغي عند الجرجاني، حيث كان يفصل في عناصر البيان ونظام اشـــتغالها المعنوي، وتداخلها. أمّا الناظر في ذلك التحليل والتفسير، فيرى حضورًا قويًا للنشاط السيميائي في تلك الدراسات. وهو ما يؤكد ما ذهبنا إليه في الفصل الأول في العلاقة المتينة التي تجمع البلاغة بالسيمياء.

---

(1) محمد مفتاح، في سيمياء الشعر القديم، ص 58.

(2) محمد سالم سعد الله، مملكة النص، ص 153.

2- استطاع عبد القاهر أن يعطي التفسير السيميائي للعناصر المجازية بفكرة "معنى المعنى"، قال محمد سالم: "اشتغل الخطاب المجازي الجرجاني على ثلاثة أنظمة (اللساني/الألفاظ/الدوال)، (الدلالي- المعنى/المدلولات)، (الماورائي-معنى المعنى)، وقد اشتغل النظامان الأول والثاني جنبًا إلى جنب لتحديد قيمة العلامة في الشكل البلاغي، في حين اشتغل النظام الثالث في المدلولات الثواني عن طريق تجاوز البنية الظاهرية للوصول إلى مكنوناتها"[1]. ولهذا يعتبر التحليل الذي قدّمه الجرجاني متفقًا ومنسجمًا مع الدراسات الحديثة في اللسانيات والسيمياء، حيث إن التركيبة الأولية (الدال/المدلول) تصبح دالاً لمدلولٍ ثانٍ، ما يمنح التفسير المعنوي والاشتغالي للمجاز، وبالتالي فإن نظام اشتغالِ الدوال في المعنى المباشر يختلف عن نظام اشتغال الدوال في المعنى غير المباشر، وهو كذلك سندٌ لما ذهبنا إليه في الفصل الأول.

3- كشف محمد سالم عن وجود تداخل بين فنون البيان، وتشارك للمدلولات فيما بينها، مع وجود مساحة مشتركة، حيث قال: "تتبع البحث التشابه الدلالي بين نصوص الفنون البيانية انطلاقًا من النص الجرجاني فتوصل إلى مجموعة العلاقات الداخلية التي تربط بينها وأطلق عليها: (علاقات التناص الاستعاري)، وحدد تلك العلاقات بثلاث: (التفاعل النصي، العام والخاص، الاستعاضة)، وتعد الاستعارة التي تتشكل من التشبيه بؤرة هذه العلاقات والمحرّك الدلالي لها"[2]. وقد كان عبد القاهر متفطّنًا لهذه القضية، وهذا ما حذا به لأن يعقد مقارنةً بين الاستعارة ومختلف عناصر البيان الأخرى، نظرًا لوجود علائق تشارك دلالي، وهو ما تتبعه محمد سالم وأثبته من وجهة نظر سيميائية عن طريق مفهوم التناص والتداخل، ليتوصل إلى وجود حيّز مشترك بين فنون البيان تتقاسمه عناصره، وتعتبر الاستعارة المركز في هذا التناص.

4- يعتبر التأويل نقطة لقاء بين السيميائية والبلاغة الجرجانية، لذلك فقد شكّل: "... التأويل في النص الجرجاني عملية التحول العلامي إلى باطن النص عن

---

(1) المرجع نفسه، ص 157.

(2) المرجع السابق، ص 157، 158.

طريق تفسير بعض الشفرات الظاهرة على سطحه، وأن العلامـــات النصـــية قابلةٌ للتجدد مع كل قراءة تأويلية، ونشاط تأويلي يمارس عليها"[1]. ولهـــذا كان عبد القاهر يدعو القارئ إلى إجهاد الفكر، والتأوّل لفهم بعض الظواهر البلاغية، وهو ما تشتغل عليه السيميائية الحديثة كذلك، لأنّ التأويل يستجلي الظواهر المخفية بآليات علمية دقيقة. ومن هنا يعتبر التأويل وسيلة لكشـــف الكثير من البنيات البلاغية.

5- كان عبد القاهر يثني على التشبيه المستخرج من مدلولات متباعدة، فقـــد: "توصّل البحث إلى أنّه كلما كان التباعد بين الدوال في الجنس على حد رأي النص الجرجاني، كان ذلك أدعى إلى استحضار عدة مـــدلولات، ومعـــاني إضافية. وهذه هي قيمة التشبيه في هذا الميدان"[2]. فالتشبيه الجيد، هو ذلـــك التشبيه الذي يُؤتى به من عناصر تبدو غير متشابهة، فيبرع البليغ في استحضار ذلك البناء وكشفه، والإتيان به، ويدخل القارئ ضمن مجـــال واســـع مـــن النشاط التفسيري والتحليلي والكشف الدلالي.

6- درس عبد القاهر التناص وأطلق عليه مفهوم السرقات الشعرية، وهو ظاهرة سيميائية تحدث بين النصوص، فقد" حوى النص الجرجاني قيمًـــا مهمـــة في ميدان التناص وحقله التحليلـــي، ويتجلـــى ذلـــك في مســـألة الإنتاجيـــة (Productional) النصية، فتداخل النصوص لا يعني السرقة، لأن كل نـــص سيحتفظ بإنتاجية مستقلة عن النص الآخر، لذا فإن ما جاء به الجرجـــاني في هذا الميدان قد تمظهر في جانب المتلقي الذي يقوم باستخلاص معطيات النص وكشف تناصاته"[3]. حيث يرى عبد القاهر في ظاهرة السرقات الشعرية أو التناص بالمفهوم الحديث، ظاهرةً إيجابية تحدث بشـــكل خفـــي أو بشـــكل مباشر، إذ يتفطّن المتلقي ويدخل في عملية التحليل والتفسير للنص، ويحـــاول كشف تداخلاته مع المخزون الفكري والثقافي الذي اكتسبه عـــبر تجاربـــه.

(1) المرجع نفسه، ص 158.
(2) المرجع السابق، ص 159.
(3) المرجع نفسه، ص 160.

فحاجة البلاغة ملحة إلى الكثير من الطروحات السيميائية الحديثة كالتناص والتأويل اللّذان يتفقان مع طروحات عبد القاهر.

7- كان هناك تداخل للبناء السيميائي في كتاب "أسرار البلاغة" عن طريق "التخييل" الذي يعرض عبر كامل مباحث الكتاب، فكأن المؤلف بنى دراسته حول نقطةٍ مركزيةٍ قوامها الإبداع البلاغي عن طريق النظم وتصورات منتج الخطاب التخييلية، كما أن أي جزء من الكتاب يحيل إلى بقية الأجزاء الأخرى، فيصير عمل عبد القاهر نصًّا واحدًا لا تليق تجزئته أو فصل عناصره عن بعضها البعض، قال محمد سالم: "لقد رأى البحث أن عنوان (أسرار البلاغة) عنوانًا موجّهًا، لذا سعى البحث لكشف سر كيمياء الرابطة التي تربط فصول هذا الكتاب وبيان العلاقة فيما بينها..."[1]. فعبد القاهر كان متمسكًا بمفهوم النظم والنسق والقدرة على الجمع بين العناصر، وكشف الوشائج التي تجمعها، وكان عمله متّسمًا بالشمول والتماسك الذي يفضي إلى طبع كتابه بخصائص العلم.

*** سيمياء التأويل لـ رشيد الإدريسي**

8- كانت مقامات الحريري غنية دلاليًا، ولها من القدرات والخبايا ما جادت به تأويلات رشيد الإدريسي، الذي قال: "... النص القديم ما زال في مكنته الظهور بأكثر من وجه، والتحدث بمعانٍ مختلفة، يكفي فقط السمو إلى مستواه، وتنشيطه بالأمثلة التي بواسطتها يملأ البياض وتجلى أحد وجوه النص الممكنة، وهو ما يدفع التهم التي ألصقت بنصوص الحريري خاصة، وينزع عنها تلك النظرة التنقيصية التي أشاعها -بحسن أو سوء نية- أولئك الذين رأوا فيها أدبًا يتحدث ولا يقول شيئًا، يتلفظ ولا يعني"[2]. فالإدريسي كان يسعى لدفع التهم التي رأت أن مقامات الحريري جوفاء دلاليًا وأدبيًا، فقد تجلى من تحليلاته السيميائية لذلك النص العمق المعنوي، عبر قدرة عبارات

(1) المرجع السابق، ص 162.

(2) رشيد الإدريسي، سيمياء التأويل، ص 270.

المقامات على حمل الإشارات التي تفضي إلى فضاء من التناص الثقافي، كما يمكن الخروج بعشرات من النصوص للمقامة الواحدة، فهي لا تعطي معانيها بسهولة إلاّ إذا رُبطت بسياقها التاريخي والثقافي العربي الواسع، من أساطير، وأمثال، وحكم، وقرآن كريم، وغيرها من الأدوات التي تستجيب لها المقامات، لأنه لقاء بين الخطاب البلاغي العربي والسيمياء الحديثة؛ ما يدعم الفصلين السابقين حول العلاقة التي تجمع البلاغة بالسيمياء وتحليل الخطاب.

9- استطاع الإدريسي دراسة المقدمة الحريرية سيميائيا، بعدما كان يُظَن أن المقدمة ليس فيها ما يُدرس، ولا تحوي سردًا عبر بنياتها النصية، قال: "وقد توصلنا كذلك في تحليلنا للمقدمة إلى أن هذه الأخيرة، وإن كانت تقدم نفسها للقارئ باعتبارها خطابًا مباشرًا، فإنها مع ذلك لا تخلو من مكونات وعناصر سردية تجعلها أكثر إقناعًا وأشد دفاعًا، وهذا ليس بغريب في خطاب مقدماتي لصيق بأدب حكائي تخييلي..."[1]. فلقد أثبت الإدريسي وجود صراع خفي يسري عبر المقدمة، بين الحريري الذي يدافع عن مقاماته وبين خصومه الرافضين لها، وبين من يساندون ويدعمون الحريري ويثنون عليه، وهوما يعكس إثباتا للسردية الحكائية للمقدمة الحريرية.

10- كان هناك تقاطعٌ وتشاركٌ بين المقدمة الحريرية والمقامات المعروضة بعدها، حيث كشف الإدريسي هذا التقاطع، ومن بين: "النتائج الأخرى التي أوصلنا إليها التحليل هي ارتباط المقدمة بالمقامات ارتباطًا وثيقًا، وتقاطعهما على مستوى الدفاع الذي وجدناه أكثر جلاء في المقدمة وأكثر خفاءً في المقامات، بل أكثر من ذلك توصلنا إلى أن المقامة البصرية ما هي إلاّ مقدّمةً أخرى صيغت صياغةً سردية لتكون أكثر إقناعا وتذكيرًا..."[2]. فالظاهرة السردية السيميائية كانت تسري عبر كامل المقامات البلاغية الحريرية، وقد قدّم الإدريسي الأدلة على ذلك مثلما رأينا، فمظاهر الصراع مثلما وُجدت

---

(1) المرجع السابق، ص 270.

(2) المرجع نفسه، ص 271.

في المقدمة الحريرية، وُجِدت كذلك عن طريق المقارنة والتحليل عبر المقامتين العُمانية والبصرية.

11- كان الإدريسي متّسِمًا بالانفتاح الدلالي في توظيف الآليات التي يستنطق بها المقامات الحريرية، فإضافةً إلى نموذجِ إيكو، كان لا يتورع في توظيف مفاهيم أخرى تدعم التحليل السيميائي، وكان الإدريسي دائم التساؤل، ما الوسائل الكفيلة بتفجير القدرات الدلالية للنص؟ قال: "لقد استعنّا أثناء عملية تحليلنا بطائفة من المفاهيم التي بلورها إيكو، إلاّ أن ذلك لم يمنعنا من التوسل بمفاهيم نماذج تحليلية أخرى، وتلك خاصية من خصائص نموذج إيكو في انفتاحه على أحسن ما عند الآخرين، والاستفادة منه وتطويره وإغنائه، ويبقى لنا مع ذلك أن نشير إلى قضية مهمة بإمكانها أن تزيد في تعميق نموذج إيكو وتجعله أكثر مردودية في التحليل، ألا وهي قضية السؤال"(1). ولذلك كان الإدريسي دائم التساؤل عن طرق تشكل الدلالات عبر الفواعل والعوامل.

12- لقد أثبت الإدريسي من خلال كتابه أن السيمياء منهجٌ مناسب لاستنطاق الموروث الأدبي والبلاغي العربي، وتعتبر المقامات الحريرية أحد العناصر الهامة ضمن هذا الموروث، فعمله بحق يعد نقطة التقاء بين القديم والحديث، بين البلاغة والسيمياء، ما يؤدي بنا إلى الاقتناع بأن التقارب البلاغي العربي والسيمياء أمرٌ لابدّ منه، لكي نفيد ونستفيد.

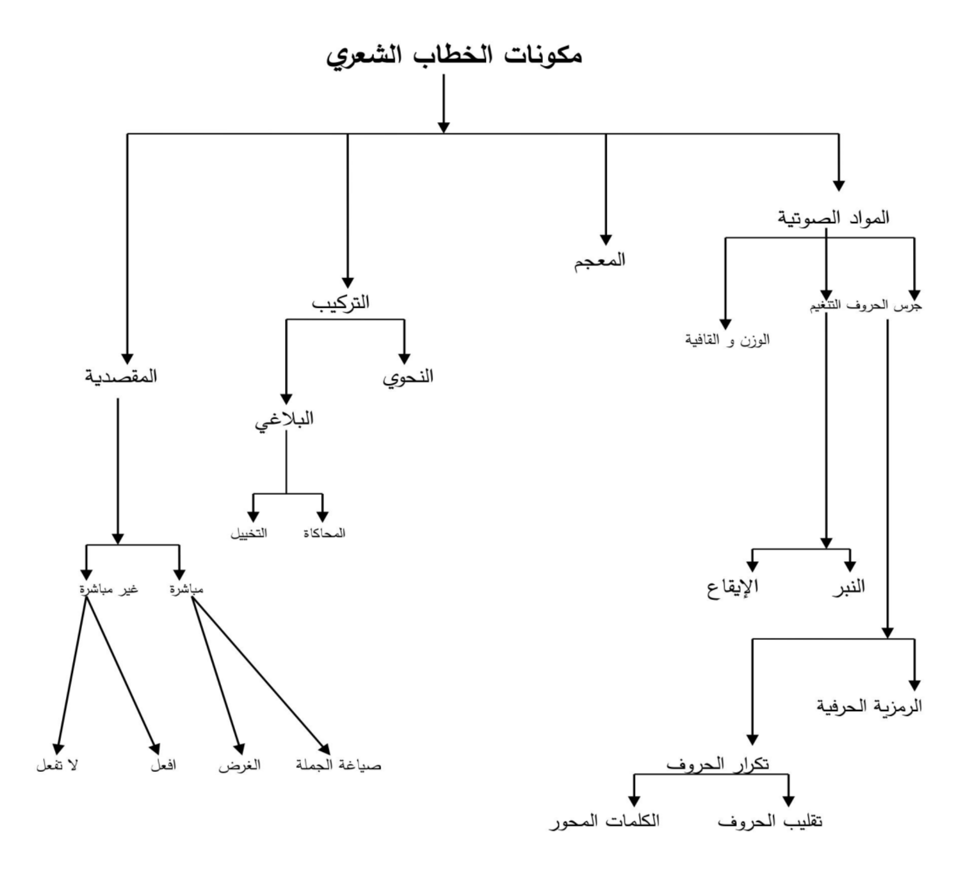
* كتاب "في سيمياء الشعر القديم" لـ محمد مفتاح

13- وظّف محمد مفتاح المعطيات البلاغية القديمة، بالموازاة مع المعطيات اللسانية الحديثة، فاستطاع أن يحقق الانسجام فيما بينهما، واتسمت طريقته في دراسة الخطاب الشعري بمقاربة كل مكون من مكونات بنية القصيدة الشكلية والمعنوية، حيث يمكن تلخيص مكونات الخطاب الشعري بالمشجر التالي:(2)

---

(1) المرجع السابق، ص 273، 274.

(2) محمد مفتاح، في سيمياء الشعر القديم، ص 28.



مخطط توضيحي يبين بنية الخطاب الشعري

ولقد فصّلنا سابقًا في مختلف العناصر التي ينبني عليها هذا المخطط، وهو ما اجتهد مفتاح في إنشائه بناءً على تصوره الدقيق لبنية القصيدة العربية القديمة، وكذا اضطلاعه بالجمع بين معطيات البلاغة القديمة ومستجدّات تحليل الخطاب وعلوم اللسان، فاستحدث بذلك نموذجًا عربيًّا لدراسة الشعر العربي القديم، وكشفِ معانيه الخفية التي يجلّيها اتباع تحليل العناصر السابقة، فتصير القصيدة مجالاً خصبًا للاشتغال السيميائي، وتحصيل المعاني والدلالات. وبهذا استطاع مفتاح أن يحدث لقاء مثمرا بين آراء البلاغة العربية في مقاربة الخطاب الشعري، وهو ما رأيناه في الفصل الثاني من أن البلاغة العربية تطرح موقفها من كل قضية تحليلية خطابية، حيث يمكن لها أن ترتقي إلى المستوى العلمي الذي ينبني عليه حقل تحليل الخطاب.

14- يبدو من خلال العمل الذي قام به مفتاح أنه استطاع أن يجمع بين معطيات متعددة لتحليل القصيدة، تبدو لغير المطلع كيانا قد لا يجتمع في التحليل؛ حيث عمد إلى التحليل اللساني، عبر البلاغة العربية القديمة، موظفا كذلك أفكار الدارسين العرب المحدثين والذين اشتغلوا على القصيدة العربية، ناهيك عن استثمار مبادئ التداولية الحديثة لدراسة مقاصد القصيدة وأغراضها. فاستحدث بذلك نموذجًا فريدًا لدراسة الشعر وتوضيح معانيه الخفية.

خاتمة

يمكننا أن نجمل نتائج بحثنا فيما يأتي:

أولا: النتائج العامة

- لا يمكن للعلوم المعاصرة أن تستقل أو تنفلت عن إرهاصات الدراسات القديمة لأنّها حلقة علمية تثبت اللقاح بين المعارف وصيرورتها عند الغرب والعرب.
- لابد من الانطلاق في أي دراسة من مسلمة بحثية، تتأسس وفق ضرورة تفادي الإسقاطات العلمية المفرطة، أي عدم تكثيف المعلومات وإقحامها دون أن تكون ذات أسس علمية مضبوطة – فلا يجب أن يتحمل طرحنا مالا يطيق.

ثانيا: النتائج الخاصة

- أثبتت الدراسات التي انطلقنا منها في بحثنا مدى استيعاب المناهج المعاصرة للمفاهيم والأسس البلاغية لاسيما السيمياء وتحليل الخطاب، من خلال ما ورد في البيان العربي.
- لا يمكن التقليل من شأن المنطق في توجيه الدراسات سواء الغربية أم العربية، القديمة منها أم المعاصرة.
- تحوي البلاغة منطقا دلائليا خاصا، تستجيب له أنساق السيمياء، سواء عبر الأفكار التي شكلت إرهاصا للدلائليات مجتمعة أم السيمياء عند المحدثين، من خلال المكامن البيانية الاستعارية، وتمثلاتها المختلفة والتي اهتم واعتنى بها العرب لما لها من أهمية في توجيه المدلولات عند معظم الباحثين الذين توقفنا عندهم (أفلاطون، أرسطو، الجاحظ، أبي هلال العسكري، ابن حزم الأندلسي، عبد القاهر الجرجاني، الراغب الأصفهاني، حازم القرطاجني، يحي بن حمزة العلوي، علي بن محمد الشريف الجرجاني، ومحمد علي التهانوي...

- لقد شكل الحجاج محطة علمية ذات أهمية بالغة، منذ اهتمامات أرسطو إلى "شايم بيرلمان" الذي درس البلاغة الكلاسيكية اليونانية، ما أعطى لبلاغة اليونان أبعادا هامة في تحليل الخطاب وفي الدرس السيميائي على السواء.
- شكلت الصورة بكل معالمها البيانية، حلقة وصل بين البلاغة والسيمياء، من خلال الأيقونات خاصة عند بورس وإيكو، ما شكّل دعامة أساسية لبحثنا استنادا لجملة من الدراسات التي قدمها الدارسون المحدثون من أمثال؛ محمد الولي، فرانسوا مورو، دانيال تشاندلر؛ والذين يحسب لهم الجهد والفضل في مقاربة الاتصال بين مجهودات الدارسين القدامى والمحدثين من خلال عناصر **البيان،** فالتشابه الموجود في الصور البيانية – على سبيل المثال – يجعلها تدخل في تصنيف بورس للعلامة، وكذا أعمال إيكو النقدية.
- للبلاغة العامة حضورها في بحثنا، وذلك من خلال طواعيتها للتموقع ضمن المناهج المعاصرة عبر جميع اللغات. وقد رأينا في بحثنا أن البلاغة القديمة تتلاءم مع مناهج معاصرة عدّة، كما أنها تعالج كل الصور البيانية بلا استثناء، مع تكيفها مع التفسير السيميائي للصور عبر تقسيمات العلامة.
- للتداولية (والحجاج) أصولهما الفلسفية عند كل من الغرب والعرب على حدٍّ سواء.
- هناك تقاربٌ وثيقٌ بين البلاغة والأسلوبية، بحيث يمكن لهذين المجالين تبادل الكثير من المواقف، حيث لا يمكن للأسلوبية أن تستغني عن البلاغة.
- لتقسيم العلامة عند بورس موقعه في مقاربة الدراسات الدلالية عند العرب القدامى.
- تمثل البلاغة إرهاصًا لحقل تحليل الخطاب المعاصر.
- تبيّن لنا بعد ما تقدم وفي ضوء الدراسات التي قام بها الدارسون بأن البلاغة قد عادت لتقحم نفسها في عدة تساؤلات تطرحها مجموعة من الحقول المعرفية، ما يجعل بحثنا خطوة في غمار المقاربات التي تشمل البلاغة العربية بالدرس والتحليل، قصد بيان فاعليتها ضمن العلوم والدراسات المعاصرة، والتي تبقى خطوة ضمن مجموع خطوات أخرى نرجو أن تضيف شيئا للبحث العلمي.

مصادر ومراجع

مصادر ومراجع

أ) مصادر:

- **القرآن الكريم**.
- **أبو إسحاق إبراهيم الشيرازي، شرح اللمع**، ج2، تح: عبد المجيد تركـــي، دار الغرب الإسلامي، ط1، لبنان، 1988م.
- **أبو الوليد الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج**، تح: عبد المجيد تركـــي، دار الغرب الإسلامي، ط2، لبنان، 1987م.
- **أبو محمد القاسم السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البـــديع**، تح: علال الغازي، مكتبة المعارف، ط1، الرباط، 1980م.
- **أبو نصر الفارابـــي، كتاب الحروف**، مكتبـــة المصـــطفى الالكترونيـــة. www.al-mostafa.com
- **أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين**، الكتابة والشـــعر، تـــح: أحمـــد ناجي الجمالي، محمد الأمين خانجي الكتبـــــي، ط1، الأســـتانة العلميـــة، 1319هـــ.
- **أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم**، تح: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ط2، لبنان، 1987م.
- **أرسطو، الخطابة**، تح وتع: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، لبنان، 1979.
- //، **فن الشعر**، تر وتع: إبراهيم حمادة، مكتبة الأنجلومصرية.
- **ابن المعتز، كتاب البديع**، تح: إغناطيوس كراتشقوفســـكي، دار المســـيرة، ط3، بيروت، 1982.
- **ابن حزم الأندلسي، التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفـــاظ العاميـــة والأمثلة الفقهية**، تح: أحمد فريد المزيري، دار الكتب العلمية، لبنان.

- **ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون**، ج: 02، تح: عبد الله محمد الــدرويش، ط1، سورية، 2004م.
- **ابن رشد، تلخيص الخطابة**، تح: محمد سليم سالم، لجنــة إحيــاء التــراث الإسلامي، القاهرة 1967م.
- //، **فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال**، تح: محمد عمارة، دار المعارف، ط3، القاهرة.
- **ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة**، دار الكتب العلمية، ط1، لبنان، 1982م.
- **ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر**، تح: عباس عبــد الســاتر، دار الكتــب العلمية، ط2، لبنان، 2005م.
- **الجاحظ، البيان والتبيين**، (**الكتاب الثاني**)، تح: عبد السلام محمد هــارون، (ج: 1، 2، 3، 4)، مكتبة الخانجي، ط7، القاهرة، 1998م.
- //، **كتاب الحيوان**، ج1، تح وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط2، 1965م.
- //، **العثمانية**، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، ط1، 1991م.
- **الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع**، دار الكتب العلمية، بيروت.
- //، **الإيضاح في علوم البلاغة**، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، ط3، المكتبــة الأزهرية للتراث، 1993م.
- //، **تلخيص المفتاح**، تح: سليم نصر الله داغر، بيروت، 1306هـــ.
- **الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن**، ج1، مكتبة نزار مصطفى الباز.
- **القطب التحتاني، لوامع الأسرار في شرح مطالع الأنوار**، جامعة الملك ســعود للمخطوطات، 766م/10هـــ. **Copiright c King saoud University**
- **بدر الدين الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه**، ج1، تح: عبد القــادر عبد الله العاني، دار الصفوة للطباعة والنشر، ط2، الكويت، 1992م.
- **بدر الدين بن مالك، المصباح في المعاني والبيان والبديع**، تح: حسني عبــد الجليل يوسف، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز، ط1، 1989م.

- **حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، 1966م.
- **شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء**، تح: صالح السمر، ج11، مؤسسة الرسالة، ط11، لبنان، 1996م.
- **ضياء الدين ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ج2، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، مصر، 1939م.
- **عبد القاهر الجرجاني، كتاب أسرار البلاغة، تح**: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، ط1، 1991م.
- //، **دلائل الإعجاز**، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، مطبعة المدني.
- //، **كتاب دلائل الإعجاز في علم المعاني**، تح: محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1988م.
- **فخر الدين الرازي، الإيجاز في دراية الإعجاز**، تح: نصر الله حاجي، دار صادر، ط1، بيروت، 2004م.
- **قدامة بن جعفر البغدادي، نقد النثر**، دار الكتب العلمية، لبنان، 1980م.
- **يحي بن حمزة العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، (ج1، ج2، ج3)، دار الكتب الخديوية، مصر، 1336هـ.

ب) مراجع:

ب1) مراجع بالعربية:

- **أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العرب الزاهرة**، ج2، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط1، القاهرة، 1933م.
- //، **جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة**، المكتبة العلمية، ج2، لبنان.
- **أحمد عبد العزيز درّاج، الاتجاهات المعاصرة في تطور دراسة العلوم اللغوية**، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية، 2003م.

- **أحمد مختار عمر، علم الدلالة**، عالم الكتب، ط 05، القاهرة، 1998م.
- **أحمد يوسف، الدلالات المفتوحة، مقاربة سيميائية في فلسـفة العلامـة**، منشورات الاختلاف، ط1 الدار البيضاء، 2005م.
- **إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر**، مكتبة الأنجلومصرية، ط2، مصر، 1952م.
- **حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب**، أسسه وتطـوره إلى القـرن السادس، منشورات كلية الآداب منوبة، ط2، تونس.
- **حمادي صمود وآخرون، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربيـة مـن أرسطو إلى اليوم**، نشر كلية الآداب منوبة، **مجلد XXXIX**، تونس.
- **خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات**، دار القصبة للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 2006.
- **رشيد الإدريسي، سيمياء التأويل**، الحريري بين العبارة والإشارة، شـركة النشر والتوزيع -المدارس-، ط1، الدار البيضاء، 2000م.
- **سعيد بنكراد، السميائيات السردية، مدخل نظري**، منشورات الزمن، الدار البيضاء، 2001م.
- **شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ**، دار المعارف، ط9، القاهرة، 1995م.
- **صابر الحباشة، التداولية والحجاج، مداخل ونصوص**، صفحات للدراسات والنشر، ط1، سورية 2008م.
- **صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص**، عالم المعرفة، الكويت، 1992م.
- //، **علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته**، دار الشروق، ط1، القاهرة، 1998م.
- **عادل فاخوري، علم الدلالة عند العرب، دراسة مقارنة مـع السـيمياء الحديثة**، دار الطليعة، ط2، بيروت، 1994م.
- //، **تيارات في السيمياء**، دار الطليعة للطباعـة والنشـر، ط1، بـيروت، 1990م.
- **عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب**، الدار العربية للكتاب، ط3.
- **عبد العزيز عبد المعطي عرفة، من بلاغة النظم العربـي**، عـالم الكتـب، ط2، بيروت، 1984م.

- **عبد الله حسن المسلمي، أفلاطون، محاورة منكسينوس أو عـــن الخطابـــة،** منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب، ط1، 1972م.
- **عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطـــاب، مقاربـــة لغويـــة تداولية،** دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، لبنان 2004م.
- **عصام خلف كامل، الاتجاه السيميولوجي ونقد الشعر،** دار فرحة للنشـــر والتوزيع.
- **علي محسن جمجوم، السيميوطيقا ومشكلات الفلسفة،** مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.
- **كمال أبو ديب، في البنية الإيقاعية للشعر العربـــي،** دار العلم للملايـــين، ط1، بيروت، 1974م.
- **لطفي عبد البديع، التركيب اللغوي لـــلأدب، بحـــث في فلســـفة اللغـــة والاستيطيقا،** دار المريخ للنشر، الرياض.
- **مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة،** دار الفكر، 1981م.
- **محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي،** مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، أفريقيا الشرق، ط2، المغرب، 2002م.
- **محمد الولي، الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية،** منشـــورات دار الأمان، ط1، الرباط، 2005م.
- //، **الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي النقدي،** المركز الثقافي العربـــي، ط1، الدار البيضاء، 1990م.
- **محمد سالم سعد الله، مملكة النص، التحليل السيميائي للنقـــد البلاغـــي – الجرجاني نموذجا–،** عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن، 2007م.
- **محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية،** الشركة المصرية العالميـــة للنشـــر، لونجمان، ط1، القاهرة، 1994م.
- **محمد فكري الجزار، سيميوطيقا التشبيه، من البلاغة إلى الشعرية،** نفـــرو للنشر والتوزيع، ط1، مصر، 2007م.
- **محمد مفتاح، التشابه والاختلاف،** المركز الثقافي العربـــي، المغرب.

- //، **في سيمياء الشعر القديم، -دراسة نظرية وتطبيقية-**، دار الثقافة للنشـــر والتوزيع، الدار البيضاء، 1989م.
- **محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصـــر**، دار المعرفـــة الجامعية، مصر، 2002م.
- **مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظـــاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربـــي**، دار الطليعة، ط1، بـــيروت، 2005م.
- **منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب**، مركز الإنمـــاء الحضـــاري، ط1، 2002م.
- //، **العلاماتية وعلم النص**، المركـــز الثقـــافي العربـــــي، ط1، المغـــرب، 2004م.
- **يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية**، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر.

ب2) مراجع مترجمة

- **أمبيرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية**، تر: ســـعيد بنكـــراد، المركز الثقافي العربـــي، ط2، الدار البيضاء، 2004م.
- //، **العلامة، تحليل المفهوم وتاريخه**، تر: سعيد بنكـــراد، المركـــز الثقـــافي العربـــي، ط1، الدار البيضاء، 2007م.
- **آن روبول، جاك موشلار، التداولية اليوم، علم جديد في التواصل**، تـــر: سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعـــة، ط1، لبنان، 2003م.
- **برنار توسان، ما هي السيميولوجيا**، تر: محمد نظيف، أفريقيا الشرق، ط2، المغرب، 2000م.
- **بول ريكور، نظرية التأويل**، الخطاب وفائض المعنى، تر: ســـعيد الغـــانمي، المركز الثقافي العربـــي، ط2، الدار البيضاء، 2006م.

- **بول كوبلي، ليتسا جانز، علم العلامات**، تر: جمال الجزيري، مراجعة: إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005م.
- **بيير جيرو، الأسلوبية**، تر: منذر عياشي، مركز النمـــاء الحضـــاري، ط2، سورية، 1994م.
- **جوليا كريسطيفا، علم النص**، تر: فريد الزاهي، دار توبقال للنشـــر، ط2، الدار البيضاء، 1997م.
- **دنيال تشاندلر، أسس السيميائية**، تر: طلال وهبة، مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة، ط1، لبنان.
- **رولان بارط، درس السيميولوجيا**، تر: عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، ط3، الدار البيضاء، 1993م.
- **رومان جاكبسون، قضايا الشعرية**، تر: محمد الولي، مبـــارك حنـــون، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء، 1988م.
- **فرانسوا مورو، البلاغة: المدخل لدراسة الصور البيانية**، تر: محمد الـــولي، عائشة جرير، أفريقيا الشرق، المغرب، 2003م.
- **فردينان دي سوسور، علم اللغة العام**، تر: يوئيل يوسف عزيز، مراجعـــة: مالك يوسف المطلبـــي، دار آفاق عربية، بغداد، 1985م.
- **فيليب بروتون، جيل جوتييه، تاريخ نظريات الحجاج**، تر: محمـــد صـــالح ناجي الغامدي، مركز النشر العلمي، ط1، جامعة الملك عبد العزيز، المملكة العربية السعودية، 2011م.
- **فيليب بلانشيه، التداولية، من أوستن إلى غوفمان**، تر: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، سورية، 2007م.
- **مجموعة مو، بحث في العلامة المرئية، من أجل بلاغة الصورة**، تر: سمر محمد سعد، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2012م.
- **ميكائيل ريفاتير، معايير تحليل الأسلوب**، تر: حميد لحمـــداني، منشـــورات دراسات سال، ط1، الدار البيضاء، 1993م.

ب3) مراجع بالأجنبية:

- **Dominique Maigueneau, L' analyse du discours,** Hachette supérieur, France.
- **F, Steingass, The assemblies of hariri,**Student's edition of arabic text, London, 1897.

جـ) معاجم:

ج1) معاجم قديمة:

- **أبو البقاء الكفوي، الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغويـــة،** إع: عدنان درويش، محمد المُصري، مؤسسة الرسالة، ط2، لبنان، 1998م.
- **أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية،** تح: محمد إبراهيم سليم، دار العلـــم والثقافة، القاهرة.
- **ابن منظور، لسان العرب،** دار صادر، (ج 1، 2، 11، 12).
- **الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن،** تح: مركـــز الدراســـات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، ج1، مكتبة نزار مصطفى الباز.
- **صديق بن حسن القنوجي، أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيـــان أحـــوال العلوم،** إعداد: عبد الجبار زكار، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1978م.
- **علي بن محمد الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات،** مكتبة لبنان، لبنـــان، 1985م.
- **محمد علي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم،** تـــح: رفيـــق العجم، علي دحروج، ط1، مكتبة لبنان، لبنان، 1996م.

ج2) معاجم حديثة مترجمة وبالعربية:

- **أوزوالد ديكرو، ماري شايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان،** تر: منذر عياشي، المركز الثقافي العربـــي.
- **باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب،** تر: عبد القـــادر المهيري، حمادي صمود، المركز الوطني للترجمة، دار سيناترا، تونس، 2008م.

- **جاك موشلر، آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية**، تر: مجموعة من الأساتذة والباحثين، إشراف: عز الدين المجدوب، دار سيناترا، تونس، 2010م.
- **دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب**، تر: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2008م.
- **فيصل الأحمر، معجم السيميائيات**، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2010م.
- **ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي**، المركز الثقافي العربي، ط3، المغرب، 2003م.

ج3) معاجم باللغة الأجنبية:

- Algidas Julian Greimas, joseph courtes, Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Hachette Supérieur, 2009.
- Oswald ducrot, Tzevetan Todorov, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Ed du seuil, Paris, 1972.

د) دوريات:

- مجلة أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، العدد 07، جامعة بسكرة، 2011م.
- مجلة أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، العدد 09، جامعة بسكرة، 2013م.
- أشغال الملتقى الدولي الثالث في تحليل الخطاب، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة.
- أشغال الملتقى الدولي الثالث في تحليل الخطاب، جامعة قاصدي مرباح بورقلة، مجلة الأثر (عدد خاص).
- أعمال مؤتمر فيلادلفيا الدولي الثاني عشر، أفريل 2007م، الأردن.
- أعمال الملتقى الدولي الثالث السيمياء والنص الأدبي، جامعة بسكرة. 2004م.
- أعمال ندوة الدراسات البلاغية، الواقع والمأمول، الرياض، 1432هـ.
- أعمال ندوة المخبر، اللسانيات: مائة عام من الممارسة، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر.

- مجلة البصائر، مجلة علمية محكمة، المجلد 13، العدد 02، آذار 2010م، جامعة البترا، الأردن.
- مجلة التراث العربـــي، العدد: 91، دمشق، 2003م.
- مجلة التراث العربـــي، العدد: 91، دمشق، 2003م.
- المجلة الجامعة، العدد الخامس عشر، المجلد الثالث، ليبيا، 2013م.
- مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلـــد: 05، العـــدد 03، أكتوبر 2008م.
- مجلة الحجاز العالمية، العدد: 05، نوفمبر 2013م.
- مجلة دراسات أدبية ولسانية، العدد: 06، ربيع 1987م، المغرب.
- مجلة سمات Semat، المجلد: 02، العدد: 01، جانفي 2014م.
- مجلة عالم الفكر، المجلد 20، العدد الثالث، الكويت، 1989م.
- مجلة عالم الفكر، المجلد الرابع والعشرون، العدد الثالث، الكويت، مارس 1996م.
- مجلة علامات، العدد 16، 1998م.
- مجلة علامات، العدد 21، المغرب، 2004م.
- مجلة علامات، العدد: 28، المغرب، 2007م.
- مجلة علوم إنسانية، السنة الخامسة، العدد: 35، هولندا، خريف 2007م.
- مجلة الفتح، العدد السابع والعشرون، جامعة ديالى بالعراق، 2006م.
- مجلة كلية التربية، العدد: 04، الجامعة المستنصرية، 2007م.
- منشورات مخبر تحليل الخطاب، العدد: 03، نشر دار الأمل، تيزي وزو، ماي 2008م.

هـ) أطروحات:

عايدة حوشي

- **نظام التواصل السيميولساني في كتاب الحيوان للجاحظ، حسب نظريـــة بورس، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم، جامعة فرحات عباس سطيف، 2009/2008م.**

و) مواقع إلكترونية:

- www.adab.com
- www.alkazem.forumfreez.com
- www.alowaisnet.org
- www.arab-ency.com
- www.ar.wikipedia.org
- www.dar-alifta.org
- www.alhelmia.123.st
- www.ektab.com
- www.kfip.org
- www.saidbengrad.net
- www.squ.edu.om
- www.uemnet.free.fr

ثبت المصطلحات

مقابله بالإنجليزية	مقابله بالفرنسية	المصطلح
Stylistic	Stylistique	أسلوبية
Epistemological	Epistémologique	أصولي
Icon	Icône	أيقونة
Induction	Induction	استقراء
Persuasion	Persuasion	إقناع
Gap	Ecart	انزياح
Choerence	Cohérence	انسجام
Performative	Performatif	إنشائي
Consistency	Cohésion	اتساق
Inference	Inférence	استدلال
Metaphor	Métaphore	استعارة
Arbitrary	Arbitraire	اعتباطية
Rhetoric	Rhétorique	بلاغة
Structural	Structural	بنيوية
Interpretation	Interprétation	تأويل
Analysis	Analyse	تحليل
Pragmatics	Pragmatique	تداولية
Heritage	Patrimoine	تراث
Syntagm	Syntagme	تركيب
Comparison	Comparaison	تشبيه
Connotation	Connotation	تضمين
Interaction	Interaction	تفاعل

المصطلح	مقابله بالفرنسية	مقابله بالإنجليزية
تفسير	Explication	Explanation
تناص	Intertextualité	Intertextuality
تنغيم	Intonation	Intonation
جدل	Dialectique	Dialectic
جملة	Phrase	Sentence
حجاج	Argumentation	Argumentation
حقل	Domaine	Field
خبري	Déclaratif	Declarative
خطاب	Discours	Discours
خيال	Imagination	Imagination
دال	Signifiant	Signifier
دلالة	Signification	Signification
ذهني	Mentaliste	Mentalist
رمز	Symbole	Symbol
سمة	Séme	Sows
سياق	Contexte	Context
سيمياء	Sémiotique	Semiotics
شعرية	Poétique	Poetic
شيفرة	Code	Code
صورة	Figure	Image
علامة	Signe	Sign
علم الدلالة	Sémantique	Semantics
عمق	Profondeur	Depth
عمل لغوي	Acte de langage	Speech act
قول	Enoncé	utterance
قياس	Analogie	Analogy
كلام	Parole	Talk

المصطلح	مقابله بالفرنسية	مقابله بالإنجليزية
كناية	Métonymie	Metonymy
لسانيات	Linguistique	Linguistics
مؤشر	Index	Index
مجاز	Métaphore	Metaphor
مجاز مرسل	Métonymie	Synecdoche
محادثة	Conversation	Conversation
محاكاة	Mimique	Mimicry
مخاطِب	Locuteur	Speaker
مخاطَب	Interlocuteur	Interlocutor
مدلول	Signifié	Signified
مربع سيميائي	Carré Sémiotique	Semiotic Square
مرجع	Référent	Referent
مرسل	Emetteur	Sender
مرسل إليه	Destinataire	Receiver
معنى	Sens	Meaning
معنى مجازي	Teneur	Content
معياري	Normatif	Normative
مقاربة	Approche	Approch
ممثل	Représentant	Representative
منطق	Logique	Logic
مواضعة	Convention	Convention
نبر	Accent	Accent
نص	Texte	Text
نظام	Système	System
وجود	Existence	Existence

التعريف بأهم الأعلام

1) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (159هـ/255هـ

هو: "العلامة المتبحر، ذو الفنون، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصري المعتزلي صاحب التصانيف. أخذ عن النظّام. قال ابنُ زبرٍ: مات سنة خمسين ومئتين، وقال الصولي: مات سنة خمس وخمسين ومئتين. قلت: كان من بحور العلم، وتصانيفه كثيرةٌ جدًّا. قيل: لم يقع بيده كتابٌ قط إلاّ استوفى قراءته، حتى إنّه كان يكتري دكاكين الكُتْبيِّين، ويبيت فيها للمطالعة، وكان باقعةً (داهية) في قوة الحفظ. وله كتابُ (الحيوان) سبع مجلدات، وأضاف إليه كتاب (النساء) وهو فرق ما بين الذكر والأنثى، وكتاب (البِغال) وقد أُضيف إليه كتاب سموه كتاب (الجمال). ليس من كلام الجاحظ ولا يقاربُهُ. كما قيل للجاحظ: كيف حالك؟ قال: يتكلم الوزيرُ برأيي، وصِلاتُ الخليفة متواترةٌ إلي، وآكل من الطير أسمنها، وألبس من الثياب ألينها وأنا صابرٌ حتى يأتي الله بالفرج. قيل: بل الفرج ما أنت فيه. قال: بل أحبُّ أن أَلِيَ الخلافة... وكتب الجاحظ كثيرة جدًّا: منها (الرد على أصحاب الإلهام) و(الرد على المشبهة) و(الرد على النصارى)، (الطفيلية)، (فضائل الترك)، (الرد على اليهود)، (الوعيد) (الحجة والنبوة)، (المعلمين)، (البلدان)، (حانوت العطار)، (ذم الزنى)... قلتُ: كفانا الجاحظ المؤونة، فما روى من الحديث إلاّ النزرَ اليسير، ولا هو بمتّهم في الحديث، بلى في النفس من حكاياته ولهجته، فربما جازف، وتلطّخه بغير بدعة أمر واضح، ولكنه أخباريٌّ علاّمة، صاحب فنون وأدب باهر، وذكاء بيّن، عفا الله عنه"[1].

---

(1) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح: صالح السّمر، ج11، مؤسسة الرسالة، ط11، لبنان، 1996م، ص 526، 530.(بتصرف)

2) أحمد يوسف (مولود عام 1960م):

"ولد أحمد يوسف في 01 أفريل 1960م، بعين البرد بولاية سيدي بلعباس (الجزائر) وكان ميدان بحثه الأكاديمي: السيميائيات وتحليل الخطاب، بجامعة السانية بوهران. درس مختلف الأطوار الابتدائي والمتوسط والثانوي بولاية سيدي بلعباس، ثم أنهى دراسته الجامعية بالمدرسة العليا لأساتذة التعليم بجامعة وهران، ثم تكوّن في الدراسات العليا الجامعة نفسها. وقد نال شهادة الدكتوراه (واحدة في الفلسفة وثانية في الآداب) بجامعة **ستراسبورغ** بفرنسا. كمل شغل عدة مناصب ووظائف قبل أن يتم تثبيته أستاذا مساعدا بجامعة وهران، إلى أن تم ترقيته إلى أستاذ محاضر ثم أستاذا للتعليم العالي. وله العديد من الأبحاث المنشورة في المجلات العلمية المحكمة والكتب، فاقت 25 بحثا. كما شارك في العديد من المؤتمرات وتم نشر أبحاثه. وله العديد من الكتب فاقت 12 كتابًا. من أهمها: السيميائيات الواصفة، الدلالات المفتوحة، سيميائيات التواصل وفعالية الحوار، السلالة الشعرية في الجزائر، وغيرها من الكتب. كان عضوا محكما في العديد من المجلات العلمية المحكمة. وأشرف على العديد من الأطروحات ورسائل الدكتوراه والماجستير"[1].

3) أرسطو (Aristote) (384ق م/322 ق م):

"ولد أرسطو... في أسطاغيرا، وكانت مدينة أيونية قديمة على بحر إيجة في الشمال الشرقي من شبه جزيرة خلقيدية في تراقية على حدود مقدونية... وكانت أسرته معروفة بالطب كابرًا عن كابر... ولما بلغ الثامنة عشرة قدم أثينا ليستكمل علمه، فدخل الأكاديمية، وما لبث أن امتاز بين أقرانه فسماه أفلاطون (العقل) لذكائه الخارق و(القراء) لاطلاعه الواسع، ثم أقامه معلما للخطابة فيما يقال. ولزم أرسطو الأكاديمية عشرين سنة، أي إلى وفاة صاحبها"[2]. كان

(1) www.Squ.edu.om

(2) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، ص 141.

أرسطو" من أعظم فلاسفة عصره وأكثرهم علما ومعرفة ويقدر ما أصدر من كتابات بـ 400 مؤلف ما بين كتاب وفصول صغيرة. عرف بالعلمية والواقعي، يعرف أرسطو الفلسفة بمصطلحات الجواهر (Essence)، فيعرفها قائلا أنها علم الجوهر الكلي لكل ما هو واقعي... فأرسطو يجد الكلي في الأشياء الواقعية الموجودة في حين يجد أفلاطون الكلي مستقلا بعيدا عن الأشياء المادية"[1]، ومع مطلع القرن الأول للميلاد" بدأ الاهتمام يتزايد بالفلسفة الأرسطية التي وقع استرجاعها حينئذ لأجل الاعتماد عليها في التوفيق بين العقل وتعاليم الدين المسيحي. وكأن الأرسطية هنا هي الدعامة الفلسفية والعقلية التي تسند مزاعم الفلسفة السكولاستيكية (فلسفة القرون الوسطى) في التوفيق بين العقل والإيمان، ويتجلى ذلك خاصة مع القدّيس أوغسطين والقديس توماس الإكويني. على أنه لا يمكن إنكار الدور الأساسي الذي قام به الفلاسفة المسلمون العرب في التعريف بفلسفة المعلم الأول الذي وقعت ترجمة جل أعماله إلى اللغة العربية"[2].

4) أفلاطون (Platon) (428ق م/347 ق م):

"أفلاطون Plato أو Platon فيلسوف يوناني، ولد في أثينا وتوفي فيها عن عمر يناهز الثمانين عاما، ينتمي إلى أسرة أرستقراطية، إذ ينحدر أبوه أرسطون من كودرس آخر ملوك أثينا... ويعد أفلاطون من أشهر فلاسفة اليونان القديمة، إلى جانب معلمه سقراط وتلميذه أرسطو. وممن تركوا أثرا عميقا في تاريخ الفلسفة وفي تاريخ الفكر السياسي. كما يعتبر مؤسس الأكاديمية التي ابتناها في أحد أطراف أثينة عام 387 ق.م معبدًا لربات الشعر... وأقام فيها أفلاطون يعلم الناس على طريقة أستاذه سقراط ولا يطلب من أحد أجرًا. واصطفى من بين تلاميذه ثمانية وعشرين تلميذاً كان يذهب بهم في بعض الأحيان إلى منزله، وفيهم أرسطو، وقد غلب على مؤلفات أفلاطون طابع (المحاورة) الذي ورثه

(1) www.elhelmia.123.st

(2) www.alkazem.forumfreez.com

عن أستاذه سقراط. ويسهل تعرف أسلوبه التربوي في محاوراته الزاخرة بجميع الآراء والمناقشات التي كانت تدور في أثناء الدروس، وقد زخرت هذه المؤلفات بصورة نابضة من جميع فروع المعرفة...

لقد أثرت فكرة (المدينة الفاضلة) في الفكر العربي الإسلامي، وأول من كتب في هذا الموضوع أبو نصر الفارابي (339هـ/950م) إلاّ أنه وظّف المفهوم الأفلاطوني في سياق إسلامي بحت، قدم له في كتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة) بمقدمات كلامية مستفيضة... أما أفكار أفلاطون عن الله والخلق فظلت تخضع لتأثير الأساطير البابلية والنظريات الفيثاغورية. وهو يعتقد بأن الله خالق الأرض والسماء بما فيها من نجوم وكواكب، وأنه خلق الأشياء من المادة على شاكلة الصور الهندسية. وقد تبنى الفلاسفة العرب المسلمون نظرية الخلق الأفلاطونية (علم النشأة)..."[1].

5) أمبيرتو إيكو Emberto Eco (ولد عام 1932م):

"أمبيرتو إيكو": "فيلسوف إيطالي، وروائي وباحث... ولد في 5 يناير 1932م ويُعرف بروايته الشهيرة **اسم الوردة**، ومقالاته العديدة وهو أحد أهم النقاد الدلاليين في العالم. لقد وُلد إيكو في مدينة ألساندريا بإقليم بييمونتي، وكان أبوه جوليو محاسبا قبل أن تستدعيه الحكومة للخدمة في ثلاث حروب... انتقلت أم أومبرتو جيوفانا مع ابنها إلى قرية صغيرة في حيد بييمونتي الجبلي. وقد كان أبوه ابنا لعائلة فيها ثلاثة عشر ابنا آخرين، وحاول دفعه لأن يصبح محاميا، غير أنه انتسب إلى جامعة مورينو لدراسة فلسفة القرون الوسطى والأدب. كتب أطروحته حول توما الأكويني، وحصل على دكتوراه في الفلسفة في 1954م، وخلال هذا الوقت هجر إيكو الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بعد أزمة إيمان. وقد عمل محررا ثقافيا للتلفزيون والإذاعة الفرنسية، وحاضر في جامعة تورينو. كما صادق مجموعة من الرسامين والموسيقيين والكتاب في الإذاعة والتلفزيون الفرنسيين الأمر الذي أثر على مهنته ككاتب

(1) www.arab-ency.com

فيما بعد، خصوصا بعد نشر كتابه الأول (مشكلة الجمال)... الـــذي كـــان توسعةً لأطروحة الدكتوراه خاصته. في سبتمبر 1962م تزوج ريناتي رامـــج، رسامة ألمانية"[1].

6) ابن منظور (630هـ/711هـ):

"ولد ابن منظور في القاهرة، وقيـــل في طـــرابلس في شـــهر المحـــرم ســـنة 630هـــ/1232م. كانت حياته حياة جد وعمل موصول، كان عالما في الفقه مما أهّله لتولي منصب القضاء في طرابلس، كما عمل فترة طويلـــة في ديـــوان الإنشاء، وكان عالما في اللغة ويشهد له هذا الكتاب الفريد (لسان العـــرب)، وقد جمع فيه بين التهذيب والمحكم والصحاح والجمهرة والنهايـــة وحاشـــية الصحاح جوّده ما شاء، ورتبه ترتيب الصحاح وهو كبير، وكان من أفضـــل علماء عصره في المعارف الكونية، فهو بحق مفخرة من المفـــاخر الخالـــدة في التراث العربـــي. وسمع من ابن المقير ومرتضى بن حاتم وعبد الـــرحيم بـــن الطفيل ويوسف بن المخيلي وغيرهم، وعمّر، وكبر، وحدّث فأكثروا عنـــه، وكان مغزى باختصار كتب الأدب المطوّلة، اختصر الأغاني والعِقد والذخيرة ونشوان المحاضرة ومفردات ابن البيطار والتواريخ الكبار وكان لا يمـــل مـــن ذلك. وله العديد من المؤلفات منها: معجم لسان العرب، مختصر تاريخ بغداد، مختصر الحيوان (للجاحظ)، مختصر يتيمة الدهر للثعالبـــي. تـــوفي في مصـــر (القاهرة) سنة (711هـــ/1211م)"[2].

7) حازم القرطاجني (608. 684هـ/1211. 1285م):

هو: "... أديب من العلماء وله شعر. ولد بقرطاجنة في الأندلس وتـــوفي في تونس، كان أبوه من سرقسطة وشغل وظيفة قاضٍ في مدينة مرســـية. انتقـــل حازم إلى شمالي إفريقية قبل سقوط الأندلس وقضى الشطر الأكبر من حياتـــه العلمية بتونس. تلقى القرطاجني علومه الأولى عن والده، وعلى طبقـــة مـــن

(1) www.ar.wikipedia.org

(2) www.adab.com

شيوخ عصره وعلمائه، وتنقل في طلب العلم فأخذ عن طائفة من العلماء منهم عمر بن محمد الشلوبين (ت 645هـ) إمام نحاة المغرب... صنف القرطاجني مجموعة من الكتب منها: قصيدته (المقصورة في النحو) وهي أرجوزة جعلها الشاعر في ألف وستة أبيات... وله أيضا (شد الزيّار على جحفلة الحمار) وهو في الرد على ابن عصفور في كتابه (المقرب) وكتابا (التجنيس) و(القوافي)... أما كتابه (منهاج البلغاء وسراج الأدباء) وهو من أهم مصنفاته وأشهرها، فيعد آخر سلسلة الكتب التي تأثرت بأرسطو وآرائه تأثرا مباشرا، ونقل فيه عن ابن سينا وكثير من سابقيه من النقاد والبلاغيين العرب... كما كان حازم القرطاجني ملتقى الروافد العربية واليونانية، وهو الناقد الذي أحس بضياع النقد والشعر، ويتصف منهجه النقدي بالشمولية والسعي الدائم إلى مبدأ الوحدة في منبع الشعر العربي وأغراضه... وقد لخّص السيوطي منزلة القرطاجني لدى القدماء بقوله: (إنّه شيخ البلاغة والأدب)"[1].

8) سعيد بنكراد:

هو: "أستاذ السيميائيات بكلية الآداب، جامعة محمد الخامس أكدال، بالرباط (المغرب)، وهو المدير المسؤول لمجلة علامات التي صدر عددها الأول سنة 1994م، وهي مجلة متخصصة في الدراسات السميائية. له أعمال كثيرة، منها: - أكثر من 24 كتابا منها: سيرورات التأويل، من الهرمسية إلى السميائيات، أومبيرتو إيكو: العلامة: تحليل المفهوم وتاريخه، السميائيات والتأويل، مدخل إلى سيميائيات شارل سندرس بورس، السميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها. وغيرها من الكتب.- أكثر من 19 مقالا منشورا في مجلات محكمة.- وأكثر من عشر مقالات مترجمة منشورة في مجلات علمية محكمة معروفة"[2].

(1) www.arab-ency.com

(2) www.saidbengrad.net

9) شارل سندرس بورس Charles sanders peirce (1839/1914م):

هو"... سيميائي وفيلسوف أمريكي، ولد في 10 سبتمبر 1839م وتوفي في 19 أفريل 1914م. يعد مؤسس الظاهراتية. كما يعتبر إلى جانب فرديناند دي سوسير أحد مؤسسي السيميائيات المعاصرة. في العقود الأخيرة أُعيد اكتشاف فكره بحيث صار أحد كبار المجددين خصوصًا في منهجية البحث وفلسفة العلوم. وُلد بيرس في كامبردج بولاية مساسوشتس. كان أبوه أستاذ في علم الفلك والرياضيات بجامعة هارفارد، وعلى الرغم من أنه حصل على شهادة في الكيمياء، فإنه لم يفلح قط في امتلاك مكانة علمية بناء على لقبه الأكاديمي، خصوصا أنه كان شخصية صعبة المراس. اشتغل محاضرا في المنطق بين 1879م و1884م بجامعة جون هوبكنز. وفي عام 1887م انتقل مع زوجته الثانية إلى بنسلفانيا حيث بقي إلى أن توفي عام 1914م بسبب سرطان بعد 26 سنة من الاشتغال الغزير بالكتابة. نشر كتابا واحدا (بحوث في القياس الضوئي عام 1878م)، وأشرف على نشر مجموعة أعمال بعنوان (دراسات في المنطق) عام 1883م، كما نشر مجموعة كبيرة من الدراسات في عدة صحف تهتم بعدد من مجالات البحث. وتضم مخطوطاته التي بقي جزء كبير منها غير منشور، أكثر من 80000 صفحة. وبين 1931م و1958م اختيرت نخبة من مكتوباته فنشرت مرتبة على مباحث بعنوان (أوراق مختارة لشارل ساندز بيرس)"[1].

10) عادل فاخوري:

هو" من مواليد سنة 1939م بــ **صور** بلبنان، تابع دراسته في جامعات روما وفرايبورغ وأرلنغن نورنبرغ بألمانيا، ثم درس بالسوربون بفرنسا في الفلسفة والرياضيات وعلم النفس، تحصل على الدكتوراه (P h d) من ألمانيا، ودكتوراه (Lettres) من فرنسا. قام بالتدريس في مجموعة من الجامعات وهي: الجامعات: اللبنانية، اليسوعية، الأردنية، الليبية، الكويتية. ويتقن مجموعة من اللغات: العربية، الفرنسية، الإنجليزية، الألمانية، الإيطالية، اللاتينية واليونانية

(1) www.wikipedia.org

القديمة... قام بتدريس مجموعة من المواد: المنطق الرياضي، فلسفة العلوم، فلسفة الذهن، الذكاء الاصطناعي، فلسفة اللغة، والسيمياء... وله العديد من المقالات والكتب. ومن أهم كتبه: المنطق الرياضي، علم الدلالة عند العرب، منطق العرب من وجهة نظر المنطق الحديث، تيارات في السيمياء، الرسالة الرمزية في أصول الفقه، وغيرها من الكتب"[1].

11) عبد القاهر الجرجاني (471/400هـ):

هو"... نحوي ومتكلم وُلد في جرجان لأسرة رقيقة الحال، نشأ ولوعًا بالعلم، محبًّا للثقافة، فأقبل على الكتب يلتهمها وخاصّةً كتب النحو والأدب. أخذ العلم عن أبي الحسين محمد الفارسي ابن أخت الشيخ أبي علي الفارسي، كما أخذ الأدب على يد القاضي الجرجاني وقرأ كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه... تتلمذ عبد القاهر على آثار الشيوخ والعلماء الذين أنجبتهم العربية، فنحن نراه في كتبه ينقل عن سيبويه والجاحظ وأبي علي الفارسي وابن قتيبة، وقدامة بن جعفر، والآمدي، والقاضي الجرجاني، وأبو هلال العسكري... وغيرهم من العلماء. كما يعتبر مؤسس علم البلاغة، أو أحد المؤسسين لهذا العلم، ويعد كتاباه: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة من أهم الكتب التي ألفت في هذا المجال... كما ألّف العديد من الكتب، وله رسالة في إعجاز القرآن بعنوان: (الرسالة الشافية في إعجاز القرآن)... وهو من أفضل ما كتب في الإعجاز نفى فيها الجرجاني القول **بالصرفة**"[2]. وقد كان"... عبد القاهر -رحمه الله- من أكابر النحويين والبلاغيين وقد تصدر جرجان وذاع صيته وشدت إليه الرحال وقصده الطلاب يقرؤون عليه ويأخذون عنه وظل مقيما في بلدته يفيد الراحلين إليه والوافدين عليه، وكان إلى جانب علمه عظيم الخلق ورعا تقيا... قال عنه الباخرزي وهو معاصر له: وقد اتفقت على إمامته الألسنة وتجملت بمكانه وزمانه الأزمنة والأمكنة، وأثنى

(1) www.ektab.com

(2) www.wikipedia.org

عليه طيب العناصر وثنيت به عقود الخناصر، فهو فرد في علمه الغزير، بل هو العلم الفرد في الأئمة المشاهير..."[1].

12) فيرديناند دي سوسير Ferdinand de saussure (1857- 1913م):

"ولد فرديناند دي سوسير في جنيف بسويسرا يوم 26 نوفمبر 1857م، والتحق بجامعتها عام 1875م ليتخصص في دراسة الفيزياء واختلف بين الحين والآخر إلى حلقات البحث في النحو الإغريقي واللاتيني، وقد شجعته هذه البحوث على قطع دراسته ومغادرته إلى جامعة ليبرغ ليتخصص في اللغات الهندوأوربية. بعد11سنة (1887م) أصدر أول كتاب له في اللغات وهو كتاب (النظام الصوتي في اللغات الهندوأوربية القديمة). وبعد أربع سنوات أصبح عضوا في الجمعية الألسنية الفرنسية، وعند عودته إلى جنيف شغل كرسي أستاذ اللغات لسنوات طويلة، قدم فيها سلسلة من المحاضرات نُشرت بعد وفاته، وقد طبع تلاميذه الكتاب بعناية سنة 1916م؛ أي بعد وفاته بثلاث سنوات، وقد تُرجم إلى العربية بعنوان: محاضرات في الألسنية. يعد دي سوسير عالم لغويات ومؤسس المدرسة البنوية في اللسانيات، فهو من أشهر علماء اللغة في العصر الحديث، حيث اتجه تفكيره نحو دراسة اللغات دراسة وصفية باعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية... يعد سوسير-الأب الروحي للبنوية- إذ لم يكن منكرا لقيمة الدراسة التاريخية، ولكنه رأى أن الدراسة التاريخية للظواهر اللغوية يجب أن تأتي تابعة لدراسة اللغة باعتبارها نظاما مستقلا بفترة زمنية معينة وجماعة بشرية معينة، فمعرفة النظام يجب أن تسبق معرفة التغيرات التي تطرأ عليه... ويرى أنه يجب أن يستقل الأدب بموضوعه ومنهجه. وجاء المنهج البنوي ليدرس الأدب، وكان صاحب الفضل في ذلك للعالم دي سوسير الذي أسهم بكتابه: دروس في علم اللغة العام، في تطور النظرية البنوية فيما بعد"[2].

---

(1) www.dar-alifta.org

(2) سعادة لعلى، "سوسير سيرة ومسيرة"، ندوة المخبر، اللسانيات: مائة عام من الممارسة، جامعة محمد خيضر ببسكرة، الجزائر.

13) محمد العمري (ولد عام 1945م):

"ولد البروفيسور محمد عبد الله العمري سنة 1364هـ/1945م، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن وبعض المتون على يد والده قبل أن يلتحق بالتعليم النظامي غداة استقلال المغرب. وقد حصل على شهادة الدراسات المعمقة، ودبلوم الدراسات العليا ودكتوراه الدولة في الأدب العربي من جامعة محمد الخامس في الرباط، وقد عمل أستاذاً للبلاغة وتحليل الخطاب والنقد الأدبي في كليتي الآداب بفاس والرباط، كما عمل في جامعة الملك سعود بالرياض لمدة سنة. وقد أشرف على ثلاث وحدات للبحث والتأطير في مستوى الدراسات العليا والدكتوراه في جامعة محمد بن عبد الله بفاس وجامعة محمد الخامس في الرباط... انصبّت جهود البروفيسور العمري على قراءة البلاغة العربية القديمة قراءةً نقديةً نسقيةً، مع السعي إلى توظيفها في بناء بلاغة جديدة تستوعب كل أنواع الخطاب المؤثر. وقد استرشد في ذلك بالدراسات الغربية الحديثة التي خاضت التجربة نفسها من قبل. ونقل إلى العربية (بمشاركة محمد الولي) كتاب: بنية اللغة الشعرية، لجان كوهن. ودراسة هانريش بليث: البلاغة والأسلوبية. كما قام بتحقيق ودراسة كتاب من أهم كتب البلاغة التطبيقية، وهو كتاب المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل لمحمد الإفراني المراكشي... وله كذلك العديد من الكتب مثل: البلاغة العربية، أصولها، وامتداداتها. والبلاغة الجديدة بين التخييل والتداول... وقد كتب العديد من المقالات العلمية اللغوية والأدبية... وأشرف على تنظيم المؤتمرات الأدبية أو شارك فيها. كما مُنح البروفيسور محمد عبد الله العمري الجائزة (بالاشتراك) جائزة الملك فيصل العالمية؛ تقديرًا لجهوده في دراسة البلاغة العربية وما يتصل بمفهوم النص ودراسته، ووظائف البلاغة والخطابة العربيتين قديما وحديثا مفيدا من الدراسات اللغوية والأسلوبية المعاصرة"[1].

(1) www.kfip.org

14) محمد الولي (ولد عام 1949م):

"ولد في 4 ماي 1949م بالناظور، تابع دراسته العليا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، حيث حصل على الإجازة في الأدب العربي سنة 1974م، ثم على دبلوم الدراسات العليا في أكتوبر 1986م. يشتغل أستاذا جامعيا بكلية الآداب بمكناس (المغرب). وقد انضم إلى اتحاد كتاب المغرب في 14 سبتمبر 1990م. كما يتوزع إنتاجه بين الترجمة والدراسة في مجال البلاغة والشعر. وقد نشر أعماله بعدة منابر: مجلة كلية الآداب (فاس)، بصمات... كما ساهم في تحرير مجلة (دراسات أدبية ولسانية) وجريدة (الحوار الأكاديمي والجامعي). لمحمد الولي كتب منها: الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي. كما ساهم في أعمال الترجمة الآتية: بنية اللغة الشعرية لجان كوهن، والاتجاهات السيميولوجية المعاصرة لـ: مارسيلو داسكال، وقضايا الشعرية لـ رومان جاكبسون، والبلاغة: المدخل لدراسة الصور البيانية لـ فرانسوا مورو"[1].

15) محمد مفتاح (ولد عام 1942م):

"ولد بالدار البيضاء عام 1942م وتحصل على البكالوريا عام 1963م، ثم تحصل على الإجازة في الآداب سنة 1966م، ثم شهادة الدروس الأدبية واللغوية المقارنة. تابع دراسته فتحصل على دبلوم الدراسات العليا سنة 1974م، ثم بعد ذلك نال شهادة دكتوراه دولة في الآداب عام 1981م. اشتغل أستاذا للدراسات الأدبية والنقدية بكلية الآداب بالرباط. له أحد عشر مؤلفا. وأنجز حول بعض تلك المؤلفات رسائل وأطروحات، وأنجز دراسات ومقالات في عدة مجلات مشرقية ومغربية... يعمل أستاذا محكما لدى عدة جامعات، وعضو تحرير مجلة كلية الآداب بالرباط، كما أنه عضو في مجلات ومراكز بحث علمية. تحصل على عدة جوائز منها: جائزة الدراسات الأدبية والنقدية لمؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية، وجائزة المغرب الكبرى للكتاب سنة 1987م، وجائزة المغرب للكتاب كذلك سنة 1994م. له العديد من المؤلفات

---

(1) www.uemnet.free.fr

نذكر منها: في سيمياء الشعر القديم، تحليل الخطاب الشعري، النص من القراءة إلى التنظير، التلقي والتأويل وغيرها من الكتب"[1].

16) يحي بن حمزة العلوي (669، 749هـ/1270، 1348م):

"ترجح الروايات أنه ولد في مدينة صنعاء لأسرة كريمة مشهورة بالعلم، موصوفة بالزهد والتقوى. نشأ في هذه المدينة، وفيها حفظ القرآن، وتلقى العلم على يد علماء عصره وهو لا يزال صغيرا، وتبحر في جميع العلوم حتى فاق في هذا الميدان أقرانه، ثم انتقل إلى مدينة **حوث** حيث تابع فيها دراسته في مختلف فنون المعارف. ترك العلوي بعد حياة علمية حافلة بالنشاط آثارا كثيرة، حتى قيل إن عدد كراريس تصانيفه زادت على عدد أيام عمره... حتى شملت فروعا من المعرفة، منها: البلاغة والفقه، والفلسفة والمنطق وعلم الكلام، والتصوف والزهد، والنحو. وقد أعجب المؤرخون بعلمه وخلقه وأدبه. له العديد من المؤلفات المخطوطة مثل: (الاختيارات المؤيدية) و(التحقيق في أدلة الإكفار والتفسيق) و(التمهيد لأدلة مسائل التوحيد) وله في النحو (المحصل في كشف أسرار المفصل)... ولعل أهم مصنفاته وأشهرها كتاب (الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز) الذي يعد من أبرز الموسوعات التي ألفت في البلاغة لغزارة مادته، وثراء موضوعاته، وحسن تنظيمه، وكثرة شواهده. ويعد **كتاب الطراز** من خيرة كتب البلاغة في القرن الثامن الهجري، لأن مؤلفه استطاع أن يتجاوز طابع عصره وسماته في إلقاء التلخيصات أو وضع الشروح والحواشي، وقد اختار لنفسه منهجا مزج فيه بين الطريقة الأدبية التي تعنى بالدراسة والتحليل والإكثار من الشواهد، وطريقة المدرسة الكلامية التي تعتمد على وضع الأصول والقواعد والأحكام...

ترجح الروايات أن الإمام العلوي توفي في حصن هران، ثم نقل إلى ذمار حيث دفن فيها وقبره مشهور موجود بمسجد عماد الدين جوار الجامع الكبير"[2].

---

(1) www.alowaisnet.org

(2) www.arab-ency.com

ملخص

شغلت **البلاغة** اليونانية والعربية القديمة حيزا هاما ضمن حقلي اللغة والأدب، حيث حازت على أهمية كبيرة شجعتنا على إنجاز هذه الدراسة **عبر** إفادة **المناهج الخطابية** الحديثة والمعاصرة (**السيمياء والأسلوبية والتداولية**...) **منها مركزين بشكل خاص على البلاغة العربية القديمة**، إذ حفزتنا على ذلك جملة **اللقاحات** التي أثبتها **الباحثون المحدثون** بين النتاج **البلاغي والسيمياء وتحليل الخطاب**، والتي أخذت منحى توسّعيًا يومًا بعد يوم. حيث حاولنا الإفادة من **البلاغة العربية القديمة** في ضوء ما تقدمه من أطروحات لم تخل منها **المقاربات الخطابية** الحديثة، والتي ما فتئت تقدم مجالاً خصبًا **للبلاغة** لكي تعبر عن **أنساقها من خلاله**.

Résumé:

La Rhétorique ancienne (Grecque et l'Arabe) a pris un grand statut au sein des champs de la langue et la littérature ancienne voire moderne. Et pour cela, nous avons décidé de réaliser une étude qui concerne **La Rhétorique arabe ancienne** et le témoignage qu'elle occupe dans **Les méthodes du discours** modernes et contemporaines de **La sémiotique, et le Stylistique, la pragmatique et la poétique.** Ce sont ces liens, qui nous motive dans cette étude, et qui ont été approuvés par **les chercheurs nouvellistes** entre la production **rhétorique, la sémiotique, et l'analyse de discours** qui ont connu une large expansion. Nous avons essayé de bénéficier de **La Rhétorique arabe ancienne** et les thèses qu'elle donne et qui possède toujours **des approches du discours** modernes. Aussi, ces approches donne un terrain fertile à la **Rhétorique** pour qu'elle exprime ses **Systèmes.**

Summary

The old Rhetoric (Greek and Arabic) took a great place within the language field and ancient literature also the modern. Due to this importance, we decided to do this study which concerns **The Old Arabian Rhetoric**, and the statement that it occupies within **Speech Analyze** modern and contemporary of **Semiotics, Stylistic, Pragmatics, and Poetic.** It's these connections, that motivated us in this study, and they have been proved by **Modern researchers** between the **rhetoric** production, **Semiotics** and **Speech Methods** which knew a great expansion where we tried to benefit from **The Old Arabian Rhetoric** and the suggestions they give, and also they had always modern **Rhetoric approaches**. Moreover, these approaches gives a fertile ground for the **Rhetoric** so it can express its **Systems.**

الدرس البلاغي العربي

بين السيميائيات وتحليل الخطاب

د. لخذاري سعد

▪ باحث من الجزائر.

يشكل الدرس البلاغي العربي القديم دعامة أساسية في الموروث اللغوي والأدبي على السواء؛ حيث لا ينفك يحظى بدور بارز في توجيه الدراسات صوبه، خاصة فيما يتعلق بمدى طواعية المناهج المعاصرة لاحتوائه عبر معالم نظرية وإجرائية – ولو كانت بعيدة عن سياقه العربي –، فمعظم المناهج المعاصرة؛ مناهج غربية يصعب تتبع الأسس الدراسية العربية فيها. لكن رغم هذا، ورغبة منا للبحث في «الدرس البلاغي العربي بين السيميائيات وتحليل الخطاب» استلزم الأمر منا الانطلاقة من عدم استقلالية العلوم عن بعضها البعض قديما وحديثًا سواء عند الغرب أم العرب. بغية استكناه معالم البلاغة العربية القديمة في كل من السيمياء وتحليل الخطاب.

تهدف دراستنا إذن عبر إبراز أهمية البلاغة في المناهج المعاصرة؛ إلى مقاربة الحدود العلمية في البلاغة العربية القديمة من خلال التأسيس للآليات الإجرائية في كل من السيمياء وتحليل الخطاب، قصد التوصل إلى حدود التفكير الدلائلي في البلاغة عبر أسسها التنظيرية والإجرائية، ونحن في ذلك نحاول رصد تكيف النظريات المعاصرة مع الدرس البلاغي العربي القديم في حدود البلاغة الجديدة أو العكس، كما أننا نسعى للبحث في العلاقة التي تربط البلاغة العربية القديمة بالبلاغة الجديدة تأثّرًا أم تأثيرًا؛ و ذلك بالرغم من أن البلاغة العربية قد اُستبعدت من مجال الدراسات العلمية في فترة من الفترات، كما اتهمت بالمعيارية والذاتية في المعالجة، لكن الدراسات المتأخرة أثبتت نقيض هذه الدعوى، وقامت دراسات تُخرج من بنيان الصرح البلاغي أنساق تحليلية وتفسيرية علمية للخطاب بأبعاده المختلفة.











جميع إصداراتنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com